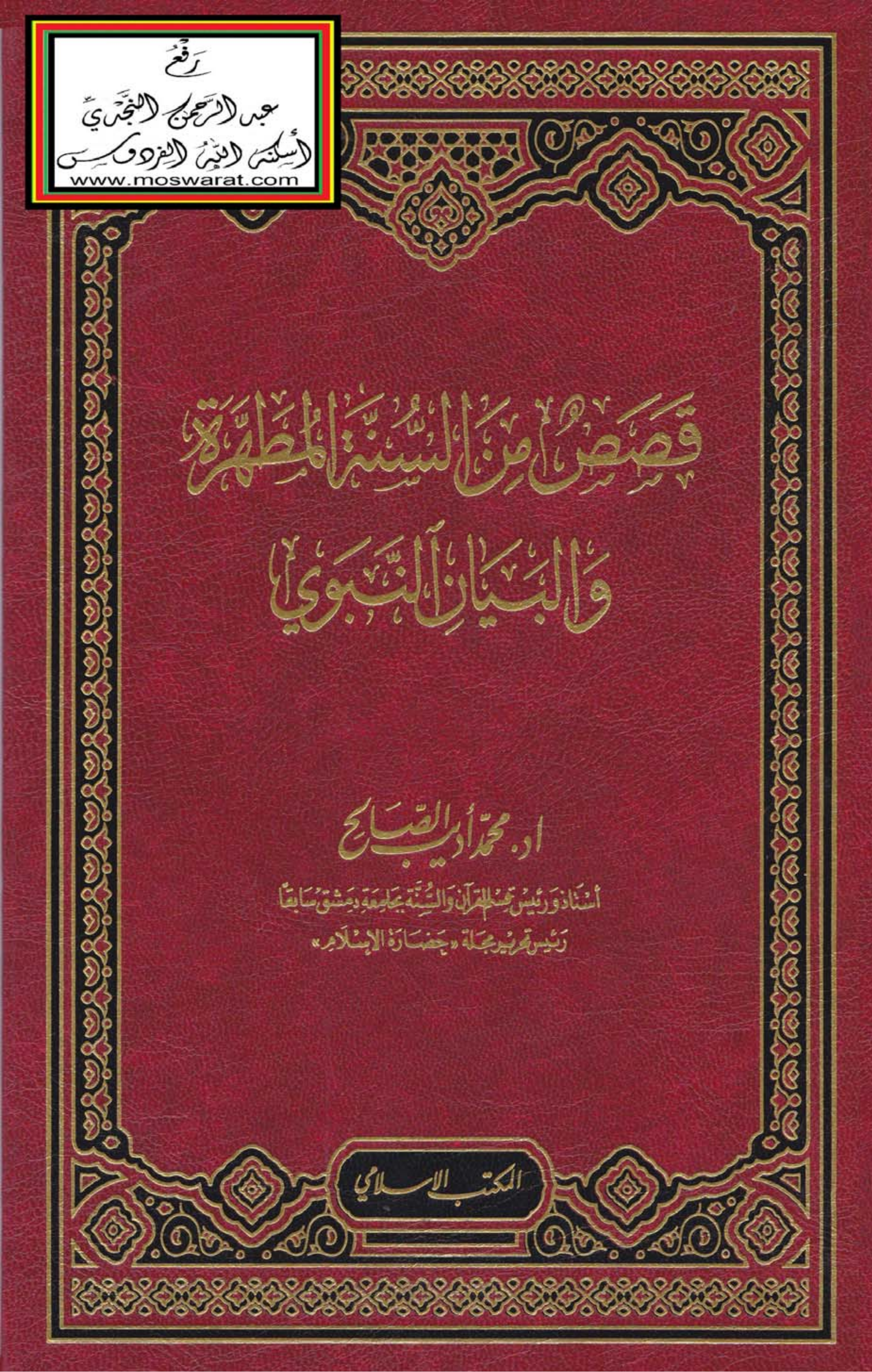

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com
قصص من السنة المطهرة
والبيان النبوي
أ.د. محمد أديب الصالح
أستاذ ورئيس قسم القرآن والسنة بجامعة دمشق سابقاً
رئيس تحرير مجلة «حضارة الإسلام»
المكتب الإسلامي

قصص من السنة المطهرة
والبيان النبوي

الطبعة الأولى
١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م

المكتب الإسلامي

بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ - هاتف : ٤٥٦٢٨٠(٠٥)

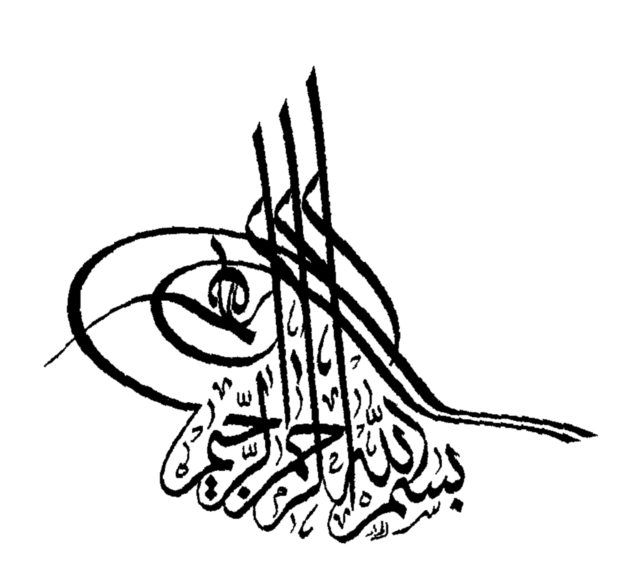
عمّان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ - هاتف : ٤٦٥٦٦٠٥

قصص من السُّنَّة المطهَّرة والبيان النبوي

أ.د. محمد أديب الصالح

أستاذ ورئيس قسم القرآن والسُّنَّة بجامعة دمشق سابقاً
رئيس تحرير مجلة «حضارة الإسلام»

المكتب الإسلامي


بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، يمن علىٰ من يشاء من عباده ويهديهم إلىٰ صراط مستقيم، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان علىٰ نبي الرحمة المبلغ عن الله ما أراد ـ فمن قبل عنه ﷺ فعن الله قبل ـ الرسول المصطفىٰ سيد ولد آدم، الذي اصطفاه الله بالرسالة الخاتمة إلىٰ الناس كافة بشيراً ونذيراً وقلّده أمانة البيان لكتابه، وأدّبه فأحسن تأديبه، وتفضل عليه بأن آتاه جوامع الكلم وفصل الخطاب، واختُصر له الكلام اختصاراً.

ومما يتجلىٰ به هٰذا الفضل العظيم، وتعطي آثارُه عطاءها في البيان علىٰ تنوع آفاقه: ما نقع عليه في «القصص في السنة النبوية» من روعة البيان وجمال الأسلوب الأخاذ والبلاغة الآسرة في الأداء، والفصاحة المنوَّرة بالسناء.

كل أولٰئك إلىٰ كونه زاخراً بالعطاء، فياضاً بالعبر والدروس علىٰ طريق الهدي المحمدي، الذي لا يفتأ يشدك إلىٰ الغايات الكبار علىٰ ساحة ما يراد للفرد والجماعة والأمة من البناء المكين، الموصل إلىٰ ما فيه السعادة في الدنيا والنجاة يوم الدين.

وتجدر الإشارة هنا إلىٰ أن: القَصص ـ بفتح القاف ـ أن يبين القاص للأخبار أحسن بيان عنها، ومنه قوله تعالىٰ في سورة يوسف: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [المائدة:٣]؛ أي: نبين لك أحسن البيان: أبدعه طريقة وأعجبه أسلوباً وأصدقه أخباراً وأجمعه حِكماً وعبراً؛ إذا حدثت به علىٰ وجهه. أما القِصص: بكسر القاف فجمع قصة.

وإذا كان الأمر كذٰلك: فعندما يدار الحديث حول ما قصه النبيُّ ﷺ مما بثّ في السنة النبوية المطهرة؛ سواء أكان ذٰلك في العصر النبوي أم في عصور خلت، مما أخبر عنه النبي ﷺ؛ عندما يدار الحديث علىٰ هٰذا السنن: ما بد

من استذكار الموقع المستنير المتميز لقصص السنة في الهدي المحمدي علىٰ طريق الدعوة الربانية والاعتبار وتبيان ما تدعو الحاجة في القصة إلىٰ تبيانه، من أحكام الإسلام وأخلاقه، وآدابه ـ وقد يكون ذٰلك بالكلمة كما يكون بالقدوة والعمل ـ وتربية الأمة تعليماً وتثقيفاً علىٰ خير نهج وأسمىٰ طريقة.

وليس ذٰلك فحسب: بل ومكان هٰذه القصص المرموق في تزكية النفوس، وإنارة العقول، والاعتبار بما جرىٰ في سالف القرون، وتنقية القلوب من كل ما يتنافىٰ مع التوحيد الخالص لله ﷻ، كيما تكون ـ علىٰ المدىٰ ـ موصولة ببارئها، مذعنة له بخالص الانقياد.. الأمر الذي يجعل الأهم في التعامل مع القصة: استلهام عطائها الهادي الذي يشرق به بيان الرسول الفذّ، عليه الصلاة والسلام، ثم ما تنطق به حركة المشاهد والتصرفات!

وهٰذه العلاقة الوثيقة بتبليغ الرسالة وبيانها وإعداد المؤمنين لتمثلها والعمل بها: جعل من القصص في السنة النبوية سلاحاً فعالاً مباركاً علىٰ طريق الدعوة وفتح مغاليق العقول والقلوب والساحة المتسعة الأرجاء لبناء الإنسان والمجتمع والأمة وفق الهدي الرباني.

ذٰلك بأنها عملت عملها ـ وما تزال ـ علىٰ مستوىٰ الإقناع والتأثير، وإحداث التفاعل القلبي والعقلي مع الكلمة الهادية المتصلة بالسماء في كتاب الله وسنة المصطفىٰ عليه الصلاة والسلام، ثم فهوم الأئمة الربانيين.

لذا كان من الأهمية بمكان ـ وبخاصة في العصر الحاضر، وحال المسلمين هي الحال ـ عرض القصة من قصص السنة النبوية الهادفة ـ وكل قصص السنة المحكوم بقبولها عند علماء الحديث هادٍ هادف ـ وتناولها بشيء من الدراسة والتحليل حسبما يتسع المقام، يكشف ـ مع التقديم والتعليق ـ عما فيها من الدروس والعبر، والتوجيه النبوي الحكيم الناطق أو المستنبط في استعلاء علىٰ قيد الزمان والمكان!

وذٰلك ما نظفر به في أرجائها المنوعة، علىٰ طريق الدعوة في المنشط والمكره والسلم والحرب، والعسر واليسر.

وإن شئت فقل: وعلىٰ طريق المهمة الميمونة البالغة السمو التي كرم الله

نبيه ﷺ بالتكليف بها وذلك على صعيد التبليغ، وتعليم الكتاب والحكمة، والتربية والتزكية، كالذي نرى في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران] وفي قوله جل شأنه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾ [الجمعة].

وقل مثل ذلك في مكرمة البيان الربانية، وهو ما نقع عليه في قوله سبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

وجماع ذلك كله ما أشرق به قوله ﷻ: ﴿... وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى].

ولا يخفى أن كون السنة بياناً للكتاب، وأنها الوحي غير المتلو ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم] وأن القصص في السنة المطهرة: هو من السنة وإليها..

كل أولئك يجعل العلاقة حسب المنطق العلمي السليم: وطيدة ـ من حيث أهدافُ الهداية وإشراق القصة بالعبر والدروس ـ بين القصص القرآني وبين القصص في السنة النبوية؛ فقد تواردت الآيات الكريمة على هذا في غير موطن من الكتاب العزيز؛ كالذي نرى في قوله تعالى في سورة (الأعراف): ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [١٧٦] وقوله في ختام سورة يوسف: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾.

وما بدَّ من الإشارة إلى أن القصة الواحدة في قصص السنة النبوية ـ طالت أو قصرت ـ قد تتحدث عن واقعة حصلت للنبي ﷺ قبل البعثة أو بعد البعثة في عصر النبوة، أو عن أمور وقعت لمن كان قبلنا، وقد تكون مخالطة للمثل أحياناً.

كما قد تؤدي دور تقريب الأمر المعنوي بأمر حسّي مشاهد ملموس، وذٰلك بنوع من أنواع البلاغة والتشبيه، ناهيك عما تتحدث به أحياناً عن المغيبات فيما كان وفيما يكون، مما أطلع الله نبيه ﷺ عليه من الغيب.

ويدخل في ذٰلك ما أخبر به النبي ﷺ بأسلوب قصصي متميز عن أشراط الساعة ـ مثلاً ـ وأخبارها ومشاهد القيامة وعظاتها! أو وصف دقيق لما أخبر به من قصص الغابرين.

وليس من مكرور القول بعد هٰذا أن نعيد إلىٰ الأذهان دفعاً لأي توهم أو التباس: أن السنة عند المحدثين هي: ما أضيف إلىٰ النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خِلقية أو خُلُقية حتىٰ لو كان ذٰلك قبل البعثة، أو أضيف إلىٰ الصحابي والتابعي عند الجمهور. والقصة من مشتمَلات هٰذا التعريف الجامع المانع بلا ريب.

ومن الأمور التي لا غناء عن توكيد التنبُّه إليها في هٰذا المقام: ما سبقت الإشارة إليه من بيان النبي ﷺ وأن هٰذا البيان الرفيع هو الركن الشديد المكين في إعطاء القصة قوة التأثير في النفوس، تلك القوة التي تقود إلىٰ الاقتناع بمضموناته ـ وهو البيان المشرق الهادي ـ وتفتح له مغاليق العقول والقلوب.

هٰذا بجانب أنه ـ فداه أبي وأمي ـ الأسوة الحسنة كما أوضح ذٰلك القرآن الكريم بقوله تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب].

وإذا كانت البلاغة مطابقة الكلام لمقتضىٰ الحال مع فصاحته: فإن هٰذا البيان النبوي المتألق هو الغاية التي تقف عندها ـ بعد كلام الله المعجز ـ كل غاية؛ وذِروة البيان النيّر المشرق في كلام البشر، بل ومنتهىٰ ما يمكن أن يصل إليه الإنسان؛ عذوبةَ نطق، وفصاحةَ لسان، وبلاغةَ أسلوب، وروعةَ أداء، وجمالَ تعبير؛ في وضع الأمور مواضعها، وإعطاء كل حالة ما يناسبها، علىٰ طريق المناصحة والتذكير، في تناسق عجيب مع مضمونات الهداية التي حملها الرسول الخاتم عليه الصلاة والسلام إلىٰ العالمين.

ولا تعجب بعد هٰذا ـ وغيره كثير ـ إذا رأيت الفضائل مجتمعة قد

توافرت لكلام خاتم النبيين المبين صلوات الله وسلامه عليه عن الله جل شأنه ما أراد، وأبصرت أنه ـ وهو المخلص الإخلاص كله ـ قد تنزه ـ بحكمة الحكيم ـ عن كل ما يمكن أن يكون عيباً في طريق الفصاحة واللسن، أو خللاً في البلاغة والأداء، بله أن يكون حائلاً دون التأثير والأخذ بمجامع القلوب.

ولعل من المفيد هنا أن نشير إلىٰ أمرين اثنين بالغي الأهمية علىٰ هٰذا الصعيد:

أولهما: أن العديد من القصص القرآني، ثم من قصص السنة النبوية، يجعل أمتنا المسلمة غير مغيبة عن التاريخ الماضي، بل لها حضور واضح في ضوء المعرفة به.

فهي تعيش كل قضية وقعت، عظمت هٰذه القضية، أو كانت دون ذٰلك، ما دام الأمر متعلقاً بالدعوة إلىٰ الله ـ وهي الدعوة المتسقة مع فطرة الإنسان كما خلقه الله ـ أو بالصراع بين الحق والباطل، وكل ما فيه تحقيق إنسانية الإنسان وكرامته.

ناهيك ـ وهو الأهم ـ عن إيضاح الصلة بين الرسل والأنبياء وهي من الخير وإليه ـ عليهم الصلاة والسلام ـ.

الثاني: أنَّا كثيراً ما نقع في قصص السنة النبوية علىٰ صور عملية في معالجة شؤون الإنسان والحياة، من سيرته ﷺ؛ وذٰلك في الحضر والسفر، والمنشط والمكره، والسلم والحرب، والعسر واليسر ـ كما جرت الإشارة من قبل ـ حيث الهداية مرفوعة الراية بالعمل مع القول، والقدوة والتوجيه، في شمول لا يدع صغيرة ولا كبيرة إلا أعطاها حقها من تلك الهداية.

وكل أولٰئك مع بيان الأحكام، مهما اختلفت مواقع الهداية عند الحاجة إلىٰ هٰذا البيان، للفقه في دين الله وتحقيق حكم الشريعة للمجتمع والدولة والأمة، وتثبيت الأعراف النظيفة في المجتمع.

ناهيك عن الدلالة النبوية النيرة علىٰ مواطن العبرة، فيما يخبر به عليه الصلاة والسلام من قصص الأولين في القرون التي خلت من قبل، وما تحمل

من دروس ترسي قواعد الهداية في حمأة الصراع مع الباطل، بل أن يكون لتلك الهداية حضور مؤثر في وزن الوقائع، حتىٰ فيما يمكن أن يقع بين صديقين أحدهما مجتهد في العبادة والآخر مسرف علىٰ نفسه، ثم ما آل إليه الأمر عند علام الغيوب الرحيم الرحمٰن ذي الجلال والإكرام.

وهٰذا يؤكد ضرورة المزيد من العناية بهٰذا اللون من البيان النبوي، لما أن القصة في هٰذا البيان ـ إلىٰ كونها من السنة ـ جزء عظيم بالغ الأهمية وافر العطاء، من سيرته عليه الصلاة والسلام، لما أن سيرته ﷺ ـ لو كانت وحدها ـ لكانت كافية في الدلالة القاطعة بأنه رسول من عند الله، صادق فيما يدعي من النبوة صلوات الله وسلامه عليه، فالاهتمام الإيماني بهٰذا الجزء العظيم ـ وكلها عظيمة ـ: خير علىٰ خير، وبخاصة علىٰ أصعدة الثقافة والتربية والسلوك!

قال الإمام ابن حزم في كتابه «جوامع السيرة»:

(إن سيرة محمد ﷺ، لمن تدبرها: تقتضي تصديقه ضرورة، وتشهد بأنه رسول الله ﷺ حقاً، فلو لم تكن له معجزة غير سيرته ﷺ لكفت)[١].

وبهٰذه الروح من الاقتناع بهٰذه الحقيقة، بل بهٰذا الأسلوب نفسه ـ كما يقول محققا الكتاب ـ كتب ابن حزم رحمه الله سيرة الرسول ﷺ، وميز بالعناية البالغة فصلين هامين منها هما:

(أعلام الرسول ﷺ) ـ أي: أعلام نبوته ـ.

(خلقه وشمائله).

وهٰذان هما الموضوعان اللذان يكررهما في كتاباته الأخرىٰ؛ لأنهما شاهدا حق علىٰ نبوة الرسول ﷺ، ولأن ثانيهما يمثل الجانب العملي في الكمال الخلقي[٢].

* * *

---

(١) «جوامع السيرة» لابن حزم: ص٦، تحقيق: د. إحسان عباس رحمه الله، ود. ناصر الدين الأسد.

(٢) المصدر السابق: ص٧.

ثم أما بعد: فإني أسأل الله الكريم المنان الذي أعان علىٰ إنجاز الصفحات القادمات (ومردها في أصولها إلىٰ مذاعات سبقت) المزدانة بزمرة مباركة من قصص السنة النبوية التي هي من السنة وإليها والمصحوبة بالقدر المناسب ـ إن شاء الله ـ من التقديم والتعليق والدراسة علىٰ وجه العموم، مضموماً ذٰلك إلىٰ ما سبقها من الكلام علىٰ البلاغة النبوية وسمو بيانه عليه الصلاة والسلام.. أسأله تعالىٰ ـ بعد حمده وشكره علىٰ توفيقه ـ أن يجعل ذٰلك في حيز القبول عنده، وأن يغفر ما يكون من زلة أوتقصير، وهو المحمود ـ جل شأنه ـ علىٰ كل حال.

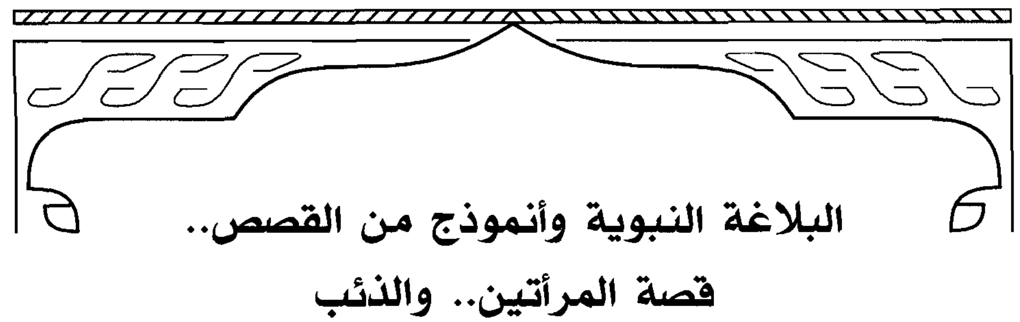
كما أرجو أن ينفع قارئ ما قدمت، كما نفع سامعه، وأن يجعل من ذٰلك باباً مباركاً إلىٰ كل ما هو انتفاع ببيانه عليه الصلاة والسلام، قصة كان ذٰلك ـ بما تحمل هٰذه القصة من الهداية ودروس الاعتبار ـ أو غيرها. لما أنه ﷺ هو المبين عن ربه ما أراد.

وصلاة الله تعالىٰ وأزكىٰ تسليماته علىٰ من أنقذنا الله به من الهلكة، وجعلنا في خير أمة أخرجت للناس وعلىٰ آله الطيبين الطاهرين وصحابته الغر الميامين، ومن اهتدىٰ بهديه وجاهد في سبيل الله إلىٰ يوم الدين.

١٣ صفر ١٤٣٢

محمد أديب الصالح


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



البلاغة النبوية وأنموذج من القصص..
قصة المرأتين.. والذئب

علىٰ هدي ما تنطق به الحقائق ـ كما سنرىٰ ـ عن بلاغة النبي ﷺ وسمو بيانه الرفيع وفي الطريق إلىٰ اصطحاب زمرة مباركة من «القصص في السنة النبوية» بغية الانتفاع بما تزدان به من التميز البياني الفائق: ستكون لنا وقفات لا طول فيها، نستشرف من خلالها شيئاً من بلاغة من أوتي جوامع الكلم عليه الصلاة والسلام، واختصر له الكلام اختصاراً، ومن أسلوبه المتميز الناطق بالرفعة والسمو.

وهٰذا ما قاد إلىٰ البدء بتقديم أنموذج لذٰلك القصص المشرق بألوان الهداية، المضمخ بعبير التألق البياني، في بلاغة قوامها مطابقة الكلام لمقتضىٰ الحال، وفصاحة نيّرة لا تغادر ذٰلك الكلام بحال.

وقد رأيت ـ دون تردد ـ أخذاً بمبدأ التدرج: أن يكون هٰذا الأنموذج الذي يراد له أن يكون بمثابة صوة منصوبة في طريق ما يأتي من القصص: قصة أخبر النبي ﷺ: أنها وقعت أيام داود وسليمان عليهما السلام. وهي قصة قصيرة مثيرة بلغ من وجازة ألفاظها وقصر مبناها: أن تكون أقصوصة في عرف أهل الأدب!! غير أنها ـ في واقع الحال ومع ما تشرق به البلاغة النبوية التي من بعض وجوهها الإيجاز غير المخلّ ـ: وافرة المعاني، مزدانة بالدقيق الدقيق من العبرة والدرس.

وتراها، ويصحب القول الوجيز فيها: صورة من أبدع الصور لجماله ودقة التعبير به، من حيث روعة الأداء وعدم الجفوة بين الكلام وبين مقتضىٰ الحال، ناهيك عن التناغم الواضح بين المعاني والألفاظ.

وكل أولـٰئك قد بدا في أسلوب يشعرك باقتناع لا يحتمل اللبس: أن مخاطبة القلب والعقل، ناهيك عن الفطرة والعاطفة والحس الإنساني منه ـ ﷺ ـ بحسبان.

وإليكم القصة:

أخرج البخاري ومسلم وأحمد والنسائي ـ واللفظ لمسلم ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**بينما امرأتان معهما ابناهما، جاء الذئب فذهب بابن إحداهما: فقالت هـٰذه لصاحبتها: إنما ذهب بابنك أنت، وقالت الأخرىٰ: إنما ذهب بابنك، فتحاكمتا إلىٰ داود، فقضىٰ به للكبرىٰ، فخرجتا علىٰ سليمان بن داود** عليهما السلام**، فأخبرتاه، فقال: ائتوني بالسكين أشقه بينكما. فقالت الصغرىٰ: لا، يرحمك الله** ـ وعند البخاري: **لا تفعل يرحمك الله ـ هو ابنها، فقضىٰ به للصغرىٰ**».

قال أبو هريرة: والله إن سمعت بالسكين ـ أي: ما سمعت ـ قطُّ إلا يومئذ ما كنا نقول إلا المُدية[1].

ولنا عودة إلىٰ هـٰذه القصة فيما سيأتي إن شاء الله علىٰ ساحة الدراسة والتقديم والتعليق.



---

(١) انظر: «صحيح البخاري» مع «فتح الباري»: ٦/٤٥٨ رقم (٣٤٢٧) الأنبياء، و١٢/٥٦ فرائض رقم (٦٧٧)، «صحيح مسلم»: رقم (١٧٢٠) أقضية، «صحيح مسلم بشرح النووي»: ١٢/١٨، «سنن النسائي» (المجتبىٰ): رقم (٥٤٠٢)، «المسند»: ٢/٣٢٢، ٣٤٠ و٣/٤٧٣.



البلاغة النبوية والقصص

إن أحداً ممن رزقهم الله جل شأنه نعمة الإنصاف: له حظ من التذوق البلاغي، ومُسكة من الإحساس بجمال التعبير، وروعة الأسلوب، في هدي الرسول ﷺ: لا يتمارىٰ ـ والله أعلم ـ في أن حقاً علىٰ من يصحب ـ ولو اليسير ـ من القصص في السنة النبوية: أن يظل علىٰ ذُكر من أن محمداً ﷺ قد قاد عملية الهداية بوصفه الرسول الشاهد والمبشر والنذير، الداعي إلىٰ الله والسراج المنير، وكان بالغ الاهتمام ـ وهو النبي الخاتم ـ بتبليغ ما أنزل عليه من الكتاب المبين، وتلاوة آيات الله علىٰ الأمة، وتعليمها الكتاب والحكمة التي هي سنته عليه الصلاة والسلام، وتزكية نفوس من يدعوهم ويربيهم، كيما يرتفعوا إلىٰ مستوىٰ الاستجابة الحقة لدعوة الخير والهدىٰ بانشراح صدر دونما حرج مما يدعوهم إليه.

وقد صحب ذٰلك كله قيامه ـ فداه أبي وأمي ـ خير قيام بما اؤتمن عليه من بيان الذكر المنزل إليه..

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

وغير خاف أن الكلام الإلـٰهي الذي خضعت لبلاغته أعناق أئمة الدنيا فصاحة وبلاغة وعجزوا ـ وهم كذٰلك ـ أن يأتوا ولو بسورة من مثله: لن يكون بيانه إلا بما يتناسب مع عظمته وجلاله، ويتسق مع نورانيته وجماله؛ وبذٰلك كان البيان الذي بلغ من سموه أن البشرية لم تعهد ـ بعد القرآن الكريم ـ ما يدانيه لأنه بدأ من مستوىٰ الذروة رفيعاً رفيعاً، ولم يغادرها قيد أنملة خلال ما يقرب من ربع قرن من الزمان حتىٰ لحق عليه الصلاة والسلام بالرفيق الأعلىٰ.

وإنه لبيان تحققت بفضله ترجمة الهداية القرآنية بما ازدانت به من ربانية

وشمول إلىٰ الأمة بشتىٰ الأساليب الزاخرة بالعطاء ومنها ما نحن بصدده من قصص السنة النبوية والحمد لله، الأمر الذي يجعل من بلاغة النبي ﷺ القائل: «**إن من البيان لسحراً**» عاملاً بالغ الأهمية فيما يرىٰ في قصص السنة من تميز وإشراق.

ومما يتصل اتصالاً وثيقاً بهٰذا الأمر الجلل: أن الله تعالىٰ ـ وقد قلد نبيه ﷺ أمانة البيان لكتابه المعجز ـ أعطاه جوامع الكلم بخواتمه فكان من صفته عليه الصلاة والسلام أنه كان يتكلم بجوامع الكلم، يعني بالكلم الجوامع من الدعاء وهي التي تجمع الأغراض الصالحة والمقاصد الصحيحة، أو تجمع بين الثناء علىٰ الله تعالىٰ وآداب المسألة. والذي يستوقفك أن هٰذا العطاء الإلٰهي كان الأول في خصائص عظيمة خصّه الله تعالىٰ بها.

أخرج البخاري ومسلم وأحمد والترمذي والنسائي ـ واللفظ لمسلم ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**فضلت علىٰ الأنبياء بستّ: أعطيت جوامع الكلم ـ**: وفي رواية: **بعثت بجوامع الكلم**، وأخرىٰ: **أوتيت جوامع الكلم ـ، ونصرت بالرعب، وأحلَّت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأرسلت إلىٰ الخلق كافة، وختم بي النبيون**»[١].

وعند البيهقي وآخرين: «**أعطيت جوامع الكلم، واختصر لي الكلام اختصاراً**». قال العلامة الزرقاني: (يعني: أعطيت البلاغة والفصاحة والتوصل إلىٰ غوامض المعاني وبدائع الحكم ومحاسن العبارات)[٢].

ومما هو جدير بالتنويه: أن هٰذه الحقيقة العظيمة في كلام النبي ﷺ وأسلوبه في الخطاب: كانت جلية عند الصحابة ـ عليهم الرضوان ـ مألوفة معروفة لديهم، ومن دلائل ذٰلك ما نقع عليه في قصة ابتعاث رسول الله ﷺ أبا موسىٰ الأشعري ومعاذاً إلىٰ اليمن؛ فقد روىٰ مسلم بسنده عن أبي بردة عن

---

(١) «الجامع الصحيح» مع «فتح الباري»: ١٣/ ٢٤٧ رقم (٧٢٧٣)، «صحيح مسلم»: رقم (٥٢٣)، «صحيح مسلم بشرح النووي»: ٥/ ٥.

(٢) انظر: «المواهب اللدنية» للقسطلاني مع شرحها للزرقاني: ٥/ ٢٦١.

أبيه ـ أبي موسىٰ ـ قال: (بعثني رسول الله ﷺ ومعاذاً إلىٰ اليمن فقال: «**ادعُوَا الناس، وبشّرا ولا تنفّرا، ويسّرا ولا تعسِّرا**». قال: فقلت: يا رسول الله، أفتنا في شرابين كنا نصنعهما باليمن: البِتع، وهو من العسل ينبذ حتىٰ يشتدّ، والمزر وهو من الذرة والشعير ينبذ حتىٰ يشتدّ. قال ـ وكان رسول الله ﷺ قد أعطي جوامع الكلم بخواتمه ـ فقال: «**أنهىٰ عن كل مسكر أسكر عن الصلاة**»)(١).

فهٰذا أبو موسىٰ رضي الله عنه ـ وهو من أنبه شباب الصحابة ـ يقرر بهٰذه الجملة المعترضة هٰذه الحقيقة، مبيناً أن قوله ﷺ في فتواه: «أنهىٰ عن كل مسكر أسكر عن الصلاة» من جوامع كلمه عليه الصلاة والسلام.

وفي تفسير كلمة أبي موسىٰ: (وكان ﷺ قد أعطي جوامع الكلم بخواتمه التي تذكر برواية للطبراني: «**أعطيت جوامع الكلم وفواتحه وخواتمه**». يقول الإمام النووي: (أي: أعطي إيجاز اللفظ مع تناوله المعاني الكثيرة جداً. وقوله: (بخواتمه)؛ أي: كأنه يختم علىٰ المعاني الكثيرة التي تضمنها اللفظ اليسير، فلا يخرج منها شيء عن طالبه ومستنبطه لعذوبة لفظه وجزالته)(٢).

ولم يدع رحمه الله أن يشير إلىٰ ما أراده أبو موسىٰ من أن فتوىٰ رسول الله ﷺ: قد كشفت عن الحكم المستفتىٰ عنه بل وعما هو زيادة علىٰ ذٰلك مما الناس بحاجة إلىٰ معرفته بأوجز عبارة وأنصع بيان، عندما أوردها رضي الله عنه، بعد الإخبار عن حقيقة أن رسول الله ﷺ قد أعطي جوامع الكلم بخواتمه.

فعند كلام هٰذا الإمام علىٰ الحديث برواية عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ سئل عن البِتع ـ بكسر الباء وسكون التاء ـ وهو نبيذ العسل وشراب أهل اليمن يومذاك ـ فقال عليه الصلاة والسلام: «**كل شراب أسكر فهو حرام**».

عند الكلام علىٰ هٰذا الحديث قال: هٰذا من جوامع كلمه ﷺ، وزادنا

---

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي»: ١٣/ ١٧١ بيان أن كل مسكر خمر، وكل خمر حرام.
(٢) «صحيح مسلم»: رقم (٥٢٣)، «صحيح مسلم بشرح النووي»: ٥/ ٥.

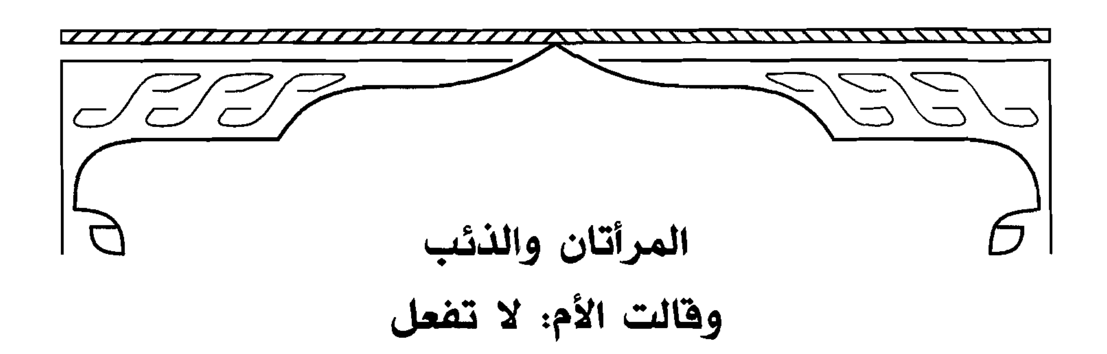
تعريفاً ببعض هٰذه الفتوىٰ التي رأيناها في قصة أبي موسىٰ ومعاذ فقال: وفيه أنه يستحب للمفتي إذا رأىٰ بالسائل حاجة إلىٰ غير ما سأل أن يضمه في الجواب إلىٰ المسؤول عنه، ونظير هٰذا الحديث: حديث «**هو الطهور ماؤه الحلّ ميتته**».

والحق أن تلك الألفاظ اليسيرة «أنهىٰ عن كل مسكر أسكر عن الصلاة»، «كل شراب أسكر فهو حرام» بما حملت من المعاني الكثيرة الوفيرة أرست قاعدة تشريعية نبوية متسعة الآفاق لا يستغنىٰ عنها إلىٰ قيام الساعة. وكم في مصادرنا من صفحات وصفحات ملئت بالطيب من القول في معناها وأبعادها ومجالات تطبيقها جيلاً بعد جيل!!

وهٰذه القاعدة النورانية التي أتحفتنا بها قصة الداعيين أبي موسىٰ ومعاذ، تذكّرنا بأخت لها في مجال الدعوة والتربية والتعليم والإعلام ألا وهي: «ادعُوَا الناس، وبشرا ولا تنفّرا، ويسّرا ولا تعسّرا» وكم تبدو الحاجة ماسة إليها اليوم في هٰذه الميادين كافة، وابتدار الرسول ﷺ صاحبيه بهٰذه الوصفة: معلم عظيم من معالم التوجه الحضاري في خطاب الفرد والجماعة بالإسلام دين الفطرة والتواؤم مع أهلية الإنسان كما خلقه الله.

ولا يغيبنَّ عن البال في القصة أن مبعوثَي رسول الله ﷺ كانا علىٰ علم بواقع الناس وعاداتهم وأعرافهم في الأرض التي سيتحركان عليها والأمور التي سيواجهانها علىٰ سلّم الخطأ والصواب. وهٰذا من أهم ما ينبغي أن يتوافر للدعاة إلىٰ الله، بجانب العلم والتقوىٰ وغيرها من أساسيات البناء الدعوي علىٰ ساحة الفرد والجماعة، ونشر هٰذه الدعوة في العالمين.





المرأتان والذئب
وقالت الأم: لا تفعل

ما أسلفنا من التنبيه علىٰ ما خُصَّ به النبي ﷺ ـ علىٰ الصعيد البلاغي ـ من إعطائه جوامع الكلم وفواتحه وخواتمه: حيث المعاني الغزيرة الوفيرة في ألفاظ يسيرة قليلة، وأن القصص في السنة من الشواهد الكثيرة علىٰ ذٰلك.

هٰذا الأمر الجلل يذكّر بما تتطاول إليه أعناق البلغاء من صدق الانتماء إلىٰ هٰذا اللون من البيان الذي يعتبره أئمة الأدب فيما بينهم علىٰ ساحة أهل الفصاحة والبلاغة: أحسن الكلام.

يقول صاحب «البيان والتبيين»: (وأحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره، ومعناه في ظاهر لفظه؛ فإن كان المعنىٰ شريفاً واللفظ بليغاً، وكان صاحبه صحيح الطبع بعيداً عن الاستكراه، منزهاً عن الاختلال، مصوناً عن التكلف: صنع في القلب صنيع الغيث في التربة الكريمة)[1].

وددت التذكير بهٰذه الكلمات وأنا بسبيل أن أرجع القول في قصة المرأتين اللتين جاء الذئب فذهب بابن إحداهما، ثم كان التقاضي عند داود ﵇ لأي منهما يكون الولد الذي بقي. وفاء بما وعدت من وقفة عجلىٰ لم يتسع لها المقام من قبل، نستجلي من خلالها بعضاً من الدروس والعبر التي يحملها قصص النبي ﷺ لها، كما أخرج البخاري ومسلم وغيرهما.

وقد جاء نص هٰذه القصة عند مسلم من رواية أبي هريرة ﵁ قال: «**بينما امرأتان معهما ابناهما** ـ وعند البخاري: **كانت امرأتان معهما ابناهما** ـ:

(١) «البيان والتبيين» للجاحظ: ١/١٠٦.

جاء الذئب فذهب بابن إحداهما، فقالت هـٰذه لصاحبتها: إنما ذهب بابنك أنت، وقالت الأخرىٰ: إنما ذهب بابنك. فتحاكمتا إلىٰ داود عليه السلام فقضىٰ به للكبرىٰ، فخرجتا علىٰ سليمان بن داود عليهما السلام فأخبرتاه، فقال: ائتوني بالسكين أشقه بينكما، فقالت الصغرىٰ: لا، يرحمك الله ـ وعند البخاري: **لا تفعل يرحمك الله ـ هو ابنها، فقضىٰ به للصغرىٰ**». قال أبو هريرة: والله إن سمعت ـ أي: ما سمعت ـ بالسكين إلا يومئذ، وما كنا نقول إلا المُدية(١).

لعلنا لا نعدو الحقيقة إذا شهدنا للمرأتين برباطة الجأش؛ للأم الأولىٰ وقد فقدت ولدها بذهاب الذئب به وهي (الكبرىٰ) كما ثبت فيما بعد، وللأخرىٰ ـ وهي الصغرىٰ ـ لاحتمال أن تفقد ولدها بحكم قضائي أو غيره، وقد أودع الله في قلب الوالدين ـ وبخاصة الأم ـ من الرحمة والشفقة ما أودع سبحانه!

وأنت ترىٰ أن المرأتين قد تنازعتا في ولد أيٍّ منهما أخذ الذئب، وكان أن قضىٰ به داود للكبرىٰ، فلما مرتا بسليمان قال: أقطعه بينكما نصفين، فاعترفت به الصغرىٰ للكبرىٰ بعد أن قالت الكبرىٰ: اقطعه ـ كما فهم من ذٰلك الإمام النووي ـ وهـٰذا الاعتراف من الصغرىٰ انعكاس لشدة شفقتها وإشفاقها عليه أن يصيبه مكروه؛ فاستدل سليمان بهـٰذه الشفقة الفطرية غير المتكلفة علىٰ أنها أمه. وأما الكبرىٰ: فما كرهت ذٰلك ـ وهـٰذا عجب من العجب ـ بل أرادته لتشاركها صاحبتها بفقد ولدها.

وقد أشكل علىٰ كثير من العلماء ما كان من أمر هـٰذا التقاضي، حتىٰ قال بعضهم: إن الذي وقع من داود لم يكن حكماً، وإنما كان فتيا؛ لأن النص ـ كما صح عن الرسول عليه الصلاة والسلام ـ أنه قضىٰ، وذهب القرطبي صاحب «المفهم لما أشكل من تلخيص مسلم»: إلىٰ أن داود عليه السلام إنما حكم به للكبرىٰ لسبب اقتضىٰ عنده ترجيح قولها، ولم يذكر في الحديث بعينه؛ إذ لم تدع حاجة إلىٰ ذكره وكونه لم يعين في الحديث اختصاراً لا يلزم

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي»: ١٢/١٧ ـ ١٨، «فتح الباري»: ١٢/٤٥٨ (٣٤٢٧).

منه عدم وقوعه. وهٰذا غاية الأدب مع الأنبياء من هٰذا الإمام يرحمه الله.

ومن الأسباب المحتملة عنده: أن الولد كان في يد الكبرىٰ، وعلم عجز الأخرىٰ عن إقامة البينة ورجح ذٰلك الإمام ابن الجعفري، فقضىٰ به لها إبقاء لما كان علىٰ ما كان، واعتبر هٰذا التأويل تأويلاً حسناً جارياً علىٰ القواعد الشرعية وليس في اللفظ أو السياق ما يمنعه، وقد أورد الإمام النووي هٰذا الاحتمال بقيد: وكان ذٰلك مرجحاً في شريعته، وضم إليه ما ذكر القاضي عياض من احتمال أنه قضىٰ به للكبرىٰ لشبه رآه فيها وإن كان القضاء في شرعه في الإلحاق بالشبهة.

ويرىٰ كثير من الشراح: أن سليمان عليه السلام لم يتعرض لحكم أبيه بالنقض، ولٰكنه توصل بطريق من الحيلة والملاطفة ـ أو الحيلة اللطيفة كما يقول بعضهم ـ إلىٰ معرفة باطن القضية وأن الصغرىٰ هي الصادقة؛ حيث أوهمهما أنه يريد قطعه ليعرف من يشق عليها قطعه، فتكون هي أمَّه، فلما وافقت الكبرىٰ علىٰ القطع، وقالت الصغرىٰ في جزع دلّ علىٰ عظيم شفقتها: «لا تفعل يرحمك الله»: ظهر له من قرينة الشفقة في الصغرىٰ، وعدم ذٰلك في الكبرىٰ مع ما عساه انضاف إلىٰ ذٰلك من القرائن ما حصل معه العلم بصدقها، فحكم لها به.

ومن الواضح أنه عليه السلام لم يكن مراده أن يقطع الولد حقيقة، ولٰكن تحيّل لمعرفة الحق إذ أراد اختبار شفقتهما لتتميز له الأم، فلما تميزت بما ذكرت، عرفها، وأكّد هٰذه المعرفة موقف الكبرىٰ.

ومن القرائن التي يمكن أن تكون عززت ذٰلك: احتمال أن يكون قرر الكبرىٰ فاعترفت بأن الولد للصغرىٰ عندما رأت من سليمان الجزم والجد في ذٰلك، فحكم للصغرىٰ بالإقرار من قبل تلك، لا بمجرد الشفقة المذكورة.

قال الإمام النووي: (قال العلماء: ومثل هٰذا يفعله الحكام ليتوصلوا به إلىٰ حقيقة الصواب. بحيث إذا انفرد ذٰلك لم يتعلق به حكم)[1] علىٰ أن

---

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي»: ١٣/ ١٧.

احتمال أن يكون سليمان عليه السلام ممن سُوّغ له أن يحكم بعلمه قائم[1].

وجميل ما قاله الإمام ابن الجوزي في ترجيح عدم نقض سليمان حكم أبيه عليهما السلام: (استنبط سليمان لما رأىٰ الأمر محتملاً فأجاد، وكلاهما حكم بالاجتهاد؛ لأنه لو كان داود حكم بالنص لما ساغ لسليمان أن يحكم بخلافه)[2].

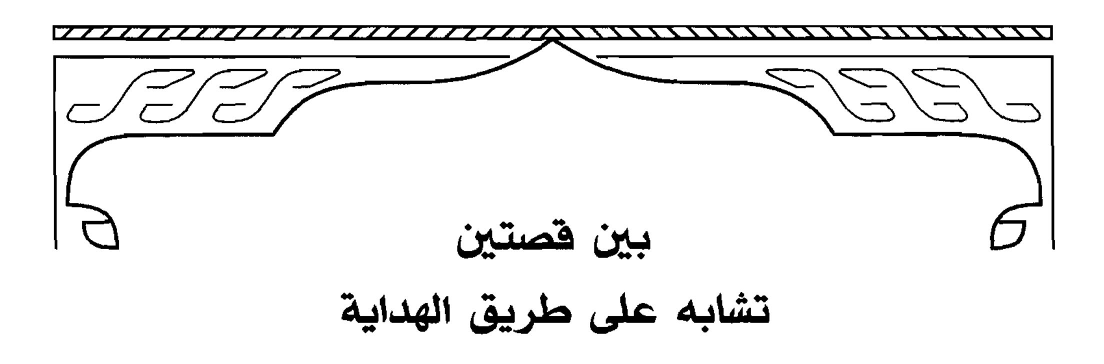
وَبَعْد: فبجانب ما أشرقت به هٰذه القصة التي قصها النبي ﷺ علىٰ أصحابه بتلك القضية المهمة في جوانب الابتلاء والصبر والشفقة والأثرة والاختلاف في الاجتهاد، وسلوك أفضل السبل للوصول إلىٰ الحقيقة، وما يتفرع عن ذٰلك أو يترتب عليه؛ لاحظ العلماء فوائد أخر نافعة جدًّا نافعة في القصة نفسها أيضاً. قال الحافظ ابن حجر: (ودلت القصة علىٰ أن الفطنة والفهم موهبة من الله لا تتعلق بكبر ولا صغر، وفيها أن الحق في جهة واحدة، وأن الأنبياء يسوغ لهم الحكم بالاجتهاد وإن كان وجود النص ممكناً لهم بالوحي، لٰكن في ذٰلك زيادة أجورهم، ولعصمتهم من الخطأ في ذٰلك؛ إذ لا يقرّون لعصمتهم علىٰ الباطل).

ثم نقل عن النووي قوله: (إن سليمان فعل ذٰلك تحايلاً علىٰ إظهار الحق، فكان كما لو اعترف المحكوم له بعد الحكم أن الحق لخصمه)[3].

هٰذا وجاء قول الصغرىٰ في رواية مسلم ورواية عند البخاري: «لا، يرحمك الله». قال القرطبي: ينبغي علىٰ هٰذه الرواية أن يقف وُقَيفةً أي: قليلاً بعد (لا) لئلا يتوهم السامع الدعاء عليه، ويزول الإبهام في مثل هٰذا بزيادة واو، كأن يقول: لا ويرحمك الله.

---

(١) «المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم» للإمام أبي العباس القرطبي المتوفىٰ سنة ٦٥٦هـ: ٥/ ١٧٦، «فتح الباري»: ٦/ ٤٦٥.
(٢) المصدر السابق: ٦/ ٤٦٥.
(٣) المصدر السابق: ٦/ ١٧٦، «صحيح مسلم بشرح النووي»: ١٣/ ١٨.



بين قصتين
تشابه على طريق الهداية

(١)

عرضت فيما سبق من القول لما قصه النبي ﷺ علىٰ أصحابه ﷺ وهو يعمل علىٰ أن يفيدوا من قصص الأولين ووقائع التاريخ، علىٰ طريق الهدي النبوي في بناء الفرد والجماعة وإحكام بُنىٰ المجتمع الجديد القدوة.. عرضت لما ذكره الرسول ﷺ من خبر تينك المرأتين اللتين اختطف الذئب ولد إحداهما، وراحت كل واحدة منهما ـ الكبرىٰ والصغرىٰ: تدعي: أن الولد المختطف ليس ولدها، وعلىٰ هـٰذا: فولدها هو الذي بقي.

ثم ما كان من اختلاف الاجتهاد في الحكم عند داود وسليمان عليهما السلام، حيث اجتهد داود ـ لأسباب رآها ـ أن الولد للكبرىٰ، وما كان من سليمان من بعدها إلا أن تحيّل لإظهار الحق بكثير من الفطنة والذكاء حيث تظاهر بأنه يريد شقّ الولد نصفين بينهما، فتبين له بيقين أثمرته حرارة عاطفة الأمومة وصدقها لدىٰ الصغرىٰ، عندما قالت له: «**لا تفعل، يرحمك الله**»، وأن الولد ولدها، فدفعه إليها.

والذي أود الإشارة إليه هنا اليوم: أن هـٰذه القصة النبوية التي عرضها النبي ﷺ بإيجازه البلاغي من عبر ودروس نقع عليها فيما وقع من تصرف كل من المرأتين، انعكاساً لمشاعر الأمومة والرغبة والرهبة، وفيما حصل من إرادة الوصول إلىٰ الحق عند كل من داود وسليمان عليهما السلام، وأن هـٰذا المراد تحقق علىٰ يد سليمان..

أو الإشارة إلىٰ أن هـٰذه القصة فيها مشابه من قصة قرآنية أشرقت بها

سورة الأنبياء حيث اجتهد كل من داود وسليمان عليهما السلام اللذين آتىٰ الله كلّاً منهما حكماً وعلماً، في الوصول إلىٰ الحكم الصائب في واقعة جرت في عهدهما، وكان أن حالف الصواب سليمان بعد أن كان حكم أبيه علىٰ صورة أخرىٰ.

وسنرىٰ أن وجه الشبه بين القصتين واضح كل الوضوح في كل منهما: من هٰذا اللون من الاجتهاد من النبيين الكريمين عليهما السلام، في الوصول إلىٰ الحكم العادل، وما وفِّق له سليمان من الصواب؛ وذٰلك بجانب التطلع من المحتكمين، كل إلىٰ ما يحقق له النصفة التي يراها نَصَفة.

ذٰلكم قول الله تبارك وتعالىٰ في الآيتين: الثامنة والسبعين والتاسعة والسبعين من السورة المومىٰ إليها: سورةِ الأنبياء: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَـٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِى ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَـٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمۡنَـٰهَا سُلَيۡمَـٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمًا وَعِلۡمًاۚ وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾﴾.

(الحرث): إنما هو حرث الأرض ـ كما يقول الطبري ـ وجائز: أن يكون زرعاً أو غرساً. ومعنىٰ (نفشت)؛ أي: انتشرت بالليل بلا راع يرعاها، وعن الحسن: أنه يجوز ذٰلك ليلاً ونهاراً(١).

وقد روىٰ شيخ المفسرين بسنده، وابن أبي حاتم، والبيهقي في «السنن» عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في قوله: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَـٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِى ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ﴾ قال: كرم قد أنبتَ عناقيدُه فأفسدته الغنم قال: فقضىٰ داود بالغنم لصاحب الكرم، فقال سليمان: غيرَ هٰذا يا نبي الله؟ قال: وما ذاك؟ قال: تدفع الكرم إلىٰ صاحب الغنم، فيقوم عليه حتىٰ يعود كما كان، وتدفع الغنم إلىٰ صاحب الكرم فيصيب منها، حتىٰ إذا كان الكرم كما كان: دفعت الكرم إلىٰ صاحبه، ودفعت الغنم إلىٰ صاحبه، فذٰلك قوله: ﴿فَفَهَّمۡنَـٰهَا سُلَيۡمَـٰنَۚ﴾(٢).

---

(١) وانظر: «جامع البيان» للطبري: ١٧/ ٣٨، «التفسير الكبير» للفخر الرازي: ٢٢/ ١٩٥، «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير: ٥/ ٢٣٢٧.

(٢) وانظر: «جامع البيان»: ١٧/ ٣٨، «الدر المنثور» للسيوطي: ٤/ ٣٢٤.

كما روىٰ الطبري عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: (أن رجلين دخلا علىٰ داود أحدهما صاحب حرث والآخر صاحب غنم، فقال صاحب الحرث: إن هٰذا أرسل غنمه في حرثي فلم يبق من حرثي شيئاً، فقال له داود: اذهب فإن الغنم كلها لك. فقضىٰ بذٰلك داود. ومر صاحب الغنم بسليمان، فأخبره بالذي قضىٰ به داود، فدخل سليمان علىٰ داود. فقال: يا نبي الله، إن القضاء سوىٰ الذي قضيت. .) الحديث[1]. هٰكذا اجتهد داود فحكم بحكم، ثم اجتهد سليمان عليه السلام وكان أن فهمه الله القضية ـ فحكم بحكم آخر لا غبار عليه، فرضي عنه أبوه وقال ـ كما تدل الروايات ـ: قد أصبتَ، القضاء ما قضيت[2].

الأمر الذي يذكر بما رأيناه من قبلُ في القصة النبوية من توفيق الله تعالىٰ سليمان إلىٰ الحكم الصائب بإعطاء الولد إلىٰ أمه الحقيقية وهي الصغرىٰ.

ولٰكن ذٰلك لا يغضُّ من قدر داود عليه السلام الذي لم يقصر وهو يواجه الواقعة في كل من القصتين في الاجتهاد ابتغاء الوصول إلىٰ الحق. قالوا في قوله تعالىٰ: (﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾. يقول: وكنا لحكم داود وسليمان والقوم الذين حكما بينهم فيما أفسدت الغنم من حرث أهل الحرث: شاهدين لا يخفىٰ علينا منه شيء ولا يغيب عنا علمه. وقوله: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾: يقول: ففهمنا القضية في ذٰلك سليمان دون داود، ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾، يقول: وكلُّهم، من داود وسليمان والرسل الذين ذكرهم في أول هٰذه السورة، آتينا حكماً وهو النبوة، وعلماً بأحكام الله)[3].

وفي عود علىٰ بدء: لما كان المبيَّن هو القرآن، والبيان هو السنة، فالقرآن هو الأصل: نجد العديد من حُذّاق المفسرين ـ مع عدم الجزم بأي

---

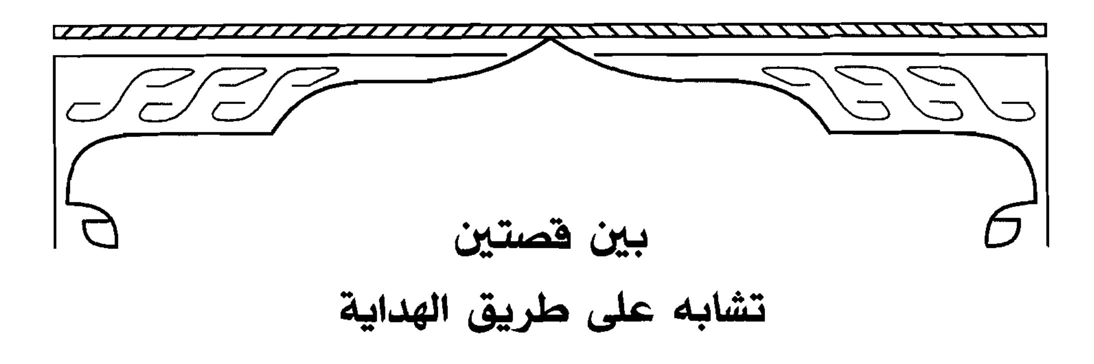
(١) «جامع البيان»: ١٧/٣٨، «الدر المنثور» للسيوطي: ٤/ ٣٢٤.
(٢) انظر المصادر السابقة وأمثالها.
(٣) انظر: «جامع البيان»: ١٧/٣٨ ـ ٣٩.

القصتين جاء الحديث عنها قبل الأخرىٰ ـ: يحرصون علىٰ الكشف عما بين القصتين من تشابه علىٰ طريق الهداية، والدعوة إلىٰ الله، وما تحمل كل منهما من الدروس والعبر التي لا بد أن تكون في حسبان الدعاة والمربين ـ بخاصة ـ والمسلمين والمسلمات بعامة؛ فتراهم أجزل الله مثوبتهم: يوردون من خلال الكلام علىٰ الآيتين، أو بعده ما جاء في السنة المطهرة من خبر تينك المرأتين، وما حصل بعد ذٰلك، مستعينين بذٰلك علىٰ ما يتجهون إليه في تفسير الواقعة واستنباط الأحكام والحكم التي أشرقت بها الآيتان.

ها هو ذا الإمام القرطبي صاحب «الجامع لأحكام القرآن» يقول بعد إيراده ما قال بعض الناس من أن داود عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يكن أنفذ الحكم وظهر له ما قال غيره، وقولَ آخرين: لم يكن حكماً وإنما كانت فتيا.

قلت: وهٰكذا تؤُوِّل فيما رواه أبو هريرة عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «**بينما امرأتان معهما ابناهما، جاء الذئب فذهب بابن إحداهما. . .**» وأكمل إثبات الخبر بتمامه كما جاء في الحديث، ثم أفاض في الكلام علىٰ هداية القصة وتعليل ما يؤخذ من وقائعها من أحكام وحكم.





بين قصتين
تشابه على طريق الهداية

(٢)

ليس من مكرور القول أن أذكِّر بما أسلفت من قريب: من أن عدداً من حُذّاق المفسرين ـ يرحمهم الله ـ سلكوا سبيل الكشف عن العروة التي توضح التشابه البيّن بين القصة القرآنية التي أشرقت بها سورة الأنبياء والتي عمادها حكم كل من داود وسليمان عليهما السلام في الحرث، وما كان من تفهيم الله سليمان حكم القضية الواقعة الذي كان حكماً لا تشوبه شائبة جور أو خطأ؛ وبين القصة النبوية التي عمادها دعوىٰ كل من المرأتين أن الولد الذي بقي بعد اختطاف الذئب الولد الآخر هو ولدها، وما حصل من توفيق الله سليمان لحكم مخالف لحكم أبيه عليهما السلام، وتبين أنه هو الحكم العادل الصواب.

وقد أشرت إلىٰ صنيع الإمام القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» من بيان التشابه بينهما بعد إيراد الرواية، في عدد من الأمور، وما كان من سعة القول عنده في الأحكام والحكم التي هي قدر مشترك بين القصتين.

ولنعرِّج علىٰ النهج الذي سلكه الحافظ ابن كثير في ذٰلك؛ فقد أبان ـ وهو يفسر قوله تعالىٰ: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ عن المحور الذي تتركز حوله في القصتين: مسألة ما ينال المجتهد إذا أخطأ من الأجر علىٰ ما بذل من جهد في محاولة الوصول إلىٰ الحق، والتفريق بين الأنبياء عليهم السلام ـ وسِمَتهم العصمة ـ وبين من سواهم في هٰذا الشأن من حيث هو[1].

ولا يكاد ينتهي من ذٰلك حتىٰ يزيح الستار عما بين هٰذه القصة وبين قصة

---

(١) انظر: «تفسير القرآن العظيم»: ٥/ ٢٣٢٨.

المرأتين من القرب. فقد أورد هناك ما روىٰ ابن أبي حاتم عن حميد؛ أن إياس بن معاوية لما استقضي أتاه الحسن البصري، فبكىٰ، قال: ما يبكيك؟ قال: يا أبا سعيد، بلغني أن القضاة: رجل اجتهد فأخطأ فهو في النار، ورجل مال به الهوىٰ فهو في النار، ورجل اجتهد فأصاب، فهو في الجنة.

فقال الحسن: إن فيما قص الله من نبأ داود وسليمان عليهما السلام في (الأنبياء) حكماً يردّ قول هٰؤلاء الناس عن قولهم، قال الله تعالىٰ: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾﴾ فأثنىٰ الله علىٰ سليمان ولم يذمَّ داود. ثم قال ـ يعني الحسن ـ: إن الله اتخذ علىٰ الحكماء ثلاثاً: لا يشتروا به ثمناً، ولا يتبعوا فيه الهوىٰ، ولا يخشوا فيه أحداً، ثم تلا: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وقال: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ وقال: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾.

ثم قال صاحب «تفسير القرآن العظيم»: قلت: أما الأنبياء عليهم السلام: فكلهم معصومون مؤيَّدون من الله عز وجل. وهٰذا مما لا خلاف فيه بين العلماء المحققين من السلف والخلف. وأما مَن سواهم: فقد ثبت في «صحيح البخاري» عن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر**»(١).

فهٰذا الحديث يردُّ نصاً ـ أي: بالنص ـ ما توهمه (إياس) من أن القاضي إذا اجتهد فأخطأ فهو في النار، والله أعلم. وفي «السنن»: «**القضاة ثلاثة: قاض في الجنة، وقاضيان في النار: رجل علم الحق وقضىٰ به؛ فهو في الجنة، ورجل حكم بين الناس علىٰ جهل؛ فهو في النار، ورجل علم الحق وقضىٰ بخلافه؛ فهو في النار**»(٢).

---

(١) انظر: «الجامع الصحيح» مع «فتح الباري» كتاب الاعتصام: ٣١٨/١٣.

(٢) أخرجه أبو داود في الأقضية من «السنن»: ٢٩٩/٣، وابن ماجه في كتاب الأحكام: ٧٨١/٢. وانظر: «تحفة الأشراف» للمزي: ٩٤/٢، «تفسير القرآن العظيم»: ٥/ ٢٣٢٨.

وكما أسلفت: أتبع الحافظ ابن كثير هـٰذا البيان ـ عن المحور الذي سبقت الإشارة إليه ـ قوله: وقريب من هـٰذه القصة المذكورة في القرآن: ما رواه الإمام أحمد في «مسنده» حيث قال: حدثنا علي بن حفص قال: أخبرنا ورقاء عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**بينما امرأتان معهما ابنان لهما، جاء الذئب فأخذ أحد الابنين، فتحاكمتا إلىٰ داود، فقضىٰ به للكبرىٰ، فخرجتا فدعاهما سليمانُ فقال: هاتوا السكين أشقه بينهما، فقالت الصغرىٰ: يرحمك الله هو ابنها لا تشقَّه. فقضىٰ به للصغرىٰ**»[1]. وأخرجه البخاري ومسلم في «صحيحيهما»، وبوّب النسائي عليه في كتاب القضاء: (باب الحاكم يوهم خلاف الحكم ليستعلم الحق)[2].

أما السيوطي في «الدر المنثور في التفسير بالمأثور» فقال في إيراده ما ورد في سورة (الأنبياء) قوله تعالىٰ: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾: أخرج أحمد والبخاري ومسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما امرأتان معهما ابنان لهما..» الحديث، وأثبت القصة بتمامها، فكأنه اعتبر إيراد القصة هنا جزءاً أصلياً في الكلام علىٰ آيات القصة التي ذكرها القرآن في سورة الأنبياء[3].

ويجدر توكيد الإشارة هنا إلىٰ أن النبيين المتحدث عنهما هما داود وسليمان ﷺ اللذان فصل القرآن الكريم القول فيهما؛ فهما النبيان الكريمان المعصومان اللذان لو وُجدا في عصر نبينا عليه الصلاة والسلام: لآمنا به ونصراه، وفاء بالعهد المأخوذ علىٰ النبيين بذٰلك، وليس الشخصيتين المخترعتين بالتزييف والافتراء، والتلبيس والتدليس ـ صنيعَ اليهود أدعياء هيكل سليمان ـ وسليمان ﷺ منهم براء ـ أعداء الأقصىٰ والحق، وجبريل ﷺ، والإنسان!!

(١) «المسند»: ٢/ ٣٢٢. وانظر: «الجامع الصحيح» كتاب الأنبياء؛ مع «فتح الباري»: ٦/ ٤٥٨، ومسلم كتاب الأقضية: ٣/ ١٣٤٤ ـ ١٣٤٥.

(٢) «تفسير القرآن العظيم»: ٥/ ٢٣٢٩، «سنن النسائي»: ص٧٦٤، كتاب آداب القضاة: رقم (١٤) وجاء بعنوان «حكم الحاكم بعلمه».

(٣) «الدر المنثور»: ٤/ ٣٢٥.

قصتنا هـٰذه.. تذكر بالتداعي قصة أخرىٰ:

وفي خاتمة المطاف: أراني ـ وبضدها تتميز الأشياء ـ مسوقاً من طريق التداعي: إلىٰ إيراد قصة قوام عقدتها التي يتطلع القارئ والسامع إلىٰ حلّها: التدافع بين الزهد والورع في الدين، وبين ما جبل عليه الإنسان من حب التملك.

فالورع يحمل علىٰ اتقاء الشبهات والخوف من حيازة أي شيء غلا أو رخص بغير حق، مع وجود الجبلة المومىٰ إليها.

وهـٰذا غير ما رأينا من قريب حتىٰ في الزوايا والخبايا. الأمر الذي نشهد معه حكمة الله في خلقه، وامتحانهم بأن يكونوا مع الحق، يدورون معه حيث دار، وعدم طاعة الهوىٰ فيما يدعو إليه!

والبون شاسع بين موقف الإصرار علىٰ الحيازة، وموقف الخوف منها. حرصاً علىٰ الرزق الحلال الذي لا تشوبه شائبة.

روىٰ البخاري ومسلم وغيرهما ـ واللفظ للبخاري ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «**اشترىٰ رجل من رجل عقاراً له، فوجد الرجل الذي اشترىٰ العقار في عقاره جرة فيها ذهب، فقال له الذي اشترىٰ العقار: خذ ذهبك مني، إنما اشتريت منك الأرض ولم أبتع منك الذهب. وقال الذي له الأرض: إنما بعتك الأرض وما فيها، فتحاكما إلىٰ رجل، فقال الذي تحاكما إليه: ألكما ولد؟ قال أحدهما: لي غلام، وقال الآخر: لي جارية، قال: أنكحوا الغلام الجارية، وأنفقوا علىٰ أنفسهما منه وتصدّقا**»[1].

ولنا عودة إلىٰ هـٰذه القصة نصحبها ـ مع المقارنة ـ بالدرس والتحليل وتبيين العبرة النافعة والتوجيه السديد، والله المستعان.

---

(١) «الجامع الصحيح» مع «فتح الباري»: ٦/٥١٢ (٣٤٧٢)، «صحيح مسلم بشرح النووي»: ١٢/١٩، «سنن ابن ماجه»: (٢٥١١)، «المسند»: ٢/٢١٦.



جرة الذهب.. والورع

كلما جدد المؤمن صلته بالسنة النبوية ـ وهي بيان الكتاب العزيز ـ: ازداد يقيناً علىٰ يقين بأن النبي ﷺ لم يلتحق بالرفيق الأعلىٰ، حتىٰ وفىٰ أعظم الوفاء بأمانة التبليغ والتعليم والتزكية، وبيان ما يجب بيانه للأمة، ورفع قواعد البناء السليم: للفرد، والجماعة، والأمة، وإحكام العناية ببُنىٰ المجتمع: الثقافية، والاجتماعية، والاقتصادية وغيرها في إطار دولة الإسلام، الأمر الذي أحسن توجيه المسلم، إلىٰ الإسهام في بناء حضارة الإسلام علىٰ أساس من حقائق الإسلام.

ومن عيون الأساليب التي سلكها النبي ﷺ في تحقيق تلك المهمات: ما نقع عليه في السنة المطهرة من القصص الزاخر بالعبر النافعة لأولي الألباب، وللقصة تأثير في النفوس لا ينكر، من حيث الإقناع وتحويل المعرفة إلىٰ صورة حية عند السامع وفق ما سمع، كالذي نرىٰ فيما أخبر به عمن كان قبلنا في التاريخ، ودلّ ـ سيراً مع السنن القرآني في ذٰلك ـ علىٰ مواطن العظة والاعتبار بصنيعهم علىٰ صعيدي العقيدة والسلوك؛ فما كان من خير: فالمطلوب الحرص علىٰ الاستزادة من فعله ـ وما كان غير ذٰلك: فالواجب تجنب الوقوع في كل ما هو منه بسبب، وذٰلك في ضوء المعطيات المتجددة، ومراعاة الزمان والمكان. وفي كل طاعة لله وسلوك لسبيل مرضاته، وللتربية علىٰ العقيدة السليمة والسلوك الصحيح الأمثل: أعظم الأثر في تحقيق الانتفاع المطلوب.

أقول هٰذا، بين يدي خبر الرجلين اللذين كان كل منهما مثال العبد المراقب لمولاه، الخائف من الوقوع في شبهة الحرام؛ لذا فهو يتأبىٰ علىٰ تمليكه جرة ذهب زهداً وورعاً واتقاء للشبهات. والعبرة في هٰذا التصرف لا يغفل عنها ذو بصيرة.

وهٰذا أوان العودة إلىٰ نص هـٰذا الخبر كما قصّه النبي ﷺ، والتماس الخير في اصطحابه بالقدر الذي يتسع له المقام.

فقد روىٰ أحمد والبخاري ومسلم وابن ماجه ـ واللفظ للبخاري ـ عن أبي هريرة ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «**اشترىٰ رجل من رجل عقاراً**[١] **له، فوجد الرجل الذي اشترىٰ العقار في عقاره جرة فيها ذهب، فقال الذي اشترىٰ العقار: خذ ذهبك مني، إنما اشتريت منك الأرض، ولم أبتع منك الذهب، وقال الذي له الأرض: إنما بعتك الأرض وما فيها؛ فتحاكما إلىٰ رجل: فقال الذي تحاكما إليه: ألكما ولد؟ قال أحدهما: لي غلام، وقال الآخر: لي جارية؛ قال: أنكحوا الغلام الجارية وأنفقوا علىٰ أنفسهما منه، وتصدقا**»[٢].

وقد استوقف الإمام النوويَّ ما حصل من الإصلاح بين بائع العقار ومشتريه بعد أن اختلفا علىٰ جرة الذهب لمن تكون؟ فأورد الحديث تحت باب جعل عنوانه: (باب استحباب إصلاح الحاكم بين الخصمين).

والحق أن هـٰذه الكلمات الجوامع من النبي ﷺ التي كانت وعاء المضمونات التي اشتملت عليها: توحي أول ما توحي ـ من خلال هـٰذا الأسلوب الرفيع ـ بأن هذين الرجلين قد أوتي كل منهما حظاً وافراً من العلم بالحلال والحرام، وحظاً وافراً مثله ـ والله أعلم ـ من التربية علىٰ وجوب العمل بما يعلم؛ إذ لا يكفي أن يعلم المرء، بل لا بد من العمل بما علم وذٰلكم برهان صدق الوجهة في هـٰذا العلم، وإلا كان علمه حجة عليه؛ فالعبرة بأخذ النفس بالتطبيق العملي مهما كانت الصوارف ـ وجاء الأمر هنا علىٰ العكس؛ إذ كان واضحاً أن الهروب من الجرة هروب من حيازتها وتملكها.

وإنها لصورة بالغة التأثير تحمل ما تحمل من قوة الإقناع في ملامسة للعقل والقلب؛ صورة هـٰذه الزهادة بجرة الذهب، أو الورع في البعد عنها

---

(١) العقار: الأرض والمنزل والضيعة، وحقيقة العقار: الأصل، وسمي بذٰلك من العُقر بضم العين وفتحها وهو الأصل، ومنه عقر الدار بالضم والفتح.

(٢) سبق تخريجه في الصفحة ٣٠.

حتىٰ كأنها مرض معدٍ يخيف اقترابه، وذٰلك خشية الوقوع في شبهة الحرام: خصوصاً إذا لاحظنا أن إباء أخذها كان من البائع والمشتري جميعاً، المشتري يقول: «خذ ذهبك مني إنما اشتريت منك الأرض، ولم أبتع منك الذهب»، والبائع يقول: «إنما بعتك الأرض وما فيها».

وليس من المغالاة في شيء أن نقرر أن هٰذه الصورة تذكر بما جاء عن نبينا عليه الصلاة والسلام في الحديث المتفق عليه «.. **فمن اتقىٰ الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعىٰ حول الحمىٰ يوشك أن يقع فيه..**»[1].

بل إن النبي عليه الصلاة والسلام كان ـ وهو يؤدي أمانة البلاغ وتربية المسلم علىٰ تقوىٰ الله ومراقبته في السر والعلن ـ يدعو إلىٰ ترك بعض الحلال خشية الوقوع في الشبهة بله الحرام؛ ذٰلكم قوله عليه الصلاة والسلام: «**لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتىٰ يدع ما لا بأس به حذراً مما به بأس**»[2].

وماذا أنت قائل في هٰذا التوفيق الإلٰهي لحل تلكم المشكلة العويصة من طريق الحكم الذي تيسر وجوده وكان في غاية من التعقل وموضعاً لإلهام الصواب؛ وبكل بساطة ويسر: سألهما: «ألكما ولد؟» أي لكل منكما ولد؟ وقرأها بعضهم: ألكم وُلد؟ ـ بضم الواو ـ أي: أولاد ـ وتبين أن أحدهما له غلام، والآخر له بنت، وهٰذا من المصادفات التي تبرزها مجاري الأقدار، وسبحان الله العليم الخبير.

وهنا استضاءت نافذة الخروج من المأزق الذي أحدثه الخوف من جرة الذهب، لا الرغبة الجامحة في تملكها وحيازتها من أقرب طريق؛ فأشار الحكم بتزويج الشاب الفتاة «أنكحوا الغلام الجارية» ولم يكتف بهٰذا، بل رسم لهما المنهج ـ وكل ذٰلك من توفيق الله الذي استدرّه صدق الرجلين والد الغلام ووالد الفتاة ـ قال المحكَّم: «وأنفقوا علىٰ أنفسهما منه وتصدقا».

---

(١) انظر: «التقوىٰ في الكتاب والسنة»: ٢/١١١ و٢/٢١ والتخريج.

(٢) المصدر السابق: ١/٢٢٨ والتخريج.

هٰكذا وقع بصيغة الجمع في الإنكاح والإنفاق، وبصيغة التثنية في النفسين وفي التصدق.

قال الحافظ ابن حجر: (وكأن السر في ذٰلك أن الزوجين كانا محجورين، وإنكاحهما لا بد فيه من وليهما من غيرهما كالشاهدين، وكذٰلك الإنفاق قد يحتاج فيه إلىٰ معين كالوكيل. وأما تثنية النفسين: فللإشارة إلىٰ اختصاص الزوجين بذٰلك. يقول: وقد وقع في رواية إسحاق بن بشر ما يشعر بذٰلك ولفظه: «**اذهبا، فزوج ابنتك من ابن هٰذا، وجهزوهما من هٰذا المال، وادفعا إليهما ما بقي يعيشان به**»).

وما كان أجمله حلّاً لهٰذه المشكلة الجميلة: زواج شاب بفتاة ناشئين في أسرتين كريمتين، الأمر الذي يعني إنشاء أسرة قائمة علىٰ الهداية والخير.

وكان حظ المجتمع من الذهب في الحسبان علىٰ طريقة مرضية لله تعالىٰ: «وتصدقا» قال الحافظ: وأما تثنية التصدق: فللإشارة إلىٰ أن يباشراها بغير واسطة لما في ذٰلك من الفضل وأيضاً: فهي تبرع لا يصدر من غير الرشيد، ولا سيما من ليس له فيها مِلك.

وقد وقع في رواية مسلم: «وأنفقا علىٰ أنفسكما» وواضح أن الأول وهو ما جرىٰ في رواية البخاري: «وأنفقا علىٰ أنفسهما» والله أعلم.

ومن فوائد هٰذه القصة: فضل الإصلاح بين المتنازعين ـ كما يقول الإمام النووي ـ وأن القاضي يستحب له الإصلاح بين المتنازعين كما يستحب لغيره. وكم لذٰلك من طيب الآثار في الفرد والمجتمع.





هَلُمَّ شهيداً

١

لا يعوزك أن تلجأ إلىٰ الكثير من البحث والتنقيب: حتىٰ تزداد يقيناً علىٰ يقين، بأن القصص في السنة النبوية ـ وهو من هدي النبوة وإليه ـ يشرق في جنباته طابع الشمول الذي هو من خصائص دين الإسلام الذي بعث به النبي عليه الصلاة والسلام إلىٰ الإنس والجن كافة بشيراً ونذيراً؛ وذٰلك من الحقائق التي أبرزها القرآن الكريم في العديد من المواطن في آياته المكية والمدنية، وجاء بيان السنة المطهرة مقرراً ومؤكداً لها في كثير من النصوص والوقائع.

وإذا كان الأمر كذٰلك: فمن الخير أن لا يبخل المؤمن علىٰ نفسه بالمزيد من الصلة العلمية العملية بهدي المصطفىٰ عليه الصلاة والسلام ومنه ما قص علىٰ أصحابه والأمة من ورائهم: ففي ذٰلك إزالة للغشاوة عن العقول التي ترنو إلىٰ النور، وإرواء لظمأ طالما أوحش القلوب التي تهفو إلىٰ السكينة والطمأنينة. وما أكثر النماذج الفياضة بالخير في هٰذا الهدي الكريم.

أخرج الإمام أبو داود في «السنن» والنسائي في «المجتبىٰ» وابن سعد في «الطبقات» وغيرهم عن عمارة بن خزيمة أن عمه حدثه ـ وهو من أصحاب النبي ﷺ: (أن النبي ﷺ ابتاع فرساً من أعرابي، فاستتبعه النبي ﷺ ـ أي: طلب منه أن يتبعه ـ ليقضيه ثمن فرسه، فأسرع رسول الله ﷺ وأبطأ الأعرابي، فطفق رجال يعترضون الأعرابي، فيساومونه الفرس، وهم لا يشعرون أن النبي ﷺ ابتاعه، حتىٰ زاد بعضهم في السوم علىٰ ما ابتاعه به منه، فنادىٰ الأعرابي رسول الله ﷺ فقال: إن كنت مبتاعاً هٰذا الفرس وإلا بعتُه، فقام النبي ﷺ حين سمع نداء الأعرابي فقال: «**أوَليس قد ابتعته منك؟**» فقال

الأعرابي: لا، والله ما بعتُكه، فقال النبي ﷺ: «**بلىٰ قد ابتعته منك**»؛ فطفق الأعرابي يقول: هلمَّ شهيداً، أو هلمّ شاهداً يشهد أني قد بعتكه، فقال خزيمة بن ثابت: أنا أشهد أنك قد بايعته، فأقبل النبي ﷺ علىٰ خزيمة فقال: «**بم تشهد، ولم تكن معنا؟**» فقال: بتصديقك يا رسول الله، قال: **فجعل رسول الله شهادة خزيمة بشهادة رجلين)**[1].

وفي رواية عند ابن سعد: (فطفق الناس يلوذون بالنبي ﷺ وبالأعرابي وهما يتراجعان، فطفق الأعرابي يقول: هلم شهيداً يشهد أني بعتك، فمن جاء من المسلمين قال للأعرابي: ويلك إن رسول الله ﷺ لم يكن ليقول إلا حقاً، حتىٰ جاء خزيمة بن ثابت، فسمع تراجع رسول الله ﷺ وتراجع الأعرابي، فطفق الأعرابي يقول: هلم شهيداً يشهد أني قد بايعتك. فقال خزيمة: أنا أشهد أنك قد بايعته. . .) الحديث.

وله في رواية أخرىٰ أكثر تفصيلاً في كلام خزيمة: (فقال الرجل: هلم شهودك علىٰ ما تقول، فقال خزيمة: أنا أشهد لك يا رسول الله، قال: «**وما علمك؟**» قال: أعلم أنك لا تقول إلا حقاً، قد أمنّاك علىٰ أفضلَ من ذٰلك: علىٰ ديننا، **فأجاز شهادته)**[2]؛ أي: بشهادة رجلين.

الفرس يذكر ويؤنث في العربية: يقال: هـٰذا فرس وهـٰذه فرس، وقد جاء مذكراً في القصة. و(هلمّ) في الأصل: كلمة بمعنىٰ الدعاء إلىٰ الشيء كما يقال: تعالَ: وتستعمل لازمة نحو: هلم إلينا، ومتعدية نحو: (هلم شهداءكم)؛ أي: أحضروهم. فمعنىٰ: (هلم شهيداً) يشهد أني قد بايعتك: أحضر شهيداً يشهد أني قد بايعتك.

أما خزيمة بن ثابت ﷺ: فهو كما جاء عند الذهبي وغيره: خزيمة بن ثابت بن الفاكه بن ثعلبة بن ساعدة، الفقيه أبو عمارة الأنصاري الخَطميّ المدني

---

(١) انظر: «سنن أبي داود»: (٣٦٠٧)، كتاب الأقضية. «سنن النسائي» (المجتبىٰ)، كتاب البيوع: (٤٦٤٧)، باب التسهيل في ترك الإشهاد. «الطبقات الكبرىٰ» لابن سعد: ٣٧٨/٤ فما بعد. «سير أعلام النبلاء» للذهبي: ٤٨٦/٢ الحاشية (٢).

(٢) انظر: «الطبقات الكبرىٰ»: ٤/ ٣٨٠.

ذو الشهادتين. وهو من السابقين الأولين. قيل: إنه شهد بدراً، وصوّب الذهبي: أنه شهد أحداً وما بعدها وكان يكسر أصنام بني خَطمة وكانت راية بني خطمة بيده يوم الفتح. وكانت وفاته ﷺ سنة سبع وثلاثين[1].

وغير خاف ما تشعره هٰذه القصة بما كان من النبي ﷺ وهو يقوم بإبلاغ الرسالة وتعليم أحكامها والتربية عليها بالكلمة والممارسة والقدوة: أنه صلوات الله وسلامه عليه كان يعيش في المجتمع ويتحرك في جنباته، ويصادف ما يمكن أن يصادف غيره من خلال التعامل، ويصبر علىٰ ما قد يلقىٰ من الأذىٰ؛ لأنه يرمي إلىٰ غاية أكبر وهي هداية الخلق، والمؤمن الذي يخالط الناس ويصبر علىٰ أذاهم ـ كما بين صلوات الله وسلامه عليه ـ خير من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر علىٰ أذاهم؛ ها هو ذا يخرج من المدينة ويبتاع فرساً من هٰذا الأعرابي الذي لم يكن علىٰ مستوىٰ الصدق في التعامل معه عليه الصلاة والسلام، ومع أن هنالك ما يؤكد المبايعة، حيث طلب الرسول ﷺ من البائع أن يتبعه ليقضيه ثمن فرسه، ولٰكن عندما أغراه أولٰئك الذين يجهلون أنه باعه الرسول ﷺ: بالمساومة علىٰ سعر أزيد: نكل ونادىٰ رسول الله: إن كنت مبتاعاً هٰذا الفرس وإلا بعته، فقام النبي ﷺ حين سمع نداءه وشرع يحاوره بسعة صدر وحلم؛ فلم يغضب ولم يُزر بهٰذا البائع، وهٰذا من أخلاق النبوة التي يجب أن يتأسّىٰ بها الدعاة الذين ينشدون الهداية للناس: «أليس قد ابتعته منك؟» ويصر الأعرابي علىٰ الإنكار، فيقول النبي ﷺ: «بلىٰ قد ابتعته منك».

وهنا يتساءل المرء في نظرٍ إلىٰ هٰذه العقدة من القصة: ما الذي سيحصل يا ترىٰ؟! الذي حصل أن الأعرابي استبطن ـ والعياذ بالله ـ تكذيب النبي ﷺ وهو الصادق المصدوق وقال: هلمَّ شهيداً: أي أحضر من يشهد لك أنك ابتعت الفرس مني. أو هلم شاهداً يشهد أني قد بعتكه. وظل مصراً علىٰ هٰذا الموقف حتىٰ بعد أن قال بعض الحضور: ويلك إن رسول الله ﷺ لم

---

(1) انظر: «سير أعلام النبلاء»: ٢/ ٤٨٥، «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر: ١/ ٤٢٥.

يكن ليقول إلا حقاً، ويفهم إصراره من قول راوي الخبر: فطفق الأعرابي يقول: هلمّ شهيداً. لأن الطفق مواصلة القول أو الفعل. وهنا تستفحل العقدة بانتظار ما الذي سيحدث؟ وإذا بالفرج يأتي من السماء، فيصادف ذٰلك كله حضور الصحابي الجليل خزيمة بن ثابت الأنصاري، وتستفزّه ـ وقد سمع إصرار الأعرابي علىٰ ما أصر عليه ـ نصرة الحق بتصديق النبي عليه الصلاة والسلام، فيقول للأعرابي: أنا أشهد أنك بعته.

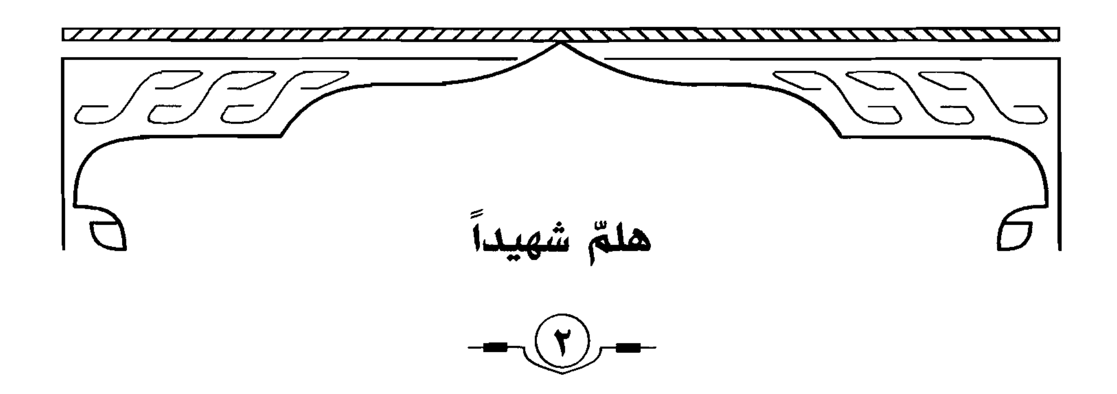
ولٰكن الرسول ﷺ يعلمنا أنه لا بد من الدليل النيّر الواضح لدعوىٰ صاحب الحق، تجاه المنكِر لهٰذا الحق؛ من أجل ذٰلك أقبل علىٰ خزيمة يستنبئه عن مستنده في هٰذه الشهادة فقال: «بم تشهد ولم تكن معنا؟» يعني: أنت لم تحضر المبايعة بيني وبين الأعرابي فكيف تشهد؟ وعلام تشهد؟

وهنا تبرز قوة الإيمان والتصديق الجازم بنبوة محمد ﷺ، وما كان لخزيمة من العقل الراجح الذي يقوىٰ علىٰ المقايسة والاستدلال بالأكثر في خطورته علىٰ ما هو الأقلُّ فيها؛ فأملىٰ علىٰ التاريخ قوله للنبي ﷺ: (أشهد بتصديقك يا رسول الله) وفي الرواية الأخرىٰ ـ كما أسلفنا ـ قال له الرسول ﷺ: «وما علمك؟» فقال: أعلم أنك لا تقول إلا حقاً قد أمنّاك علىٰ أفضل من ذٰلك، علىٰ ديننا.

فجعل رسول الله ﷺ **شهادة خزيمة بشهادة رجلين.**

وتقتضينا النصفة هنا ـ والكل يعلم من فضل الصحابة ما يعلم ـ أن كل واحد منهم عليهم الرضوان، حري لو اقتضىٰ الأمر أن يشهد شهادة خزيمة ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ لٰكن الله الكريم المنان الذي يؤتي فضله من يشاء من عباده، أعطىٰ في هٰذه الواقعة خزيمة ما ألهم معه الجرأة والإسراع في المقايسة والاستنتاج بالأولىٰ في صدق النبي ﷺ؛ لأن الصادق المصدوق في خبر السماء: هو ـ بالأولىٰ ـ صادق قطعاً في دعوىٰ شرائه الفرس، فكان ذٰلك سبب تلك الخصوصية له في الشهادة، كما نطق بذٰلك عليه الصلاة والسلام.





هلمّ شهيداً

(٢)

حين أذكر ما ورد في السنة من قصة ذٰلك الأعرابي ـ واسمه كما جاء في بعض الروايات ـ، سواد بن الحارث ـ الذي باع النبيَّ ﷺ فرسه، ثم أنكر ـ وهو في الطريق إلىٰ قبض ثمنها ـ هٰذه المبايعة رغبة في زيادة عرضت عليه من أناس لم يعرفوا، ولم يعلمهم أنه باعه للنبي عليه الصلاة والسلام، وما كان وراء ذٰلك من الأمور.. حين أذكر ذٰلك: أذكر ما كان من علم النبي ﷺ ـ وهو ذو الخلق العظيم ـ وصبره، وأذكر معه ما كان من صدق إيمان واحد من أصحابه وهو خزيمة بن ثابت الأنصاري، ورجاحة عقله.

أقول هٰذا، وأنا بسبيل الإشارة إلىٰ أن فضل الله كان عظيماً علىٰ هٰذا الصحابي الجليل، حين جعل النبي صلوات الله وسلامه عليه ـ وهو سيد الحكماء ـ شهادته بشهادة رجلين، جزاء ما كان من صدق إيمانه وحسن تأتيه اللذين أقدراه ـ بعون الله ـ علىٰ حل المشكلة التي ابتدعها طمع الأعرابي!! وقد تمثل ذٰلك بقوله للأعرابي ـ وقد سمعه يقول للرسول ﷺ: هلمّ شهيداً ـ أي: أحضر شهيداً ـ يشهد أني قد بعتك ـ بقوله له: أنا أشهد أنك قد بايعته، فقال له النبي ﷺ: «**بم تشهد ولم تكن حاضراً؟**» قال: بتصديقك يا رسول الله، وأنك لا تقول إلا حقاً. فجعل النبي ﷺ **شهادة خزيمة بشهادة رجلين**. وفي رواية أنه قال: «**من شهد له خزيمة أو عليه: فحسبه**».

وجدير بالذكر، أن هٰذه الخصوصية التي خص بها النبي ﷺ بها خزيمة: أصبحت سمة لا تغادر الحديث عنه ما ذُكر، فكما يقال: فلان بدريّ لمن شهد بدراً، يقال عند ذكر هٰذا الصحابي الذي تربىٰ في مدرسة

النبوة: ذو الشهادتين، أو الذي جعل رسول الله شهادته بشهادة رجلين.

وهٰذا ما نجده علىٰ ـ سبيل المثال ـ عند الحافظ ابن عبد البر، وعند الإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني، وعند الإمام الحافظ الذهبي وغيرهم من أولي هٰذا الشأن[1].

وقد جرىٰ النص الواضح عند الكثير من علماء الحديث والطبقات والرجال وغيرهم، علىٰ أن الخصوصية المومىٰ إليها، قد ثبت الأخذ بها من قبل زيد بن ثابت عند جمع القرآن في عهد أبي بكر رضي الله عنه؛ إذ أقام شهادة خزيمة مقام شهادتين في شأن قوله تعالىٰ في سورة الأحزاب، الآية ٢٣: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ...﴾ كما روىٰ البخاري[2].

قال الحافظ الذهبي: (وقال خارجة بن زيد، عن أبيه قال: لما كتبنا المصاحف، فقدت آية كنت سمعتها من رسول الله ﷺ، فوجدتها عند خزيمة بن ثابت: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ...﴾ قال: وكان خزيمة يدعىٰ ذا الشهادتين، أجاز رسول الله ﷺ شهادته بشهادة رجلين)[3].

ولم يدع صاحب «الإصابة» أن يشير ـ بعد ذكره أن رسول الله جعل شهادته شهادة رجلين ـ إلىٰ رواية البخاري في شأن آية سورة الأحزاب التي تكشف أن زيداً أقام شهادة خزيمة مقام شهادتين[4].

ونقل عن الحافظ السيوطي تقريره لحقيقة ما كان لتلك الخصوصية من التأثير في فهم ديني عند جمع القرآن.

جاء في «عون المعبود لحل مشكلات سنن أبي داود» للعلامة شمس الحق العظيم أبادي: (قال العلامة السيوطي: قد حصل لذٰلك تأثير في فهم ديني وقع بعد وفاته ﷺ، وذٰلك فيما روىٰ ابن أبي داود في «المصاحف» عن

---

(١) وانظر: «الاستيعاب» لابن عبد البر: ١/ ٤١٧ مع «الإصابة»: ١/ ٤٢٦، «سير أعلام النبلاء» للذهبي: ٢/ ٤٨٥.

(٢) انظر: «الجامع الصحيح» مع «الفتح»: ٨/ ٤٧٨٤ كتاب التفسير.

(٣) انظر: «سير أعلام النبلاء»: ٢/ ٤٨٦.

(٤) «الإصابة»: ١/ ٤٨٦.

الليث بن سعد قال: أول من جمع القرآن أبو بكر وكتبه زيد بن ثابت، فكان لا يكتب آية إلا بشاهدي عدل، وإن آخر سورة براءة لم توجد إلا مع خزيمة بن ثابت. فقال: اكتبوها فإن رسول الله ﷺ جعل شهادته بشهادة رجلين..) الحديث[1].

وهٰذا الذي أورده الحافظ السيوطي نجده عند البخاري في حديث طويل جاء فيه: حتىٰ وجدت من سورة التوبة آيتين مع خزيمة الأنصاري لم أجدهما مع أحد غيره ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم...﴾ إلىٰ آخرهما.. إلىٰ أن قال البخاري: وقال الليث: حدثني عبد الرحمٰن بن خالد عن ابن شهاب وقال: (مع أبي خزيمة الأنصاري).

فيبدو أنهما حديثان، حديث ينص علىٰ آية ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ من سورة الأحزاب، وحديث ينص علىٰ آيتي ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ [التوبة] وذكر فيه أبو خزيمة مع خزيمة، وقد أتىٰ البخاري في فضائل القرآن بالحديثين معاً في سياق واحد. لذا قال الحافظ ابن حجر في «الفتح»: (والتحقيق ما قدمناه عن موسىٰ بن إسماعيل: أن آيتي التوبة مع أبي خزيمة[2]، وآية الأحزاب مع خزيمة)[3].

وقد جرت الإشارة من قبل إلىٰ رواية البخاري المتعلقة بآية سورة الأحزاب، ونصّها كما روىٰ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في التفسير من «الجامع الصحيح» بسنده عن خارجة بن زيد بن ثابت قال: (لما نسخنا المصحف في المصاحف:

---

(١) «عون المعبود»: ٣/ ٣٤١.

(٢) «فتح الباري»: ٨/ ٣٤٤ ـ ٣٤٥ (٤٦٧٩).

(٣) المصدر السابق: ٨/ ٥١٨ (٤٧٨٤).

فقدت آية من سورة الأحزاب كنت كثيراً أسمع رسول الله ﷺ يقرأها، لم أجدها عند أحد إلا مع خزيمة الأنصاري، الذي جعل رسول الله ﷺ شهادته بشهادة رجلين ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ﴾[1].

وَبَعۡـدُ: فمن فضائل علمائنا الأعلام جزاهم الله خير الجزاء: حرصهم علىٰ دفع الالتباس عند قراءة النصوص، وسد الذريعة دون أهل البدع من تقويل القصة النبوية ما لم تقل، أو تأويل النص ـ تبعاً للهوىٰ ـ علىٰ غير وجهه، وذٰلك ما نجده عند الإمام الخطابي في «معالم السنن» شرح سنن أبي داود. حيث قال بعد شرحه للقصة مدار حديثنا كما هي رواية الإمام أبي داود: (هٰذا حديث عنده بالصدق علىٰ كل شيء ادعاه، وإنما وجه الحديث ومعناه: أن النبي ﷺ إنما حكم علىٰ الأعرابي بعلمه، إذ كان النبي ﷺ باراً في قوله، وجرت شهادة خزيمة في ذٰلك مجرىٰ التوكيد لقوله والاستظهار بها علىٰ خصمه، فصارت في التقدير شهادته له، وتصديقه إياه علىٰ قوله كشهادة رجلين في سائر القضايا)[2].

ولا بد من الإشارة إلىٰ أن علماء أصول الفقه مجمعون علىٰ أن القياس لا يجوز في مسألة خزيمة رضي الله عنه؛ لأن جعل الشهادة بشهادة رجلين خصوصية خصه بها صاحب الشريعة عليه الصلاة والسلام ولا يقاس عليها، إذ من شرط حكم الأصل ـ وهو المقيس عليه ـ أن لا يكون معدولاً به عن سنن القياس؛ أي: عن طريقه المعتبر فيه لتعذر تعدية حكم الأصل وهو المقيس عليه إلىٰ الفرع وهو المقيس[3]. فالذين عناهم الخطابي من المبتدعة يخرجون أيضاً علىٰ هٰذه القاعدة الأصلية المكينة.



---

(١) «الجامع الصحيح» مع «فتح الباري»: ٨/٥١٨ (٤٧٨) كتاب التفسير.

(٢) انظر: «معالم السنن»: ٤/١٧٣.

(٣) وتنظر: «شرح الكوكب المنير» للعلامة ابن النجار: ٤/٢١.

إن لصاحب الحق مقالاً

(١)

مهما حالفك التوفيق في إحكام الصلة بالسنة النبوية ظاهراً وباطناً بشتىٰ أفنان شجرتها المباركة: يكن لك من هٰذا الإحكام الخير العميم في زيادة إيمانك بالنبي ﷺ، وإسعادك بشدة محبته، وأن يربو يقينك بأحقيته ما جاء به عليه الصلاة والسلام من الفضائل وهو يبلغ عن الله ما أراد، ويعمل علىٰ تحقيق الهداية إلىٰ الصراط المستقيم.

وبذٰلك يكون تجديد هٰذه الصلة علىٰ صعيدي العلم والعمل: نوراً علىٰ نور، ونقلة من أفق من آفاق الهدي النبوي إلىٰ أفق مثله، قولاً كان ذٰلك، أو فعلاً أو تقريراً، ومنه ما يكون من القصة وغيرها: بلاغة قول، ونصاعة أسلوب، وسمو غاية، قوامها الدعوة إلىٰ الله، والحرص أبداً علىٰ أن تكون العليا كلمة الله.

علىٰ هدي هٰذه الحقائق: لا يبدو عجباً من العجب: أن تأخذ وقائع القصة التي جرت الدندنة حولها في القريب، مما كنا بسبيله من القول، وعمادها ما ابتلي به النبي ﷺ وهو يمارس شؤون الحياة في المجتمع: من فظاظة ذٰلك الأعرابي الذي اشترىٰ منه فرسه بيقين، وما كان منه ﷺ من الصبر والحلم وسعة الصدر، ثم ما تلا ذٰلك من شهادة الصحابي الجليل خزيمة بن ثابت الأنصاري بتصديقه عليه الصلاة والسلام، وجعله ﷺ وبارك عليه شهادة هٰذا الصحابي بشهادة رجلين، حتىٰ بات يدعىٰ دائماً: ذا الشهادتين.

أجل ولا يبدو عجباً من العجب ـ والخير يذكّر بخير مثله ـ أن تأخذ تلك الوقائع بأيدينا إلىٰ ما حملت الأخبار من لون آخر من ألوان مكارم الأخلاق

التي كان يتحلىٰ بها - فداه أبي وأمي - رسول الله عليه الصلاة والسلام، صبراً وحلماً - كما جاء في قصص السنة المطهرة - وإنصافاً منقطع النظير في التعامل، أحسن الآخرون أو أساؤوا، وكان ذٰلك كله صورة صادقة عن أحقية قوله تعالىٰ خطاباً له: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم] وكمال صدقه الذي يستعصي علىٰ تحديد الزمان والمكان في أداء الأمانة وتبليغ الرسالة، والنصح لعباد الله أجمعين. وكل أولٰئك في حرص علىٰ وضع الأمور مواضعها: ليناً حيث يجب اللين، وشدة حيث تجب الشدة، علىٰ الوجه الذي تمليه - في نور المنهج الرشيد والتوجيه السديد - مصلحة الفرد والجماعة في شتىٰ الأحوال، وهاكم قصة ذٰلك:

روىٰ البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه في كتاب الاستقراض من «الجامع الصحيح»: (أن رجلاً تقاضىٰ رسول الله ﷺ، فأغلظه له، فهمّ به أصحابه، فقال: «**دعوه فإن لصاحب الحق مقالاً، واشتروا له بعيراً فأعطوه إياه. فإن خيركم أحسنُكم قضاء**»)[1].

ورواه مسلم بلفظ: (كان لرجل علىٰ رسول الله ﷺ حق، فأغلظ له، فهمّ به أصحاب النبي ﷺ، فقال النبي عليه الصلاة والسلام: «**إن لصاحب الحق مقالاً**»، فقال لهم: «**اشتروا له سناً فأعطوه إياه، فإن من خيركم - أو خيرَكم - أحسنُكم قضاء**»)[2]. كما روىٰ أحمد والترمذي والنسائي وعبد الرزاق في «المصنف» وغيرهم[3].

هٰذه قصة نبوية تحمل - علىٰ وجازتها - صورة من صور التعامل بين الرسول ﷺ، وبين الآخرين علىٰ اختلاف مواقعهم في المجتمع، وأنه

---

(١) انظر: «الجامع الصحيح» مع «فتح الباري»: ٥/ ٥٦ (٢٣٩٠) كتاب الاستقراض.

(٢) «صحيح مسلم»: ٣/ ١٢٢٥ (١٦٠١) كتاب المساقاة، «صحيح مسلم بشرح النووي»: ١١/ ٣٦ - ٣٩.

(٣) انظر: «عارضة الأحوذي بشرح الترمذي» للحافظ أبي بكر ابن العربي: ٦/ ٥٥ فما بعد، «تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي» للعلامة محمد عبد الرحمٰن المباركفوري: ٤/ ٥٤٥ (١٣٣٠ و١٣٣١)، «المسند»: ٢/ ٤١٦ - ٤٥٦.

ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ كان ـ وهو يبلغ رسالة ربه ويعلّم ويزكّي ويربّي ـ يعيش مع الناس طلباً لهدايتهم، ويسهم في حركة الحياة إسهاماً يوفّر الطاقات لإنشاء الواقع الإسلامي الذي يرمي إلىٰ إنشائه.

هاهو ذا يستقرض بعيراً له سنّ معينة من يهودي أو أعرابي علىٰ خلاف للعلماء في ذٰلك، هٰذه واحدة: أما الثانية: فقد جاء الرجل الدائن يتقاضىٰ رسول الله ﷺ؛ أي: يطلب دينه منه، وإلىٰ هنا لا نقع إلىٰ شيء غريب، ولٰكن الذي حدث: أن المطالبة كانت بصورة سيئة؛ إذ أغلظ هٰذا الرجل القول للنبي ﷺ، في هٰذا يقول الإمام النووي: (فيه أنه يحتمل من صاحب الدين الكلام المعتاد في المطالبة، وهٰذا الإغلاظ المذكور محمول علىٰ تشدّد في المطالبة ونحو ذٰلك من غير كلام فيه قدح أو غيره مما يقتضي الكفر، ويحتمل أن القائل الذي له الدين كان كافراً من اليهود أو غيرهم والله أعلم)[١]. هو قول القاضي عياض[٢] والسيوطي[٣] دون تفصيل.

أما الحافظ ابن حجر: فقد ظل احتمال ما نفاه الإمام النووي قائماً عنده؛ فالإغلاظ ـ كما يرىٰ ـ يحتمل أن يكون بالتشديد في المطالبة من غير قدر زائد، ويحتمل أن يكون بغير ذٰلك، ويكون صاحب الدَّين كافراً؛ فقد قيل: إنه كان يهودياً، والأول أظهر لما جاء في رواية عبد الرزاق في «المصنف»: أنه كان أعرابياً، وكأنه جرىٰ علىٰ عادته من جفاء المخاطبة[٤].

ومهما يكن من أمر: فالذي يبدو أن ما صدر عن الرجل من الغلظة في مخاطبة النبي عليه الصلاة بحضور عدد من الصحابة: قد بلغ به من الجفاء أن يستثير أولٰئك الحضور؛ لأن يهموا به كيما يؤدبوه بمثل غلظته وسوء أدبه مع الرسول ﷺ علىٰ مشهد من الصحابة عليهم الرضوان، ولٰكن لم يفعلوا أدباً معه عليه الصلاة والسلام.

---

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي»: ١١/ ٣٧ ـ ٣٨.
(٢) «إكمال المعلم بفوائد مسلم»: ٥/ ٣٠٠.
(٣) «الديباج علىٰ صحيح مسلم بن الحجاج»: ٤/ ١٩٤.
(٤) «فتح الباري»: ٥/ ٥٦.

والملاحظ: أنه قد أساء مرتين: أولاهما: أنه تصرف علىٰ هٰذه الشاكلة في حين أن الرسول ﷺ لم تحصل منه مماطلة في أداء الدين عند حلول أجل متفق عليه؛ إذ ليس في أي من الروايات نصّ علىٰ أجل معين للأداء.

وثانيتهما ـ أنه بدأ ـ أول ما بدأ ـ بالغلظة دون غيرها من أسلوب في المطالبة يقره العرف عند العرب، خصوصاً والمدين هو الصادق الأمين، رسول الله عليه الصلاة والسلام.

ولٰكن الذي حصل: أنه لم يكد أصحاب النبي ﷺ يهمُّون بالرجل، حتىٰ تألق شعاع الهداية من فيه المبارك عليه الصلاة والسلام، حيث قال لأصحابه: «دعوه فإن لصاحب الحق مقالاً» ولم يكتف ـ آتاه الله الوسيلة والفضيلة وبعثه المقام المحمود ـ بهٰذا؛ بل أضاف إلىٰ ذٰلك قوله: «واشتروا له بعيراً فأعطوه إياه» وحين قالوا: (لا نجد إلا أفضل من سن بعيره، قال عليه الصلاة والسلام: «اشتروه ـ يعني الأفضل ـ فأعطوه إياه، فإن خيركم أحسنكم قضاء»).







إن لصاحب الحق مقالاً

(٢)

هٰذه كلمات نتابع من خلالها استجلاء هدي النبوة فيما قصّت السنة المطهرة من خبر ذٰلك الرجل الذي استقرض منه النبي ﷺ جملاً، ثم أغلظ للنبي عليه الصلاة والسلام في المطالبة، وقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه حين همّ الحضور بهٰذا الدائن: «**دعوه فإن لصاحب الحق مقالاً، اشتروا له سناً** ـ أي: بعيراً له سنٌّ معينة ـ **فأعطوه إياه**»، فقالوا: إنا لا نجد إلا سنّاً هو خير من سنّه. قال: «**فاشتروه فأعطوه إياه، فإن من خيركم** ـ أو خيرَكم ـ **أحسنكم قضاء**».

هٰكذا تجد أن النبي ﷺ كان مع هٰذا الذي أغلظ له بقوله: «دعوه»؛ أي: اتركوه ولا تزجروه، علىٰ غاية من حسن الخلق، علماً وسعة صدر وصبراً علىٰ الجفاء مع القدرة علىٰ الانتقام[1]. وهو درس ما أعظمه درساً علىٰ صعيد العلاقة بين الناس في المجتمع الإسلامي، حيث يثمر هٰذا الخلق من التماسك الاجتماعي والقوة الاقتصادية ما يثمر إذا صدق التأسي بالأسوة الحسنة عليه الصلاة والسلام.

وتبرز بلاغة القول مضمومة إلىٰ أختها عظمة التصرف: بهٰذا التعليل لقوله: «دعوه» وهو قوله ﷺ: «فإن لصاحب الحق مقالاً» كلمات يسيرة ومعان غزيرة. الأمر الذي يجعل هٰذا التعبير صورة صادقة لحقيقة أنه عليه الصلاة

---

(١) وانظر: «الأُبّي علىٰ صحيح مسلم»: ٤/ ٢٩٤، «المفهم لما أشكل من تلخيص مسلم» للإمام أبي العباس القرطبي: ٤/ ٥٠٩.

والسلام قد أوتي جوامع الكلم وخواتمه واختصر له الكلام اختصاراً. قال القرطبي في «المفهم»: (قوله: «إن لصاحب الحق مقالاً» ـ كما هي رواية مسلم ـ: يعني به: صولة الطلب، وقوة الحجة لٰكن علىٰ من يمطل، أو يسيء المعاملة. وأما من أنصف من نفسه فبذل ما عنده، واعتذر عما ليس عنده، فيقبل عذره، ولا تجوز الاستطالة عليه ولا كهره[1])[2] وقريب من هٰذا قول الحافظ ابن حجر: (أي: صولة الطلب وقوة الحجة لٰكن مع مراعاة الأدب المشروع)[3]. وفي تنبيه واضح علىٰ ما يحمله صنيع النبي ﷺ من مراعاةٍ لجانب صاحب الحق كائناً من كان؛ أحسن أو أساء وتوجيه إلىٰ ما هو الفضل الذي هو أرفع من العدل في هٰذا المقام: قال أبو بكر ابن العربي في «عارضة الأحوذي»: (أغلظ صاحب الدين في طلب دينه، وخرج في الاقتضاء عن حد اليمين في موضع يلزم فيه التوقير، والتعظيم الذي هو أكثر منه، فهمّ الحاضرون به، فعلّمهم النبي ﷺ الإغضاء في مثل هٰذا عمن له حق، وسنّ لهم الصبر فيه والاحتمال، ولا يقابل بمثل ذٰلك من الإغلاظ لما له من فضل الحقية علىٰ المطلوب)[4].

ويبدو ـ والله أعلم ـ أن ما عهدناه من بيان النبي عليه الصلاة والسلام ـ وهو يعلم الكتاب والحكمة ويربي النفوس بالكلمة والعمل والقدوة ـ يعطي نوعاً من السعة في أبعاد التصرف النبوي الكريم؛ فخصوص السبب لا يمنع عموم اللفظ، وإذن: فلنتجاوز الحق الذي ذكر بمناسبة اقتضاء الدَّين هنا إلىٰ كل حق مشروع للفرد أوالجماعة، مستنيرين بقوله صلوات الله وسلامه عليه وهو المبلغ عن الله ما أراد ولا ينطق عن الهوىٰ: «**إن لصاحب الحق مقالاً**».

وفي كلا الحالين: يبدو التوجه الحضاريّ المنوّر بروح الإسلام واضحاً

---

(١) كهره: قهره.

(٢) المصدر السابق: ٤/٥٠٩ ـ ٥١٠.

(٣) «فتح الباري»: ٥/٥٦ ـ ٥٧.

(٤) انظر: «عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي»: ٦/٥٧ ـ ٥٨، «تحفة الأحوذي»: ٤/٥٤٧.

كل الوضوح في هٰذه الكلمات من جوامع كلمه عليه الصلاة والسلام، وهو ما نجده في هٰذا الإنصاف في التعامل مع أصحاب الحقوق والتسامي أبداً إلىٰ أن يكون لحسن الخلق في التعامل مكانه بجانب أداء الحقوق، ناهيك عن هٰذا التجرد في التعامل مع الإنسان ـ من حيث هو إنسان ـ فإحسانه أو إساءته في المطالبة بحقه: شيء؛ ولزوم ألا يحرم شيئاً من هٰذا الحق المشروع شيء، والأصل أن يتاح له الوصول إلىٰ الحق كاملاً غير منقوص.

ويتأكد ذٰلك أكثر وأكثر إذا وضعنا في الحسبان ما ذهب إليه بعض شراح الروايات التي حملت أخبار هٰذه القصة: من توكيد أن الدائن الذي مسه طائف الغفلة والجفوة، فأغلظ لرسول الله عليه الصلاة والسلام: كان يهودياً. خلافاً لما رجح ابن حجر وغيره كما أسلفنا.

ها هو ذا أبو العباس أحمد بن عمر القرطبي يقول في كتابه «المفهم» عند شرحه لما جاء في رواية مسلم للقصة من قول أبي هريرة ﵁: (كان لرجل علىٰ رسول الله ﷺ حق فأغلظ له. هٰذا الرجل كان من اليهود، فإنهم كانوا أكثر من يعامل بالدَّين. وحكي أن القول الذي قاله إنما هو: إنكم يا بني عبد المطلب مُطلٌ. وكذب اليهودي؛ لم يكن هٰذا معروفاً من أجداد النبي ﷺ ولا أعمامه، بل المعروف عنهم: الكرم والوفاء والسخاء. وبعيد أن يكون هٰذا القائل مسلماً؛ إذ مقابلة النبي ﷺ بذٰلك: أذىً للنبي ﷺ وأذاه كفر).

وَبَعْـد: فإن الرسول عليه الصلاة والسلام ـ كما هو صريح النص ـ أتبع قوله: «إن لصاحب الحق مقالاً» مكرمة أخرىٰ من مكارم أخلاقه صلوات الله وسلامه عليه: وهي إحسانه للدائن الذي أغلظ له، بالأمر بشراء البعير الذي هو خير من بعيره وإعطائه إياه؛ فحين قال القوم: لا نجد إلا أفضل من سنِّه، قال: «اشتروا له فأعطوه إياه فإن خيركم أحسنكم قضاء» وأكرم بذٰلك من تعليل مشوّق للتطبيق.

وهٰكذا لم يقف الرسول عليه الصلاة والسلام عند الأمر بشراء البعير الأفضل وإعطائه الدائن، بل أرشد ـ كما نرىٰ ـ إلىٰ خيرية من يحسنون قضاء الحقوق. وكم في ذٰلك من ترغيب بهٰذا الخلق الذي لا يخفىٰ ما للتخلق به

من آثار طيبة في إحكام البنية الاجتماعية، وتنمية القدرة علىٰ التعاون الاقتصادي الذي لا تشوبه شائبة الربا وما إليه، ناهيك عن طاعة رسول الله التي هي من طاعة الله في ذٰلك.

وقد استنبط الإمام النووي مما ختمت به هـٰذه القصة من قول رسول الله ﷺ وفعله في هـٰذا الباب: (أنَّه يستحب لمن عليه دين من قرض وغيره أن يردّ أجود من الذي عليه، وهـٰذا من السنة ومكارم الأخلاق، وليس هو من قرض جرَّ منفعة؛ فإنه منهيّ عنه؛ لأن المنهيَّ عنه ما كان مشروطاً في عقد القرض. .)[1].

هـٰذا ولم يدع الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يشير إلىٰ جملة من الفوائد التي اشتمل عليها حديث هـٰذه القصة. ومنها ـ كما جاء في «الفتح» ـ:

(جواز المطالبة بالدين إذا حلَّ أجله. وفيه حسن خلق النبي ﷺ وعظم حلمه وتواضعه وإنصافه، وأن من عليه دين لا ينبغي له مجافاة صاحب الحق، وفيه ما ترجم له البخاري وهو استقراض الإبل ويلتحق بها جميع الحيوانات وهو قول أكثر أهل العلم. . . .

وفيه جواز وفاء ما هو أفضل من المثل المقترض إذا لم تقع شرطية ذٰلك في العقد، فيحرم حينئذ اتفاقاً، وبه قال الجمهور.

وعن المالكية تفصيل في الزيادة، إن كانت بالعدد مُنعت، وإن كانت بالوصف جازت.

وفيه أن الاقتراض في البر والطاعة وكذا الأمور المباحة لا يعاب، وأن للإمام أن يقترض علىٰ بيت المال لحاجة بعض المحتاجين ليوفي ذٰلك من مال الصدقات)، وهـٰذا علىٰ رواية أن اقتراض الرسول ﷺ كان لذٰلك.



(١) «صحيح مسلم بشرح النووي»: ١١/ ٣٧.



الصدق.. والتوكل على الله

١

في قصص الأولين مؤمنهم وكافرهم، حاكمهم ومحكومهم، غنيهم وفقيرهم، عالمهم وجاهلهم: عبرة لأولي الألباب يفيدون منها لحاضرهم، ثم لما يحاولون رسمه للأجيال في مستقبلهم القريب منه والبعيد.

وقد أكرم الله أمتنا ـ وهي أمة الشهادة علىٰ الناس والمؤتمنة علىٰ الرسالة الخاتمة ـ بما حفلت به آيات الكتاب الكريم من القصص القرآني ـ وهو أحسن القصص ـ حيث وفرة الحديث عن الغابرين، كيما تكون هـٰذه الأمة بأجيالها المتعاقبة علىٰ حضور للتاريخ، حتىٰ ما يتعلق منه بمن مضىٰ قبلها عبر القرون، وقل مثل ذٰلك فيما زخرت به المصادر من القصص في السنة النبوية المطهرة؛ كل أولـٰئك لتفيد بوعي وإدراك مما كان خيراً، فتعمل بمنهجية ووضوح في الرؤية علىٰ أن يأخذ مكانه اللائق في سلوك الفرد والجماعة ومسيرة المجتمع المتوازنة، وما كان غير ذٰلك، فتحرص وفق ذٰلك السَّنن علىٰ عدم الوقوع فيه، وعلىٰ التبرؤ من كل ما يمت إليه بصلة.

ناهيك عما تحدثه سعة الاطلاع علىٰ تجارب الآخرين، والوقوف علىٰ مواطن الاعتبار: من الإضاءة الذهنية، والقدرة علىٰ استيعاب ما يكون من حصاد التجارب والاتعاظ بها، وما يحدثه ذٰلك من تكامل في ثقافة وتصورات الإنسان الذي إذا أحكم بناؤه كان من وراء ذٰلك الخير الكثير.

أقول هـٰذا، وبين يدي ما يدل علىٰ توجيه حكيم من النبي عليه الصلاة والسلام إلىٰ العبرة من قصة ما جرىٰ لرجلين ممن كانوا قبلنا موسر ومعسر، حيث معاونة الموسر للمعسر بالقرض الحسن، وأمانة هـٰذا المعسر في سرعة الأداء

عندما أيسر. وما كان من عون الله لهما جزاء ما كانا عليه من صدق وتوكل عليه سبحانه، حيث جرت مقاديره في ذٰلك علىٰ نحو يزيد المؤمن يقيناً علىٰ يقين!!

ناهيك عما يدل عليه إيراد هٰذه القصة من النبي ﷺ ـ وهي مما أطلعه الله عليه من الغيب ـ من أنه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ خير مثال يحتذىٰ في الإنصاف وإعطاء كل ذي حق حقه؛ فلم يمنعه عوج أهل العوج اليهود من أن يكون علىٰ هٰذه السوية من مكارم الأخلاق، كائناً من كان صاحب الحق، والعهد قريب بما رأينا من قوله ﷺ لأصحابه عندما هموا بالذي أغلظ له وهو يطالب بدينه: «**دعوه فإن لصاحب الحق مقالاً**». وأمرهم أن يعطوه أكثر من حقه إذ خير الناس أحسنهم قضاء. وقد روىٰ القصة المومىٰ إليها أحمد والبخاري والنسائي والبزار وغيرهم[1]؛ وهاكم رواية البخاري:

جاء في كتاب الكفالة من «الجامع الصحيح» قول الإمام البخاري:

قال أبو عبد الله: وقال الليث: حدثني جعفر بن ربيعة عن عبد الرحمٰن بن هرمز عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ: «**أنه ذكر رجلاً من بني إسرائيل سأل بعض بني إسرائيل أن يسلفه ألف دينار فقال: ائتني بالشهداء أشهدهم، فقال: كفىٰ بالله شهيداً. قال: فائتني بالكفيل، قال: كفىٰ بالله كفيلاً. قال: صدقت، فدفعها إليه علىٰ أجل مسمىٰ. فخرج في البحر فقضىٰ حاجته، ثم التمس مركباً يركبها ليقدَ عليه للأجل الذي أجله فلم يجد مركباً، فأخذ خشبة فنقرها فأدخل فيها ألف دينار وصحيفة منه إلىٰ صاحبه، ثم زجج موضعها، ثم أتىٰ بها إلىٰ البحر فقال: اللهم إنك تعلم أني كنت تسلفت فلاناً ألف دينار فسألني كفيلاً فقلت: كفىٰ بالله كفيلاً، فرضي بك. وسألني شهيداً فقلت: كفىٰ بالله شهيداً، فرضي بذٰلك. وإني جهدت أن أجد مركباً أبعث إليه الذي له، فلم أقدر، وإني أستودعكها. فرمىٰ بها في البحر حتىٰ ولجت فيه، ثم انصرف وهو في ذٰلك يلتمس مركباً يخرج إلىٰ بلده؛ فخرج الرجل الذي كان أسلفه ينظر**

---

(١) «المسند»: ٢/٣٤٨ ـ ٣٤٩، «الجامع الصحيح» مع «فتح الباري»: ٤/٤٦٩ (٢٢٩٠). وانظر: «شرح صحيح البخاري» لابن بطال: ٦/٤٢١، «إرشاد الساري» للقسطلاني: ٤/١٤٦، «تفسير القرآن العظيم»: ٢/٧٢٢.

لعل مركباً قد جاء بماله، فإذا بالخشبة التي فيها المال، فأخذها لأهله حطباً، فلما نشرها وجد المال والصحيفة، ثم قدم الذي كان أسلفه فأتىٰ بالألف دينار فقال: والله ما زلت جاهداً في طلب مركب لآتيك بمالك فما وجدت مركباً قبل الذي أتيت فيه. قال: هل كنت بعثت إلي بشيء؟ قال: أخبرك أني لم أجد مركباً قبل الذي جئت فيه. قال: فإن الله قد أدّىٰ عنك الذي بعثت في الخشبة، فانصرف بالألف الدينار راشداً»[1].

هٰكذا أبان الرسول ﷺ عن الأمانة وصدق التوكل عند كل من المسلف والمسلَف له: بهٰذا الأسلوب السهل المشوق المؤثر، والبلاغة الفاذة التي لا تجارىٰ، والتي هي سمة من سمات بيانه المشرق، لا تفارق الكلام الصادر عنه، قلَّ أو كثُر، قصة كان، أو خطبة، أو وصية وتعليماً، أو غير ذٰلك.

وتجدر الإشارة هنا إلىٰ رواية، للعلماء مقالٌ في واحد من رجالها أشار إليها الحافظ في «فتح الباري» عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﵄ يرفعه إلىٰ الرسول ﷺ: «**أن رجلاً جاء إلىٰ النجاشي فقال له: أسلفني ألف دينار إلىٰ أجل، فقال له: مَن الحميل بك؟ ـ أي: الكفيل؟ ـ قال: الله، فأعطاه الألف..**» الحديث. قال الحافظ: (واستفدنا منه أن الذي أقرض هو النجاشي، فيجوز أن تكون نسبته إلىٰ بني إسرائيل بطريق الاتباع لهم، لا أنه ـ مِن نسلهم)[2].

ومهما يكن من أمر: فقد وضعنا خبر هٰذه القصة ونحن نتحسس مواطن العظة والاعتبار فيها: أمام واقعة محورها استجابة الرجل المليء لطلب الاستلاف من قبل الرجل الآخر، وتفريج ضائقته، تلا ذٰلك ما شدنا إلىٰ التبين أكثر وأكثر: وهو امتحان الإيمان، إذ قال طالب الاستلاف لصاحبه عندما طلب منه شهيداً علىٰ أنه استلف وسوف يؤدي في أجل مضروب: «كفىٰ بالله شهيداً»، وما كان من المسلف إلا أن قال: «كفىٰ بالله شهيداً»، وحصل مثل ذٰلك لهما بالنسبة للكفيل، فعندما قال الأول: «كفىٰ بالله وكيلاً»، قال صاحبه: «صدقت».

---

(١) «الجامع الصحيح» مع «فتح الباري»: ٤/ ٤٦٩ (٢٢٩١).
(٢) «فتح الباري»: ٤/ ٤٧١.

ونتنقل مع القصة ـ ونحن في رحاب الهدي النبوي فيها علىٰ صعيد ما ينبغي من التأسي ـ إلىٰ ما كان من ثمرات الصدق مع الله والتوكل عليه علىٰ صعيد التطبيق العملي. لقد كان المستلف عند وعده بالوفاء، ودليل ذٰلك: أخذه بالأسباب ولٰكنه لم يوفق! فوضع المبلغ في حرز أمين داخل تلك الخشبة التي لم يتسير له غيرها، ثم دعا الله بحفظها متوكلاً عليه قائلاً: «وإني أستودعكها».

وتسوقها المقادير في البحر إلىٰ حيث يقف الدائن يرقب مجيء المدين، ويحملها إلىٰ داره علىٰ أنها قطعة حطب، وفوجئ ـ بعد أن نشرها ـ بالمال بداخلها والصحيفة، ويا له من درس عظيم لأهل الإيمان. ثم كان ما كان من مظاهر الصدق عند الرجلين، وأشرقت دنياهما بنور التعاون علىٰ الخير، والتوكل الصادق علىٰ الله، والاستعلاء علىٰ حطام الدنيا أمام العون الإلـٰهي لمن يصدقون معه ويتوكلون عليه، وفي ذٰلك فليتنافس المتنافسون.

قال المهلب بن أحمد شيخ ابن بطال في «شرحه لصحيح البخاري»: (وفي حديث الخشبة أن من صح منه التوكل علىٰ الله، فإن الله ﷻ كفيل بنصره وعونه، قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ فالذي نقر الخشبة توكل علىٰ الله ووثق به في تبليغها وحفظها، والذي سلفه وطلب الكفيل: صح منه أيضاً التوكل علىٰ الله، وقنع بالله كفيلاً وحميلاً، فوصل إليه ماله).





الصدق والتوكل على الله

الثمرة الطيبة

(٢)

قصة الرجلين اللذين زان صدق التوكل علىٰ الله تصرف كل منهما مع صاحبه؛ هٰذا أسلف وصدق في الوفاء بحلول الأجل، ولم يتسنَّ له الوصول إلىٰ صاحبه بالمال، فأكرمه الله بإيصال الخشبة التي نقرها ووضع فيها المال بعد أن وضعها في البحر، وتضرع إلىٰ الله ذاكراً حرصه علىٰ أداء الحق في أجله المضروب وقال: «**وإني أستودعكها**».

والآخر الذي أسلف: رأىٰ ـ وهو ينتظر أن يرىٰ مَدينه ـ الخشبة المؤتمنة علىٰ المال فأخذها ـ بعد أن يئس من رؤيته ـ علىٰ أنها حطب يوقده في النار، فإذا به يفاجأ عند كسرها أنها قد احتضنت الألف دينار مع الصحيفة التي شرحت الحال والسبب فيما حصل.

هٰذه القصة التي تشرق وقائعها بتلك الدروس والعبر وفي مقدمتها هٰذا الصدق: الصدق في التوكل الذي لم يعتره أي نوع من أنواع الشك: نقع في بعض رواياتها علىٰ ما يزيد الأمر وضوحاً، ويكشف عما كان من التفاعل الحقيقي بين قلب كل منهما، وبين يقينه بأن ما عند الله آت لا محالة: لما أن الموسر صدق في تفريج كربة أخيه بالقضاء علىٰ ضائقته متوكلاً علىٰ الله، موقناً أنه لن يضيع من حقه شيء مع هٰذا التوكل، وأن المعسر صدق في الحرص علىٰ الوفاء موقناً بأن الله لا بد موصل ما استودع الخشبة من مال بعد أن تضرع إليه متوكلاً عليه، وكان استوداعه المال الخشبة في نور استوداعه إياها سبحانه.

من هٰذه الروايات: رواية مختصرة للبخاري في كتاب الاستئذان من

«الجامع الصحيح» تحت باب (بمن يبدأ بالكتاب) من طريق عمر بن أبي سلمة، عن أبيه أبي سلمة، عن أبي هريرة، وقد أوردها بطولها في كتابه «الأدب المفرد» كما أخرجها ابن حبان في «صحيحه»(١).

وقد أحسن الحافظ رَحِمَهُ اللَّهُ صنعاً في تتبعه للمواطن التي يتحقق معها مزيد من الوضوح في رواية أبي سلمة وغيرها؛ أنه عندما عرض لقول المسلّف: «فائتني بالكفيل، قال: كفىٰ بالله كفيلاً» فقال صاحبه: «صدقت» قال في رواية أبي سلمة: «فقال: سبحان الله نعم» وما أجمل أن يكون العبد دائماً علىٰ هٰذه الحال من صلة القلب بالله.

ونبه علىٰ أن المراد بـ(«فدفعها إليه» الألف دينار ثم قال: وفي رواية أبي سلمة «فعد له ستّمائة دينار» والأول أرجح لموافقة حديث عبد الله بن عمرو، ويمكن الجمع بينهما باختلاف العدد والوزن؛ فيكون الوزن مثلاً ألفاً والعدد ستمائة أو العكس)(٢).

وقد رأينا في الرواية التي أثبتناها من قبل: «فخرج الرجل فأخذها لأهله ـ أي: الخشبة ـ حطباً، فلما نشرها وجد المال والصحيفة» والذي في رواية أبي سلمة: «**وغدا ربّ المال يسأل عن صاحبه كما كان يسأل، فيجد الخشبة فيحملها إلىٰ أهله، فقال: أوقدوا هٰذه، فكسروها، فانتثرت الدنانير منها والصحيفة، فقرأها وعرف**».

وعند شرح قوله: (ثم قدم الذي أسلفه فأتىٰ بالألف دينار) قال الحافظ: (وفي رواية أبي سلمة: «**ثم قدم بعد ذٰلك، فأتاه رب المال فقال: يا فلان مالي! قد أطلت النَّظِرة، فقال: أما مالك فقد دفعته إلىٰ وكيلي، وأما أنت فهٰذا مالك**». سبحان الله كأنها مداعبة بين الاثنين في نور ما كان من فضل الله

---

(١) انظر: «الجامع الصحيح» مع «فتح الباري»: ١/ ٤٨ (٦٢٦١)، «الأدب المفرد»: (١١٢٨)، «الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان» تحقيق وتخريج شعيب الأرناؤوط: (٦٤٨)، «شرح صحيح البخاري» لابن بطال: ٩/ ٤١، باب فيمن يبدأ بالكتاب.

(٢) «فتح الباري»: ٤/ ٤٧١.

في تحقيق رغبة كل منهما في الخير. والنَّظِرة: الإنظار، كما في قوله تعالىٰ: ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾).

قال: (وفي حديث عبد الله بن عمرو أنه قال له: «هٰذه ألفك، فقال النجاشي: لن أقبلها منك حتىٰ تخبرني ما صنعت؟ فأخبره، فقال: لقد أدىٰ الله عنك») وهٰذا محض الإيمان.

وعند الكلام علىٰ قوله: (وانصرف بالألف دينار راشداً) قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (في حديث عبد الله بن عمرو: «قد أدّىٰ الله عنك، وقد بلغنا الألف في التابوت ـ يعني: الخشبة ـ فأمسك عليك ألفك»)[1].

وهٰذه الخشبة التي دخلت التاريخ هي التي نقرها المدين ووضع فيها المال، ثم أصلح موضع النقر وألقاها في البحر متوكلاً علىٰ الله راضياً بما يقضي.

وما كان أصدق أبا هريرة، وتأثره بصنيع هٰذين الرجلين كما أخبر عنهما رسول الله ﷺ، إذ جاء في رواية أبي سلمة وعند ابن حبان بعد سرد القصة: (قال أبو هريرة: ولقد رأيتنا عند رسول الله ﷺ يكثر مراؤنا ولغطنا: أيهما آمن)؛ أي: أيهما أكثر أمانة[2]. وهٰذا التفاعل مع الوقائع بالغ الدلالة علىٰ أن القصة كانت ـ كما أريد لها في الهدي النبوي ـ تعمل عملها المرضيّ في النفوس.

وعلىٰ طريقة علمائنا في الدلالة علىٰ ما تحمل أخبار السنة من الأحكام والفوائد رغبة في المعاونة علىٰ حسن التأسي والاتعاظ بما قص النبي ﷺ من أخبار من قبلنا: بجانب ما أشرنا إليه من مواطن الاتعاظ والتأسي نجد مثلاً عند الحافظ في «الفتح» وفي الحديث جواز الأجل في القرض ووجوب الوفاء به، وقيل: لا يجب بل هو من باب المعروف، وفيه التحدث عما كان في بني إسرائيل وغيرهم من العجائب للاتعاظ والائتساء، وفيه التجارة في البحر. . ،

---

(١) «فتح الباري»: ٤/ ٤٧١، «عمدة القاري شرح صحيح البخاري» لبدر العيني: ١٢/ ١١٧.
(٢) «فتح الباري»: ٤/ ٤٧٢.

وفيه بداءة الكاتب بنفسه ـ وقد أخذ هـٰذا من رواية أبي سلمة: وكتب إليه صحيفة من فلان إلىٰ فلان إني دفعت مالك إلىٰ وكيلي ـ يعني المولىٰ جل شأنه ـ الذي توكل بي ـ وفيه طلب الشهود في الدين وطلب الكفيل به، وفيه فضل التوكل علىٰ الله وأن من صح توكله، تكفّل الله بنصره وعونه.. إلىٰ أن قال: ووجه الدلالة منه ـ أي: من حديث القصة علىٰ الكفالة، كما مر بنا من قبل ـ تحدُّث النبي ﷺ بذٰلك وتقريره له، وقد ذكر ذٰلك ليتأسىٰ به، وإلا لم يكن لذكره فائدة[1].

وَبَعـد: فقد تكون القصة التي هي مدار الحديث: قد جرىٰ الإخبار بها في أكثر من مناسبة؛ لذا فإني ـ حرصاً علىٰ المزيد من النفع إن شاء الله ـ مورد بالإضافة إلىٰ ما رأينا من روايتي الإمام البخاري: رواية ابن حبان في «صحيحه»، ولفظها: («**كان رجل يسلف الناس في بني إسرائيل، فأتاه رجل فقال: يا فلان، أسلفني ستمائة دينار، قال: نعم إن أتيتني بوكيل، قال: الله وكيلي، فقال: سبحان الله، نعم قد قبلت الله وكيلاً، فأعطاه ستمائة دينار، وضرب له أجلاً، فركب البحر بالمال ليتّجر فيه، وقدر الله أن حلّ الأجل، وارتجّ البحر بينهما؛ وجعل رب المال يأتي الساحل يسأل عنه، فيقول الذين يسألهم عنه: تركناه بموضع كذا وكذا، فيقول رب المال: اللهم اخلفني في فلان بما أعطيته بك.**

قال: وينطلق الذي عليه المال، فينحِت خشبة، ويجعل المال في جوفها، ثم كتب صحيفة: من فلان إلىٰ فلان، إني دفعت مالك إلىٰ وكيلي، ثم سدّ علىٰ فم الخشبة، فرمىٰ بها في عرض البحر، فجعل يهوي بها حتىٰ رمىٰ بها إلىٰ الساحل.

ويذهب رب المال إلىٰ الساحل، فيسأل، فيجد الخشبة، فحملها، فذهب بها إلىٰ أهله. وقال: أوقدوا بهـٰذه، فكسروها، فانتثرت الدنانير والصحيفة،

---

(١) «فتح الباري»: ٤/ ٤٧٢، «شرح البخاري» لابن بطال: ٦/ ٤٢٣ ـ ٤٢٤، «البخاري بشرح الكرماني»: ١٠/ ١٢١ ـ ١٢٢.

فأخذها، فقرأها فعرف. وقدم الآخر، فقال له رب المال: مالي! فقال: قد دفعت مالي إلىٰ وكيلي الموكل بي، فقال له: أوفاني وكيلك».

قال أبو هريرة: فلقد رأيتنا يكثر مراؤنا ولغطنا عند رسول الله ﷺ بيننا أيهما آمن)[1].

(ارتجّ البحر): اضطرب. وفي شأن عدد الدنانير سبق أن رأينا ما ذهب إليه الحافظ من إمكان الجمع بين رواية الألف ورواية الستمائة: بإدخال الوزن مع العدد.



---

(١) انظر: «الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان»: ١٤/٤٠٨ ـ ٤٠٩ (٦٤٧٨).

إن لصاحب الحق مقالاً ونور النبوة

إنها صفحة ناصعة نصاعة الحق بالغة الإشراق والصدق، تلك التي أبرزتها مكارم ومحاسن الأخلاق عند المصطفىٰ عليه الصلاة والسلام، والتي كان منها، ما تجلىٰ من إنصافه الدائم في تقديره صاحب الحق ـ مهما يكن شأنه ـ بوصفه صاحب حق. وانبنىٰ علىٰ ذٰلك: إعطاء كل ذي حق حقه ولو كان صاحب هٰذا الحق من أهل الضلال والمعاداة؛ كالذي رأينا ـ فيما سبق من القول ـ من حديثه عليه الصلاة والسلام الذي حمل إلىٰ الأمة قصة ذينك الرجلين من بني إسرائيل، التي كشفت عن قرض الموسر المعسر، وعن حسن الأداء عند المعسر علىٰ الوجه المستطاع، كما أبرزت صدق التوكل علىٰ الله عند كل منهما، وما أكرمهما الله به جزاء هٰذا التوكل من اللطف الذي زادهما إيماناً وتصديقاً بما عنده سبحانه، الأمر الذي يذكر بقصة الرجلين الصالحين مع جرة الذهب.

والموسر المقرض والمعسر المقترض ـ علىٰ اختلاف الروايات ـ من بني إسرائل: ورسول الله ﷺ أعلم الناس بما يتسربله اليهود ـ من مفرِق الرأس إلىٰ أخمص القدم ـ من الموبقات والمهلكات، وبواعث السوء كما دلت علىٰ ذٰلك آيات القرآن، وسلوكهم المخزي في التعامل معه عليه الصلاة والسلام ومع أهل الإسلام.

فهم ـ علىٰ خلطهم الوثنية بدعوىٰ التوحيد ـ يقتلون الأنبياء بغير حق، وينافقون ويخونون الأمانة وينقضون عهد الله وميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض، ويقابلون الإحسان بالإساءة البالغة والغدر المشين.

كما أنهم ـ مع دعوىٰ أنهم شعب الله المختار، وأنهم والنصارىٰ أبناء الله

وأحباؤه، وأن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودة يوم القيامة ـ يقولون: إن الله فقير ونحن أغنياء، كما يقولون ـ ويا لسوء وشناعة ما يقولون ـ: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ . . .﴾ [المائدة:٦٤] إلىٰ آخر ما هنالك من السلسلة النكدة لتصوراتهم ودعاواهم وسلوكهم المجافي للحق والأخلاق، وهو ما يؤيده واقع تعاملهم مع أمتنا صباح مساء، ناهيك عن افترائهم الكذب علىٰ الله، وتحريفهم الكلم عن مواضعه، ولبسهم الحق بالباطل وهو يعلمون.

وهٰكذا لم يحل ضلال يهود ومعاداتهم لله ولرسوله وللمؤمنين، ومناصبتهم للحق وأهله الشر والأذىٰ؛ دون الرسول ﷺ ودون إنصاف رجلي القصة الموميٰ إليها، ووضع الأمور مواضعها بكل أمانة ووضوح، معلّماً بذٰلك أمته: أن ضلال الإنسان شيء، وإنصافه في إعطائه حقه كاملاً غير منقوص شيء آخر. ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة:٨].

وهٰذا لا يعني بحال من الأحوال الغفلة عن صنيع العدو، ولٰكنه يعني الحرص علىٰ إحقاق الحق والترفع عن الظلم مهما كانت الظروف والملابسات.

حملني علىٰ الإشارة إلىٰ هٰذه الحقيقة من منهج النبوة: ما يقع عليه الناظر في «تفسير القرآن العظيم» للمفسر البارع الحجة الحافظ ابن كثير يرحمه الله من حسن تأتيه، وبراعته في دلالة القارئ علىٰ النسب المتصل بين تلك القصة التي يتمثل فيها كمال الإنصاف عند النبي ﷺ وبين ما جاء في سورة آل عمران من إنصاف أولٰئك المغضوب عليهم بأن منهم من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك، فليسوا كلهم مماطلين بحجة أنه ليس عليهم في الأميين سبيل، وإن كانوا كلهم في عصرنا الحاضر علىٰ هٰذه الشاكلة القائمة علىٰ الاستكبار والغطرسة دون استثناء. فهم مباح لهم في دينهم أن يأكلوا أموال المسلمين بالباطل لأنهم مسلمون، ولا حرمة لمال المسلم ولا لنفسه عندهم.

والمشار إليه في سورة آل عمران، هو قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ

عَلَيْهِ قَآئِمًاۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

فبعد أن تكلم ابن كثير علىٰ الشطر الأول من الآية: ذكر أن من المناسب أن يذكر هٰهنا الحديث الذي رواه البخاري وأحمد وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ «**أنه ذكر رجلاً من بني إسرائيل سأل بعض بني إسرائيل أن يسلفه ألف دينار فقال: إيتني بالشهداء أشهدهم، فقال: كفىٰ بالله شهيداً، قال: إيتني بالكفيل قال: كفىٰ بالله وكيلاً قال: صدقت..**» القصة بتمامها كما أوردناها من قبل.

ثم قال رحمه الله: (قوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ﴾؛ أي: إنما حملهم علىٰ جحودهم: أنهم يقولون: ليس علينا في ديننا حرج في أكل أموال الأميين ـ وهم العرب ـ فإن الله تعالىٰ أحلها لنا. قال تعالىٰ: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: وقد اختلقوا هٰذه المقالة وائتفكوا بهٰذه الضلالة؛ فإن الله حرم عليهم أكل الأموال إلا بحقها، ولٰكنهم قوم بهت)[1].

وبعد، فمما لا ريب فيه أن هٰذا الخلق، خلقَ النَّصَفة عند النبي ﷺ وما يثمر ذٰلك من العفو وسعة الصدر: كان له عظيم الأثر في سلوك أصحابه عليهم الرضوان، وفي انشراح الصدر للإسلام عند العديد من الناس. روىٰ الطبراني وابن حبان والحاكم وغيرهم، عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه: أن زيد بن سَعْنَة، أحد أحبار اليهود والذي أسلم وحسن إسلامه ـ كما يقول الإمام النووي ـ وتوفي إبان العودة من تبوك: قال: (ما من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفتها في وجه محمد ﷺ حين نظرت إليه إلا اثنتين لم أخبرهما منه؛ أن يسبق حلمه جهلَه، ولا تزيده شدة الجهل إلا حلماً؛ فكنت أتلطف له لأن أخالطه، فأعرف حلمه، فابتعت منه تمراً معلوماً إلىٰ أجل معلوم، وأعطيته الثمن؛ فلما كان قبل محل الأجل بيومين أو ثلاثة، أتيته، فأخذت بمجامع

---

(١) «تفسير القرآن العظيم»: ٢/ ٧٢٢ ـ ٧٢٣. وانظر: «التقوىٰ في هدي الكتاب والسنة»: ٣/ ٢٨٤ ـ ٢٨٨ للدكتور محمد أديب الصالح.

قميصه وردائه، ونظرت إليه بوجه غليظ، فقلت: يا محمد ألا تقضيني حقي؟ فوالله إنكم يا بني عبد المطلب لَمُطل (وفي رواية: فوالله ما علمتكم بني عبد المطلب لمطل) ـ أي: تسوّفون بأداء الحق مع القدرة عليه ـ فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أي عدوَّ الله أتقول لرسول الله ﷺ ما أسمع؟ فوالله لولا ما أحاذر فوته، لضربت بسيفي رأسك، ورسول الله ﷺ ينظر إلىٰ عمر في سكون وتؤدة وتبسُّم. ثم قال: **«أنا وهو كنا أحوج إلىٰ غير هٰذا منك يا عمر! تأمرني بحسن الأداء، وتأمره بحسن التِّباعة** ـ يعني: المطالبة ـ **اذهب يا عمر فاقضه حقه، وزده عشرين صاعاً مكان ما رُعتَه»**. ففعل عمر رضي الله عنه، فقلت: يا عمر، كل علامات النبوة قد عرفتها في وجه رسول الله ﷺ إلا اثنتين لم أخبرهما منه: يسبق حلمه جهلَه، ولا تزيده شدة الجهل إلا حلماً، فلقد خبرتهما، فأشهدك أني رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً).

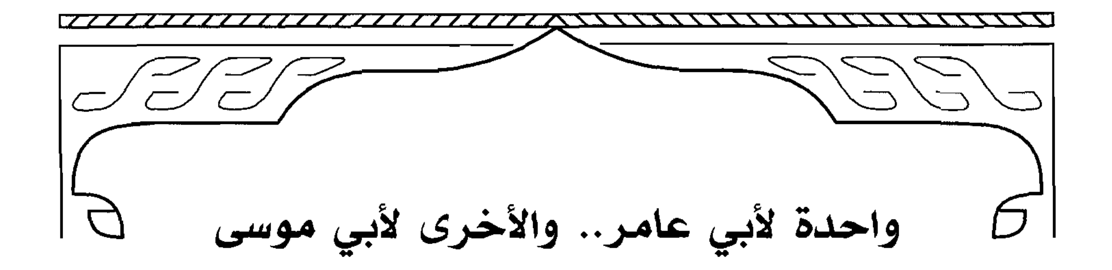
وعند الحاكم: (ورجع زيد إلىٰ رسول الله ﷺ فقال زيد: أشهد أن لا إلٰه إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وآمن به وصدقه وبايعه وشهد معه مشاهد كثيرة ثم توفي منصرفَه من غزوة تبوك)(١).

ولا يخفىٰ ما يعطي سياق القصة من كون النبي ﷺ تصرف علىٰ سجيته في إنصاف صاحب الحق، وإن كان قد جاء يتقاضىٰ بهٰذه الغلظة قبل محِل الأجل بيومين أو ثلاثة، ورأىٰ ﷺ أن يعفو عن هٰذه الغلظة لما أن لصاحب الحق مقالاً، وقال لعمر تلك القولة الدرّية العظيمة: «يا عمر، أنا وهو كنا أحوج إلىٰ غير هٰذا منك: تأمرني بحسن الأداء، وتأمره بحسن التّباعة».

وكان من وراء ذٰلك هٰذا الأثر المبارك؛ إذ أسلم زيد وحسن إسلامه وعُدّ في الصحابة رضي الله عنهم أجمعين، وأين ذٰلك من قردة وخنازير اليوم عليهم لعائن الله!!

---

(١) وانظر: «المستدرك» للحاكم: ٣/ ١٥١ ـ ١٥٢، «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر: ١/ ٥٦٦ (٢٩٠٤)، «الشفاء» للقاضي عياض: ١/ ١٤١ ـ ١٤٢، «سبل الهدىٰ والرشاد في سيرة خير العباد» للإمام محمد الصالحي الشامي: ٧/ ٣٥ ـ ٣٧، «تهذيب الأسماء واللغات» للنووي: ١/ ٢٠٤.



واحدة لأبي عامر.. والأخرى لأبي موسى

من مآثر القصص في السنة النبوية ـ وهو من هديها الكريم بمكان ـ: أنه كثيراً ما يكشف عن الوجه العملي في السلوك المرضي لله ورسوله عند من يقوم عليهم نسيج القصة التي تحمل السنة المطهرة خبر وقائعها كما جرت: الأمر الذي دل علىٰ سمو المنهج الذي كان يأخذ به الرسول عليه الصلاة والسلام صحبه الكرام، وهو يتلو عليهم آيات الله ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ويربيهم علىٰ عينه، وعلىٰ حسن تأسيهم، وطاعتهم له فيما يهديهم إليه!

وهٰذا يدل ـ فيما يدل ـ علىٰ أهمية العناية بقصص أولٰئك الصفوة عليهم الرضوان الذين تراهم يغدون ويروحون ـ وهم يضربون في الحياة، ويبنون الحضارة المثلىٰ ـ: ألسنتهم رطبة بذكر الله، وقلوبهم موصولة به سبحانه، وهم ـ علىٰ المدىٰ ـ أشداء علىٰ الكفار رحماء بينهم، ولهم من علو الهمة في الطاعة والجهاد في سبيل الله: ما يغبطون فيه ويغبطون.

وحاجة الأمة اليوم ـ والملمات تضرب عليها بالأسداد ـ إلىٰ الانتفاع بقصصهم الزاخر بالعبر والدروس: لا تخفىٰ علىٰ ذي بصيرة يبتغي لأمته الخير، ويرجو لها سداداً علىٰ سواء الصراط.

كيف لا ورسول الله ﷺ يقول في حديث رواه أحمد وابن حبان وغيرهما: «.. **وأنا أَمَنةٌ لأصحابي، فإذا ذهبتُ أتىٰ أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أَمَنة لأمتي فإذا ذهب أصحابي أتىٰ أمتي ما يوعدون**»[1].

ومن القصص في هٰذا الباب من سلوك الصحابة المشرق بما رباهم عليه رسول الله صلوات الله وسلامه عليه؛ من التكامل في بناء الفرد والجماعة، ما

---

(١) «المسند»: ٣٢/ ٣٣٥ (١٩٥٦٦)، مسلم: (٢٥٣١)، وابن حبان: (٧٢٤٩).

رویٰ الشيخان وغيرهما ـ واللفظ لمسلم ـ عن أبي بردة، عن أبيه أبي موسىٰ الأشعري ﵁ قال: لما فرغ النبي ﷺ من حنين بعث أبا عامر علىٰ جيش أوطاس فلقي دريد بن الصمة فقتل دريد وهزم الله أصحابه، فقال أبو موسىٰ: وبعثني مع أبي عامر قال: فرُمي أبو عامر في ركبته، رماه رجل من بني جُشَم بسهم فأثبته في ركبته، فانتهيت إليه فقلت: يا عم من رماك؟ فأشار أبو عامر إلىٰ أبي موسىٰ فقال: إن ذاك قاتلي تراه ذٰلك الذي رماني. قال أبو موسىٰ: فقصدت له فاعتمدته فلحقته فلما رآني ولىٰ عني ذاهباً، فاتبعته وجعلت أقول له: ألا تستحيي ألست عربياً ألا تثبت؟ فكفّ فالتقينا أنا وهو فاختلفنا أنا وهو ضربتين، فضربته بالسيف فقتلته، ثم رجعت إلىٰ أبي عامر فقلت: إن الله قد قتل صاحبك، قال: فانزع هـٰذا السهم فنزعته فنزا منه الماء فقال: يا ابن أخي، انطلق إلىٰ رسول الله ﷺ فأقرئه مني السلام وقل له: يقول لك أبو عامر: استغفر لي. قال: واستعملني أبو عامر علىٰ الناس، ومكث يسيراً ثم إنه مات. فلما رجعت إلىٰ النبي ﷺ دخلت عليه، وهو في بيت علىٰ سرير مُرْمَل وعليه فراش وقد أثر رمال السرير بظهر رسول الله ﷺ وجنبيه، فأخبرته بخبرنا وخبر أبي عامر وقلت له: قال: قل له يستغفر لي. فدعا رسول الله ﷺ بماء ثم توضأ منه ثم رفع يديه ثم قال: «**اللهم اغفر لعبيد أبي عامر**» حتىٰ رأيت بياض إبطيه ثم قال: «**اللهم اجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك أو من الناس**»، فقلت: ولي يا رسول الله فاستغفر، فقال النبي ﷺ: «**اللهم اغفر لعبد الله بن قيس ذنبه وأدخله يوم القيامة مدخلاً كريماً**». قال أبو بردة: إحداهما لأبي عامر والأخرىٰ لأبي موسىٰ[1].

(أبو عامر الأشعري): هو عبيد بن سُلَيم بن حضّار عمُّ أبي موسىٰ، وأبو موسىٰ هو عبد الله بن قيس الأشعري ﵄.

---

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي»: ١٦/ ٥٩ ـ ٦٠، و«صحيح مسلم»: (٢٤٩٨). وانظر: «الجامع الصحيح» مع «فتح الباري»: ٨/ ٤١ (٣٢٣)، «صحيح ابن حبان»: (٨١٩٨)، «القيامة مشاهدها وعظاتها في السنة النبوية» للدكتور محمد أديب الصالح: ١/ ٣٥٧ ـ ٣٥٨.

(مرمل) معمول بالرمل وهي حبال الحُصر التي تضفر بها الأسرّة. ومرمّل بالتشديد للتكثير.

و(أوطاس) من النوادر التي جاءت بلفظ الجمع للواحد. وهو واد في ديار هوازن جنوبيّ مكة بنحو ثلاث مراحل. وكانت غزاةُ أوطاس في شوال بعد فتح مكة بنحو شهر؛ ذٰلك أنه لما هزم الله المشركين يوم حنين: بعث رسول الله ﷺ أبا عامر الأشعري وابن أخيه أبا موسىٰ في آثار من التجأ إلىٰ أوطاس من المشركين.

ولما أحس أبو عامر اقتراب أجله بسبب السهم الذي أصابه ـ وهو الأمير حامل اللواء ـ استخلف أبا موسىٰ علىٰ الناس، ولم يلبث إلا يسيراً حتىٰ قضىٰ رضي الله عنه. ثم كان ما دلّ عليه خبر القصة الذي نرىٰ. والملاحظ أن رجُلي هٰذه القصة عليهما الرضوان كانا علىٰ غاية في تكامل السلوك الذي ينبئ عن التكامل في التربية، والتعامل مع الواقع تعاملاً غاية في الانضباط!

أبو عامر يحمل اللواء ويقوم بواجب القيادة، ومواجهة العدو وجهاً لوجه، وأبو موسىٰ يطيع بيقظة ونباهة لا تخفيان. وينزع السهم الذي أثبته الجشمي في ركبة أبي عامر، والذي كان فيه ـ بقدر الله ـ حتفه، وكان من حسن المداورة مع خصمه قاتل أبي عامر والذي دله هو عليه: أن ردّه إلىٰ المواجهة بعد محاولة الفرار، وتمكن من قتله.

ومما يبدو علىٰ غاية من الأهمية: أن أبا عامر كان ـ وهو يتطلع إلىٰ الشهادة علىٰ أرض المعركة، ويصاب بالسهم القاتل الذي أثبت في ركبته ـ حريصاً الحرص كله علىٰ حسن العاقبة في الآخرة، فهمّه أن يلقىٰ الله يوم يلقاه، طاهر الذيل مغفوراً له، ومن أحسن استغفاراً مرجوَّ القول من رسول الله عليه الصلاة والسلام؟ لذا كان كل ما أوصىٰ به أبا موسىٰ وهو يجود بنفسه مستقبلاً سكرات الموت بعد أن نزع له السهم من ركبته، فانصب من موضعه الماء أن قال له: (يا ابن أخي انطلق إلىٰ رسول الله ﷺ فأقرئه مني السلام وقل له: يقول لك أبو عامر استغفر لي) وما لبث بعد ذٰلك أن قضىٰ

نحبه رضي الله عنه[1].

وعمل أبو موسىٰ بالوصية، واهتم رسول الله بالأمر غاية الاهتمام؛ فدعا بعد الوضوء لأبي عامر بالمغفرة، وهو رافع يديه حتىٰ رأىٰ أبو موسىٰ بياض إبطيه ـ كما جاء في النص ـ وسماه باسمه مع الكنية، وهٰذه لها دلالتها الحميدة من الرسول عليه الصلاة والسلام علىٰ ساحتي الرحمة والتحبب، ولم يقتصر علىٰ ذٰلك، بل أضاف ـ وهو بالمؤمنين رؤوف رحيم، فما بالك بواحد من قادة الجهاد ـ قوله: «اللهم! اجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك، أو من الناس».

ولم يكن موقف أبي موسىٰ بأقل أهمية من موقف أبي عامر علىٰ ساحة الرغبة الصادقة بالمغفرة ودعاء رسول الله ﷺ له بها، ألم تره يقول: فقلت: ولي يا رسول الله فاستغفر، ويا نعم ما كان من الرسول الإنسان سيد بني الإنسان؛ إذ لم يكد يسمع كلمات أبي موسىٰ حتىٰ قال: «اللهم! اغفر لعبد الله بن قيس ذنبه، وأدخله يوم القيامة مدخلاً كريماً» وإنه لدعاء مشرق بما أشرق به الدعاء لأبي عامر من التحبب الكريم ورحمة الرؤوف الرحيم عليه الصلاة والسلام. وجميل قول أبي بردة راوي القصة عن أبيه: واحدة لأبي عامر والأخرىٰ لأبي موسىٰ. ألا ما أكثر العبر وأقل المعتبرين.



(١) انظر: «فتح الباري»: ٨/ ٤٣ (٤٣٢٣) مغازي.



أبو موسى.. وبركة الدعاء النبوي

القصص في السنة النبوية ـ والسنة بيان الكتاب ـ بحر زاخر بالعطاء، مفعم بالدروس والعبر التي تشرق بالهدي المحمدي في شتىٰ الجوانب ومختلف الشؤون والأحوال.

أقول هٰذا، والعهد قريب بما وقفتنا عليه قصة أبي عامر الأشعري حامل اللواء في جهاد من جنح من المشركين إلىٰ أوطاس بعد غزوة حنين، وابن أخيه أبي موسىٰ: مما كان لأبي عامر ﷺ ـ وهو يجود بنفسه مستقبلاً الشهادة التي كانت قاب قوسين أو أدنىٰ ـ من حنين إلىٰ أن يلقىٰ الله وقد استغفر له رسول الله ﷺ ودعا له بخير بعد إبلاغه تحيته وهو علىٰ الحال الآنفة الذكر، وكيف أن رسول الله وهو صلوات الله وسلامه عليه بالمؤمنين رؤوف رحيم: بادر إلىٰ الوضوء، ثم الدعاء له بالمغفرة وأن يرفع الله قدره في الآخرين.

ثم ما كان من صادق الرغبة عند أبي موسىٰ ـ وهو الشاب الذي استنار قلبه بنور التربية النبوية ـ في أن يكون له هو الآخر: حظ من دعاء الرسول عليه الصلاة والسلام، وإكرام الله له بذٰلك، واستجابة رسول الله ﷺ لهٰذه الرغبة ودعائه له بالمغفرة وأن يدخله مدخلاً كريماً.

ومن العظات التي خلفتها هٰذه القصة والتي يجب أن تأخذ حظها من نفس المؤمن وقلبه: أن بركة دعوة النبي ﷺ لأبي موسىٰ عبد الله بن قيس: قد صحبته في حياته كلها بدءاً من مرحلة الشباب: وكأين من واقعة حصلت له تدل دلالة واضحة علىٰ هٰذه الحقيقة: من ذٰلك ما روىٰ أحمد والترمذي والنسائي والحاكم وغيرهم عن عبد الله بن بريدة الأسلمي عن أبيه قال: جاء رسول الله ﷺ إلىٰ المسجد وأنا علىٰ باب المسجد، فأخذ بيدي فأدخلني المسجد، فإذا رجل يصلي يدعو يقول: اللهم! إني أسألك بأني أشهد أنك الله الذي لا إلٰه إلا أنت

الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

وفي رواية قال عبد الله: خرج بريدة عشاء، فلقيه النبي ﷺ فأخذ بيده فأدخله المسجد فإذا صوت رجل يقرأ، فقال النبي ﷺ: «**تراه مرائياً؟**» فأسكت بريدة، فإذا رجل يدعو، فقال: اللهم! إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله الذي لا إلـٰه إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد. فقال النبي ﷺ: «**والذي نفسي بيده** ـ أو قال: **والذي نفس محمد بيده ـ لقد سأل الله باسمه الأعظم الذي إذا سئل به أعطىٰ وإذا دعي به أجاب**».

قال: فلما كان من القابلة، خرج بريدة عشاء، فلقيه النبي ﷺ، فأخذ بيده، فأدخله المسجد، فإذا صوت رجل يقرأ؛ فقال النبي ﷺ: «**أتقوله مرائياً؟**» فقال بريدة: أتقوله مرائياً يا رسول الله؟ فقال النبي: «**لا بل مؤمن منيب، لا، بل مؤمن منيب**» فإذا الأشعري يقرأ بصوت له في جانب المسجد، فقال رسول الله ﷺ: «**إن الأشعري** ـ أو: **إن عبد الله بن قيس ـ أعطي مزماراً من مزامير داود**» فقلت: ألا أخبره يا رسول الله؟ قال: «**بلىٰ فأخبره**» فأخبرته، فقال: أنت لي صديق، أخبرتني عن رسول الله بحديث[١].

وفي رواية لأبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**لقد أعطي أبو موسىٰ مزماراً من مزامير آل داود**»[٢].

قول عبد الله: (فأسكت بريدة): أي سكت. وقوله ﷺ: «أتقوله مرائياً؟»؛ أي: أتظنه؟ واستعمال العرب القول بمعنىٰ الظن مع استفهام المخاطب: مألوف عندهم. من ذٰلك قول هدبة بن خشرم:

متىٰ تقول القُلصَ الرواسما يحملن أم قاسم وقاسما[٣]

---

(١) وانظر: «المسند»: ٣٨/ ٤٥ (٢٢٩٥٢)، «سنن الدارمي»: (٣٤٩٨)، «الجامع الترمذي»: (٣٤٧٥)، النسائي في «الكبرىٰ»: (٨٠٥٨)، «سنن أبي داود»: (١٤٩٤).

(٢) «الطبقات الكبرىٰ» لابن سعد: ٤/ ١٠٧، «المسند»: ٢/ ٤٥٠، «سنن ابن ماجه»: (١٣٤١). وانظر: «التقوىٰ في هدي الكتاب والسنة» للدكتور محمد أديب الصالح: ١/ ٢١٣ ـ ٢١٤.

(٣) وانظر: «الخزانة» للبغدادي: ٩/ ١٨٣، «الشاهد»: (٧٢٢).

أي: متىٰ تظن الإبل الرواسم التي تؤثر في الأرض وهي تمشي.

وقول النبي عليه الصلاة والسلام مثنياً علىٰ أبي موسىٰ في قراءته للقرآن: «إن الأشعري ـ أو: إن عبد الله بن قيس ـ أعطي مزماراً من مزامير داود» أو **«من مزامير آل داود»**. شبّه حسن صوته وحلاوة نغمته ـ كما يقول ابن الأثير ـ: بصوت المزمار. وداود هو النبي ﵇ وإليه المنتهىٰ في حسن الصوت بالقراءة[1].

وتجدر الإشارة هنا إلىٰ أن رواية عند الإمام أحمد فيها البشارة بالمغفرة لأبي موسىٰ ﵁ إذ روىٰ بسنده عن حنظلة بن علي أن محجن بن الأدرع حدثه: أن رسول الله ﷺ دخل المسجد؛ فإذا هو برجل قد قضىٰ صلاته وهو يتشهد وهو يقول: اللهم! إني أسالك بالله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، أن تغفر لي ذنوبي إنك أنت الغفور الرحيم. قال: فقال النبي ﷺ: **«قد غفر له، قد غفر له، قد غفر له»** ثلاث مرات[2]. وإنه لحسن أن تضم هـٰذه البشارة العظيمة إلىٰ الدعاء له في أعقاب أوطاس بالمغفرة والمُدخل الكريم، لما أنه نور علىٰ نور.

وإذا كان الأمر كذٰلك: فلا بدع أن يكون عمر ﵁ حفياً بصلة أبي موسىٰ بالقرآن الكريم، وما أعطيه من جمال الأداء بحنو يلامس شغاف القلب ويعين علىٰ التدبر بجانب بشريات النبي عليه الصلاة والسلام.

فقد روىٰ ابن سعد في «الطبقات» وابن عساكر في «تاريخه» عن أبي سلمة قال: (كان عمر إذا رأىٰ أبا موسىٰ قال: ذكرنا ربنا يا أبا موسىٰ ـ وفي رواية: شوقنا إلىٰ ربنا ـ فيقرأ عنده)، وأورده الحافظ في «الإصابة» والذهبي في «السير»[3].

---

(١) «النهاية» لابن الأثير مادة: (زمر): ٢/ ٣١٢.

(٢) «المسند»: (١٨٩٧٤). وانظر: «المسند»: ٣٨/ ٤٨ ـ ٥٠.

(٣) «طبقات ابن سعد»: ٤/ ١٠٩، «الإصابة في تمييز الصحابة»: ٣/ ٣٦٠ مع «الاستيعاب» لابن عبد البر، «تاريخ ابن عساكر»: (٥٢٦)، «سير أعلام النبلاء» للذهبي: ٢/ ٣٩١، «التقوىٰ في الكتاب والسنة» للدكتور محمد أديب الصالح: ١/ ٢٠٩.

وإذا كان الخير يجلب الخير: فلنذكر مع هٰذا الذي رأينا من بالغ حسن الظن عند عمر بالشاب التقي النقي أبي موسىٰ ﵁: ما أتحفتنا به مصادر السنة وعلومها وما هو من ذٰلك بسبب، من تلك القصة التي وقعت لأبي موسىٰ مع الخليفة الراشد، والتي تجلىٰ فيها استمساك عبد الله بن قيس أبي موسىٰ بالسنة وصدعه بتبليغها والعمل بها، وإنصاف الخليفة الثاني عليهما الرحمة والرضوان.

ذٰلكم ما روىٰ البخاري ومسلم وغيرهما ـ واللفظ للبخاري ـ عن الصحابي الشاب أبي سعيد الخدري قال: كنت في مجلس من مجالس الأنصار، إذ جاء أبو موسىٰ كأنه مذعور، فقال: استأذنت علىٰ عمر ثلاثاً فلم يؤذن لي، فرجعت، فقال: ما منعك؟ قلت: استأذنت ثلاثاً فلم يؤذن لي فرجعت، وقال رسول الله ﷺ: **«إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فليرجع»** فقال: والله لتقيمنّ عليه ببينة. أمنكم أحد سمعه من النبي ﷺ؟ فقال أُبي بن كعب: والله لا يقوم معك إلا أصغر القوم، فقمت معه، فأخبرت عمر أن النبي ﷺ قال ذٰلك[1].

وفي رواية لمسلم: (قال ـ أي: عمر ـ لتقيمنّ علىٰ هٰذا بينة أو لأفعلنّ. فخرج فانطلق إلىٰ مجلس الأنصار، فقالوا: لا يشهد لك علىٰ هٰذا إلا أصغرنا، فقام أبو سعيد، فقال: كنا نؤمر بهٰذا. فقال عمر: خفي عليّ هٰذا من أمر رسول الله ﷺ ألهاني عنه الصفق بالأسواق...) والبغوي في «شرح السنة»[2].

إنها قصة حضارية معبرة تشرق ـ كما أسلفت ـ باستمساك الصحابي الشاب أبي موسىٰ بالسنة وتبليغها، وشجاعته في كلمة الحق، كما تشرق بإنصاف عمر ﵁، وما كان يسود المجتمع المسلم من حرية التعبير عن الحق، وحصانة أصحابه ورفعة قدرهم كما هو الشأن في هدي الإسلام الحنيف.

---

(١) «الجامع الصحيح» مع «الفتح» كتاب الاستئذان، باب التسليم والاستئذان ثلاثاً: ١١/٢٦ ـ ٢٧. وانظر أيضاً: «الفتح»: ٤/٢٩٨ و١٣/٣٢٠، «التقوىٰ في الكتاب والسنة»: ١/٢١٠.

(٢) «صحيح مسلم»: (٢١٥٣) في الاستئذان من كتاب الآداب، «شرح السنة» للبغوي: ١٢/٢٨٠ ـ ٢٨١.



التوأمان المباركان وجريج

من مكارم القصص في السنة النبوية: أن الرسول عليه الصلاة والسلام ـ وهو المبلغ عن ربه ما أراد، والمؤتمن علىٰ بيان الهدي القرآني في الكتاب العزيز ـ كثيراً ما كان يقص علىٰ أصحابه من أنباء الذين خلَوا من قبلهم ـ فيما يقص عنهم علىٰ النحو الذي أطلعه الله من غيب ما مضىٰ ـ ما يهدف إلىٰ تقرير واحدة أو أكثر من الحقائق التي يشرق بها الهدي الرباني، عن طريق العظة والاعتبار، الأمر الذي يسعف في أخذ النفوس بتلك الحقيقة؛ وتطويع السلوك لها طاعة لله ﷻ.

من هٰذه الحقائق التي استخدم القصة لتقريرها وتوكيدها بأسلوبه الحكيم المتميز: ما كان يحرص عليه ﷺ: من بناء الفرد والجماعة علىٰ أن قبول العلم علىٰ ساحة الطاعة والإنابة: لا بد أن يتوافر له شرطان اثنان: أولهما ـ أن تكون العبادة علىٰ علم بأحكام ما شرع الله سبحانه. وثانيهما ـ أن تكون هٰذه العبادة خالصة لله ﷻ لا تشوبها شائبة شرك أصغر بله الأكبر.

ذٰلك بأن العبادة علىٰ جهل، مدعاة لأن يعوجّ العمل بدلاً من أن يستقيم، فتسوء النتائج بسوء المقدمات: مثوبة أو عقوبة. ثم إن العابد علىٰ جهل: قد يفسد من حيث أراد أن يصلح. إذ كيف يعبد مولاه وهو جاهل بما يكون ائتماراً بأمره، واتقاءً لنهيه، وكيف يكون من المتقين، وهو لا يعرف الحلال فيفعله، والحرام فيتقيه؟!

ثم أي عبادة هٰذه التي يشوبها التوجه إلىٰ غيره وهو المعبود سبحانه، فإذا توافر العلم، ولم يتوافر الإخلاص؛ بأن أصبحت العبادة غشاوة تعكر صفو التوحيد الخالص، من حب الظهور، أو كسب رضا الخلق لتحقيق مغنم دنيوي؛ فتلك طاقة الرياء أو ما هو منه بسبب، وربنا جل وعلا أغنىٰ الأغنياء عن الشرك!!

وعلىٰ ساحة الهداية في هٰذه البابة المباركة: حملت إلينا مصادر السنة

المطهرة ما قصه النبي عليه الصلاة والسلام من خبر جريج أحد العبّاد ممن كانوا قبلنا، الذي أوقعه الجهل بالأحكام في هوة من التعب المضني، ولولا أن تداركه الله برحمته جزاء إخلاصه: لكانت العاقبة التي هي علىٰ النقيض مما فرّغ نفسه له من العبادة الدائمة في صومعته بعيداً عن الناس!

الأمر الذي يؤكد ضرورة أن يتوافر للطاعة كي تكون مقبولة سواء كانت عبادة أو تعاملاً أو سلوكاً: توأما العلم والإخلاص المباركان، وإلا عاد العمل علىٰ أصله بالنقض، وذهب أدراج الرياح!!

قال الإمام مسلم: حدثنا شيبان بن فرّوخ قال: حدثنا سليمان بن المغيرة قال: حدثنا حميد بن هلال، عن أبي رافع، عن أبي هريرة أنه قال: «**كان جريج يتعبد في صومعة، فجاءت أمه**. قال حميد: فوصف لنا رافع صفة أبي هريرة لصفة رسول الله ﷺ أمَّه ـ، حين دعته كيف جعلت كفها فوق حاجبها، ثم رفعت رأسها إليه تدعوه ـ **فقالت: يا جريج، أنا أمك كلمني فصادفته يصلّي فقال: اللهم! أمي وصلاتي، فاختار صلاته فرجعت، ثم عادت في الثانية فقالت: يا جريج، أنا أمك فكلمني قال: اللهم! أمي وصلاتي، فاختار صلاته فقالت** ـ وفي رواية: **فقالت في الثالثة** ـ: **اللهم! إن هٰذا جريج وهو ابني وإني كلمته فأبىٰ أن يكلمني، اللهم! فلا تمته حتىٰ تريه المومسات ـ أو وجه المومسات ـ قال: ولو دعت عليه أن يُفتن لفتن. قال: وكان راعي ضأن يأوي إلىٰ ديره قال: فخرجت امرأة من القرية فوقع عليها الراعي، فحملت فولدت غلاماً فقيل لها: ما هٰذا؟ قالت: من صاحب هٰذا الدير قال: فجاؤوا بفؤوسهم ومساحيهم فنادوه فصادفوه يصلي فلم يكلمهم قال: فأخذوا يهدمون ديره، فلما رأىٰ ذٰلك نزل إليهم..**

فقالوا: سل هٰذه، قال: فتبسم ثم مسح رأس الصبي فقال: من أبوك؟ قال: أبي راعي الضأن؛ فلما سمعوا ذٰلك منه، قالوا: نبني ما هدمنا من ديرك بالذهب والفضة. قال: لا، ولٰكن أعيدوه تراباً كما كان، ثم علاه»[1].

---

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي»: ١٦/ ١٠٥ ـ ١٠٦، «صحيح مسلم»: (٢٥٥٠)، «المفهم لما أشكل من صحيح مسلم» للإمام أبي العباس القرطبي: ٦/ ٥١١، باب ما يتقىٰ من دعاء الأم.

(الدير): كنيسة منقطعة عن العمارة تنقطع فيها رهبان النصارىٰ لتعبدهم قال الإمام النووي: وهو بمعنىٰ الصومعة المذكورة في هٰذه الرواية، وهي نحو المنارة ينقطعون فيها عن الوصول إليهم والدخول عليهم.

(المومسات): جمع مومس وهي الفاجرة البغي العاهرة بذٰلك.

(الفؤوس): جمع الفأس الذي يشق به الحطب وغيره، وهو مهموز وقد يخفّف فيقال: فاس.

(المساحي): جمع مسحاة وهي كالمجرفة التي يجرف بها التراب وغيره إلا أنها من حديد.

هٰكذا قص النبي ﷺ ببلاغته المشرقة وأسلوبه الرفيع خبر هٰذه الأم التي بلغت ـ كما يدلّ السياق ـ من الكبر عتيّا، وولدها العابد الناسك جريج.

وقد حمل الشوق النديّ بعاطفة الأمومة تلك الأم ـ علىٰ كبر سنها ورقة عظمها ـ علىٰ الذهاب مرتين أو ثلاثاً بغية رؤيته والحديث إليه.

وهنا تبرز عقدة هٰذه القصة: فما الذي حصل للأم يا ترىٰ؟ الواقع أنها عبثاً كانت تحاول لقاءه واستجابته لدعوتها، فلا ترجع إلا بالصدىٰ والحسرة المتجددة، ووقع الحسرة ما أشدّه علىٰ قلب الأم والأم هي الأم!!

ولأمر ما أحاطنا النبي ﷺ ـ وقد أوتي جوامع الكلم ـ بصفة هٰذه الأم كاملة حتىٰ كأنا نشهدها، وهي تحاول ما تحاول بعد الذي يعتريها من النَّصَب؛ ذٰلكم ما رأينا من قول حميد راوي الخبر: فوصف لنا أبو رافع صفة أبي هريرة لصفة الرسول ﷺ أمه ـ يعني: جريجاً ـ حين دعته، كيف جعلت كفها فوق حاجبها، ثم رفعت رأسها تدعوه فقالت: يا جريج أنا أمك فكلمني. .

ويتكرر المشهد مرتين أو ثلاثاً، ولٰكن جريجاً بسبب من جهله بالأحكام، وقد صادفته أمه يصلي صلاة النافلة حار في أمره؛ أيستجيب لنداء أمه المتعبة المجهدة، أم يستمر في صلاته، فرجّح الثانية خطأ لأنه في نافلة وإجابة الأم وبرها واجب. وهٰكذا وقعت الإساءة لأغلىٰ الناس وأعز الناس وأولاهم بالطاعة والإحسان.

ولما بلغ الجهد الجسمي والنفسي من هـٰذه الأم ما بلغ: دعت عليه بأن يريه الله وجه المومسات، واستجاب الله دعاءها وهي الأم المساءُ إليها من قبل فلذة كبدها، وثار الرعاع الذين لا يعون ولا يتثبتون فصدقوا اتهامه بالفاحشة وأساؤوا إليه وهدموا الصومعة، ولـٰكن الله الرحمٰن الرحيم تداركه ـ جزاء صدقه فيما هو فيه ـ برحمة من لدنه، فانكشفت الغمة وفرِّج الكرب حيث نطق الصبي بأن أباه راعي الضأن لا جريج، ثم كان ما كان من التحول..

وقد كشف العلماء عن زمرة من العبر في هـٰذا اللون من قصص السنة النبوية؛ كالذي نرىٰ عند الإمام النووي في «شرح صحيح مسلم» حيث اختار أن يعنون لهـٰذه القصة بقوله: (باب تقديم الوالدين علىٰ التطوع بالصلاة وغيرها) وهـٰذا منه رَحِمَهُ ٱللَّهُ تذكير بأنه لا بد من العلم بالأحكام كيما تكون العبادة صحيحة مقبولة.

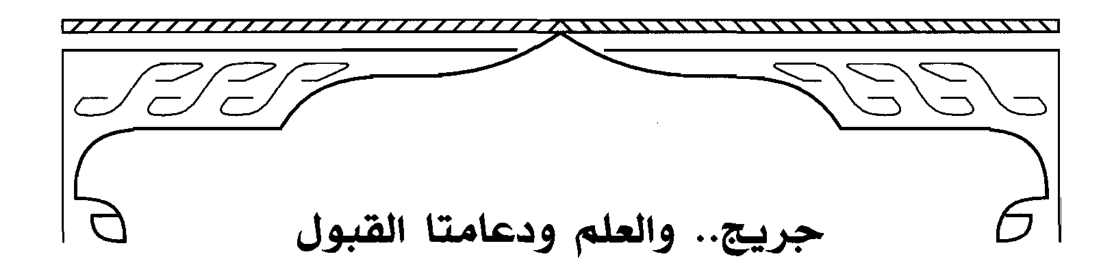
ثم قال: (فيه قصة جريج رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مع أمه وأنه آثر الصلاة علىٰ إجابتها فدعت عليه، فاستجاب لها. قال العلماء: هـٰذا دليل علىٰ أنه كان الصواب في حقه إجابتها؛ لأنه كان في صلاة نفل والاستمرار فيها تطوع لا واجب، وإجابة الأم وبرها واجب، وعقوقها حرام. وكان يمكن أن يخفف الصلاة ويجيبها، ثم يعود لصلاته، فلعله خشي أنها تدعوه لمفارقة صومعته والعودة إلىٰ الدنيا ومتعلقاتها وحظوظها، وتضعف عزمه فيما نواه وعاهد عليه)[1].

ومهما يكن من أمر فالتوجيه النبوي قائم علىٰ الاعتبار المؤدي إلىٰ العناية بعلوم الشريعة مضموماً إلىٰ ذٰلك الإخلاص، كيما تكون الطاعة صحيحة مقبولة عملاً بقوله تعالىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

وعلىٰ غير المستطيع أن يسأل أهل الذكر فيما يريد.



(١) «صحيح مسلم بشرح النووي»: ١٦/ ١٠٥.



جريج.. والعلم ودعامتا القبول

الاعتبار بقصص الماضين في ميادين الحياة، مما كان قصه النبي ﷺ علىٰ أصحابه: ـ وهو سمة من سمات أولي الألباب ـ ركيزة أساسية من ركائز المنهج النبوي في تربية المسلم ـ ذكراً كان أو أنثىٰ ـ كيما ينتفع ـ وهو يبني حاضره علىٰ مفاهيم الإسلام ـ من الماضي بكل أبعاده؛ فما كان صواباً في ضوء تعاليم الدين الحنيف عمل به، وما كان غير ذٰلك: اجتنبه وجفا كل ما هو منه بسبب أو نسب. ناهيك عما تحدثه سعة الاطلاع علىٰ ما حصل في الماضي والوقوف علىٰ مواطن الاعتبار من الإضاءة الذهنية والتكامل في ثقافة الإنسان وقدرته علىٰ الإسهام في البناء الحضاري السليم.

ومن نماذج هٰذا القصص المثقل بالدروس والعبر في السنة النبوية: ما العهد به قريب من قصة جريج العابد، وما أوقعه فيه عدم العلم من الإساءة لأمه الصالحة المفعم قلبها بحبه، والتي بلغ التعب منها والجهد وهي تتطلع إلىٰ رؤيته والاستجابة لدعوتها دون طائل، الأمر الذي جعلها تدعو عليه ولٰكن لا بالفتنة، وأجيبت دعوتها، ثم كان اللطف الإلٰهي بجريج وأمه.

ومن وجوه الاعتبار هنا: ما يؤكده صنيع هٰذا العابد وما حصل له بسبب عدم العلم: من أحقية ما تقرر في القرآن الكريم والسنة النبوية ـ كما أسلفنا من قبل ـ من أن مدار قبول العبادة ـ والطاعة عموماً ـ: أن تكون وفق الهدي المحمدي، وهٰذا لا بد له من الفقه في دين الله والعلم بأحكامه، وأن تكون خالصة لله ﷻ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

وقد سبقت الإشارة إلىٰ أن الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في إضاءة الطريق لأهل الاعتبار والانتفاع بالعبر والدروس من هٰذه القصة بوّب لها في «شرحه لصحيح

مسلم» بباب عنوانه: (باب تقديم الوالدين علىٰ الصلاة بالتطوع وغيرها) كما أشار في ثنايا كلامه إلىٰ أن جريجاً لو كان علىٰ علم: لدرىٰ كيف يسلك السبيل الأقوم، ولا يقع فيما وقع فيه وهو المتبتل المنصرف إلىٰ العبادة.

وهٰذا يقودنا إلىٰ رواية أخرىٰ فيها شيء من التفصيل يعين علىٰ المزيد من فقه الوقائع والاعتبار، جاء الحديث فيها عن جريج وأمه بمناسبة الإخبار عن الذين تكلموا في المهد، ومنهم ذٰلك الصبي الذي أنطقه الله فبرّأ جريجاً من الفاحشة حين قال له جريج: من أبوك؟ فقال: راعي الضأن!

روىٰ الإمام مسلم بسنده عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة ﵁، عن النبي ﷺ قال: «**لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسىٰ ابن مريم، وصاحب جريج، وكان جريج رجلاً عابداً فاتخذ صومعة، فكان فيها، فأتته أمه وهو يصلي، فقالت: يا جريج. فقال: يا رب! أمي وصلاتي، فلما كان من الغد أتته وهو يصلي فقالت: يا جريج، فقال: يا رب! أمي وصلاتي، فأقبل علىٰ صلاته، فانصرفت، فلما كان من الغد أتته وهو يصلي فقالت: يا جريج فقال: أي رب! أمي وصلاتي فأقبل علىٰ صلاته، فقالت: اللهم! لا تمته حتىٰ ينظر إلىٰ وجوه المومسات، فتذاكر بنو إسرائيل جريجاً وعبادته. وكانت امرأة بغي يُتَمثَّل بحسنها فقالت: إن شئتم لأفتننه لكم. قال: فتعرضت له فلم يلتفت إليها، فأتت راعياً كان يأوي إلىٰ صومعته فأمكنته من نفسها فوقع عليها فحملت، فلما ولدت قالت: هو من جريج، فأتوه فاستنزلوه وهدموا صومعته وجعلوا يضربونه فقال: ما شأنكم؟ قالوا: زنيت بهٰذه البغي فولدت منك. فقال: أين الصبي؟ فجاؤوا به فقال: دعوني حتىٰ أصلي، فصلىٰ، فلما انصرف أتىٰ الصبيّ فطعن في بطنه وقال: يا غلام من أبوك؟ قال: فلان الراعي، قال: فأقبلوا علىٰ جريج يقبلونه ويتمسحون به وقالوا: نبني لك صومعتك من ذهب، قال: لا، أعيدوها من طين كما كانت، ففعلوا.**

وبينا صبي يرضع من أمه فمر رجل راكب علىٰ دابة فارهة وشارة حسنة فقالت أمه: اللهم! اجعل ابني مثل هٰذا، فترك الثدي وأقبل إليه فنظر فقال: اللهم! لا تجعلني مثله، ثم أقبل علىٰ ثديه، فجعل يرتضع. قال: فكأني أنظر إلىٰ

رسول الله ﷺ وهو يحكي ارتضاعه بإصبعه السبابة في فمه فجعل يمصها. قال: ومروا بجارية وهم يضربونها ويقولون: زنيت سرقت، وهي تقول: حسبي الله ونعم الوكيل. فقالت أمه: اللهم! لا تجعل ابني مثلها، فترك الرضاع ونظر إليها فقال: اللهم! اجعلني مثلها. فهناك تراجعا الحديث: فقالت: حَلْقَىٰ ـ كأنها تدعو بأن يصيبها في حلقها ـ مرّ رجل حسن الهيئة فقالت: اللهم! اجعل ابني مثله، فقلت: اللهم! لا تجعلني مثله، ومروا بهـٰذه الأمة وهم يضربونها ويقولون: زنيتِ سرقتِ فقلتُ: اللهم! لا تجعل ابني مثلها، فقلتَ: اللهم! اجعلني مثلها، قال: إن ذاك الرجل كان جباراً فقلت: اللهم! لا تجعلني مثله، وإن هـٰذه يقولون لها: زنيتِ ولم تزن، وسرقتِ ولم تسرق، فقلتُ: اللهم! اجعلني مثلها»[1].

جاء في «شرح صحيح مسلم» للإمام النووي (قوله ﷺ: «لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة» فذكرهم وليس فيهم الصبي الذي كان مع المرأة في حديث الساحر والراهب، وقصة أصحاب الأخدود المذكورة في آخر «صحيح مسلم»، وجوابه أن ذٰلك الصبي لم يكن في المهد بل كان أكبر من صاحب المهد وإن كان صغيراً)[2].

ومعنىٰ (تراجعا الحديث): أقبلت علىٰ الرضيع تحدثه، وكانت أولاً لا تراه أهلاً للكلام، فلما تكرر منه الكلام: علمت أنه أهل له، فسألته وراجعته.

(فقالت: حَلْقَىٰ)، كأنها تدعو عليه بأن يصيبه الله بوجع في حلقه، قال الفيومي في «المصباح»: والأصل: حلقاً، ولـٰكن المحدثين يقولون: حَلْقَىٰ. وفي الدعاء: حلقاً وعقراً؛ أي: أصابه الله بوجع في حلقه[3].

هـٰذا: والتفصيل الذي نراه في هـٰذه الرواية لقصة جريج وأمه: كان ـ كما سبقت الإشارة ـ عوناً للعلماء علىٰ مزيد من البيان وأن يوسعوا القول فيما هو مظنة العظة والاعتبار؛ كالذي نرىٰ عند الإمام أبي العباس القرطبي الذي جنح

---

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي»: ١٠٦/١٦.
(٢) المصدر السابق: ١٠٦/١٦.
(٣) «المصباح المنير» مادة: (حلق).

عند الكلام علىٰ قول جريج: «يا رب أمي وصلاتي» إلىٰ أن هـٰذا (القول يدل علىٰ أن جريجاً ﷺ كان عابداً ولم يكن عالماً؛ إذ بأدنىٰ فكرة يدرك أن صلاته كانت ندباً، وإجابة أمه كانت عليه واجبة، فلا تعارض يوجب إشكالاً فكان يجب عليه تخفيف صلاته أو قطعها، وإجابة أمه لا سيما وقد تكرر مجيئها إليه وتشوقها واحتياجها لمكالمته، وهـٰذا كله يدل علىٰ تعيّن إجابته إياها، ألا ترىٰ أنه أغضبها بإعراضه عنها، وإقباله علىٰ صلاته ـ ويبعد اختلاف الشرائع في بر الوالدين ـ وعند ذٰلك دعت عليه، فأجاب الله دعاءها تأديباً له، وإظهاراً لكرامتها.

والظاهر من هـٰذا الدعاء: أن هـٰذه المرأة كانت فاضلة عالمة، الا ترىٰ كيف تحرّزت في دعائها فقالت: «اللهم لا تمته حتىٰ ينظر في وجوه المومسات»؛ ولم تقل غير ذٰلك. وقد جاء في بعض طرق هـٰذا الحديث: **«ولو دعت عليه أن يُفتن لفُتن»** وهي أيضاً لو كظمت غيظها وصبرت لكان أولىٰ بها، لـٰكن لما علم الله تعالىٰ صدق حالهما لطف بهما، وأظهر مكانتهما عنده بما أظهر من كرامتهما)[1].

وها هو الإمام النووي يضيف إلىٰ ما أوردناه عنه من قبل: أن في قصة جريج هـٰذه فوائد كثيرة: وكلها لا بد لها من العلم كما يلاحظ: (منها عظم بر الوالدين، وتأكد حق الأم وأن دعاءها مجاب، وأنه إذا تعارضت الأمور: بدئ بأهمها، وأن الله تعالىٰ يجعل لأوليائه مخارج عند ابتلائهم بالشدائد غالباً، قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق:٢] وقد يجري عليهم الشدائد بعض الأوقات زيادة في أحوالهم، وتهذيباً لهم، فيكون لطفاً، ومنها استحباب الوضوء للصلاة عند الدعاء بالمهمات...) إلىٰ آخر ما قال، أعلىٰ الله مقامه في الآخرين.

---

(١) انظر: «المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم»: ٦/ ٥١٢ ـ ٥١٣ (٢٤٥٧)، و«التقوىٰ في هدي الكتاب والسنة وسير الصالحين»: ١/ ١٩١ ـ ١٩٣.

موسى والخضر عليهما السلام

من لآلئ القصص في السنة النبوية: ما نقع عليه فيما ثبت عنه صلوات الله وسلامه عليه من إيراد قصة موسىٰ والخضر عليهما السلام، حيث يأتي النصُّ القرآني حيناً مكتفياً به، وحيناً يتبعه ـ وهو المؤتمن علىٰ بيان الكتاب العزيز ـ بنوع من البيان المشرق الذي يرىٰ الحاجة قائمة إليه؛ الأمر الذي يسعف في مزيد من الوضوح في تبين أبعاد القصة وأغراضها كما جاءت في سورة الكهف من القرآن الكريم، وتيسير تدبرها والانتفاع بها.

ذٰلكم ما روىٰ البخاري ومسلم وأحمد والترمذي وغيرهم ـ واللفظ للبخاري ـ كما جاء في كتاب العلم: (باب ما يستحب للعالِم إذا سئل: أي الناس أعلم؟ فيكِلُ العلم إلىٰ الله): أن عبد الله بن محمد حدثه قال: حدثنا سفيان قال: حدثنا عمرو قال: أخبرني سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: إن نوفاً البكالي يزعم أن موسىٰ ليس بموسىٰ بني إسرائيل، إنما هو موسىٰ آخر، فقال: كذب عدو الله، حدثنا أُبيّ بن كعب، عن النبي ﷺ: «**قام موسىٰ النبي خطيباً** ـ وفي رواية: **أن موسىٰ النبي قام خطيباً ـ في بني إسرائيل، فسئل: أي الناس أعلم؟ فقال: أنا أعلم. فعتب الله عليه إذ لم يردَّ العلم إليه، فأوحىٰ الله إليه أن عبداً من عبادي بمجمع البحرين هو أعلم منك. قال: يا رب وكيف به؟ فقيل له: احمل حوتاً في مِكتل، فإذا فقدته فهو ثَمَّ.**

فانطلق، وانطلق معه فتاه يوشع بن نون، وحملا حوتاً في مكتل، حتىٰ كانا عند الصخرة وضعا رؤوسهما وناما، فانسلّ الحوت من المكتل، ﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾﴾، **وكان لموسىٰ وفتاه عجباً.**

فانطلقا بقية ليلتهما ويومهما ـ وعند مسلم: **ونسي صاحب موسىٰ أن يخبره ـ فلما أصبحا قال موسىٰ** ﴿لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا

﴿نَصَبًا﴾ [٦٢]. ولم يجد موسىٰ مسّاً من النصب حتىٰ جاوز المكان الذي أُمر به. فقال له فتاه: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾ [٦٣]. قال موسىٰ: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾﴾.

فلما انتهيا إلىٰ الصخرة؛ إذا رجل مسجّىٰ بثوب ـ أو قال: تسجّىٰ بثوبه ـ فسلم موسىٰ، فقال الخضر: وأنىٰ بأرضك السلام؟ فقال: أنا موسىٰ. فقال: موسىٰ بني إسرائيل؟ قال: نعم. قال: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾﴾. يا موسىٰ، إني علىٰ علم من الله علمنيه لا تعلمه أنت، وأنت علىٰ علم علمكه لا أعلمه.

﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾﴾. فانطلقا يمشيان علىٰ ساحل البحر ليس لهما سفينة، فمرت بهما سفينة، فكلموهم أن يحملوهما، فعُرف الخضر فحملوهما بغير نَول. فجاء عصفور فوقع علىٰ حرف السفينة، فنقر نقرة أو نقرتين في البحر، فقال الخضر: يا موسىٰ، ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا كنقرة هٰذا العصفور في البحر.

فعمد الخضر إلىٰ لوح من ألواح السفينة فنزعه، فقال موسىٰ: قوم حملونا بغير نول، عمدت إلىٰ سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها!! ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾. فكانت الأولىٰ من موسىٰ نسياناً. فانطلقا، فإذا غلام يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر برأسه من أعلاه، فاقتلع رأسه بيده، فقال موسىٰ: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ [٧٤]؟! ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾﴾؟! (قال ابن عيينة: هٰذا أوكد).

﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ﴾ [٧٧]. قال الخضر بيده فأقامه. فقال له موسىٰ: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَۚ﴾».

قال النبي ﷺ: «يرحم الله موسىٰ لوددنا لو صبر حتىٰ يقص علينا من أمرهما»[1].

---

(١) «الجامع الصحيح» مع «فتح الباري»: (١٢٢) ١/٢١٧ ـ ٢١٨ كتاب العلم. =

والرواية المومىٰ إليها ـ علىٰ اختصارها ـ نقع فيها علىٰ جديد يعين علىٰ التبين المطلوب، وقد جاءت من طريق ابن شهاب الزهري وفيها: (أن عبيد الله بن عبد الله أخبره عن ابن عباس أنه تمارىٰ هو والحر بن قيس الفزاري في صاحب موسىٰ، قال ابن عباس: هو خَضِر، فمر بهما أُبي بن كعب، فدعاه ابن عباس فقال: إني تماريت أنا وصاحبي هٰذا في موسىٰ الذي سأل السبيل إلىٰ لقيه، هل سمعت رسول الله ﷺ يذكر شأنه؟ قال: نعم، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**بينما موسىٰ في ملأ من بني إسرائيل، جاءه رجل فقال: هل تعلم أحداً أعلم منك؟ قال: لا. فأوحىٰ الله إلىٰ موسىٰ: بلىٰ، عبدنا خَضِر. فسأل موسىٰ السبيل إليه، فجعل الحوت له آية، وقيل له: إذا فقدت الحوت فارجع، فإنك ستلقاه. فكان يتبع الحوت في البحر، فقال لموسىٰ فتاه:** ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَـٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ [٦٣]. **فقال موسىٰ:** ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾﴾، **فوجدا خضراً، فكان من شأنهما الذي قصّ الله في كتابه**»[1].

(سفيان): هو ابن عيينة، (وعمرو): هو ابن دينار. و(نوف البَكالي): بفتح الباء وكسرها، منسوب إلىٰ بكال بطن من حمير. وهو تابعي من أهل دمشق فاضل عالم ـ كما يقول الحافظ ـ ولا سيما بالإسرائيليات.

وعن كلمة ابن عباس رضي الله عنهما فيه، قال ابن التين: لم يرد ابن عباس إخراج نوف عن ولاية الله، ولٰكن قلوب العلماء تنفر إذا سمعت غير الحق، فيطلقون أمثال هٰذا الكلام لقصد الزجر والتحذير منه، وحقيقته غير مراده.

قال صاحب «الفتح»: (وأما تكذيبه: فيستفاد منه أن للعالِم إذا كان عنده علم بشيء، فسمع غيره يذكر فيه شيئاً بغير علم: أن يكذبه. ونظيره قوله ﷺ:

وانظر: =C

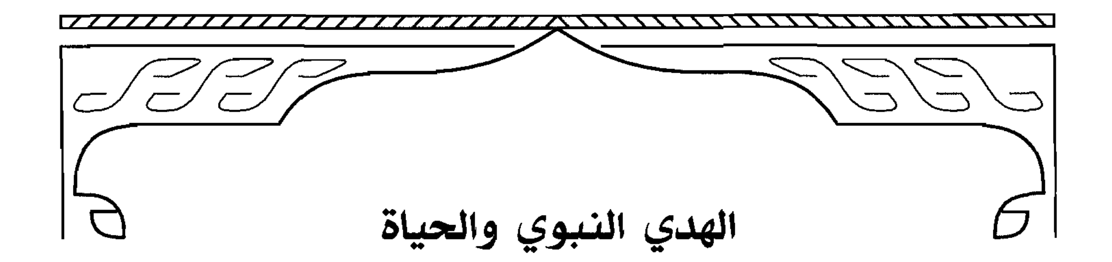
«صحيح مسلم» مع شرحه «إكمال المعلم بفوائد مسلم» للقاضي عياض: (٢٣٨٠) ٧/ ٣٦٤ فما بعد، باب فضائل الخضر عليه السلام. «صحيح مسلم» مع «المفهم لما أشكل من صحيح مسلم» لأبي العباس القرطبي: (٢٢٨٥)، قصة موسىٰ مع الخضر عليهما السلام: ٦/ ١٩٣ فما بعد.

«**كذب أبو السنابل**»؛ أي: أخبر بما هو باطل في نفس الأمر).

وعلىٰ هٰذا: فليس المقصود اتهامه بالكذب، ولٰكن التنبيه الزجري علىٰ أنه يخبر بما هو باطل في الحقيقة. خصوصاً أنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ تابعي مشهود له بالعلم والفضل. والعصمة للأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ.

ولقد أكد ذٰلك أبو العباس القرطبي صاحب «المفهم لما أشكل من صحيح مسلم» بأن ما قاله حبر الأمة كلام (أصدره غضب علىٰ من يتكلم بما لم يصح؛ فهو إغلاظ وردع، وقد صار غير نوف إلىٰ ما قاله نوف، ولٰكن الصحيح ما قاله ابن عباس علىٰ ما حكاه في الحديث)؛ فموسىٰ الوارد ذكره في القصة هو موسىٰ النبي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.





الهدي النبوي والحياة

نحن علىٰ موعد مع لون من قصص السنة النبوية في حياة أولـٰئك الذين تربَّوا في مدرسة النبوة، وراحوا بسواعدهم وقلوبهم وعقولهم يديرون حركة الحياة علىٰ صورة تريك حقيقة الإسلام من خلال سلوكهم وهم يغذون السير إلىٰ الله، وتخلّي بينك وبين الاعتقاد الجازم بأن الإسلام ليس نظريات تستعصي علىٰ التطبيق؛ ولـٰكنه حقائق تتسق مع فطرة الإنسان وأهليته لبناء الحضارة المثلىٰ علماً وعملاً وسلوكاً، ورضي الله عن عائشة أم المؤمنين التي تكررت منها الشهادة الفاذة لعمر رضي الله عنه بقولها: (كان عمر قرآناً ناطقاً) وإنها لحقيقة نبتت وترعرعت علىٰ هـٰذه الصورة المكينة في ظل قولها رضي الله عنها وقد سئلت عن خلق رسول الله ﷺ: **(كان خلقه القرآن)**.

هـٰذا واثلة بن الأسقع رضي الله عنه يقول فيما قص علىٰ الأمة من خبر تبوك كما روىٰ أبو داود في «سننه»: (نادىٰ رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فخرجت إلىٰ أهلي فأقبلت وقد خرج أول صحابة رسول الله ﷺ، فطفقت في المدينة أنادي: ألا مَن يحمل رجلاً له سهمه، فنادىٰ شيخ من الأنصار قال: لنا سهمه علىٰ أن نحمله عقبة وطعامه معنا؟ قلت: نعم، قال: فسر علىٰ بركة الله تعالىٰ. قال: فخرجت مع خير صاحب، حتىٰ أفاء الله علينا، فأصابني قلائص، فسقتهن حتىٰ أتيته، فخرج، فقعد علىٰ حقيبة من حقائب إبله، ثم قال: سقهن مدبرات، ثم قال: سقهن مقبلات. فقال: ما أرىٰ قلائصك إلا كراماً، قال: إنما هي غنيمتك التي شرطت لك، قال: خذ قلائصك يا ابن أخي، فغير سهمك أردنا)[1].

---

(١) «الجامع الصحيح» مع «الفتح»: (٣٤٠٠) ٦/ ٤٣١ الأنبياء.

(العقبة): الراكبان يتناوبان ركوب بعير واحد، يركب هٰذا بعض الطريق، وهٰذا بعض الطريق.

و(القلائص) جمع قلوص ـ بفتح القاف ـ وهي الشابة الفتية من النوق.

و(الحقيبة): ما وراء الرجل. قال صاحب «الكشاف»: كل ما وراء الرجل فهو حقيبة[1].

ومن الجدير بالذكر التنبيه علىٰ ما قاله محمد بن عمر: (أن رسول الله ﷺ بعث واثلة رضي الله عنه مع خالد بن الوليد إلىٰ أُكيدر دومة. قال: فأصابني قلائص ـ قال محمد بن عمر ـ: ستة، قال: فسقتهن حتىٰ أتيته ـ يعني الشيخ الأنصاري ـ بهن، فخرج فقعد علىٰ حقيبة من حقائب إبله ثم قال: سقهن مقبلات، فسقتهن، ثم قال: فسقهن مدبرات، فسقتهنّ، فقال: ما أرىٰ قلائصك إلا كراماً. فقلت: إنما هي غنيمتك التي شرطت لك، قال: خذ قلائصك يا ابن أخي، فغير سهمك أردنا)[2].

(دومة الجندل): حصن وقرة من طرف الشام يومذاك، بينها وبين دمشق خمس ليال.

هٰكذا بكل ـ وضوح ـ شرط الشيخ الأنصاري علىٰ واثلة رضي الله عنهما: أن يحمله علىٰ مطيته إلىٰ تبوك ولٰكن علىٰ أن يكون له سهمه، وهو ما يصيب من فيء أو غنيمة، وأن طعامه معهم. وسرعان ما وافق واثلة علىٰ هٰذا الشرط في الركوب والطعام والسهم.

ولٰكن الذي حدث أن هٰذا الرجل الذي تناولته يد محمد ﷺ الصناع بالتربية والتزكية بحزم بعد أن أثنىٰ علىٰ القلائص التي أصابها واثلة من دومة الجندل ـ وهي قلائص كرام ـ أبىٰ أن يأخذ منها شيئاً وقال: خذ قلائصك يا ابن أخي فغير سهمك أردنا!!

---

(١) وانظر: «سنن أبي داود»: (٢٦٧٦) الجهاد: ٣/ ٦٣١.

(٢) «الكشاف» للزمخشري مادة: (حقب).

(٣) «سبل الهدىٰ والرشاد في سيرة خير العباد» للإمام محمد بن يوسف الصافي الشامي:

إنه رضي الله عنه يتطلّع إلىٰ ما هو أسمىٰ من الشابة الفتية من النوق، وهو ما أعد الله لمن صدقوا في بيع أموالهم وأنفسهم له عز وجل؛ فأين تلكم القلائص الكرام مهما كان شأنها، من ذٰلك العطاء الرباني ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١] إنه مصدق تصديقاً جازماً بما وعد أولٰئك الباذلون في إعلاء كلمة الله من الظفر بدار المقامة التي لا يمسهم فيها نصب، ولا يمسهم فيها لغوب[١]؛ لذا فهو لا يريد سهم واثلة من الغُنم، ولٰكن يريد مشاركته في الأجر والثواب والعطاء الكريم يوم الدين.

(خذ قلائصك يا ابن أخي ـ أجل يا ابن أخي بهٰذا التلطف الكريم ـ فغير سهمك أردنا) ألا ما أثقلها كلمات في ميزان البذل في سبيل الله، وما أغلاها درراً ثمينة جد ثمينة علىٰ طريق البناء القويم للإنسان المسلم ـ ذكراً كان أو أنثىٰ ـ في ميادين الصراع بين الحق والباطل، وما أكثرها في القديم والحديث. وسبحان من يوفق من شاء من عباده لما يشاء من التكرمة بفضله العظيم وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ إمام المربين الذي ما فتئ يبني هٰذه النخبة من الرجال بالكلمة والقدوة حتىٰ بات الواحد منهم ـ كما نرىٰ في قصة واثلة والشيخ الأنصاري رضي الله عنهما ـ طاقة فاعلة تتجاوزه إلىٰ الأمة المسلمة وهي ترفع قواعد الحضارة المكينة العادلة عبر التاريخ، الحضارة التي يذكرك المفترون عليها بقول الشاعر:

كناطحٍ صخرة يوماً ليوهنها فلم يضِرْها وأوهىٰ قرنه الوعلُ

وبعد: فليس عجباً من العجب أن يذكرنا هٰذا المشهد العظيم في قصة واثلة بن الأسقع ـ وهو من أهل الصفة ـ مع ذٰلك الشيخ الأنصاري رضي الله عنهما وأرضاهما بقصة أخرىٰ فيها مشابه منها علىٰ طريق الصدق مع الله والطاعة والمحبة لسيد القادة المخلصين محمد رسول الله ﷺ.

روىٰ أبو داود في «السنن» (باب فضل الحرس في سبيل الله تعالىٰ) من

---

(١) «سبل الهدىٰ والرشاد في سيرة خير العباد»: ٥/ ٦٣١. وانظر: «معالم السنن» ٥/ ٦٣١.

كتاب الجهاد بسنده عن سهل بن عمرو بن عدي الأنصاري المعروف بابن الحنظلية رضي الله عنه قال: (إنهم ساروا مع رسول الله ﷺ يوم حنين، فأطنبوا السير حتىٰ كانت عشية، فحضرت الصلاة عند رسول الله ﷺ، فجاء رجل فارس فقال: يا رسول الله، إني انطلقت بين أيديكم حتىٰ طلعت جبل كذا وكذا، فإذا أنا بهوازن علىٰ بكرة أبيهم بظُعُنهم ونَعَمِهم وشائهم، اجتمعوا إلىٰ حنين، فتبسم رسول الله ﷺ وقال: «**تلك غنيمة المسلمين غداً إن شاء الله**».

ثم قال: «**من يحرسنا الليلة؟**» قال أنس بن مرثد الغنوي: أنا يا رسول الله. قال: «**فاركب**» فركب فرساً له، فجاء إلىٰ رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: «**استقبل هٰذا الشِّعب حتىٰ تكون في أعلاه، ولا نُغَرَّنَّ من قبلك الليلة**».

ثم قال رضي الله عنه: فلما أصبحنا خرج رسول الله ﷺ إلىٰ مصلّاه فركع ركعتين ثم قال: «**هل أحسستم فارسكم؟**» قالوا: يا رسول الله ما أحسسناه، فثوّب بالصلاة، فجعل رسول الله ﷺ يصلي وهو يلتفت إلىٰ الشعب، حتىٰ إذا قضىٰ صلاته قال: «**أبشروا فقد جاء فارسكم**» فجعلنا ننظر إلىٰ خلال الشجر في الشعب؛ فإذا هو قد جاء حتىٰ وقف علىٰ رسول الله ﷺ فقال: إني انطلقت حتىٰ كنت في أعلىٰ هٰذا الشعب، حيث أمرني رسول الله ﷺ، فلما أصبحت اطلعت الشعبين كليهما، فنظرت فلم أر أحداً. فقال له رسول الله ﷺ: «**هل نزلت الليلة؟**» قال: لا، إلا مصلياً أو قاضياً حاجة، فقال له رسول الله ﷺ: «**قد أوجبت، فلا عليك ألا تعمل بعدها**»).

إسناده حسن، حسّنه ابن حجر في «الفتح»، ونسبها المنذري إلىٰ النسائي[1].

(أطنبوا السير): يقال: أطنبت الريح إطناباً إذا اشتدت في غبار.

(علىٰ بكرة أبيهم): قال الخطابي: كلمة للعرب يريدون بها الكثرة ووفور العدد، إذ جاؤوا بأسرهم ولم يتخلف منهم أحد.

للخطابي: ٢/ ٢٨٤.

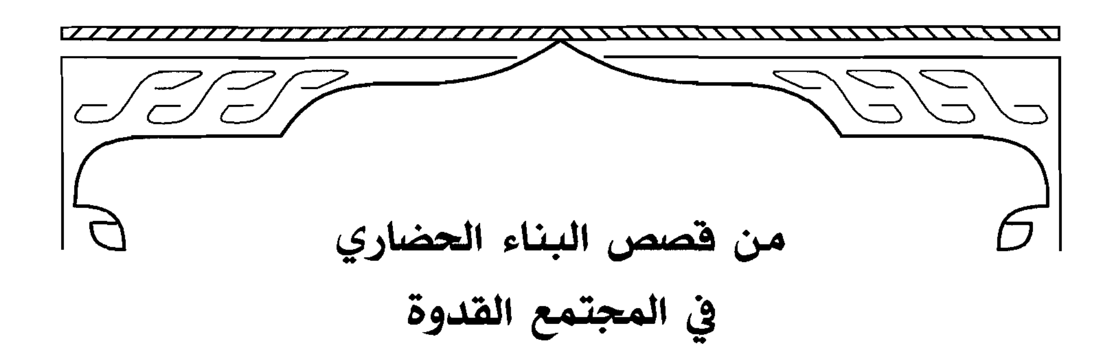
(١) «سنن أبي داود»: (٢٥٠١) الجهاد: ٣/ ٢٠، «معالم السنن» للخطابي: ٢/ ٢٤٠.

(ثوّب بالصلاة): نادىٰ إليها وأقامها.

(لا نُغرنّ): لا نؤخذ علىٰ غِرّة.

أرأيت إلىٰ هـٰذه البشارة النبوية العظيمة لفارس الحراسة؟ يقول له عليه الصلاة والسلام: «**أوجبت**»؛ أي: عملت عملاً أوجب لك ـ بفضل الله ـ الجنة، قال ابن الأثير: ومنه الحديث «**اللهم إني أسألك موجبات رحمتك**».





من قصص البناء الحضاري في المجتمع القدوة

ما أكثر ما يقع عليه الناظر البصير في قصص السنة النبوية الفياض بالبهاء والعطاء؛ من وقائع تقرر وتؤكد لأولي النهىٰ: أن رحلة النبي ﷺ في الحياة ومعه أولـٰئك النبَغة الذين آمنوا به وعزروه ونصروه: كانت بلا ريب ـ وهي من الحق وإليه ـ رحلة في صالح إنسانية الإنسان من حيث هو إنسان، وفي صالح المنهج الذي أضاء في عالم السلوك المزدان بالتقوىٰ والشمول لدىٰ الفرد والجماعة، حيث عمارة الأرض علىٰ الوجه الذي ينبغي، ومكارم الأخلاق، ووضع الأمور مواضعها، وإعطاء كل ذي حق حقه دون وكس ولا شطط، بحيث يكون ذٰلك كله ـ والعلم والإخلاص من ورائه ـ: من أعظم الروافد علىٰ طريق البناء السليم للمجتمع القدوة في نور العقيدة الراسخة عقيدة التوحيد، والعدالة المطلقة، وإتاحة الفرص مع تكافئها لفطرة الإنسان أن تثبت وجودها، ولأهلية ـ كما شاء الله لها أن تكون ـ أن تقول كلمتها وتعطي عطاءها في جو من الحرية المنضبطة بضوابط الحق والاستقامة، وتطلع دائم إلىٰ ما هو الأعلىٰ والأغلىٰ عند الله، يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترىٰ الناس سكارىٰ وما هم بسكارىٰ، ولـٰكن عذاب الله شديد.

وما أشد احتياج الأمة اليوم ـ وقد تداعت عليها قوىٰ الغطرسة والظلم ـ إلىٰ أن تصل حبلها بتلك الثوابت والقيم التي أشرقت بها في تاريخنا المجيد رحلته ومن معه عليه الصلاة والسلام في الحياة وهم يرفعون قواعد الحياة، حيث الوقائع المترعة بالخير العميم، والقصص الزاخر بالعبر والدروس التي لا ينصرف عنها إلا من سفه نفسه وتمرغ في حمأة الخسران المبين.

ذٰلك بأن الصدق في رغبة الانتفاع بتلكم الثوابت والقيم ـ وهي التي برزت في ظل وحي السماء وبيانه من الهدي النبوي ـ واجب حتم، الطاعة فيه من طاعة الله ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ۝٨٠﴾ [النساء] ومنذا الذي يملك قدراً ـ ولو يسيراً ـ من الانتصار للحق الذي نزل به الكتاب: يرتاب في أن أمتنا حين تخطو هٰذه الخطوة الحازمة الجازمة، تضمن ـ بإذن الله وعونه ـ رافداً من أعظم روافد القوة النابعة من أرومة التطبيق العملي للإسلام، مستنيرة بتلك الحلقة الأولىٰ من السلسلة المباركة التي بدأت بقوله تعالىٰ: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ۝٥﴾ [العلق] وكان من عطائها ذٰلك البناء الحضاري الأمثل المشرق بالعبودية لله، ثم بالتكريم للإنسان الذي كرمه الله وفضله علىٰ كثير ممن خلق تفضيلاً.

روىٰ أبو داود في «سننه» وابن حبان في «صحيحه» والطبراني في «المعجم الكبير»، والبيهقي في «دلائل النبوة» عن عبد الله بن لحي الهوزني، قال: لقيت بلالاً مؤذن رسول الله ﷺ بحلب فقلت: يا بلال، حدثني كيف كانت نفقة رسول الله ﷺ؟ قال: ما كان له شيء، كنت أنا الذي ألي ذٰلك منه منذ بعثه الله إلىٰ أن تُوفّي، وكان إذا أتاه الإنسان مسلماً فرآه عارياً، يأمرني فأنطلق، فأستقرض فأشتري له البردة فأكسوه وأطعمه، حتىٰ اعترضني رجل من المشركين فقال: يا بلال، إن عندي سعة، فلا تستقرض من أحد إلا مني، ففعلت.

(البردة): كساء صغير مربع، وقيل: كساء أسود صغير.

وإلىٰ هنا تبدو الأمور، ولا إشكال فيها، حيث علمنا من بلال قبول رسول الله ﷺ ما عرضه هٰذا المشرك، ويدل ذٰلك علىٰ اهتمام رسول الله بمعونة المسلم ذي الحاجة ولو كان الاقتراض لذٰلك من مشرك! ولٰكن ما الذي حدث بعدها؟ لقد حدثت المفاجأة التي كشفت عن سوء طوية ذٰلك المشرك!!

يقول بلال رضي الله عنه: فلما أن كان ذات يوم توضأت، ثم قمت لأؤذِّن

بالصلاة، فإذا المشرك قد أقبل في عصابة من التجار، فلما رآني قال: يا حبشي، قلت: يا لبّاه[1]، فتجهمني وقال لي قولاً غليظاً، وقال لي: أتدري كم بينك وبين الشهر؟ قال: قلت: قريب، قال: إنما بينك وبينه أربع، فآخذك بالذي عليك، فإني لم أعطك الذي أعطيتك من كرامتك علي ولا من كرامة صاحبك، ولٰكني إنما أعطيتك لتجب لي عبداً، فأردك ترعىٰ الغنم كما كنت قبل ذٰلك. فأخذ في نفسي ما يأخذ في أنفس الناس، فانطلقت ثم أذنت بالصلاة حتىٰ إذا صليت العتمة رجع رسول الله ﷺ إلىٰ أهله فاستأذنت عليه، فأذن لي، فقلت: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي إن المشرك الذي كنت أتديَّن منه قال لي كذا وكذا، وليس عندك ما تقضي عني، ولا عندي، وهو فاضحي، فأذن لي أن آبق[2] إلىٰ بعض هٰؤلاء الأحياء الذين قد أسلموا حتىٰ يرزق الله رسوله ﷺ ما يقضي عني، فخرجت حتىٰ إذا أتيت منزلي فجعلت سيفي وجرابي ونعلي ومِجنّي عند رأسي، حتىٰ إذا انشق عمود الصبح الأول أردت أن أنطلق فإذا إنسان يسعىٰ يدعو: يا بلال، أجب رسول الله ﷺ. . .

أقول: سبحان الله ما الذي حدث يا ترىٰ بعد هٰذه الشدة الشادة في احتيال المشرك؟ يبدو أنه الفرج من عند الله.

يقول بلال رضي الله عنه: فانطلقت حتىٰ أتيته، فإذا أربع ركائب مُناخات عليهن أحمالهن، فاستأذنت، فقال لي رسول الله ﷺ: **«أبشر فقد جاءك الله بقضائك»** فحمدت الله ثم قال: **«ألم تر الركائب المناخات الأربع؟»** فقلت: بلىٰ، فقال: **«إن لك رقابهن وما عليهن فإن عليهن كسوة وطعاماً أهداهن إليّ عظيم فَدَكَ، فاقبضهن واقض دينك»** ففعلت، فحططت عنهن أحمالهن ثم عقلتهن، ثم عمدت إلىٰ تأذين صلاة الصبح، حتىٰ إذا صلىٰ رسول الله ﷺ خرجت للبقيع، فجعلت أصبعي في أذني، فناديت من كان يطلب رسول الله ديناً فليحضر؛ فما

وانظر: «القيامة مشاهدها وعظاتها» للدكتور محمد أديب الصالح: ٢/ ٢٥٨ ـ ٢٥٩.

(١) لباه: يريد: لبيك من التلبية، ولبيك أي إجابة بعد إجابة، ونصبه علىٰ المصدر.

(٢) آبق: أذهب خفية. الأبق والإباق: الذهاب خفية، وعند ابن حبان: أن أنوء، أنوء:

زلت أبيع وأقضي وأعرض وأقضي، حتىٰ لم يبق علىٰ رسول الله ﷺ دين في الأرض.

حتىٰ إذا فضل في يدي أوقيتان ـ أو أوقية ونصف ـ انطلقت إلىٰ المسجد وقد ذهب عامة النهار، فإذا رسول الله ﷺ جالس في المسجد وحده، فسلمت عليه فقال: «**ما فعل ما قِبَلك؟**» فقلت: قد قضىٰ الله كل شيء كان علىٰ رسول الله، فلم يبق شيء، فقال رسول الله ﷺ: «**أفضل شيء؟**» قال: قلت: نعم، قال: «**انظر أن تريحني منه**» فلما صلىٰ رسول الله ﷺ العتمة دعاني فقال: «**ما فعل مما قبلك؟**» قلت: هو معي لم يأتنا أحد، فبات في المسجد حتىٰ أصبح، فظل في المسجد في اليوم الثاني، حتىٰ كان في آخر النهار، جاء راكبان، فانطلقت بهما فكسوتهما وأطعمتهما، حتىٰ إذا صلىٰ العتمة دعاني، فقال: «**ما فعل الذي قبلك؟**» فقلت: قد أراحك الله منه يا رسول الله، فكبّر وحمد شفقاً أن يدركه الموت وعنده ذٰلك، ثم اتبعته حتىٰ جاء أزواجه، فسلم علىٰ امرأة امرأة، حتىٰ أتىٰ مبيته، فهٰذا الذي سألتني عنه[1].

صلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ رسول الله ما كان أزهده في الدنيا وأحرصه ـ وهو يبني المجتمع ـ علىٰ الخير لكل مسلم، وإعطاء كل ذي حق حقه كما رأينا في السلام علىٰ زوجاته، ورضي الله عن بلال ما كان آمنه وأعرفه بتصريف الأمور طاعة للرسول عليه الصلاة والسلام، دون أي إخلال بواجبه الأساسي وهو الأذان، والحمد لله رب العالمين.



أنهض، واستناءه: طلب نوءه وعطاءه.

(١) انظر: «سنن أبي داود»: (٣٠٥٥)، ابن حبان (الإحسان): (٦٣٥٠)، الطبراني في

المسؤول المالي في بيت النبوة

هـٰذا حديث موصول بما كنا بسبيله من تلك الرحلة مع لون من ألوان القصص في السنة النبوية المطهّرة؛ وذٰلكم ما قصه علينا عبد الله بن لُحَيّ الهوزني أحد كبار التابعين من أنه لقي بلالاً ﵁ مؤذن الرسول عليه الصلاة والسلام بحلب، فقال له: يا بلال، حدثني كيف كانت نفقة رسول الله ﷺ؟؟

وإنه لسؤال يدل علىٰ أمرين هامين: أولهما أن هـٰذا التابعي يريد من باب الانتفاع بهدي رسول الله ﷺ أن يزود بهـٰذه المعلومة عن بيت النبوة، لما أنه البيت الأمثل القدوة. وثانيهما أنه علىٰ علم ـ فيما يبدو ـ أن بلالاً خبير كل الخبرة بذٰلك؛ لأنه مع صدقه وأمانته وهو الصحابي الجليل ومن السابقين الأولين الذين عذبوا في الله وظلوا صابرين محتسبين، والذي شهد بدراً فشهد له النبي ﷺ علىٰ التعيين بالجنة: كان هو العليم بمداخل هـٰذا الأمر ومخارجه المتوليَ شأنه، وصدق في السؤال والجواب ـ كما دلت الوقائع ـ ما جاء في المثل العربي: (علىٰ الخبير سقطت) وما جاء في قول الشاعر: كفىٰ قوماً بعالمهم خبيراً. وفي رواية: بصاحبهم خبيراً.

ولم يتوان بلال عن الجواب فقال لعبد الله: ما كان له ـ يعني النبي ﷺ ـ شيء، كنت أنا الذي ألي ذٰلك منه، مذ بعثه الله إلىٰ أن توفي، وكان إذا أتاه الإنسان مسلماً، فرآه عارياً، يأمرني فأنطلق، فأستقرض فأشتري له البردة فأكسوه وأطعمه.

إنها صورة دقيقة الملامح يعرضها بأمانة لما كان عليه النبي ﷺ من غنىٰ النفس مع العدم في ذات اليد، وصدق التوكل علىٰ الله المصحوب بالحرص علىٰ إطعام الجائع وكسوة العاري ممن يأتيه مسلماً به من الحاجة ما الله به عليم.

إنه ـ بقلبه الكبير ونزعته الإنسانية التي أضاءت ظلام النفوس ـ كان

ينتصر علىٰ القهر والمعاناة عند المستضعفين، ﷺ، بالإيمان، وتراه يطعمهم ويكسوهم ريثما تفتح لهم أبواب الكسب المشروع، ويرقىٰ بهم إلىٰ مستوىٰ الشعور بإنسانيتهم وأنهم ليسوا أقل ممن سواهم طاقاتٍ فاعلةً وقدرةً علىٰ العطاء في ظل الكلمة الطيبة لا إلـٰه إلا الله محمد رسول الله، وكأين من إنجاز عظيم علىٰ مختلف الأصعدة أشرق به تاريخنا الحضاري امتداداً لهـٰذا النهج الكريم البنّاء منه عليه الصلاة والسلام.

ولقد نحسب أن الامر كان يجري وفق ما وصف بلال دون جديد مما يمكن أن يتوقع! ولـٰكن بلالاً طلع علينا بجديد حين قال: حتىٰ اعترضني رجل من المشركين فقال: يا بلال، إن عندي سعة فلا تستقرض من أحد إلا مني، ففعلت. ولا يظن لأول وهلة أن وراء الأكمة ما وراءها: رجل من المشركين تأخذه الحمية العربية ـ حسبما يبدو ـ فيعرض معاونته بالقرض دون النظر إلىٰ التخالف بينه وبين مقرضه. ولما كانت طبيعة التعامل بين المسلمين وغيرهم علىٰ المستوىٰ الإنساني تسمح بهـٰذا، فما كان من بلال إلا أن رضي واستلف مبلغاً من المال يوفيه عند الوُجد.

ولـٰكن تبين فيما بعد أن وراء الأكمة ما وراءها، وأن صنيع الرجل المشرك كان مكيدة يبتغي من ورائها إعنات الرسول ﷺ وإعادة بلال إلىٰ قيد العبودية عنده كما كان عند أمية بن خلف، قبل أن يمنّ الله عليه بالحرية بفعل أبي بكر رضي الله عنه، وذٰلك أنه رأىٰ بلالاً يوماً، فناداه بـ (يا حبشي) وأغلظ له القول في شأن قضاء الدين، ومما قاله أخزاه الله: لم أعطك الذي أعطيتك من كرامتك عليّ ولا من كرامة صاحبك، ولـٰكني أعطيتك لتجب لي عبداً فأردك ترعىٰ الغنم كما كنت قبل ذٰلك.

وفعلت المفاجأة في نفس بلال ما فعلت، إذ أخذ هـٰذا الكلام في نفسه ما يأخذ في أنفس الناس، وكان لا بد من إخبار الرسول ﷺ بذٰلك. ولـٰكن رسول الله ﷺ وهو سيد من أوتوا مكارم الأخلاق: لم يغضب ولم يبد أي تأثر لأن لصاحب الحق مقالاً ـ كما كان يقول ـ وخير الناس أحسنهم قضاء؛ أي: للدَّين، وهو ما رأينا من أخلاقه في قصة سبقت.

والقلب الموصول بالله أثبت عند الشدة من الجبال الرواسي، ومن جعل طاعة الله تعالىٰ همّه كفاه الله ما أهمّه.

ولما كان اللطف الإلـٰهي خير عون للمحسنين، والفرجُ بعد الشدة حاصل ـ بفضل الله ـ لأهل التوكل الصادقين ـ وسيدهم المصطفىٰ إمام المتوكلين ـ: فقد انقشعت الغمة بعون من السماء بعد الأخذ بأسباب لم يشأ الله أن تثمر؛ فبينما بلال علىٰ حال من الشدة والترقب حتىٰ لا يكاد يغمض له جفن كأنه نائم يقظان: إذا بإنسان يدعو ـ وقد انشق عمود الصبح الأول ـ: يا بلال، أجب رسول الله ﷺ: وينطلق بلال، ولـٰكن ماذا رأىٰ؟ يقول ﷺ: فانطلقت حتىٰ أتيته، فإذا أربع ركائب مُناخات عليهن أحمالهن. والركائب جمع ركاب وهن الرواحل من الإبل.

سبحان الله! أين صورة ذٰلك المشرك وهو يقرّعه ويغلظ له القول ويتوعده بالعبودية من جديد، من هـٰذا الذي يرىٰ من بشرىٰ الفرج؟؟

يقول رضي الله عنه وأرضاه: فاستأذنت فقال لي رسول الله ﷺ: «**أبشر فقد جاءك الله تعالىٰ بقضائك**»، ثم قال: «**ألم تر الركائب المناخات الأربع؟**» فقلت: بلىٰ، فقال: «**إن لك رقابهن وما عليهن، فإن عليهن كسوة وطعاماً أهداهن إلي عظيم فدك، فاقبضهن واقض دينك**». وفعل بلال ما أمره به رسول الله وقضىٰ كل شيء من الديون.

والذي يستوقفك أن اهتمام النبي ﷺ بأن لا يبقىٰ عنده شيء من المال بعد وفاء الدَّين؛ كان كاهتمامه بوفاء الدين، إذ ظل يسأل بلالاً: هل فضل شيء؟ فإن قال بلال: نعم، قال: انظر أن تريحني منه ـ يعني بطريق من طرق الخير ـ فإني لست بداخل علىٰ أهلي حتىٰ تريحني منه، وهـٰذا ما أشار إليه بلال حين قال لعبد الله وقد سأله عن نفقة رسول الله ﷺ: ماكان له شيء وكنت أنا الذي ألي ذٰلك منه، حتىٰ إذا يسّر الله تحقيق ما أراد رسول الله من بلال دخل عليه فقال: قد أراحك الله منه يا رسول الله.

يقول صاحبنا الجليل المطيع النبيه الأمين: فكبّر وحمد الله شفقاً من أن يدركه الموت وعنده ذٰلك.

يا الله ما أوفرها عظات بالغات من تصرف الرسول ﷺ وتصرف خازنه بلال علىٰ طريق الدعوة وبناء المجتمع، وختمت هٰذه العظات بخلق نبوي كريم ما أكرمه من خلق. يقول بلال: ثم اتبعته حتىٰ إذا جاء أزواجه، فسلم علىٰ امرأة امرأة حتىٰ أتىٰ مبيته، وأنهىٰ القصة ـ وقد كان في وقائعها نعم المسؤولَ الأمين النابه ـ بقوله رضي الله عنه لتابعيّنا الجليل عبد الله بن لُحَيّ الهوزني: فهٰذا الذي سألتني عنه[1].

وَبَعْد: فليس من نافلة القول ـ وهٰذا من حسنات القصص في السنة النبوية ـ أن تحملنا هٰذه القصة علىٰ استذكار المزيد من الوقائع التي تدل ـ فيما تدل ـ علىٰ المزيد من مكارم الأخلاق عند النبي ﷺ ونزعته الإنسانية المنوّرة بوحي السماء، ناهيك عن تدبيره المنقطع النظير، ووضعه الأمور مواضعها، وزهادته التي لا تجارىٰ في الدنيا، كالذي نرىٰ في خطبته التي خطبها في وفد هوازن التي انتصر عليها في حنين والذي جاء معلناً التوبة طالباً عونه عليه الصلاة والسلام، حيث قام صلىٰ الله عليه في المسلمين ـ كما روىٰ البخاري ـ فأثنىٰ علىٰ الله بما هو أهله ثم قال: («**أما بعد؛ فإن إخوانكم قد جاؤونا تائبين، وإني قد رأيت أن أرد إليهم سبْيَهم، فمن أحب منكم أن يطيّب ذٰلك فليفعل. ومن أحب منكم أن يكون علىٰ حظه حتىٰ نعطيه إياه من أول ما يفيء الله علينا فليفعل**». فقال الناس: قد طيّبنا ذٰلك يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: «**إنا لا ندري من أذن منكم في ذٰلك ممن لم يأذن، فارجعوا حتىٰ يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم**»، فرجع الناس فكلمهم عرفاؤهم، ثم رجعوا إلىٰ رسول الله ﷺ، فأخبروه أنهم قد طيّبوا وأذنوا)[2].

(طيّبوا) بالتشديد: حملوا أنفسهم علىٰ ترك السبي حتىٰ طابت بذٰلك، يقال: طيب نفسي بكذا إذا حملتها علىٰ السماح بغير إكراه فطابت بذٰلك.

«الكبير»: (١١١٩)، البيهقي في «دلائل النبوة»: ١/ ٣٤٨ ـ ٣٥١.

(١) وانظر: «سنن أبي داود»: (٣٠٥٥)، «الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان»: (٦٣٥٠)، الطبراني في «الكبير»: (١١١٩)، «دلائل النبوة» للبيهقي: ١/ ٣٤٨ ـ ٣٥١، «عون المعبود شرح سنن أبي داود» لشمس الحق العظيم أبادي: ٣/ ١٣٧ ـ ١٣٨.

(٢) «الجامع الصحيح» مع «فتح الباري»: (٤٣١٨، ٣١٩)، المغازي: ٨/ ٣٢ ـ ٣٣.



وجوب عدم البغي ودرس من الماضي

من فضائل القصص في السنة النبوية: ما نقع عليه من توجيه المصطفىٰ عليه الصلاة والسلام بألوان مباركة من البيان ـ ومنها ما قص علىٰ الأمة من أنباء ما قبلها ـ من تحذير المسلم ـ ذكراً كان أو أنثىٰ ـ من اللغو المفضي إلىٰ تجاوز حق العبد إلىٰ ما هو من حق الله ولا دخل للعبد فيه؛ كالحكم بعدم المغفرة أو عدم دخول الجنة، فلا يحق لعبد من عباد الله مهما بلغ من التقوىٰ والصلاح أن يتألىٰ علىٰ الله فيحكم علىٰ مقصر من أهل التوحيد جازماً: أن الله لا يغفر له، أو أنه لا يدخله الجنة: فمن الأدب مع الله والصدق والتواضع عند المطيع ألا يقع في هـٰذه المهواة، بل يدعو لأخيه كما يدعو لنفسه بالمغفرة والرحمة مع النصح والبيان في الإتيان بالأمور من أبوابها وتخير الوقت المناسب والحال المناسبة للنصح والتذكير، بعيداً عن الغرور والاستكبار علىٰ الآخرين، بل والشفقة عليهم.

أما إذا حاد عن السبيل وأعطىٰ نفسه ـ وهو العبد الضعيف المحتاج أبداً إلىٰ مغفرة الله ورضوانه ـ ما ليس من حقه فتألىٰ علىٰ الله وتجاوز حدوده؛ فهناك سوء العاقبة والعياذ بالله.

هـٰذه قصة قصها علينا أبو هريرة رضي الله عنه علىٰ لسان النبي عليه الصلاة والسلام، عمّن كانوا قبلنا، نجدها في عدد من مصادر السنة المطهرة، وقد رواها أبو داود في كتاب الأدب من «سننه» تحت باب عنوانه: (بابٌ في النهي عن البغي) وهو عنوان موفق للغاية يوحي بفقه أبي داود يرحمه الله للمحور الذي تدور عليه القصة.

فقد أخرج بسنده عن عكرمة بن عمار قال: حدثني ضمضم بن جوس قال: قال أبو هريرة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كان رجلان في بني**

إسرائيل متواخيين ـ أي: متآخيين ـ **فكان أحدهما يذنب والآخر مجتهد في العبادة، فكان لا يزال المجتهد يرىٰ الآخر علىٰ الذنب فيقول: أقصِرْ، فوجده يوماً علىٰ ذنب، فقال له: أقصر، فقال: خلّني وربي، أبُعثتَ عليّ رقيباً؟ فقال: والله لا يغفر الله لك، أو لا يدخلك الجنة. فقبض أرواحهما، فاجتمعا عند رب العالمين، فقال لهـٰذا المجتهد: أكنت بي عالماً؟ أو كنت علىٰ ما في يدي قادراً؟ أتستطيع أن تمنع عبدي؟ وقال للمذنب: اذهب فادخل جنتي برحمتي، وقال للآخر: اذهبوا به إلىٰ النار**».

قال أبو هريرة: (والذي نفسي بيده لقال كلمة أَوْبَقَت دنياه وآخرته)[1]. وفي رواية لأحمد: (لا يدخلك الله الجنة أبداً)[2].

(البغي): من بغىٰ عليه يبغي بغياً ـ كما يقول صاحب «القاموس» ـ عدا وظلم وعدل عن الحق واستطال وكذب. (أقصر): قال السندي: من الإقصار وهو الكف عن السعي مع القدرة عليه. (أوبقت): أي أهلكت. أراد أبو هريرة ﷺ بالكلمة.. قول المجتهد للمقصر: (والله لا يغفر لك الله ـ أو لا يدخلك الجنة أبداً).

سبحان الله! المجتهد في العبادة والمقصر: أحدهما قريب من الآخر إلىٰ حد التآخي، وهـٰذا يستلزم أن يكون المجتهد أكثر توسعاً بأخيه المقصر من أجل عطفه إلىٰ جادة السلامة، شفقة عليه، وخشية أن يكون من أهل الجحيم.

ولـٰكنه لم يفعل، بل تألّىٰ علىٰ الله فأقسم ـ بعد سوء ما تلفظ به صديقه الحميم ـ علىٰ أن الله لن يغفر له أو لن يدخله الجنة، إنه تجاوز ينمّ عن جهالة مضموم إليها نوع من الكبر والغرور والعياذ بالله، ومن هنا سمّىٰ أبو داود هـٰذا بغياً.

ويتطلع السامع بلهفة إلىٰ معرفة ما سيكون لكل منهما بعد هـٰذا الذي

وانظر: «سبل الهدىٰ والرشاد» للإمام الصالحي: ٥/٥٦٨ ـ ٥٦٩.

(١) «السنن»: (٤٩٠١) الأدب: ٥/٢٠٧ ـ ٢٠٨.

(٢) «المسند»: (٨٢٩٢) ١٤/٤٦ ـ ٤٧. وانظر: «تهذيب الكمال في أسماء الرجال»:

حصل؛ لأن الأمر أمر سوء العاقبة بعدم المغفرة والإبعاد عن الجنة تأبيداً كما في رواية أحمد، أو حسنها بانتفاء ما أقسم عليه ذٰلك الصديق تأنيباً لصديقه.

ولا يطول بنا الترقب حتىٰ يطالعنا الصادق المصدوق ﷺ بما أطلعه الله عليه الغيب في هـٰذا الشأن فيقول: «**فقبض أرواحهما فاجتمعا عند رب العالمين**» وفي رواية لأحمد: «**فبعث الله إليهما ملكاً فقبض أرواحهما واجتمعا عنده، فقال لهـٰذا المجتهد: أكنت بي عالماً؟ أو كنت علىٰ ما في يدي قادراً؟**».

هـٰكذا أبان هـٰذا الخطاب الإلـٰهي للأول عن طبيعة ما ارتكب من الإثم بهـٰذا التجاوز؛ فلا هو عالم بما أعد الله لهـٰذا العبد أو ذاك، ومن أين يكون له هـٰذا العلم؟ ولا هو قادر علىٰ أن يكون صاحب القرار في هـٰذا ـ وهو الذي يعلم أن الأمر بيد الله وأنه سبحانه إليه المصير، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون!! وجاءت الإبانة عن ذٰلك بهـٰذا الاستفهام التقريعي في كلا السؤالين.

ويكشف النبي ﷺ عن مصير كل من هذين الصديقين عند الله، حيث قال للمذنب المقصّر المعترف بذنوبه ـ كما يدل السياق ـ: «**اذهب فادخل الجنة برحمتي، وقال للآخر: اذهبوا به إلىٰ النار**».

إنها العبرة العظيمة التي يريد الرسول ﷺ من ورائها ـ والله أعلم ـ أن لا يقع واحد من أمة الإسلام فيما وقع فيه ذٰلك الرجل من بني إسرائيل من التألي علىٰ الله وتجاوز حدود العبودية له سبحانه، وأن يكون الكل في طاعة الله وفق الشريعة الغراء وهو قبس من أقباس الهدي النبوي فيما يقصّه علىٰ الأمة من أخبار الغابرين.

ورضي الله عن أبي هريرة الذي أكد هـٰذا اللون من الهدي النبوي مشيراً إلىٰ العدالة الإلـٰهية المطلقة، فالله تعالىٰ لم يظلم ذٰلك الرجل حين أمر به إلىٰ النار وقد قال كلاماً جرّ عليه الهلاك في الدنيا بما يعتريه من الفضيحة وأن يكون عبرة لمن يعتبر، وفي الآخرة بهـٰذا المصير في نار السعير.

ولما كانت مداخل الشيطان والهوىٰ كثيرة إلىٰ النفس الأمارة بالسوء ظاهراً وباطناً: فقد تكرر التنبيه من النبي ﷺ ـ كما في هـٰذه القصة ـ علىٰ هـٰذا النوع من سوء الأدب مع الله تعالىٰ، الذي صورته التألي أي: الحلف بالله

علىٰ أنه لا يغفر الله لفلان، أو لا يدخل الجنة فلان، علماً بأن هـٰذا يحمل من الغرور والدعوىٰ العريضة ما يحمل.

ورووىٰ مسلم في «صحيحه»، والبيهقي في «شعب الإيمان» ـ واللفظ لمسلم ـ عن جندب بن عبد الله بن سفيان البجلي: أن رسول الله ﷺ حدث: «**أن رجلاً قال: والله لا يغفر الله لفلان، وأن الله تعالىٰ قال: من ذا الذي يتألّىٰ علي أن لا أغفر لفلان، فإني فقد غفرت لفلان وأحبطت عملك**» أو كما قال[1].

(يتألّىٰ): أي يحلف، والألّيّة: اليمين.

وقد أحسن الإمام النووي صنيعاً في شرحه لصحيح مسلم بوضعه لهـٰذا الحديث باباً عنوانه: (النهي عن تقنيط الإنسان من رحمة الله تعالىٰ)[2].

هـٰذا: وعند أحمد وابن حبان والبيهقي باختلاف يسير.

قال راوي القصة: قال لي أبو هريرة: يا يماميّ لا تقولنّ لرجل: والله لا يغفر الله لك، أو لا يدخلك الجنة أبداً. قلت: يا أبا هريرة إن هـٰذه الكلمة يقولها أحدنا لأخيه وصاحبه إذا غضب، قال: فلا تقلها، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كان في بني إسرائيل رجلان كان أحدهما مجتهداً في العبادة وكان الآخر مسرفاً علىٰ نفسه، فكانا متآخيين، فكان المجتهد لا يزال يرىٰ الآخر علىٰ ذنب فيقول: يا هـٰذا أقصر، فيقول: خلني وربي أبعثت علي رقيباً..**» إلىٰ أن يقول: قال أبو هريرة: والذي نفسي بيده لتكلم بكلمة أَوْبَقَت دنياه وآخرته[3].

اللهم ارزقنا طاعة المتقين، وأدب المخبتين، وتواضع المنيبين.



.٣٢٦/١٣

(١) «صحيح مسلم»: (٢٦٢١)، البر والصلة والآداب: ٢٠٢٣/٤.

(٢) «صحيح مسلم بشرح النووي»: ١٦/ ١٧٤.

(٣) «المسند»: (١٢٩٢)، ابن حبان: (٥٧١٢). وانظر: البيهقي في «شعب الإيمان»:

زاهر باديتنا ونحن حاضروه

(١)

كثيراً ما يحبوك القصص في السنة النبوية منافذَ مضيئة تطلُّ من خلالها علىٰ كريم أخلاق النبي عليه الصلاة والسلام، وهو يسلك بالأمة طرائق الهداية السنيّة في مختلف الأحوال والشؤون.

وفي غضون ذٰلك: لا يعوزك أن تقع علىٰ ما تشرق به تصرفاته في نور مكارم الأخلاق من الحكمة الدائمة المتجددة، وحسن التأتي، والقدرة علىٰ وضع الخلق موضعه المثمر علىٰ طريق الهداية من غير وكس ولا شطط.

فإذا أبصرت الحزم فاعلم أن الحق والبر والصلاح هناك. وإذا رأيت اللين: فاعلم أن الحكمة حاصلة في أمر من أمور الدعوة يقتضي هٰذا اللين؛ فهو يحزم حين يطلب الحزم، ويلين حيث يطلب اللين.

وقل مثل ذٰلك في الغضب والرضا؛ فإذا غضب ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وهو لا يغضب إلا لله: دلّ ذٰلك دلالة قاطعة علىٰ أن سبباً علىٰ طريق نهجه الحكيم: كان لهٰذا الغضب، وإذا بدا منه خلق الرضا: كان من عين اليقين: أنك أمام شأن من شؤون الهدىٰ، هو حقيق بأن يصحبه هٰذا الرضا.

حتىٰ المزاح ـ وهو ﷺ يمزح ولا يقول إلا حقاً ـ تجده منه في أنسب موقع يؤدي وظيفته المثلىٰ علىٰ طريق التزكية والتعليم، والتربية بالقدوة، وفق محور خلقي فريد هو الذروة في كماله الإنساني عليه الصلاة والسلام؛ حيث لا تحول ممارسة الأمور العظام التي يواجهها فيما هو فيه من رفع قواعد البناء السليم علىٰ كل صعيد: دونه ودون إعطاء كل ذي حق حقه ـ وهو صاحب اليد العليا صلوات الله وسلامه عليه ـ علىٰ صعيد الأخلاق القويمة وإنسانية الإنسان!

هٰذا واحد من الصحابة عليهم الرضوان: يدعىٰ زاهر بن حرام ـ أو ابنَ حِزام الأشجعي ـ كان من أهل البادية وذهب ابن عبد البر إلىٰ أنه شهد بدراً، وكان كريماً خفيف الظل، دمث الأخلاق في سلوكه مع النبي ﷺ، وكان ﷺ يحبه ويقابله إحساناً بإحسان أوفىٰ[1].

فلم يكن عجباً من العجب: أن يظفر زاهر هٰذا بما يؤكد ما نقول، وذٰلك في قصة تطالعنا بها مصادر السنة المطهرة؛ كان له فيها من المصطفىٰ صلوات الله وسلامه عليه الحظ الأوفىٰ من الإيناس والتلطف وإدخال السرور علىٰ قلبه، حتىٰ بالمزاح العذب الرقيق، المتناسب مع خفة ظله ونبله رضي الله عنه.

ذٰلكم ما روىٰ أحمد في «المسند» والترمذي في «الشمائل» وأبو يعلىٰ والبزار وغيرهم عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رجلاً من أهل البادية يدعىٰ زاهر بن حرام ـ أو زاهر بن حزام ـ الأشجعي كان يهدي إلىٰ النبي ﷺ الهدية من البادية، فيجهزه رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج. فقال النبي ﷺ: «**إن زاهراً باديتنا ونحن حاضروه**» ـ وفي رواية: «**ونحن حاضرته**» ـ وكان النبي ﷺ يحبه، وكان رجلاً دميماً، فأتاه النبي ﷺ وهو يبيع متاعه، فاحتضنه من خلفه والرجل لا يبصره، فقال: أرسلني من هٰذا؟ فالتفت فعرف النبي ﷺ، فجعل لا يألو ما ألصق ظهره بصدر النبي ﷺ حين عرفه ـ وعند ابن حبان: فلما عرف أنه النبي ﷺ جعل يلصق ظهره بصدره ـ. وجعل رسول الله ﷺ يقول: «**من يشتري هٰذا العبد؟**» فقال زاهر: يا رسول الله إذان والله تجدني كاسداً. فقال الرسول صلوات الله وسلامه عليه: «**لٰكن عند الله لست بكاسد**» أو قال: «**لٰكن أنت عند الله غال**» أو «**بل أنت عند الله غال**»[2].

إسناده صحيح، وصححه الحافظ في كتابه «الإصابة» وقال الهيثمي في كتابه «مجمع الزوائد»: رواه أحمد وأبو يعلىٰ والبزار ورجال أحمد رجال

(٦٦٨٩)، «تهذيب الكمال في أسماء الرجال»: ١٣/ ٣٢٦ ـ ٣٢٧.

(١) وانظر: «الاستيعاب» لابن عبد البر: ١/ ٥٧٥، «الإصابة» لابن حجر: ١/ ٥٤٢.

(٢) «المسند»: (١٢٦٤٨)، «الشمائل» للترمذي: (٢٣٩)، «مسند أبي يعلىٰ»: (٣٤٥٦)،

الصحيح[1].

هـٰذا: ورواه ابن حبان والبيهقي والبغوي والطبراني في «الكبير» وآخرون[2].

ونجد في رواية الطبراني ـ علىٰ اختصارها ـ زيادات نافعة، حيث روىٰ بسنده عن رافع بن سلمة قال: سمعت أبي يحدث عن رجل من أشجع، يقال له زاهر بن حرام الأشجعي قال: وكان رجلاً بدوياً، لا يأتي النبي ﷺ إذا أتاه إلا بطرفة أو هدية يهديها. فرآه الرسول ﷺ بالسوق يبيع سلعة ولم يكن أتاه، فاحتضنه من ورائه بكفيه، فالتفت وأبصر رسول الله ﷺ، فقبل كفيه فقال: «**من يشتري العبد؟**» قال: إذن تجدَني يا رسول الله كاسداً، قال: «**ولـٰكنك عند الله ربيح**»[3].

(فيجهزه النبي ﷺ)؛ أي: يعطيه من المدينة ما يتجهز به إلىٰ أهله مما يعينه علىٰ كفايتهم، والقيام بكمال معيشتهم.

ولما كانت الحاضرة خلاف البادية لأن الحاضرة المدن والقرىٰ والريف، والبادية خلاف ذٰلك، والبادي: المقيم في البادية، والحاضر: المقيم في الحاضرة، وكل من البادية والحاضرة تكمّل أختها، لما أن في كل منهما ما هو متطلب للأخرىٰ ـ علىٰ وجه العموم ـ والكلام هنا علىٰ عصر النبي عليه الصلاة والسلام.

لما كان الأمر كذٰلك: فإن قول النبي ﷺ بعد تجهيزه زاهراً عند عودته من المدينة المنورة ـ وهي من الحاضرة ـ إلىٰ البادية: «إن زاهراً باديتنا ونحن حاضروه ـ أو ونحن حاضرته» من جوامع كلمه عليه الصلاة والسلام حيث الألفاظ اليسيرة القليلة والمعاني الغزيرة الوفيرة؛ إذ في هـٰذا التعبير البليغ

«البزار ـ كشف الأستار»: (٢٧٣٥).

(١) انظر: «الإصابة»: ١/ ٥٢٤، «مجمع الزوائد»: ٩/ ٣٦٨.

(٢) «الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان»: (٥٧٩٠)، «السنن الكبرىٰ» للبيهقي: ١٠/ ٢٤٨، «شرح السنة» للبغوي: (٣٦٠٤)، «المعجم الكبير» للطبراني: (٥٣١٠).

المشرق إطلاق المحل ـ وهو البادية ـ بكل ما فيه من النعم وما الحاضرة بحاجة إليه، علىٰ الحالّ فيه وهو زاهر، وفي ذٰلك ما فيه من التكريم الذي يسديه النبي ﷺ لزاهر الذي كان لا يأتي النبي ﷺ إذا أتاه ـ كما يقول أنس رضي الله عنه إلا بطرفة أو هدية يهديها؛ فأضاف ﷺ إلىٰ تجهيزه إياه بما يحتاج: هٰذه الإضافة الندية المحببة بقوله: «باديتنا».

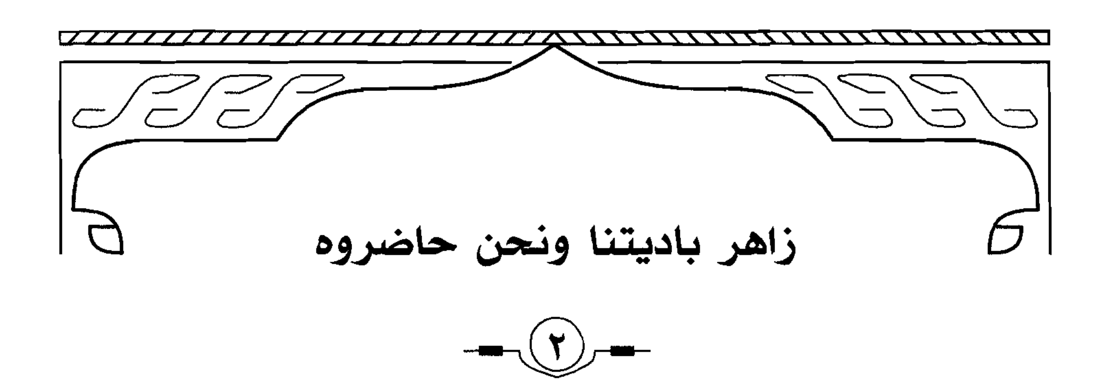
ويزيد رسول الله علىٰ هٰذا التكريم بإيناس زاهر إيناساً يتمثل في قوله عليه الصلاة والسلام: «ونحن حاضروه» ـ أو «ونحن حاضرته» ـ كأنه يقول له: كلنا حاضروك يا ابن البادية المؤمن الكريم المحَب وكلنا حاضرتك.

وفي هٰذا تنبيه من النبي ﷺ علىٰ أن زاهراً الذي وقر الإيمان في صدره واستنار قلبه بمحبة النبي عليه الصلاة والسلام، مصحوباً إلىٰ ذٰلك: نبله وكرمه: أهل لذٰلك.

ولا يغيبن عن البال ما في هٰذه الكلمات النبوية الرفيعة القدر من توجيه يومذاك إلىٰ ما يجب من مدّ الجسور بين البادية والحاضرة تحت راية الإسلام ودعوته كيما تتكامل المصالح الدنيوية، ويتعاون الجميع في نور الكلمة الطيبة «لا إلٰه إلا الله محمد رسول الله» علىٰ ما فيه خير الدنيا والآخرة، وحشد الطاقات الفاعلة في مواجهة التحديات.

ولنا عودة إلىٰ هٰذه القصة ـ نتابع من خلالها إن شاء الله ـ استكمال ما توحي به من تربية نبوية بالقدوة وأدب بالغ عند الصحابة. ومن ذٰلك مزاحه العذب المنير عليه الصلاة والسلام مع زاهر رضي الله عنه، تلك الاستجابة الرقيقة الجميلة لهٰذا المزاح.





زاهر باديتنا ونحن حاضروه

(٢)

هٰذا أوان الوفاء بما سبق من الوعد بخطوة أخرىٰ نسعد معها باصطحاب تلك القصة الزاخرة بالعطاء الحضاري في ظل أخلاق الإسلام، ونهج التعامل السّنيّ الرفيع بين النبي المصطفىٰ عليه أفضل الصلاة والسلام، وبين أصحابه الذين تناولتهم بالتربية والتزكية يده الصناع، حيث وضعُ الأمورِ مواضعها، وإعطاء كل ذي حق حقه في الأحوال كافة بميزان لا يعول.

وأعني بها قصة الصحابي الجليل النابه زاهر الأشجعي الذي تربىٰ في مدرسة النبوة رضي الله عنه؛ مع النبي صلوات الله وسلامه عليه وهي التي بدا فيها سيد الأولين والآخرين ـ وهو المبلغ المعلم، والمربي القائد الذي كان الناظر إليه لا يكاد يتملىٰ من وجهه مهابة له وإعظاماً لما يتحلىٰ به من الوقار المأنوس ـ أجل بدا المثل الأعلىٰ للكمال الإنساني في الرسول الإنسان، الكمال الذي شاء الله أن يتألق بسنا قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم].

وكم كان جميلاً ما قابل ذٰلك من نبل صحابينا ـ سليل البادية وابنها البار ـ وكرمه ووفائه، ناهيك عن رقته وأدبه الجمّ المنوّر بمحبة النبي ﷺ، المحبة التي جعلته عندما عرف أنه هو الذي يحتضنه من خلفه: لا يألو ما ألصق بصدره صلوات الله وسلامه عليه حين عرفه، ولما راح الرسول ـ فداه أبي وأمي ـ يزيد من إيناسه بقوله: «**من يشتري هٰذا العبد؟**» لم يلبث أن قال بتواضع المتقين: إذن تجدني والله كاسداً. وكما كان عليه الصلاة والسلام بعد هٰذا سخياً في تبشيره تلك البشارة التي يغبط فيها الغبطة كلها بقوله: «**لٰكن عند الله لست بكاسد**»: أو «**بل أنت عند الله غال**». الأمر الذي يذكّر بما جاء

عنه ﷺ ـ كما روىٰ أحمد والحاكم وأبو نعيم وغيرهم ـ من قوله بشأن حموشة ساقي عبد الله بن مسعود ـ دقتهما ـ «**والذي نفسي بيده لهما أثقل في الميزان من أُحُد**»[1].

وهٰذه عودة إلىٰ القصة المومىٰ إليها تذكرنا بما روىٰ أحمد وابن حبان والترمذي وغيرهم عن أنس رضي الله عنه، أن رجلاً من أهل البادية يدعىٰ زاهر بن حرام ـ أو زاهر بن حِزام الأشجعي ـ، كان يهدي إلىٰ النبي ﷺ الهدية من البادية، فيجهزه رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج، فقال النبي ﷺ: «**إن زاهراً باديتنا، ونحن حاضروه**» وفي رواية: «**ونحن حاضرته**».

وكان النبي ﷺ يحبه، وكان رجلاً دميماً، فأتاه النبي ﷺ وهو يبيع متاعه، فاحتضنه من خلفه والرجل لا يبصره، فقال: أرسلني من هٰذا؟ فالتفت فعرف النبي ﷺ، فجعل لا يألو ما ألصق ظهره بصدر النبي ﷺ حين عرفه ـ وعند ابن حبان: فلما عرف أنه النبي ﷺ جعل يلصق ظهره بصدره ـ، وجعل رسول الله ﷺ يقول: «**من يشتري هٰذا العبد؟**» فقال زاهر: يا رسول الله إذن والله تجدني كاسداً. فقال النبي صلىٰ الله وسلم وبارك عليه: «**لٰكن عند الله لست بكاسد**» أو «**بل أنت عند الله غال**»)[2].

ونجد عند الطبراني: .. فرآه رسول الله ﷺ بالسوق يبيع سلعة، ولم يكن أتاه، فاحتضنه من ورائه بكفيه، فالتفت وأبصر رسول الله ﷺ، فقبل كفيه، فقال: «**من يشتري العبد؟**» قال: إذن والله تجدَني كاسداً، قال: «**ولٰكنك عند الله ربيح**»[3].

ولعل من الخير أن نشير إلىٰ أن هٰذا الخلق عند رسول الله ﷺ، وهو

---

(١) «المعجم الكبير»: ٥/ ٢٧٤ (٥٣١٠).

(٢) وانظر: «المسند»: ١/ ١١٤، «الطبقات» لابن سعد: ٣/ ١١٠، «المصنف» لعبد الرزاق: (١٩٦٨٨)، «الحلية» لأبي نعيم: ١/ ١٢٧، «الربانيون ـ قدوة وعمل» للدكتور محمد أديب الصالح: ١١٩ ـ ١٢٠.

(٣) وانظر: «الشمائل المحمدية» للترمذي مع «المواهب اللدنية» للباجوري: ٤٠١، «الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان»: ١٣/ ١٠٦ ـ ١٠٧ (٥٧٩٠).

خلق الممازحة عندما تتوافر المناسبة علىٰ طريق الهداية للخلق، والذي لا يقول فيه إلا حقاً: يبرز هٰذا التكامل الإنساني النوراني في شخصيته عليه الصلاة والسلام؛ فأنّىٰ نظرت في سلوكه، كائنة ما كانت الجهة، وكائناً ما كان الشأن والحال: طالعتك إضاءة هٰذا السلوك، وما يحمل ذٰلك من معاني السموّ، وحماية إنسانية الإنسان، حرصاً علىٰ تحقيق الهدف الكبير في استجابة الخلق لدعوة الله وحبهم للنهج النبوي وصاحبه عليه الصلاة والسلام.

وهنيئاً لزاهر عليه الرضوان ما كان له من الحظ الأوفىٰ علىٰ هٰذه الساحة المباركة؛ وما ألهمه من مقابلة اللطف والإيناس من النبي ﷺ بالتصرف المهذّب النابع من أدبه ومحبته له صلوات الله وسلامه عليه، وبكلماته العِذاب جواباً عما طرق سمعه من قول النبي ﷺ: «من يشتري هٰذا العبد؟».

وما أعظم ما فاز به من بشرىٰ رفعة قدره وعلو رتبته عند الله، التي أشرق فيها قوله ﷺ: «ولٰكنك عند الله ربيح» رداً ـ ما كان أغلاه وأغناه ـ علىٰ قوله آنذاك: (إذن تجدني يا رسول الله كاسداً).

الأمر الذي حمل العلامة إبراهيم الباجوري في «شرحه للشمائل المحمدية للترمذي» علىٰ القول: (فببركته ﷺ حصلت منه الإنابة وصادفته العناية، فلذٰلك بشره النبي محمد ﷺ بعلو قدره وإعلاء رتبته، فتضمن مزاحه ﷺ بشرىٰ فاضلة، وفائدة كاملة، فليس مزاحاً إلا بحسب الصورة، وهو في الحقيقة غاية الجد)[(١)].

والذي يستوقفك في هٰذا الأمر من التعامل في سيرته عليه الصلاة والسلام: أنه ـ وهو الحكيم المؤيد بالعصمة ـ أنه كان يفعله بمقدار ما يؤدي الغرض علىٰ ساحة الهداية، ويبعث في النفس الرضا، وفي الصدر الانشراح؛ لذا كان ـ علىٰ قلته ـ ظاهر التنوع بحسب الحال والشخص الذي كانت معه الواقعة. وقصة زاهر رضي الله عنه من أوضح الأدلة علىٰ ذٰلك.

هٰذا أنس بن مالك رضي الله عنه يقول ـ كما روىٰ الترمذي وغيره ـ: كان

---

(١) «المعجم الكبير»: ٥/ ٢٧٤ (٥٣١٠).

رسول الله ﷺ ليخالطنا حتىٰ يقول لأخ لي صغير: «**يا أبا عمير، ما فعل النُّغير؟**».

(يخالطنا): يمازحنا. و(النغير): تصغير نغر بضم النون وفتح العين، وهو طائر كالعصفور أحمر المنقار، وقيل: طائر له صوت، وقيل غير ذٰلك، والأشهر الأول.

قال الترمذي: (وفقه هٰذا الحديث: أن النبي ﷺ كان يمازح، وفيه: أنه كنّىٰ غلاماً صغيراً فقال له: «يا أبا عمير». وفيه: أنه لا بأس أن يعطىٰ الصبي الطير ليلعب به. وإنما قال له النبي ﷺ: «يا أبا عمير، ما فعل النغير» لأنه كان له نغير يلعب به فمات فحزن الغلام عليه، فمازحه النبي ﷺ فقال: «يا أبا عمير، ما فعل النغير؟»[1] وكم في هٰذه الممازحة والمداعبة للطفل من تطييب لقلبه وتخفيف لحزنه يتناسبان كل التناسب مع سنه وحزنه علىٰ نغيره، وفي ذٰلك درس عظيم للمربين والآباء والأمهات والمعلمين والمعلمات.

روىٰ أبو داود والترمذي وغيرهما عن أنس رضي الله عنه: أن رجلاً استحمل رسول الله ﷺ فقال: «**إني حاملك علىٰ ولد الناقة**» فقال: يا رسول الله، ما أصنع بولد الناقة؟ فقال رسول الله ﷺ: «**وهل تلد الناقة إلا النوق؟**»[2].

(استحمل رسول الله ﷺ): طلب منه أن يحمله؛ أي: يعطيه حَمولة يركبها.

ووجه الممازحة والمباسطة: قول الرسول ﷺ: «إني حاملك علىٰ ولد الناقة» الذي يتبادر منه للوهلة الأولىٰ: ما هو صغير من أولاد الإبل، فاشتبه الأمر علىٰ الرجل، وبيّن له النبي ﷺ الحقيقة.

وروىٰ الحسن البصري رحمه الله في حديث مرسل مقبول عند العلماء قال: أتت عجوز النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، ادع الله أن يدخلني الجنة، فقال: «**يا أم فلان، إن الجنة لا يدخلها عجوز**» قال: فولت تبكي، فقال: «**أخبروها**

---

(١) «الشمائل المحمدية» مع «المواهب اللدنية»: ص١٠٤.
(٢) «الشمائل المحمدية» للترمذي مع «المواهب اللدنية» للباجوري: ص٣٩١ ـ ٣٩٣.
(٣) «سنن أبي داود»: (٤٩٩٨)، «الشمائل»: (٢٣٩)، «جامع الترمذي»: (١٩٩٢)،

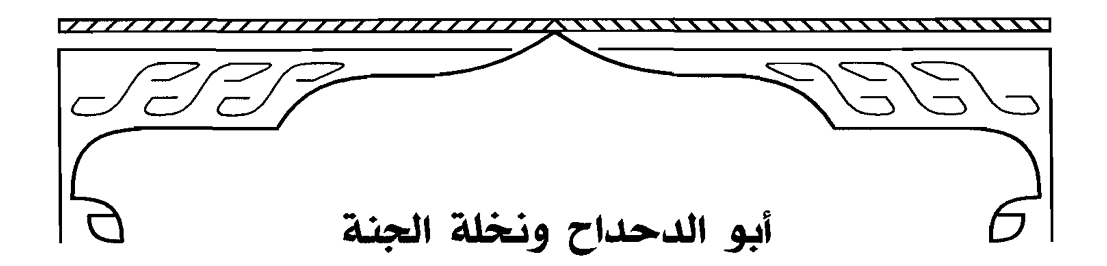
أنها لا تدخلها وهي عجوز» إن الله تعالىٰ يقول: ﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ﴿٣٥﴾ فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتۡرَابٗا ﴿٣٧﴾﴾ [الواقعة].

قوله: «إن الجنة لا يدخلها عجوز» قال ذٰلك كما جاء في «المواهب اللدنية» مزاحاً معها وإرشاداً لها إلىٰ أنها لا تدخل علىٰ الهيئة التي هي عليها، بل ترجع في سن ثلاث وثلاثين سنة، واقتصاره ﷺ علىٰ العجوز لخصوص سبب الحديث: أو لأن غيرها يعلم بالمقايسة. وقد روىٰ معاذ بن جبل أن النبي ﷺ قال: **«يدخل أهل الجنة جرداً مرداً مكحلين أبناء ثلاثين أو ثلاث وثلاثين سنة»**[1].



«المواهب اللدنية» للباجوري علىٰ «الشمائل»: ص٣٩٥ ـ ٣٩٦.

(١) «الشمائل المحمدية» للترمذي مع «المواهب اللدنية» للباجوري: ص٤٠١ ـ ٤٠٣



أبو الدحداح ونخلة الجنة

كان من رحمة الله بالأمة المحمدية ـ وقد أرسل محمداً ﷺ رحمة للعالمين ـ أن فتح لها أبواب الخير ودلّها في كتابه الكريم وعلىٰ لسان نبيه المصطفىٰ عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم علىٰ ما فيه مرضاته سبحانه، والنجاة من عذابه يوم الدين، والفوز بجنة الخلد التي وعد عباده المتقين.

ومن آيات السعادة والتوفيق: أن يكون المؤمن علىٰ كمال التصديق الجازم بموعود الله ـ جل ثناؤه ـ وعباده الذين يحبهم ويحبونه بالفوز بالجنة والنجاة من النار، حتىٰ كأنه يراها هنا رأي عين، ألم تر إلىٰ ما روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: (لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً) وذٰلك أنه موقف حق اليقين هنا في الدنيا بما جاء به الخبر الصادق في كلام الله تعالىٰ، أو ما صح عن سيدنا محمد رسول الله عليه الصلاة والسلام.

ومن آثار هٰذا التصديق: ما يرىٰ من انعكاس ذٰلك علىٰ سلوك هٰذا المؤمن؛ فهو متجه علماً وعملاً ومراقبة لله عز وجل إلىٰ الجنة دار المقامة بشراشره كلها، لا يلهيه عن ذٰلك شهوة من شهوات الدنيا أو متاع.

وجميل ما قال عوف بن جميلة الأعرابي: (والله ما رأيت رجلاً أعلم بطريق الجنة من الحسن)؛ يعني: الحسن البصري رحمه الله[1].

وإنما كان ذٰلك من سيد التابعين في زمانه علىٰ هٰذا النحو: بعمله المخلص الذي كان ثمرة التصديق الجازم كالذي كان من دوام ذكره الله تعالىٰ حين يصبح وحين يمسي وفق ما صح عن رسول الله ﷺ من رواية خادمه أبي سلّام:

---

(٢٤٠)، «شرح السنة» للبغوي: ١٣/ ١٨٣ (٣٦٠٦).

(١) وانظر: «القيامة مشاهدها وعظاتها في السنة النبوية»: ٢/ ١٨٨ للدكتور محمد أديب

«ما من مسلم، أو إنسان، أو عبد يقول حين يمسي وحين يصبح: رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً؛ إلا كان حقاً علىٰ الله ﷻ أن يرضيه يوم القيامة». أخرجه أبو داود بسند قوي كما يقول الحافظ، وابن ماجه، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد»: إسناده صحيح رجاله ثقات[1].

قال السندي: «حقاً علىٰ الله»؛ أي: يُمضي وعده. إنها الجنة موعود الله عباده الصالحين والله لا يخلف الميعاد. ورواه أحمد بلفظ: **«حين يصبح وحين يمسي ثلاث مرات»**[2]، والبغوي في «شرح السنة»[3].

ولم لا يأخذ المؤمن نفسه بهٰذا النهج المبارك، وقد بلغ من ترغيب النبي ﷺ بالجنة للذاكرين الله كثيراً والذاكرات، أن قال: ـ فيما روىٰ جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ـ: **«من قال: سبحان الله العظيم وبحمده غرست له نخلة في الجنة»** رواه الترمذي وحسّنه[4]، الحاكم وصححه، ووافقه الذهبي[5]. كما رواه أحمد ـ من حديث طويل ـ بلفظ: **«من قال: سبحان الله العظيم نبت له غرس في الجنة»**[6].

ولقد كان الصحابة عليهم الرضوان علىٰ منزلة من الإيمان الصادق بما وعد الله ورسوله من عطاء الله في الجنة ومنه غراس النخل: جعلت الصحابي أبا الدحداح رضي الله عنه يشتري بين يدي رسول الله ﷺ بحائطه نخلة شخص آخر، ويعطيها أخاً له من الصحابة محتاجاً إليها بنخلة في الجنة، وعده بها الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام.

وقصة ذٰلك كما أخرج أحمد وابن حبان[7] وغيرهما: نقع عليها فيما روىٰ، أنس رضي الله عنه، أن رجلاً قال: يا رسول الله إن لفلان نخلة، وأنا أقيم

الصالح.

(١) «سنن أبي داود»: ١١/ ١٣٠، «سنن ابن ماجه بشرح الإمام السِّندي»: (٣٨٧٠) ٣١/ ٣٠٢ في الدعاء: ٤/ ٢٨٣، «مجمع الزوائد» للهيثمي: ٤/ ١١٦.

(٢) «المسند»: (١٨٩٦٧) ٣١/ ٣٠٢. (٣) (١٣٢٤).

(٤) «الجامع الصحيح» للترمذي: (٣٤٦٤) الدعوات.

(٥) «المستدرك» للحاكم: ١/ ٥٠١، ٥١٢. (٦) «المسند»: (١٥٦٤٥).

حائطي بها، فمره أن يعطيني حتىٰ أقيم حائطي بها. فقال النبي ﷺ: «**أعطها إياه بنخلة في الجنة**» فأبىٰ. فأتاه أبو الدحداح فقال: بعني نخلتك بحائطي، وقد أعطيتكها فاجعلها له، فقال رسول الله ﷺ: «**كم من عذق رداح لأبي الدحداح في الجنة**» قالها مراراً.

قال: فأتىٰ أبو الدحداح امرأته فقال: يا أم الدحداح، اخرجي من الحائط فإني قد بعته بنخلة في الجنة. فقالت: ربح البيع، أو كلمة تشبهها.

وعند ابن حبان: «**كم من عذق دوّاح في الجنة**» و«**ربح السعر**» بدل (وربح البيع). إسناده صحيح علىٰ شرط مسلم[1]، وأخرجه الطبراني[2] والحاكم[3] وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» وقال: رواه الطبراني ورجالهما رجال الصحيح[4].

(الحائط): الجدار وجمعه حيطان. والحائط البستان أيضاً وجمعه حوائط.

(العَذق): بفتح العين: النخلة بكمالها ـ كما يقول الإمام النووي ـ والظاهر أنها المرادة هنا في كلام النبي ﷺ. قال ابن الأثير في «النهاية»: (فيه «**كم من عذق مذلّل في الجنة لأبي الدحداح**» العَذق: النخلة)[5].

أما (العِذق) ـ بالكسر ـ: فهو الكباسة الذي هو عنقود النخل وهو جامع الشماريخ، والشماريخ جمع شمراخ وهو ما يكون في الرطب، ويقال لأصل للكباسة: عرجون. وقد سمي بذلك كما في «المصباح المنير» لانعراجه وانعطافه[6].

(١) وانظر: «المسند»: (١٢٤٨٢)، «الإحسان»: (٧١٥٩).
(٢) انظر: «المسند»: ١٩/ ٤٦٤ ـ ٤٦٥ والحاشية هناك.
(٣) «المعجم الكبير»: (٧٦٣) ٢٢/ ٣٠٠.
(٤) «المستدرك»: ٢/ ٢٠.
(٥) «مجمع الزوائد» للهيثمي: ٩/ ٣٢٣ ـ ٣٢٤.
(٦) وانظر مادة: (عذق) فيها.
(٧) وانظر: «المصباح المنير» مادة: (عرج)، «النهاية في غريب الحديث» مادة: (عذق)،

وها هو القاضي عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول في كتابه «مشارق الأنوار علىٰ صحاح الآثار»: (وقيل: إنما يقال للنخلة عَذق إذا كانت بحملها. وللعرجون عِذق إذا كان تاماً بشماريخه وتمره)[1].

وقوله ﷺ: «رداح» بفتح الراء وخفة الدال فهو كما يقول السندي: الثقيل لكثرة ما فيه من الثمار. وأما «الدوّاح» بدال وواو مشددتين كما في رواية ابن حبان: «كم من عذق دوّاح لأبي الدحداح في الجنة» فهو العظيم الشديد العلو، وكل شجرة عظيمة: فهي دوحة من أي شجر كان.

وَبَعْـد: فغير خاف ما ظفر به أبو الدحداح بشراء النخلة وإعطائها أخاه الصحابي المضطر إليها وهو أمر ـ كما ينم عن كرمه وبذله في سبيل الله ـ يدل أوضح الدلالة علىٰ قوة إيمانه وتصديقه الجازم بموعود النبي ﷺ ـ وهو من الغيب ـ أن له بها نخلة في الجنة، وأكد ذٰلك عليه الصلاة والسلام بقوله مراراً: «كم من عَذق رداح ـ أو دوّاح ـ لأبي الدحداح في الجنة».

وهٰذا الرزق العظيم الذي سيق لأبي الدحداح وزوجه التي قالت ـ في مسمع تاريخنا العظيم عندما قال لها: يا أم الدحداح اخرجي من الحائط، فإني قد بعته بنخلة في الجنة؛ التي قالت: ـ ربح البيع، أو ربح السعر ـ فضلاً من الله ـ بصدقهما وترك مرادهما لمراد الرسول ﷺ: حُرِمه ذاك الذي أبىٰ أن يتنازل عن النخلة عندما طلب منه ذٰلك. ويبدو أن إباءه ـ وقد يكون رقيق الصحبة ـ إنما كان لإحساسه أن ما قاله الرسول ﷺ كان شفاعة، وليس أمر طاعة ووجوب، قال السندي: (قيل: كان قوله ﷺ ذاك شفاعة لا أمراً وإلا عصىٰ بخلافه).

سبحان الله! كم تجر الغفلة علىٰ صاحبها من الخسران بإضاعة الربح الأخروي.

والدرس العظيم لكل مؤمن ومؤمنة: ما كان يحظىٰ به أبو الدحداح ـ أو ابن الدحداح كما في بعض الروايات من حفاوة نبوية كريمة حتىٰ بعد وفاته

ومادة: (شمر).

بتكرار هٰذه البشارة جزاء هٰذا الصدق الإيماني والبرهنة عليه في الواقع العملي.

من ذٰلك ما روىٰ مسلم وغيره عن جابر بن سمرة قال: صلىٰ رسول الله ﷺ علىٰ ابن الدحداح ـ أي: صلاة الجنازة ـ وعند ابن حبان: (ونحن شهود)، ثم أُتي بفرس عُري، فعقله رجل، فركبه، فجعل يتوقص به ونحن نتبعه نسعىٰ خلفه، قال: فقال رجل من القوم: إن النبي ﷺ قال: **«كم من عذق معلق ـ أو مدلّىٰ ـ في الجنة لابن الدحداح** ـ أو قال شعبة: **لأبي الدحداح»**[1].

فأنت ترىٰ أن النبي ﷺ يذكر بكثرة الأغصان المتدلية من شجرات أبي الدحداح في الجنة!!

وقد أشار الإمام النووي: ابن الدحداح بدالين وحاءين مهملات، كما أشار رَحِمَهُ اللهُ إلىٰ أنه كما يقال: أبو الدحداح يقال: أبو الدحداحة.

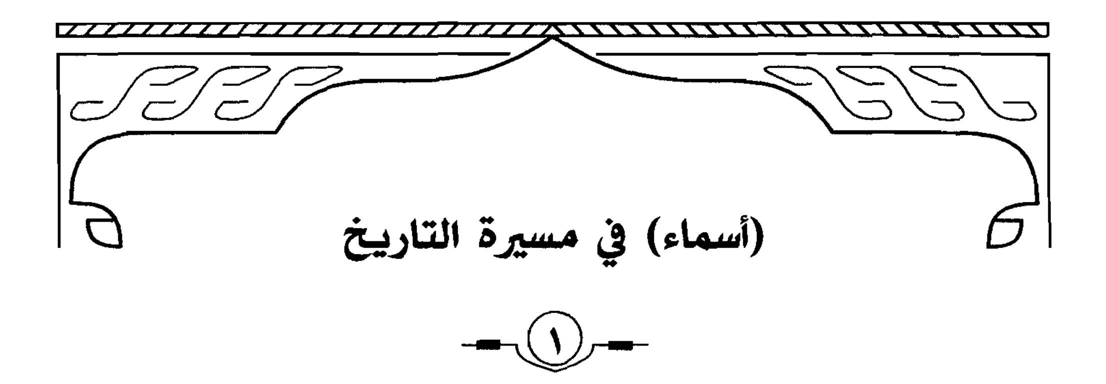
(العُري): الذي لا سرج عليه. (يتوقّص به): يتوثب ويقارب الخَطو.

وهنيئاً لهٰذا الصحابي الجليل ما فعل وهنيئاً لزوجته ـ التي كانت معه ـ البذل علىٰ حد سواء، هنيئاً لهما هٰذا الصدق الذي أعقبهما نخلة، بل نخلات في الجنة. وجل ذكر ربنا إذ يقول: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء].



(١) «مشارق الأنوار علىٰ صحاح الآثار» للقاضي عياض اليحصبي: ٢/ ٧١.

(٢) «صحيح مسلم بشرح النووي»: ٨/ ٣٢ ـ ٣٣. وانظر: «سنن أبي داود»: (٣١٧٨)،



(أسماء) في مسيرة التاريخ

١

من خصائص القصص في سنة المصطفىٰ عليه الصلاة والسلام: أنك ترىٰ هٰذا القصص، وهو من الحياة المزدانة بفاعلية الحركة الخيرة المعطاء وإليها.

ذٰلك أن وقائع القصة في تلك الحقبة الزمنية المباركة ﷺ علىٰ تنوعها واختلاف حجمها في الحركة والتأثر والتأثير، ومن يصدر عنهم ذٰلك ـ تولد يوم تولد؛ في ظل المنهج النبوي الهادي الذي سَداه ولُحمته: بناء الإنسان المسلم بناء قوياً متكاملاً، علىٰ قاعدة من التوحيد الخالص، والإحسان في اصطحاب حركة الحياة علىٰ الوجه الملائم لسنن الله ونعمائه في التسخير.

وهو بناء يخلص بالأمة إلىٰ مجتمع الإيمان والطهر، والعمل المجدي البنّاء المحوط بصالح الفرد والجماعة، يستوي في هٰذا الأمر الجلل الرجل والمرأة؛ كل علىٰ حسب تكوينه وما أودع الله فيه من أهلية وطاقات، جعلت بعض الأحكام تختلف باختلافها وتنوعها، مصحوباً ذٰلك كله بالتطلع إلىٰ الهدف الكبير الذي لا يبارح عقل المسلم وقلبه، وهو الفوز بمرضاة الله تعالىٰ وحسن العاقبة يوم الدين، يوم تزلف الجنة للمتقين وتبرّز الجحيم للغاوين.

ومن هنا: تقررت مسؤولية الفهم لأبعاد القصص الذي أشرقت به دواوين السنة المطهرة من أجل الاستنارة بوقائعه، والانتفاع بما تزخر به من دروس تضيء دروب السالكين، وتسعف في تحقيق المواجهة الإيمانية الواعية لتحديات التطور بشتىٰ صوره، وما يجدّ من مصطلحات ومفهومات علىٰ مختلف الأصعدة.

ومن هنا أيضاً: كان الاعتبار بها والانتفاع بدروسها علىٰ أرض الواقع، والتخطيط للمستقبل: سمة من سمات أولي النهىٰ، الذين يستخدمون عقولهم باستنارة إيمانية وتحليل سليم مدروس لوقائع التاريخ القريب منه والبعيد، فيضعون الأمور مواضعها، ولا تزيدهم المعرفة إلا حصافة وانتظام سلوك، وقدرة علىٰ مواجهة الحياة بشؤونها وشجونها، دون سآمة أو ضيق بتكاليف الواجب، والصبر علىٰ لأواء الطريق!

أقول هـٰذا وبين يدي قصة تشرق بعدد من ألوان العطاء في المجتمع، وهي قصة من حياة الصحابية الجليلة ذات النطاقين، أسماء بنت أبي بكر، وزوجها الزبير بن العوام ﵄: نشهد من خلالها بعضاً من صور الحياة الأسرية الكريمة في عصر النبوة، حيث الإيمان الذي يغمر بنوره حياة الزوجين، وحيث المعرفة بالواقع الاجتماعي والتعامل معه بصبر وجدية ورضىٰ وفق سنن الله التي لا تتخلف، وحزم في أخذ النفس بهدي النبي عليه الصلاة والسلام الذي كان قدوة ما أحسنها وأجلها من قدوة في مكارم ومحاسن الأخلاق، والهدي إلىٰ الصراط المستقيم.

حدثت أسماء ﵂ ـ كما أخرج الشيخان وأحمد وابن حبان وغيرهم من حديث عروة بن الزبير ـ قالت: (تزوجني الزبير وما له في الأرض من مال ولا شيء غير ناضح وغير فرسه، فكنت أعلف فرسه، وأكفيه مؤونته، وأسوسه، وأدقّ النوىٰ لناضحه وأعلفه، وأستقي الماء، وأخرز غربه، وأعجن، ولم أكن أحسن أخبز، وكان يخبز جارات لي من الأنصار وكنّ نسوة صدق.

قالت: وكنت أنقل النوىٰ من أرض الزبير التي أقطعه رسول الله ﷺ علىٰ رأسي وهي مني علىٰ ثلثي فرسخ. فجئت يوماً والنوىٰ علىٰ رأسي، فلقيت رسول الله ﷺ ومعه نفر من أصحابه ـ وعند البخاري: نفر من الأنصار ـ فدعاني ثم قال: «**إخ إخ**» ليحملني خلفه، فاستحييت أن أمشي مع الرجال، وذكرت الزبير وغيرته ـ وكان أغير الناس ـ فعرف رسول الله ﷺ أني قد استحييت، فمضىٰ.

وجئت الزبير فقلت: لقيني رسول الله ﷺ وعلىٰ رأسي النوىٰ، ومعه نفر

من أصحابه، فأناخ لأركب، فاستحييت منه وعرفت غيرتك. فقال: والله لحملك النوىٰ علىٰ رأسك كان أشد عليّ من ركوبك معه.

قالت: حتىٰ أرسل إلي أبو بكر بخادم تكفيني ـ أو فكفتني ـ سياسة الفرس، فكأنما أعتقني). وعند مسلم وابن حبان: (فكأنما أعتقتني)[1].

(الناضح): الحيوان الذي يستقىٰ عليه الماء، بعيراً كان أو ثوراً أو غيرهما.

وقولها: (أخرُز ـ أو أخرِز ـ غربه): الخرز في الجلد كالخياطة في الثياب. والغرب: الدلو العظيمة أو العظيم، وتأنيث دلو أكثر. أما لفظة: (إخ إخ) فهي بكسر الهمزة وإسكان الخاء المعجمة: كلمة تقال للبعير ليبرك، كما أفاد ذٰلك الإمام النووي وغيره.

(أرسل لي بخادم): أي بخادمة، يقال للذكر والأنثىٰ: خادم بلا هاء.

أما عن المسافة التي كانت تقطعها بين أرض الزبير ومنزلها كما جاء في قولها: (وهي مني علىٰ ثلثي فرسخ) فالفرسخ ثلاثة أميال، وإذن فكانت تقطع ـ والنوىٰ علىٰ رأسها ـ ميلين. ويقدَّر الميل البري اليوم بما يساوي تسعةً وستّمائة وألفاً من الأمتار، كما يقدّر الميل البحري بما يساوي اثنين وخمسين وثمانمائة وألفاً من الأمتار.

أما عن تسمية أسماء رضي الله عنها بـ(ذات النطاقين) فلا بد من استذكار أن النطاق هو ـ كما يقول ابن الأثير ـ: أن تلبس المرأة ثوبها، ثم تشد وسطها بشيء، وترفع وسط ثوبها، وترسله علىٰ الأسفل عند معاناة الأشغال؛ لئلا تعثر في ذيلها. قال: وبه سميت أسماء بنت أبي بكر ذات النطاقين؛ لأنها كانت تطارق نطاقاً فوق نطاق[2].

وقد سبق إلىٰ ذٰلك أبو عبيد الهروي في كتابه «الغريبين في القرآن والحديث» حيث قال بعد تعريفه للنطاق: (وبه سميت أسماء بنت أبي بكر

«سنن الترمذي ـ الجامع الصحيح»: (١٠١٣).
(١) «صحيح البخاري»: (٥٢٢٤)، «صحيح مسلم»: (٢١٨٢).

الصديق رضي الله عنهما ذات النطاقين؛ لأنها كانت تطارق نطاقاً علىٰ نطاق)[1].

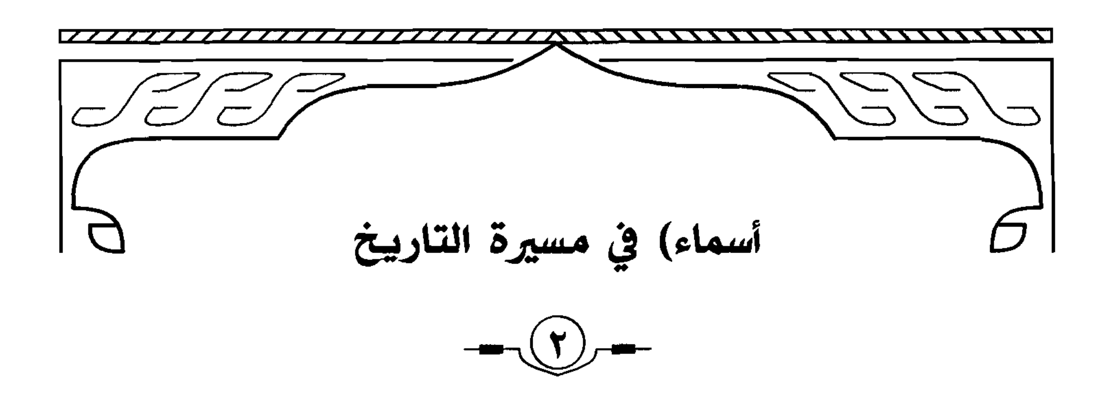
والقول الفصل في هٰذه التسمية المباركة التي لا تذكر صحابيتنا المكية ثم المدنية أم عبد الرحمٰن حين تذكر إلا بها: ما روىٰ البخاري في باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلىٰ المدينة من كتاب مناقب الأنصار في «الجامع الصحيح» عن هشام بن عروة بن الزبير وفاطمة بنت المنذر عن أسماء رضي الله عنها قال: (صنعت سفرة للنبي ﷺ وأبي بكر حين أرادا المدينة، فقلت لأبي: ما أجد شيئاً أربطه إلا نطاقي، قال: فشقيه، ففعلت، فسميت ذات النطاقين). ثم قال البخاري: وقال ابن عباس: أسماء ذات النطاق[2].

وفي رواية أخرىٰ: (صنعت سفرة للنبي ﷺ في بيت أبي حين أراد أن يهاجر، فلم أجد لسفرته ولا لسقائه ما أربطهما، فقلت لأبي: ما أجد إلا نطاقي، قال: شقيه باثنين فاربطي بهما، فلذٰلك سميت ذات النطاقين)[3].

وعند أحمد في «المسند»: فقال: (شقيه بائنين، فاربطي بواحد السقاء، وبالآخر السفرة، فلذٰلك سميت: ذات النطاقين)[4].



(١) وانظر: «النهاية» لابن الأثير: مادة: (نطق).
(٢) «الغريبين في القرآن والحديث» لأبي عبيد الهروي: مادة: (نطق).
(٣) وانظر: «الجامع الصحيح» مع «فتح الباري»: (٣٩٠٧) ٧/ ٢٤٠.
(٤) وانظر: «السير» للذهبي: ٢/ ٢٨٩.



أسماء) في مسيرة التاريخ

(٢)

علىٰ قدر ما يكون عليه المسلم من إخلاص في الدين وقوة في الأخذ بالإسلام، ونشر دعوته في الناس، والذود عن حياضه إظهاراً للحق ودفعاً للوهم والالتباس، يكون له من الفضل الرباني ما يرقىٰ به في مدارج القرب من الله رب العالمين، وما يعلي مقامه في الأولين والآخرين.

هٰذه حقيقة وددت الاستنارة بذكرها والتذكير بها، وأنا بسبيل خطوة أخرىٰ مع القصة التي حملتها إلينا المصادر علىٰ لسان الصحابية المجاهدة الصابرة أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما، والتي قصّت علينا فيها من نبأ الأسرة المسلمة في عصر النبوة، واهتمام الرسول عليه الصلاة والسلام بكل فرد من أفراد المجتمع المسلم، وما يشرق هٰذا المجتمع به من التعاون علىٰ البر والتقوىٰ طاعة لله عز وجل.

ذٰلكم بأن العلاقة جدّ وثيقة بين أهمية تلك القصة وأبعادها، وما تحمل من عبر وتوجيه حكيم، وبين ما أكرم الله به أسماء من الفضائل التي كان من عيونها: أنها رضي الله عنها سميت (ذات النطاقين) وهو اسم يذكر دائماً بما كان من مشاركتها الفعالة ـ وهي تدرج في أول مرحلة الشباب، حاملاً بابنها عبد الله ـ: في أمر من أمور الهجرة النبوية، ساعة شقت نطاقها نصفين في جو من السرية التامة والترقب الشديد، ليكون عوناً لها في الحفاظ علىٰ سفرة رسول الله ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه من الأذىٰ، حين أراد الهجرة من مكة إلىٰ المدينة، وكان ذٰلك سبب تسيمتها بذات النطاقين، وكم لهٰذا الاسم من الصدىٰ العميق المنوّر في تاريخ الإسلام.

وإذا كان الأمر كذٰلك: فلنعد ـ حرصاً علىٰ المزيد من أسباب الانتفاع بما قصت ﷺ ـ إلىٰ إيراد القصة هنا كما جاءت في «المسند» عند أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ؛ إذ روىٰ هناك بسنده عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن أسماء بنت أبي بكر، قالت: تزوجني الزبير، وما له من الأرض من مال ولا مملوك، ولا شيء غير فرسه. قالت: فكنت أعلف فرسه وأكفيه مؤونته وأسوسه وأدقّ النوىٰ لناضحه، وأعلف[1] وأستقي الماء وأخرز غربه وأعجن، ولم أكن أحسن أخبز، فكان يخبز لي جارات من الأنصار، وكنَّ نسوة صدق، وكنت أنقل النوىٰ من أرض الزبير التي أقطعه رسول الله ﷺ علىٰ رأسي، وهي مني علىٰ ثلثي فرسخ، فلقيت رسول الله ﷺ ومعه نفر من أصحابه، فدعاني ثم قال: «**إخ إخ**» ليحملني خلفه. قالت: فاستحييت أن أسير مع الرجال، وذكرت الزبير وغيرته، قالت: وكان أغير الناس، فعرف رسول الله ﷺ أني قد استحييت، فمضىٰ، وجئت الزبير فقلت: لقيني رسول الله ﷺ وعلىٰ رأسي النوىٰ، ومعه نفر من أصحابه، فأناخ لأركب معه، فاستحييت، وعرفت غيرتك، فقال: والله لحملك النوىٰ كان أشد علي من ركوبك معه. قالت: حتىٰ أرسل إلي أبو بكر بعد ذٰلك بخادم، فكفتني سياسة الفرس، فكأنما أعتقني)[2].

أرأيت إلىٰ هٰذه اللوحة الفنية الرائعة في دنيا البيان العربي وإلىٰ هٰذا الأسلوب العذب المتألق الماتع، كيف تميز بالإحاطة الهنيّة بكل كلية وجزئية أرادت أسماء الكشف عنها ـ مصحوباً ذٰلك بحسن العرض، وجمال التعبير المؤثر، الذي يحملك علىٰ جناح الطمأنينة بما يقال، واستقبال المعلومة التي لا يعوزها الصدق المنجي بفائق الرغبة والاستزادة، ويضع يدك علىٰ مواطن العظة والاعتبار.

---

(١) «المسند»: (٢٦٩٢٨) مع التحقيق ٤٤/ ٤٩٧.

(٢) وانظر: «الجامع الصحيح» مع «فتح الباري»: ٩/ ٣٩٦ (٥٢٢٣)، و«صحيح مسلم بشرح النووي»: ١٤/ ١٦٤ ـ ١٦٥.

(٣) وانظر: «المسند»: (٢٦٩٣٧) ٤٤/ ٥٠٢ ـ ٥٠٣، «المفهم لما أشكل من تلخيص

كل أولـٰئك بنسيج بياني محكم، بدءاً من الحديث عن زواجها بالزبير، وما كانت عليه الحال الاجتماعية التي حملتها علىٰ القيام بثقل العبء والجهد الجاهد في المنزل وخارجه، مثنية علىٰ نسوة الصدق جاراتها من الأنصار، ومروراً بتلك الواقعة التي كشفت عما يحمله رسول الله ﷺ من اهتمام بالجماعة، ومن حب الخير لكل فرد من أفراد الأمة حين أشفق عليها من الإعياء في حمل النوىٰ علىٰ رأسها صلوات الله وسلامه عليه، واستحيائها من السير مع الرجال متذكرة غيرة الزبير، وانتهاء بمأثرة أبيها في إرسال خادم كفتها سياسة الفرس، والثناء عليه بقولها: (فكأنما أعتقني).

وفي عود علىٰ بدء: لقد كانت هـٰذه القصة ـ وهي من واقع الحياة المنورة بالهدىٰ، وجملة من القول المشرق الزاخر بصدق العطاء ـ: موضع اهتمام العلماء بالكثير من أبعادها ودلالاتها؛ كالذي نرىٰ في قول أبي العباس القرطبي في «المفهم» تعقيباً علىٰ إشارة أسماء إلىٰ ضيق ذات اليد عند الزبير: (هـٰذا يدل علىٰ ما كانوا عليه من شدة الحال في أول الامر، وعلىٰ أن المعتبر عندهم في الكفاءة إنما كان الدين والفضل، لا المال والغنىٰ، كما قال ﷺ: «**فعليك بذات الدين تربت يداك**»(١) لأن القوم كانت مقاصدهم في النكاح التعاون علىٰ الدين، وتكثير أمة محمد خاتم النبيين ولأنهم علموا أن المال ظل زائل، وسحاب حائل، وأن الفضل باق إلىٰ يوم التلاق..) إلىٰ آخر ما قال.

والإمام النووي الذي عنون لرواية مسلم بقوله: (باب جواز إرداف المرأة الأجنبية إذا أعيت في الطريق) ذهب رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلىٰ أن صنيع أسماء في علف فرس الزبير ودقّ النوىٰ لناضحه واستقاء الماء، والعجن وما إلىٰ ذٰلك.. ذهب إلىٰ أن (هـٰذا كله من المعروف والمروءات التي أطبق الناس عليها، وهو أن المرأة تخدم زوجها بهـٰذه الأمور المذكورة ونحوها.. وكله تبرع من المرأة وإحسان

مسلم»: ٥/٥١٦ فما بعد (٢٠٩٢).

(١) رواه أحمد: ٢/٤٢٨، والبخاري: (٥٠٩٠)، ومسلم: (١٤٦٦)، وأبو داود:

منها إلىٰ زوجها، وحسن معاشرة، وفعل معروف معه، ولا يجب عليها شيء من ذٰلك، بل لو امتنعت من جميع هٰذا لم تأثم، ويلزمه هو تحصيل هٰذه الأمور لها، ولا يحل له إلزامها بشيء من هٰذا، وإنما تفعله المرأة تبرعاً، وهي عادة جميلة استمر عليها النساء من الزمن الأول إلىٰ الآن، وإنما الواجب علىٰ المرأة شيئان: تمكينها زوجها من نفسها، وملازمة بيته)[1].

ومثل ذٰلك ما نقع عليه عند ابن بطال في «شرحه لصحيح البخاري»، من نقله عن شيخه المهلب قوله: (وأما نقل النوىٰ وسياسة الفرس وخرز الغرب، فلا يلزم المرأة شيء من ذٰلك إلا أن تتطوع به كما تطوعت أسماء. قال ابن حبيب: وكذٰلك الغزل والنسيج ليس للرجل علىٰ امرأته ذٰلك بحال إلا أن تتطوع)[2].

وعند الحافظ في «الفتح» شيء من التفصيل يقول فيه: (واستدلّ بهٰذه القصة علىٰ أن علىٰ المرأة القيام بجميع ما يحتاج إليه زوجها من الخدمة وإليه ذهب أبو ثور.

وحمله الباقون علىٰ أنها ـ أي: أسماء ـ تطوعت بذٰلك، ولم يكن لازماً وهو ما أشار إليه المهلب وغيره).

ثم استظهر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن هٰذه الواقعة وأمثالها كانت في حال ضرورة فلا يطرد الحكم في غيرها ممن لم يكن في مثل حالهم، ثم عاد ليقول: (والذي يترجح حمل الأمر في ذٰلك علىٰ عوائد البلاد. فإنها مختلفة في هٰذا الباب)[3].

هٰذا وكم يحمل موقف النبي ﷺ من تعب أسماء وإعيائها وهي تحمل النوىٰ علىٰ رأسها: بإشفاقه عليها، ومحاولة إراحتها بالركوب بدل المشي، ثم المراعاة الرفيقة لاستحيائها من المشي مع الرجال: من دلالة عظيمة علىٰ

(٢٠٤٧)، والنسائي: ٦/ ٦٨، وابن ماجه (١٨٥٨).

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي»: ١٤/ ١٦٤ ـ ١٦٥.

(٢) «شرح صحيح البخاري» لابن بطال: ٧/ ٣٥٠.

صعيدي الهداية والإنسانية وأنه عليه الصلاة والسلام رؤوف رحيم بكل مؤمن ومؤمنة شفيق عليهم جميعاً.

ها هو ذا الإمام النووي يقول في «شرحه» لحديث القصة هٰذا: (وفيه ما كان عليه ﷺ من الشفقة علىٰ المؤمنين والمؤمنات ورحمتهم ومواساتهم فيما أمكنه.

وفيه جواز إرداف المرأة التي ليست محرماً إذا وجدت في طريق قد أعيت، لا سيما مع جماعة رجال صالحين، ولا شك في جواز مثل هٰذا[1].

وكان من إنصافه رَحِمَهُ ٱللَّهُ، إيراد ما ذهب إليه القاضي عياض في «إكمال المعلم بفوائد مسلم»: (من أن هٰذا خاص بالنبي ﷺ بخلاف غيره، كما دل هديه في ذٰلك، وأن هٰذه كانت خصوصية له، لكون أسماء بنت أبي بكر، وأخت عائشة، وامرأة للزبير رضي الله عنه، فكانت كإحدىٰ أهله ونسائه ـ كما يقول ـ مع ما خُصّ به ﷺ من أنه أملك لإربه.

وأما إرداف المحارم: فجائز بلا خلاف في كل حال)[2].

قلت: وما أصوب أن نحسن استخدام الأحكام ـ كما هنا ـ في واقعنا بما هو عليه من تطور شؤون الحياة، ووسائل التنقل والحركة وغيرها، في حرص علىٰ أن نكون وقافين عند النصوص متبعين لا مبتدعين.



(١) «فتح الباري»: ٩/ ٣٢٤.

(٢) «صحيح مسلم بشرح النووي»: ١٤/ ١٦٥.

انتصار على الشيطان

١

عداوة الشيطان للإنسان عداوة ظاهرة بينة: حقيقة قرآنية، تكشفت منذ امتنع الشيطان عن السجود لآدم، فكان عدواً له ولذريته؛ وقد جاء تقرير هٰذه الحقيقة والتنفير عن الشيطان والتحذير منه في مواطن عدة من القرآن الكريم، كالذي نقرأ في سورة البقرة من قوله جل شأنه: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة:١٦٨، ٢٠٨] وتطالعنا سورة (يوسف) بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [٥].

ويتضح الأمر أكثر وأكثر في سورة (الكهف) حيث قول الله تبارك وتعالىٰ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ۚ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾، ولا نلبث أن نقع في سورة (فاطر) علىٰ قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾.

وقد أجاد الحافظ ابن كثير وأحسن في تجلية المعنىٰ المراد بالإخبار عن عداوته ـ وهو الملعون من الله إلىٰ يوم الدين ـ عدواً في الأحوال جميعها وذٰلك بالوقوف عند الكتاب والسنة، فقال في تفسيره للآية: (أي: هو مبارز لكم بالعداوة، فعادوه أنتم أشد العداوة، وخالفوه وكذبوه فيما يغرّكم به ﴿إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾؛ أي: إنما يقصد أن يضلكم حتىٰ تدخلوا معه إلىٰ عذاب السعير، فهٰذا هو العدوان المبين. فنسأل الله القوي العزيز أن يجعلنا أعداء الشيطان، وأن يرزقنا اتباع كتابه، والاقتفاء بطريق رسوله، إنه علىٰ ما يشاء قدير وبالإجابة جدير).

ولم يدع رَحِمَهُ اللَّهُ أن يشير إلىٰ أن هـٰذه الهداية التي نحن بصددها كآية سورة الكهف التي ذكرنا.

وما أعظم أن يكون المؤمن شديد الحذر من اتخاذ شياطين الجن والإنس ـ وما أكثرهم ـ أولياء من دون الله وذٰلك بأن يكون علىٰ ذكر حقيقي دائم من قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء:١١٩] ألا إنه الخسران المبين في الدنيا والآخرة جميعاً، وطوبىٰ لمن أخذ نفسه بطريق من قال فيهم: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾﴾ [الفرقان].

وَبَعْــد: فإن هـٰذه الإشارة العجلىٰ إلىٰ حقيقة أن الشيطان عدو بيّن العداوة للإنسان. وإلىٰ ما يجب بناء علىٰ ذٰلك من اتخاذه عدواً، والحذر من الوقوع في مهلكة الركون إليه، أو اتخاذه ولياً من دون الله.. إن هـٰذه الإشارة جديرة بأن تكون وصلتنا إلىٰ قصة تحمل لوناً تفصيلياً من ألوان البيان النبوي لما جاء في الكتاب العزيز في هـٰذا الشأن، وهو تفصيل يتحدث عن تصدي الشيطان للمؤمن الراسخ في إيمانه، القوي في تكامل بنيانه: بزمرة مشؤومة من أحابيله، وشباك فتنته وأضاليله. وكان أن أخفق شديد الإخفاق في محاولته الشيطانية الماكرة، وباء بالهزيمة المنكرة والحمد لله؛ لأن قوة الإيمان ـ بعد الاستعانة بالله ـ هي الأقدر دائماً علىٰ فلّ أسلحة ذٰلك اللعين، والسلامة من أذىٰ الفتنة والفتانين.

وكل أولـٰئك يعرض النبي ﷺ في هـٰذه القصة ببلاغته المنوّرة بالنفاذ، وأسلوبه المتألق الفريد!

أخرج الإمام أحمد في «المسند» وابن حبان في «صحيحه» والنسائي في «المجتبىٰ» وغيرهم من رواية سالم بن أبي الجعد عن سبرة بن أبي فاكه ـ أو ابن الفاكه ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه؛ فقعد له بطريق الإسلام، فقال له: أتُسلم وتذر دينك ودين آبائك، وآباء أبيك؟**» قال: «**فعصاه فأسلم، ثم قعد له بطريق الهجرة، فقال: أتهاجر وتدع أرضك وسماءك؟ وإنما مثل المهاجر كمثل الفرس في الطِّوَل**» قال: «**فعصاه فهاجر**» قال: «**ثم قعد له بطريق الجهاد، فقال له: تجاهد وهو جهد**

النفس والمال، فتقاتل فتقتل، فتنكح المرأة، ويقسم المال؟» قال: **«فعصاه فجاهد»** فقال رسول الله ﷺ: **«فمن فعل ذٰلك، فمات، كان حقاً علىٰ الله ﷻ أن يدخله الجنة، أو قتل كان حقاً علىٰ الله أن يدخله الجنة، أو غرق كان حقاً علىٰ الله أن يدخله الجنة، أو وقصته دابته** ـ أو دابة كما في بعض الروايات ـ **كان حقاً علىٰ الله أن يدخله الجنة»**[1].

إسناده قوي وأخرجه أيضاً البخاري في «التاريخ الكبير»، والبيهقي في «شعب الإيمان»، والطبراني في «الكبير»، كما أخرجه المزي في «تهذيب الكمال»[2].

(قعد لابن آدم بأطرقه) الأطرق: جمع طريق، وعلىٰ هـٰذا: لم يقعد له الشيطان بطريق واحد ـ أو واحدة ـ وكفىٰ، ولـٰكن قعد له بالعديد من الطرق، دليل التصميم علىٰ الغواية والإفساد؛ فإذا لم تجد المحاولة الشيطانية نفعاً في طريق، فلعلها تنفع في طريق آخر. وكان ذٰلك واضحاً في وقائع القصة كما نرىٰ.

(وإنما مثل المهاجر كمثل الفرس في الطِّوَل) الطِّوَل: بكسر الطاء وفتح الواو: هو الحبل الذي يشد أحد طرفيه في وتِد، والطرف الآخر في يد الفرس. قال العلامة السِّندي: (وهـٰذا من كلام الشيطان، ومقصوده أن المهاجر يصير كالمقيّد في بلاد الغربة، لا يدور إلا في بيته، ولا يخالطه إلا بعض معارفه؛ فهو كالفرس في طِوَل، لا يدور ولا يرعىٰ إلا بقدرة، بخلاف أهل البلاد في بلادهم، فإنهم مبسوطون لا ضيق عليهم، فأحدهم كالفرس المرسل)[3].

---

(١) المصدر السابق: ١٤/ ١٦٥. وانظر: «إكمال المعلم بفوائد مسلم»: ٧/ ٧٧ (٢١٨٢).

(٢) «المسند»: (١٥٩٥٨)، «الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان»: (٤٥٩٣)، «المجتبىٰ»: (٣١٣٤).

(٣) «التاريخ الكبير» للبخاري: ٤/ ١٨٧ ـ ١٨٨، «شعب الإيمان» للبيهقي: (٤٢٤٦)، «المعجم الكبير» للطبراني: (٦٥٥٨)، «تهذيب الكمال» للمِزّي: (٢١٨٠). وانظر: «القيامة مشاهدها وعظاتها» للدكتور محمد أديب الصالح: ٢/ ٧٤.

(٤) وانظر: «حاشية السندي» علىٰ «شرح السيوطي لسنن النسائي الصغرىٰ»: (المجتبىٰ):

والمراد بـ (الجَهد) بفتح الجيم في قول إبليس عن الجهاد: (فهو جهد النفس والمال): المشقة والتعب واستخدام هٰذه الكلمة في المال: للمشاكلة، والمراد: تنقيصه وإضاعته، و(وقصته دابته): أي دقت عنقه وكسرتها.

والملاحظ أن الشيطان ـ وقد قوبل بقوة الإيمان بعد الاستعانة بالله الذي يعيذ من استعاذ به ـ كان هو الخاسر في المحاولات الثلاث؛ فقِعدته الماكرة الخبيثة بطريق الإسلام: قوبلت بمزيد من الاستمساك بعقيدة التوحيد، كما قوبلت أختها مكراً وخبثاً وهو يقعد بطريق الهجرة: بإصرار إيماني علىٰ هٰذه الهجرة إلىٰ الله ورسوله، وجاءت القعدة الثالثة ـ وهي أشد عتواً وحرصاً علىٰ الإضلال ـ فأخزاه الله أشد الخزي وظهر ضعف كيده حيث ظل المؤمن وفياً لعهده مع الله في نور قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ...﴾ مستبشراً ببيعه الذي بايع به، وظل رافعاً راية الجهاد يقاتل أولياء الشيطان عملاً بقوله: ﴿فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٧٦].





انتصار على الشيطان

(٢)

هٰذه عودة إلىٰ اصطحاب ما روىٰ الإمام أحمد وابن حبان والنسائي والطبراني والبيهقي مما قصه النبي ﷺ علىٰ الأمة من أن الشيطان أخزاه الله قعد لابن آدم بأطرقه، وحاول بمداخله الماكرة صرفه عن منابع الخير والهداية في التوحيد والهجرة إلىٰ الله ورسوله والجهاد في سبيل الله، ولٰكن ابن آدم هٰذا كان بسلامة فطرته واستعاذته بالله ﷻ أقوىٰ من الصوارف التي ألقاها الشيطان علىٰ أطرقه، فكان أن باء هٰذا اللعين بالخزي والخسران.

وبجانب ما يحمل ذٰلك من العبرة، والتوجيه النبوي الكريم إلىٰ ما يجب أن يتحلىٰ به المؤمن من مقومات الانتصار علىٰ شياطين الجن والإنس ـ وما أكثر أبالسة الإنس في هٰذا الزمان وألوان مكرهم في التدليس والتلبيس ـ تحمل القصة أكرم البُشرَيات للمجاهد في سبيل الله، حيث تعدد الأبواب المباركة التي تخلص به إلىٰ الجنة، وكأن هٰذا التنوع الذي يتفضل به علىٰ المجاهد، قابل به النبي ﷺ بأسلوبه الفاذ المؤثر المربي، تنوع الأحابيل التي طرحها الشيطان، والشباك التي نصبها علىٰ طريق المؤمن بغية صرفه عن الخير فذكره بأن الجهاد جهد النفس والمال، وأنه يقاتل فيقتل، وتنكح زوجه من بعده، ويقسم ماله. وأي خسران يعدل ـ بزعمه ـ هٰذا الخسران؟!

ولٰكن هٰذا كله لم يزد المؤمن المتصل قلبه بالله، المستعلي علىٰ رغبات الدنيا، في تطلع إلىٰ ما عند الله من حسن العاقبة في جنة عرضها السماوات والأرض ورضوان منه أكبر: لم يزده إلا ثباتاً علىٰ الحق، وركضاً إلىٰ الله في ميادين بذل النفس والمال في سبيل الله.

ومن هنا كان من الخير تجديد الصلة بالقصة مرة أخرىٰ، كيما نسعد بمزيد من الانتفاع بعطائها وما تحمل من هدي نبوي كريم، تبدو الأمة وهي أحوج ما تكون إليه في مواجهة التحديات من داخل النفس ومن خارجها حيث يحشد شياطين الإنس والجن ما يحشدون من سهام الفتنة والأذىٰ.

قال صحابينا سبرة بن أبي فاكه ـ أو ابن الفاكه ـ رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه، فقعد له بطريق الإسلام، فقال له: أتسلم وتذر دينك ودين آبائك وآباء أبيك؟**» قال: «**فعصاه فأسلم، ثم قعد له بطريق الهجرة فقال: أتهاجر وتدع أرضك وسماءك، وإنما مثل المهاجر كمثل الفرس في الطِّوَل**» قال: «**فعصاه فهاجر**» قال: «**ثم قعد له بطريق الجهاد، فقال له: تجاهد وهو جهد النفس والمال، فتقاتل فتقتل، فتنكح المرأة ويقسم المال**» قال: «**فعصاه فجاهد**».

فقال رسول الله ﷺ: «**فمن فعل ذٰلك فمات، كان حقاً علىٰ الله عز وجل أن يدخله الجنة**»[1].

أرأيت؟! لقد تفنن الشيطان الماكر بخبث في تعداد الصوارف المتعلقة ـ علىٰ زعمه ـ بالنفس والزوجة والمال. وجاء الرسول ﷺ الهادي إلىٰ الصراط المستقيم، والذي هو بالمؤمنين رؤوف رحيم ليعفّيَ بهديه المشرق علىٰ ذٰلك المكر السيئ الذي لم ينطل بحمد الله علىٰ المؤمن، وذٰلك ببيان ما للمجاهد من رفيع المنزلة عند الله، وطلع علىٰ الأمة بتلكم البشريات العظيمة؛ فمن فعل ذٰلك ـ يعني ما حذّر الشيطان ابن آدم منه ـ: كان حقاً علىٰ الله أن يدخله الجنة، وفي هـٰذا التعبير ما فيه من مزيد الإكرام من الله عز وجل، وهـٰذه البشرىٰ نفسها حقيق بها من قُتل أو غرق أو وقصته دابته فدقت عنقه، وهو يركض مطيته في سبيل الله نصراً لدينه وذوداً عن حياضه.

وليس عجباً من العجب أن نرىٰ النسب واضحاً بين هـٰذا البيان النبوي علىٰ ساحة الفضل الإلـٰهي في تعدد مواطن التقرب إلىٰ الله بصالح العمل وبين

---

[1] ٦/٢٢.

العديد من آي الكتاب علىٰ هـٰذه الساحة، ومن أبرزها قوله تعالىٰ في سورة التوبة: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [التوبة].

(النصب): التعب، و(المخمصة): المجاعة.

ومما توحي به هـٰذه البشريات وأمثالها أن الجنة مفتحة الأبواب لمن يخوضون معارك العمل لإعلاء كلمة الله علىٰ مختلف الطاقات الخيرة والمواهب والتخصصات النافعة، وطوبىٰ لمن تدمىٰ أقدامهم علىٰ الطريق الصاعدة صابرين محتسبين. أولـٰئك الذين يستعذبون المشقة والضنىٰ طلباً للجنة والفوز بمرضاة رب العالمين.

وَبَعـد: فإن القصة التي صحبناها تقودنا إلىٰ قصة أخرىٰ جرت وقائعها في عصر النبوة لواحد من الصحابة مع شيطان اضطر ـ وهو كذوب ـ أن يصدقه في خاتمة المطاف!

ذٰلكم ما روىٰ البخاري في كتاب الوكالة من «الجامع الصحيح» والنسائي في «عمل اليوم والليلة» عن أبي هريرة ﷺ قال: وكّلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان، فأتاني آت فجعل يحثو من الطعام، فأخذته وقلت: لأرفعنك إلىٰ رسول الله ﷺ، قال: إني محتاج وعليّ عيال، ولي حاجة شديدة، قال: فخلَّيت عنه، فأصبحت فقال النبي ﷺ: «**يا أبا هريرة، ما فعل أسيرك البارحة؟**» قال: قلت: يا رسول الله، شكا حاجة شديدة وعيالاً فرحمته فخليت سبيله، قال: «**أما إنه قد كذبك وسيعود**» فعرفت أنه سيعود لقول رسول الله ﷺ: «إنه سيعود» فرصدته فجعل يحثو من الطعام فأخذته فقلت: لأرفعنك إلىٰ رسول الله. قال: دعني فإني محتاج وعليّ عيال، لا أعود، فرحمته فخلَّيت سبيله فأصبحت. فقال لي رسول الله ﷺ: «**يا أبا هريرة، ما**

فعل أسيرك البارحة؟» قلت: يا رسول الله، شكا حاجة شديدة وعيالاً فرحمته، فخليت سبيله قال: **«أما إنه قد كذبك وسيعود»**، فرصدته الثالثة، فجعل يحثو من الطعام، فأخذته، فقلت: لأرفعنك إلىٰ رسول الله ﷺ، وهـٰذا آخر ثلاث مرات، إنك تزعم لا تعود، ثم تعود، قال: دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها، قلت: ما هنّ؟ قال: إذا أويت إلى فراشك، فاقرأ آية الكرسي ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥] حتىٰ تختم الآية، فإنك لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربنَّك شيطان حتىٰ تصبح، فخلّيت سبيله، فأصبحت، فقال لي رسول الله ﷺ: **«ما فعل أسيرك البارحة؟»** قلت: يا رسول الله، زعم أنه يعلمني كلمات ينفعني الله بها، فخلّيت سبيله. قال: **«ما هي؟»** قلت: قال لي: إذا أويت إلىٰ فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتىٰ تختم الآية ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ وقال لي: لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتىٰ تصبح ـ وكانوا أحرص شيء علىٰ الخير ـ فقال النبي ﷺ: **«أما إنه قد صدقك وهو كذوب، تعلم من تخاطب منذ ثلاث ليال يا أبا هريرة؟»** قلت: لا. قال: **«ذاك شيطان»**(١).

ولله ما أعظم ما كان ﷺ يربي عليه أصحابه من حرية التصرف عند اللزوم، وحسن الظن الذي ينمي الثقة بالنفس والقدرة علىٰ الإبداع.

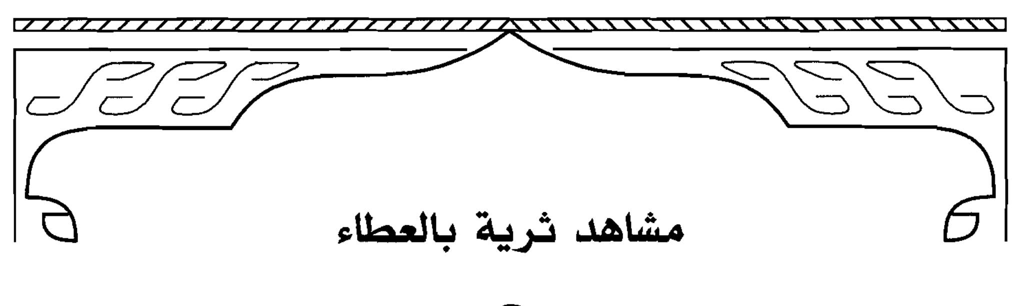
وأمر آخر ما بدّ من الإشارة إليه، وهو ما كان من فقه الإمام البخاري من حيث جاء بهـٰذا الحديث هنا في كتاب الوكالة تحت باب عنوانه (باب إذا وكّل رجلاً فترك الوكيل شيئاً فأجازه الموكل فهو جائز وإن أقرضه إلىٰ أجل مسمىٰ جاز)(٢).



---

(١) سبق التخريج في الصفحة (١٢٦).

(٢) وانظر: «الجامع الصحيح» مع «فتح الباري»: ٤/٤٨٦ ـ ٤٨٧ (٢٣١١) كتاب الوكالة في الطبعة الجديدة: ٤/٦١٣.



مشاهد ثرية بالعطاء

(١)

من فضائل القصص الذي أسعدتنا به مصادر السنة النبوية المطهرة، والذي فيه من العبر والدروس لأولي النهىٰ، وذوي البصائر والحجىٰ: ما يزدان به هٰذا القصص من التنوع غزير النفع، الذي تولد من تعدد المناسبات والأشخاص وتجدُّد دواعي القول والعمل والحركة: الأمر الذي أثمر ما تزخر به تلك المصادر والدواوين من ذٰلك اللون من ألوان العطاء النبوي المبارك المشرقة جنباته، بآفاق البناء القويم للإنسان والحياة، والذي تبدو القصة فيه، وهي نافذة مضيئة نشمّ من خلالها عبق عصر النبوة المتألق بسنا الهداية، وتحقيق الخير للإنسان من حيث هو إنسان! كما نشهد ما ظفر به تاريخ البشرية من حركة الفتح الجديد للكلمة الطيبة التي شاء الله أن تكون مصدر البر والفضائل جميعاً «لا إلٰه إلا الله محمد رسول الله» وإنه للفتح العقدي والحضاري الذي قاد حركته صفوة الله من خلقه، وخيرته من رسله: سيد العالمين محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام.

ولا تعدم أن تزوّدك القصة بمعلومات يقينية عما كان من عبوديته الخالصة ﷺ وبارك عليه وحكمته الشجاعة وصبره علىٰ لأواء الطريق، ورجاحة عقله، ورباطة جأشه، وحسن تأتيه في سياسة الأمور، علىٰ تنوع صورها في الزمان والمكان والأشخاص: كل أولٰئك وهو يرعىٰ بقيادته الفريدة المستعلية علىٰ مطالب المتاع الزائل: معارك الحق والباطل، ومن حوله أولٰئك النبغة الصُّدُق الصبُر، الذين كانوا بقوة إيمانهم ووعيهم وبذلهم المتجدد في سبيل الله: خير عون علىٰ تلك الرحلة المباركة، رحلة النصرة للحق وإنسانية الإنسان،

المتمثلة بأن تكون كلمة الله هي العليا في كل ميدان من ميادين الحياة. ومفتاح هٰذا الشأن الجلل الذي هو في صالح الإنسان كائناً ما كان الزمان والمكان وغيرهما: وجودُ ما ندعوه بالإنسان الحضاري المنوّر عقلُه وقلبه بحقائق الإنسان، المزدانِ سلوكه باستباق الخيرات ـ في تساوق مع سنن الله ـ طاعة لمالك الملك رب العالمين.

الأمر الذي يزيد المرء ـ علىٰ مر التاريخ والعصور ـ يقيناً علىٰ يقين بأحقية قول الله تبارك وتعالىٰ ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤] وقوله جل شأنه خطاباً للنبي ﷺ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢].

وهاكم ما نبأ به أحد الصحابة عليهم الرضوان من قصة مشرقة بالعطاء، شهد بنفسه وقائعها التي جرت في حقبة مبكرة من العهد المكي حيث رحلة الفتح الجديد، وفي العهد المدني حيث بناء المجتمع المسلم والأمة.

حدث طارق بن عبد الله المحاربي الكوفيّ رضي الله عنه قال: رأيت رسول الله ﷺ بسوق ذي المجاز، وأنا في بياعة لي، فمرّ، وعليه حلة حمراء، فسمعته يقول: «**يا أيها الناس، قولوا: لا إلٰه إلا الله تفلحوا**» ورجل يتبعه يرميه بالحجارة قد أدمىٰ عرقوبيه وكعبيه وهو يقول: يا أيها الناس، لا تطيعوه فإنه كذّاب، فقلت: من هٰذا؟ قيل: غلام بني هاشم ـ أو بني عبد المطلب ـ الذي يزعم أنه رسول الله، قلت: فمن هٰذا الذي يتبعه يرميه بالحجارة؟ قيل: هٰذا عبد العزّىٰ عمه أبو لهب.

قال: فلما ظهر الإسلام ـ أو فلما أسلم الناس وهاجروا ـ خرجنا من الربذة ـ مع ظعينة لنا ـ نمتار المدينة من تمرها، فلما دنونا من حيطانها ونخلها، قلنا: لو نزلنا فلبسنا ثياباً غير هٰذه. وعند ابن حبان: فلما ظهر الإسلام، خرجنا في ذٰلك حتىٰ نزلنا قريباً من المدينة ـ ومعنا ظعينة لنا ـ وإذا برجل عليه ثوبان أبيضان، فسلم فقال: من أين أقبل القوم؟ قلنا: من الربَذَة. قال: أين تريدون؟ قلنا: نريد هٰذه المدينة. قال: وما حاجتكم فيها؟ قلنا: نمتار من تمرها ـ أو نمير أهلنا من تمرها. قال: ومعنا جمل أحمر مخطوم

فقال: أتبيعون هٰذا الجمل؟ قلنا: نعم. قال: بكم؟ قلنا: بكذا وكذا صاعاً من تمر. قال: فما استنقصنا مما قلنا له شيئاً، قال: قد أخذته، ثم ضرب بيده، فأخذ خِطام الجمل، فأدبر به؛ فلما توارىٰ عنا بحيطان المدينة ونخلها تلاومنا فيما بيننا، فقلنا: أعطيتم جملكم رجلاً لا تعرفونه. قال: فقالت الظعينة ـ وعند البيهقي تقول المرأة التي معنا ـ: لا تلاوموا، فإني رأيت رجلاً كأن وجهه شقة القمر ليلة البدر، لا يظلمكم ولا يغدر بكم، وأنا ضامنة لثمن جملكم.

قال: فلما كان من العشيّ أتانا رجل، فسلم علينا، وقال: أنا رسول رسول الله ﷺ إليكم. هٰذا تمركم، فكلوا واشبعوا واكتالوا واستوفوا، فأكلنا حتىٰ شبعنا واكتلنا حتىٰ استوفينا.

قال صحابينا رضي الله عنه: ثم قدمنا المدينة من الغد، فأتينا المسجد فإذا رسول الله ﷺ قائم علىٰ المنبر يخطب فسمعنا من قوله: «**تصدقوا فإن الصدقة خير لكم، واليد العليا خير من اليد السفلىٰ، وابدأ بمن تعول: أمك وأباك، أختك وأخاك، ثم أدناك أدناك ـ أو أدناك فأدناك ـ**» فدخل رجل من بني يربوع، فقام رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله، هٰؤلاء بنو ثعلبة بن يربوع قتلوا فلاناً ـ أو قتلوا منا رجلاً في الجاهلية ـ فخذ لنا بثأرنا منه، فرفع رسول الله ﷺ يديه حتىٰ رأيت بياض إبطيه وقال: «**ألا إن أماً لا تجني علىٰ ولد، ألا إن أماً لا تجني علىٰ ولد**» ثلاثاً. وعند النسائي: «**ألا لا تجني نفس علىٰ أخرىٰ**».

إسناده صحيح، أخرجه ابن حبان بطوله والحاكم وصححه ووافقه الذهبي، كما أخرجه الدارقطني في «السنن» والطبراني في «الكبير» والبيهقي في «دلائل النبوة» وأخرجه مختصراً ابن أبي شيبة والنسائي وابن ماجه[1].

(ذو المجاز): موضع سوق مكة في الجاهلية بعرفة علىٰ فرسخ منها،

---

(١) المصدر السابق: ٤/ ٤٨٦.

(٢) «الإحسان»: (٦٥٦٢)، «المستدرك»: ٢/ ٦١١ ـ ٦١٢، الدارقطني: ٣/ ٤٤ ـ ٤٥، «المجتبىٰ»: ٨/ ٥٥، «سنن ابن ماجه»: ٢/ ٢٦٧٠، الطبراني في «الكبير»:

كانت تقام إذا أهلّ هلال ذي الحجة، وتستمر إلىٰ يوم التروية وهو الثامن من ذي الحجة[1].

(في بياعة لي): في سلعة لي أريد بيعها.

و(الربذة): كما يقول صاحب «معجم البلدان»: من قرىٰ المدينة علىٰ ثلاثة أيام قريبة من ذات عرق علىٰ طريق الحجاز إذا رحلت من فَيد تريد مكة[2]. وقال الفيومي: هي قرية كانت عامرة في صدر الإسلام، وبها قبر أبي ذر الغفاري وجماعة من الصحابة، وهي في وقتنا دارسة لا يعرف بها رسم، وهي عن المدينة في جهة الشرق علىٰ طريق حاج العراق نحوَ ثلاثة أيام، هٰكذا أخبرني به جماعة من أهل المدينة في ثلاث وعشرين وسبعمائة[3].

أما (الظعينة) فهي المرأة، وسميت بذٰلك لأن زوجها يظعن ـ أي: يرتحل ـ بها، من الظعن وهو الارتحال.

و(نمتار): نجلب الميرة ـ وهي الطعام ـ لأنفسنا، و(نمير أهلنا): نجلب الميرة لهم. وقوله: (تلاومنا فيما بيننا): أي لام بعضنا بعضاً.

ولنا عودة إلىٰ هٰذه القصة الثرية بمشاهد العظة والاعتبار إن شاء الله.



(٨١٧٥)، «البيهقي»: ٥/ ٣٨٠.

(١) وانظر: «معجم البلدان» لياقوت الحموي: ٥/ ٥٥، و«الروض المعطار» لمحمد بن عبد المنعم الحميري: ص٤١١.

(٢) «معجم البلدان»: ٣/ ٢٣ و٤/ ٢٨٢ من أجل «فيد».





مشاهد ثرية بالعطاء

٢

في حديث موصول بما سبق من القول في قصة الصحابي الجليل طارق بن عبد الله المحاربي الغنية بمشاهد العظة والاعتبار، في العهدين المكي والمدني: تجدر الإشارة إلىٰ ما تحمل تلك المشاهد من قوة التأثير التي تبعث علىٰ المزيد من استجلاء عطائها علىٰ طريق الهدي المحمدي، كيما يكون ذٰلك وصلة مباركة بين ذيّاك الضياء في الماضي وبين حاضر لا غنىٰ له مطلقاً عن الاستنارة بعطائه عن طواعية تدفع إلىٰ التأسي والعمل الرشيد.

وهٰذا الخير المومىٰ إليه: قدر مشترك بين وحدات القصص النبوي، الأمر الذي يؤذن علىٰ وجه اليقين بالأهمية البالغة لهٰذا اللون من القصص في حياة الأمة التي تعاني ما تعاني، لما يزخر به من تلكم السجلات الحافلة بمقومات الحركة والبناء المتصلة بهدي السماء، والتي تجمع إلىٰ المبادئ الخيرة والقيم الرفيعة التي كان يزدان بها سلوك النبي ﷺ وهو يعمل علىٰ هداية الخلق إلىٰ الصراط المستقيم وإخراجهم من الظلمات إلىٰ النور: صوراً حية مشرقة لتلكم الجندية الإيمانية، المنورة بمحبة الرسول القائد عليه الصلاة والسلام ـ وهي صور لنماذج عملية قوامها الصحابة عليهم الرضوان ـ تتحرك علىٰ أرض الواقع إسلاماً ناطقاً بحقيقة أنه المنهج الذي يتسع لميادين الحياة التي لا تغيب عنها شمس الإيمان بالله واليوم الآخر، ويبني الحضارة المثلىٰ التي تحفظ فيها الحقوق، وتنمّىٰ فيها الطاقات والمواهب في ظل النهج السليم علىٰ دروب العطاء، ويأخذ الإنسان ـ وقد ظفر بتكريمها ـ طريقه إلىٰ كل ما فيه سعادة العاجلة والآجلة جميعاً.

ولقد يكون من الخير التذكير بأن أول مشهد وقفتنا عليه قصة طارق بن عبد الله رضي الله عنه: مشهد صدع النبي ﷺ بما أمر به من الدعوة إلىٰ التوحيد ـ «**أيها الناس، قولوا: لا إلـٰه إلا الله تفلحوا**» ـ وصبره علىٰ الأذىٰ الموجه إليه من أقرب الناس نسباً إليه وهو عمه أبو لهب، حيث لم يكتف هـٰذا الوثني ـ الذي سيصلىٰ ناراً ذات لهب ـ بإعراضه عن الإيمان، بل تجاوز بفظاظة عاتية إلىٰ أن ينطق بذٰلك الهجر المستقذر من القول: إنه كذاب فلا تطيعوه. بعد أن أدمىٰ عرقوبيه وكعبيه ـ بأبي هو وأمي ـ وهو يرميه بالحجارة، عامله الله بما يستحق!

ويبدو واضحاً أن هـٰذا المشهد بشقه الأول المتمثل بسمو النبي ﷺ صدعاً بالدعوة إلىٰ الله وصبراً علىٰ الأذىٰ كائناً ما كان ثقله، وأياً كان مصدره، وشقه الثاني المتمثل بصنيع السوءىٰ من أبي لهب [إذاية وضعة وجهالة]، كل أولـٰئك كان علىٰ مرأىٰ ومسمع من عدد من الناس. فبجانب ما قص علينا شاهد من تلك الحقبة الزمنية طارق بن عبد الله المحاربي: تطالعنا المصادر بروايات أخر عن غيره، من ذٰلك ما روىٰ عبد الله بن أحمد في «المسند» بسنده عمن كان أيضاً من شهود تلك الواقعة:

روىٰ عبد الله بن أحمد: حدثني أبي، حدثني أبو سليمان الضبي داود بن عمر بن زهير المسيِّبي قال: حدثنا عبد الرحمٰن بن أبي الزناد بسنده عن أبيه، عن ربيعة بن عِباد الدِّيلي ـ وكان جاهلياً أسلم ـ فقال: رأيت رسول الله ﷺ بصر عيني بسوق ذي المجاز يقول: «**أيها الناس، قولوا: لا إلـٰه إلا الله تفلحوا**» ويدخل في فجاجها والناس متقصفون عليه، فما رأيت أحداً يقول شيئاً، وهو لا يسكت يقول: «**أيها الناس، قولوا: لا إلـٰه إلا الله تفلحوا**» إلا أن وراءه رجلاً أحول وضيء الوجه ذا غديرتين يقول: إنه صابئ كاذب. فقلت: من هـٰذا؟ قالوا: محمد بن عبد الله وهو يذكر النبوة، قلت: من هـٰذا الذي يكذبه؟ قالوا: عمه أبو لهب. قلت: إنك كنت يومئذ صغيراً، قال: لا، والله إني يومئذ لأعقل[1].

---

(١) «المصباح المنير»: مادة: (ربذ) ١/ ٢١٥.

وهو حديث صحيح، ورواه الحاكم والطبراني في «الكبير»، ومحمد بن إسحاق في «السيرة»[1]، وحديث الصحابي طارق في قصته التي نحن بصددها: شاهد له.

و(أبو الزناد): هو عبد الله بن ذكوان[2].

(الفجاج): جمع فج وهو الطريق الواضح الواسع ومنه قوله تعالىٰ: ﴿يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج:٢٧].

(متقصفون عليه): بقاف وصاد وفاء: أي مجتمعون عليه، متزاحمون تعجباً مما يقول.

وَبَعْـدُ: فماذا علينا ـ والخير يجلب الخير ـ أن يكون ما قصته علينا روايتا طارق وربيعة ﵄ من جهر النبي ﷺ بالدعوة، وصبره علىٰ ما كان يلقىٰ من الأذىٰ والتخذيل في مكة، ثم ساحات الجهاد والبناء في المدينة: وُصلتنا إلىٰ قصة أخرىٰ له عليه الصلاة والسلام تؤكد هٰذا الخلق، وتكشف عما كان يصحبه من نظرة مستقبلية بعيدة الغور، قوامها رجاء أن يخرج الله من أصلاب أولٰئك المؤذين المعرضين المضروب علىٰ قلوبهم بالأسداد: من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً، ويكون من نصرهم للإسلام من يكون.

ذٰلكم ما روىٰ البخاري ومسلم والنسائي في «السنن الكبرىٰ» وابن حبان في «صحيحه» وأبو نعيم في «دلائل النبوة» وغيرهم عن عروة بن الزبير، أن عائشة ﵂ زوج النبي ﷺ حدثته أنها قالت لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، هل أتىٰ عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ فقال: «**لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي علىٰ ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلىٰ ما أردت؛ فانطلقت وأنا مهموم علىٰ وجهي فلم أستفق إلا وأنا بقرب الثعالب؛ فرفعت رأسي؛ فإذا أنا بسحابة قد أظلتني،**

---

(١) «المسند»: (١٦٠٢٣).

(٢) «المستدرك»: ١/ ٥١، و«المعجم الكبير»: (٤٥٨٢)، «سيرة ابن هشام»: ١/ ٤٢٣، وانظر: «تفسير القرآن العظيم»: ٨/ ٣٨٩٨ فما بعد ـ لابن كثير.

فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردّوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال فسلم عليّ ثم قال: يا محمد، إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني فيما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين. فقال له رسول الله ﷺ: **بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً**»[١].

قال القاضي عياض: قرن الثعالب أو قرن المنازل: هو ميقات أهل نجد علىٰ يوم وليلة من مكة. وأصل القرن: كل جبل صغير ينقطع من الجبل الكبير[٢].

وقوله: «أن أطبق عليهم الأخشبين» قال الحافظ: (الأخشبان جبلا مكة أبو قبيس والذي يقابله وكأنه قُعيقعان، وقال الصغاني: بل هو الجبل الأحمر الذي يشرف علىٰ قعيقعان.. وسميا بذٰلك لصلابتهما وغِلَظ حجارتهما. والمراد بإطباقهما: أن يلتقيا علىٰ من بمكة، ويحتمل أن يريد بهما أن يصيرا طبقاً واحداً.. وفي الحديث بيان شفقة النبي ﷺ علىٰ قومه، ومزيد صبره وحلمه، وهو موافق لقوله تعالىٰ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء])[٣].

وفي عود علىٰ بدء: نرىٰ أن أرومة مكارم الأخلاق ـ كما دلت القصة ـ واحدة عند الرسول ﷺ، فهٰذا الذي نرىٰ في العهد المكي، ينقلنا إلىٰ ما كان من كريم خلقه يوم اشترىٰ في العهد المدني وهو القائد المسؤول الأول، الجمل من القوم وبالغ عند دفع الثمن بإكرامهم، حيث أكلوا حتىٰ شبعوا وكالوا حتىٰ استوفَوا دونما اشتراط سابق.

---

(١) وانظر: الحاشية (١) من «المسند»: (١٦٠٢٣).

(٢) وانظر: «الجامع الصحيح» مع «الفتح»: (٣٢٣١) بدء الخلق، «صحيح مسلم»: (١٧٩٥)، «صحيح مسلم بشرح النووي»: ١٢/ ١٥٥، «السنن الكبرىٰ» للنسائي: ٧٧٠٦/ ٣١٥.

(٣) وانظر: «إكمال المعلم من فوائد مسلم» للقاضي عياض: ٦/ ١٦٩، «فتح الباري»: ٦/ ٣١٥.

وما أعظم ما شرع للأمة من أن أحداً لا يؤخذ بجريرة أحد، وذلك بقوله ﷺ رداً على طالب الثأر ـ كما جاء في القصة ـ وفق ما كان في الجاهلية: «ألا إن أماً لا تجني على ولد»؛ أي: جنايتها لا تلحق ولدها مع ما بينهما من شدة القرب، فجناية كل منهما قاصرة لا تتجاوز صاحبها، ولعل المراد الإثم والقصاص ـ كما يقول السندي ـ وإلا فالعقوبة متعدية.





اسق حديقة فلان

١

كان من رحمة الله بأمة الإسلام: أن فتح لها أبواب الخير التي توصل إلىٰ مرضاته وتحقيق العبودية الخالصة له سبحانه، ودلها علىٰ ما فيه التمكين الصالح في الدار العاجلة وحسنُ العاقبة يوم يقوم الناس لرب العالمين.

وكان من ذٰلك ما يسر لها من معرفة ما ينبغي أن يعرف ـ علىٰ صعيد الصلاح والإصلاح ـ من أخبار من سبقها علىٰ أرض التاريخ: صدقاً مع الله وطاعة له، أو مجانبة للإيمان وصداً عن سبيله، وما ترتب علىٰ ذٰلك من تحقيق سننه في كل من الصالحين والطالحين.

كل أولـٰئك في محكم الكتاب المبين، أو علىٰ لسان نبينا عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، فيما أطلعه الله علىٰ الغيب فيما سبق، أو فيما يكون يوم تزلف الجنة للمتقين، وتبرّز الجحيم للغاوين.

وكم يعمل هـٰذا القصص عمله علىٰ طريق البناء للحياة الإسلامية المرضية لله ﷻ، والحضارة الإسلامية التي يشرق نور آثارها الخيّرة في العالمين.

وفي متابعة لما نحن بسبيله مما جاء في السنة النبوية من ذٰلك: نحن علىٰ موعد مع قصة تكشف عن كريم العطاء الرباني لعبد من عباد الله آثر الباقية علىٰ الفانية، فراح يعمل الصالحات، ويتصدق بثلث ما تنتجه مزرعته علىٰ الفقراء والمساكين وذوي الفاقة المحتاجين.

ولـٰكن كيف استبان هـٰذا العطاء المومىٰ إليه؟ لقد كان ذٰلك علىٰ صورة تزيد المؤمن إيماناً بأن الله المعطي المانع هو الواحد الأحد المتصرف بملكوته كما يشاء وكيف شاء وأنه علىٰ كل شيء قدير.

ها هو ذا رجل يسير في فلاة من الأرض، فتمر سحابة من فوقه فيسمع فيها صوتاً ينادي بواضح القول: اسق حديقة فلان، فما كان من السحابة إلا أن تحولت عن الأرض التي كان متوقعاً أن تمطر فيها، وتنحت وأفرغت ماءها في حديقة أخرىٰ، وعلم الرجل أن صاحبها وهو نفسه صاحب الاسم الذي سمعه في السحابة بكلمات «**اسق حديقة فلان**» وبعد الاستفسار شهد السبب الذي من أجله كان تنحي السحابة إلىٰ حديقته، وهو ما درج عليه من التقرب إلىٰ الله بإنفاق ثلث ربع هـٰذه الحديقة في سبيل الله، ووضع كل من الثلثين موضعه بحكمة وانتظام.

أخرج أحمد[1] ومسلم[2] وابن حبان[3] ـ واللفظ لمسلم ـ من رواية عبيد بن عمير الليثي، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**بينا رجل بفلاة من الأرض، فسمع صوتاً في سحابة: اسق حديقة فلان، فتنحىٰ ذٰلك السحاب، فأفرغ ماءه في حرّة، فإذا شرجة من تلك الشراج قد استوعبت ذٰلك الماء كله، فتتبع الماء، فإذا رجل قائم في حديقته يحوّل الماء بمسحاته، فقال له: يا عبد الله ما اسمك؟ فقال له: يا عبد الله لم تسألني عن اسمي؟ فقال: إني سمعت صوتاً في السحاب الذي هـٰذا ماؤه يقول: اسق حديقة فلان لاسمك، فما تصنع فيها؟ قال: أما إذ قلت هـٰذا! فإني أنظر إلىٰ ما يخرج منها فأتصدق بثلثه، وآكل أنا وعيالي ثلثاً وأردّ فيها ثلثه**»[4].

وفي رواية أخرىٰ لمسلم أنه قال: «**وأجعل ثلثه في المساكين والسائلين وابن السبيل**»[5] وأخرجه أبو داود الطيالسي[6]، وأبو نعيم في «الحلية»[7]، والبيهقي في «السنن»[8].

---

(١) «الفتح»: ٦/ ٣١٥ ـ ٣١٦.

(٢) «المسند»: (٧٩٤١).

(٣) «صحيح مسلم»: (٢٩٨٤)، «شرح مسلم» للنووي: ١٨/ ١١٤ فما بعد.

(٤) «الإحسان»: (٣٣٥٥).

(٥) «صحيح مسلم»: (٢٩٨٤).

(٦) المصدر نفسه بشرح النووي: ١٨/ ١١٥.

(٧) (٢٥٨٧).

(٨) «حلية الأولياء» لأبي نعيم: ٣/ ٢٧٥ ـ ٢٧٦.

وعند أحمد وابن حبان وأبي نعيم: «.. **فانتهىٰ إلىٰ الحَرّة فإذا هي في أذناب شراج، وإذا شرجة من تلك الشراج قد استوعبت ذٰلك الماء كله**».

(الفلاة): القفر من الأرض، وهي التي لا نبات فيها ولا ماء؛ لأنها ـ كما يقول صاحب «القاموس» ـ فليت عن كل خير؛ أي: فطمت وعزلت، أو أنها الصحراء الواسعة. وقيل: هي المفازة التي لا ماء فيها ولا أنيس، وإن كانت مكلئة. وجمع فلاة: فلاً وفلوات. قال حميد بن ثور:

وتأوي إلىٰ زُغب مراضيعَ دونها فلاً لا تخطّاه الرقابُ مَهوبُ[1]

(الحديقة) ـ كما جاء في «المصباح المنير» ـ: البستان يكون عليه حائط، فعيلة بمعنىٰ مفعولة لأن الحائط أحدق بها؛ أي: أحاط، ثم توسعوا حتىٰ أطلقوا الحديقة علىٰ البستان وإن كان بغير حائط، والجمع: حدائق[2]، قالوا: والحديقة أيضاً القطعة من النخل[3]. (فتنحّىٰ ذٰلك السحاب)؛ أي: اعتمد وقصد، تقول: تنحيت الشيء وانتحيته ونحوته إذا قصدته، والنحو في الأصل: القصد، ومنه تسميتهم علم النحو لأنه قصد كلام العرب[4]. أما (الحرة): فهي أرض ذات حجارة سود والجمع حرار[5]. (وإذا شرجة من تلك الشراج): الشَّرجة بفتح الشين وسكون الراء: سيل الماء من الحرة إلىٰ السهل، والجمع شراج بكسر الشين[6].

وقوله: (فإذا هي في أذناب شراج): الأذناب: الأسافل؛ أي: في أسافل المسايل والأودية. (والمسحاة): آلة من حديد يجرف بها التراب، وهي

---

(١) «السنن الكبرىٰ»: ٤/ ١٣٣.

(٢) وانظر: «تاج العروس من جواهر القاموس» للزبيدي: ٢٩/ ٢٥٠ ـ ٢٥١ مادة: (فلو)، «لسان العرب» مادة: (فلو).

(٣) «المصباح المنير» للفيومي: مادة: (حدق).

(٤) وانظر: «إكمال المعلم بفوائد مسلم» للقاضي عياض: ٨/ ٥٣٤.

(٥) وانظر: «صحيح مسلم بشرح النووي»: ١٨/ ١١٥.

(٦) وانظر: «إكمال المعلم في شرح صحيح مسلم» للقاضي عياض: ٨/ ٥٣٤.

(٧) «المصباح المنير» و«لسان العرب» مادة: (شرج). وينظر: «شرح النووي علىٰ

أكبر من المجرفة[1].

وأنت ترىٰ أنه بعد هـٰذا الاستقصاء علىٰ أرض الواقع لصورة ما جزىٰ الله به عبده فاعل الخير المتصدق، لم يأل علماؤنا يرحمهم الله جهداً في الترجمة لهـٰذه القصة، الأمر الذي أثمر تعدد العناوين المعبرة عن ذٰلك.

ها نحن أولاء نجد ابن حبان يترجم لها في «صحيحه» بقوله: (ذكر ما يستحب للمرء أن يتصدق بثلث ما يستفضل في كل سنة من أملاكه)[2]. وعنون لها البيهقي بقوله: (باب لن يهلك علىٰ الله إلا هالك). وها هو ذا القاضي عياض اليحصبي يختار في كتابه «إكمال المعلم بفوائد مسلم» أن يكون العنوان في كتاب الزهد والرقائق: (باب الصدقة في المساكين)[3] ويقول أبو العباس القرطبي في «المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم»: (باب كرامة من قنع بالكفاف وتصدق بالفضل)[4].

أما الإمام النووي: فقال في «شرحه لصحيح مسلم»: كتاب الزهد والرقائق: (باب الإنفاق علىٰ المساكين وابن السبيل) وقد أشار في الكلام علىٰ القصة إلىٰ هـٰذا الفضل وإلىٰ فضل أكل الإنسان من كسبه والإنفاق علىٰ العيال فقال: (وفي الحديث فضل الصدقة والإحسان إلىٰ المساكين وأبناء السبيل، وفضلُ أكلِ الإنسان من كسبه والإنفاق علىٰ العيال)[5].



مسلم»: ١٨/ ١١٥.

(١) «القاموس» مع «تاج العروس» مادتا: (سحو) و(جرف). وانظر: «أساس البلاغة» المادتين نفسيهما.

(٢) «الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان» للأمير علاء الدين الفارس: ٨/ ١٤٢.

(٣) «إكمال المعلم»: ٨/ ٦٣٤.

(٤) «المفهم» للقرطبي: ٧/ ١٣٥.



اسق حديقة فلان

(٢)

هٰذه خطوة أخرىٰ مع الصورة العملية التي تزيد المؤمن يقيناً علىٰ يقين بصدق موعود الله بجزاء الإحسان للمحسنين. وأعني بها ما جاء في قصة السحابة التي أمر الملك الموكّل بها ـ كما أخبر الرسول عليه الصلاة والسلام ـ أن يسقي بالغيث الذي تحمله، حديقة فلان ـ باسمه ـ فما كان من تلك السحابة المثقلة بماء السماء، إلا أن قصدت إلىٰ الحديقة المطلوب سقياها متخطية ما قبلها، فأفرغت ما كان فيها من الماء.

وكان رجل بالفلاة قد سمع ما دار من الحديث بين الملكين عليهما السلام، ولقي الرجل الذي سمع اسمه من الملك الذي قال للآخر: اسق حديقة فلان ـ باسمه ـ لقيه وهو ينظم بدقة سير الماء الذي أفرغته السحابة في أرض حديقته من هنا وهناك، وسأله عن اسمه، وحين تعجب من السؤال قال له: إني سمعت في سحاب هٰذا ماؤه: اسق حديقة فلان باسمك، وبعد الاستفسار عن صنيعه بثمار الحديقة بعد قطافها: عرف السبب في هٰذا الإكرام الإلٰهي؛ إذ إنه يخص الفقراء والمساكين والسائلين وأبناء السبيل ومن علىٰ شاكلتهم بالثلث كاملاً غير منقوص، وهٰذا من القرض الحسن لله تعالىٰ، وما أدراك ما يأتي به هٰذا القرض العظيم.

هٰذا ورواية البيهقي للقصة فيها بعض الاختلاف اليسير الذي يعين علىٰ مزيد من تبين المعنىٰ المراد، وهاكم لفظها كما أخرجها في كتاب الزكاة من «السنن الكبرىٰ» باب: لن يهلك علىٰ الله إلا هالك، بسنده عن عبيد بن عمير الليثي، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: «**بينما رجل بفلاة**

إذ سمع رعداً في سحاب، فسمع فيه كلاماً: اسق حديقة فلان باسمه، فجاء ذٰلك السحاب إلىٰ حرة فأفرغ ما فيه من الماء، ثم جاء إلىٰ أذناب شراج، فانتهىٰ إلىٰ شرجة، فاستوعبت الماء. ومشىٰ الرجل مع السحابة، حتىٰ انتهىٰ إلىٰ رجل قائم في حديقة يسقيها، فقال: يا عبد الله ما اسمك؟ قال: ولم تسأل؟ قال: إني سمعت في سحاب هٰذا ماؤه: اسق حديقة فلان باسمك، فما تصنع فيها إذا صرمتها؟ قال: أما إذ قلت ذٰلك! فإني أجعلها ثلاثة أثلاث: أجعل ثلثاً لي ولأهلي، وأردّ ثلثاً فيها، وأجعل ثلثاً في المساكين والسائلين وابن السبيل»[1].

(إذا صرمتها): إذا قطعتها، من الصرم وهو القطع.

سبحان الله!! ما أعظم ما جاءنا به معلم الناس الخير ﷺ من الهدىٰ، وأوفر ما دلّ عليه من الأبواب الموصلة إليه والتي شملت ـ فيما شملت ـ ما كان يقصه علىٰ الأمة من أخبار الأولين علىٰ الوجه الذي أطلعه الله عليه من الغيب، حيث الساحة المتسعة الأرجاء للعبر والدروس، والإسهام المنير في التربية المتكاملة للمسلم، وإعداده للتدبر الناجع لسنن الله في مسيرة البشرية عبر التاريخ، وكل أولٰئك بأسلوبه الرفيع وبلاغته الفريدة في دنيا بني الإنسان.

ها هو ذا ـ آتاه الله الوسيلة والفضيلة وبعثه المقام المحمود الذي وعده سبحانه ـ ينبئنا ـ كما سبقت الإشارة ـ بخبر ذٰلك الرجل الذي كان يمشي بفلاة من الأرض، لا ماء فيها ولا أنيس، وإذا بسحابة تظله مارة من فوقه فيسمع منها ـ ولا عجب من أمر الله ـ قول قائل: اسق حديقة فلان باسمه، أو أنه سمع رعداً في سحاب، فسمع فيه كلاماً، اسق حديقة فلان سمّاه.

ولئن كان الملائكة عليهم السلام لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وفيهم قائمون علىٰ السحاب بأمر الله، موكلون بتوجيهه إلىٰ حيث يشاء الله: لقد دل سياق الخبر علىٰ أن الصوت الذي علا في السحاب، حتىٰ سمعه الرجل في الفلاة: هو بلا ريب ـ صوت ملك يُمضي أمر الله بالطلب إلىٰ ملك

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي»: ١٨/ ١١٤ ـ ١١٥.

آخر ﷺ سقي حديقة رجل عينه باسمه. وقد يقتضيه تنفيذ هٰذا الأمر تخطيَ حديقة أو حدائق أخر، كيما يتحقق المطلوب.

وحكمة الله البالغة في تذكير العباد بقدرته تعالىٰ وعلمه المحيط، وتعريفهم بما يجنيه الزارع الشاكر لأنعم الله، المنفق من زرعه وثمره في سبيل الله من الخير والبركة والنماء: من طريق إسماع ذٰلك الرجل صوت الملك بتلكم الكلمات: اسق حديقة فلان: هٰذه الحكمة ـ وغيرها كثير ـ لا تخفىٰ علىٰ ذي بصيرة.

ثم ماذا بعد ذٰلك؟ الواقع أن المتابعة علىٰ مدرج القصة كما أخبر الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام، تكشف عن أن ما أَمر به الملك من سقيا حديقة فلان: قد حصل ـ مع بيان سبب ما أكرم به صاحب هٰذه الحديقة ـ علىٰ أكمل وجه.

لقد استثار ذٰلك الصوت الآمر بالسقيا حب الاستطلاع عند صاحبنا ـ وهو الذكي الألمعي كما يبدو ـ والرغبة في الوقوف علىٰ أمر يبدو لأول وهلة مغايراً للمألوف، فتطلّع أشدّ التطلع إلىٰ معرفة الرجل الذي ذكر اسمه في السحاب علىٰ هٰذا الوجه من الأفضلية، فما لبث أن استيقن إفراغ السحابة ما كانت تحمل من الماء في حرة من الحرار وهي أرض ذات حجارة كثيرة سود. صحب ذٰلك أمر علىٰ غاية من الأهمية، وهو ما رأىٰ من أن المطر الغزير الذي تنزّل علىٰ تلك الحرة، بدأ يشكل قنوات، ومسايل تتجه اتجاهاً منتظم الحركة، يشعرك بأنه اتجاه معيّن الأبعاد مرسوم الوجهة، لا يغادر من الأرض حرة كانت أو سهلاً إلا بلغه وأرواه.

ويأخذ المشهد الزاخر بالصور والألوان في الأرض والحركة، والنظام في الإرواء المسبِّح بحمد الله وإن كنا لا نفقه تسبيحه.. يأخذ صاحبنا من نفسه، فيدقق النظر هنا وهناك، فإذا به يرىٰ الرجل قائماً في ناحية من الحديقة التي اهتزت كلها بغيث السحابة ورويت أفضل ما يكون الري. رآه هناك ممسكاً بمسحاة يسهم بتحويل الماء في الحديقة إلىٰ هنا وهناك، مع ما يرىٰ من المد المتدفق بكل دقة وانتظام.

والآن: لقد رأىٰ الحديقة التي سيق إليها ماء السحابة بأم عينه، رآها والماء يعمّها من أقصاها إلىٰ أقصاها، علىٰ صورة تدعو إلىٰ الدهشة والكثير من الإعجاب، وهي صورة تذكر بقول امرئ القيس:

ديمة هطلاء فيها وطفٌ طبقُ الأرض تحرّىٰ وتدُرُّ

(الديمة): المطر يدوم أياماً. و(الوطف): السحاب المسترخي الجوانب لكثرة مائه، وهٰذه الديمة طبق الأرض؛ أي: تعم الأرض. و(تحرىٰ) أي: تتوخىٰ وتقصد. و(تدرّ) أي: تغزر وتكثر.

ولٰكن هل الرجل الذي يراه قائماً فيها هو صاحبها الذي سمع اسمه من صوت الملك؟ إنها لحظات تحمل الكثير من الترقب والتلهف!! ها هو ذا يسأله عن اسمه، فيجد الاسم عينه الذي سمعه في السحابة.

وحين استغرب صاحب الحديقة هٰذا السؤال، قال له صاحبنا: ـ وقد اطمأن بزيادة إيمانه واستراح من عناء تلك الرحلة المثقلة بالوقائع المثيرة ـ إني سمعت صوتاً في السحاب الذي هٰذا ماؤه يقول: «اسق حديقة فلان لاسمك».

ثم عقب بسؤال أكرم به من سؤال؛ إنه سؤال عما يراه سبباً لهٰذه التكرمة من الله ﷻ التي وصلت حد أن يؤمر السحاب بسقي حديقته، ذٰلكم قوله: «فما تصنع فيها؟»؛ أي: في نتاج الحديقة من ثمر وغيره.

فأجابه بأنه يجعلها ثلاثاً؛ فيتصدق بالثلث علىٰ الفقراء والمساكين وذوي الحاجة. ويجعل ثلثاً لمعاشه ومعاش أهله وعياله. أما الثلث الأخير: فيجعله في صالح العناية بالحديقة نفسها.





اسق حديقة فلان

٣

كان أمراً بالغ الأهمية علىٰ طريق العلاقة بين أحباب الله وبين مولاهم ﷻ: ما نبأت به قصة الرجل والسحابة التي سعدنا باصطحابها فيما سبق من القول: وذٰلك فيما بدا من إكرام الله جل شأنه لواحد من أولـٰئك الأحباء الذين همهم طاعته، ومبتغاهم مرضاته، لا يرضون بذٰلك بدلاً، ولا يبغون عنه حولاً . . وهو الإكرام الذي تمثل في أمره تبارك وتعالىٰ ملكاً من ملائكته الموكلين بالسحاب: أن ينادي ملكاً آخر بقوله: «**اسق حديقة فلان**» مسمياً الرجل الذي يشير إليه باسمه، تخصيصاً لها بالسقاية في تخطّ لغيرها.

والذي حصل: أنه لم يكد الملك الذي قال: «**اسق حديقة فلان**» باسمه: ينتهي من هـٰذا القول حتىٰ تنحت السحابة التي سمع منها الصوت ـ وكانت مثقلة بالغيث ـ وأفرغت ماءها في حديقة ذٰلك الرجل، علىٰ الصورة التي فصلها النبي ﷺ ببلاغته الفريدة وأسلوبه الرفيع.

والحق أن هـٰذا الأمر الجلل حقبة من حقب الزمن في حياة الإنسان، كيما يكون ـ والله أعلم ـ قبساً مضيئاً للسالكين، ورادعاً قوياً عن التواني وطاعة النفس والشيطان في التخذيل عن عمل الخيرات وفعل القربات؛ لأن تكرمة الرجل علىٰ هـٰذه الصورة المثيرة فعلاً: إنما كانت جزاء مداومته علىٰ صالح العمل، ووضع الأمور مواضعها بانتظام.

وقل مثل ذٰلك فيما دلت عليه القصة من رفيع المنزلة التي كان يتبوؤها علىٰ مدرج أهل القرب، ذٰلك الرجل الذي خُصَّ ـ لحكمة شاءها المولىٰ سبحانه ـ بسماع صوت الملك في السحابة، وفهم كلماته فهماً، جعله يتطلع

إلىٰ معرفة اسم صاحب الحديقة المطلوب قصدها وإفرادها بالسقاية. ذٰلكم ما جاء هناك: «**بينما ـ أو بينا ـ رجل بفلاة من الأرض، فسمع صوتاً في سحابة: اسق حديقة فلان، فتنحىٰ ذٰلك السحاب، فأفرغ ماءه في حرة، فإذا شرجة من تلك الشراج قد استوعبت الماء كله..**» الحديث.

وفهمُ الرجل وحفظه للاسم جعلاه يسير متجهاً وجهة السحابة التي انطلق منها الصوت متابعاً لها حتىٰ وقع علىٰ إنفاذٍ لما طلب الملك من الملك الآخر في كلمات «اسق حديقة فلان» باسمه، ورأىٰ بأم عينه كل ما هو تحقيق لهٰذا الإنفاذ، بتعميم السقيا للحديقة بكاملها، ما كان من الحرة، وما كان من السهل هنا وهناك ـ كما عرفنا من قبل ـ وإن كان صاحبها لم يكن في عزلة عن المشاركة الواضحة في تحويل الماء وتيسير مسايله.

ولم يكتف صاحبنا بهٰذا، بل أراد أن يزداد إيماناً بأحقية ما رأىٰ من إكرام إلٰهي لصاحب الاسم الذي ذكر مع حديقته في الصوت الذي انطلق من السحابة.

ها هو ذا يرىٰ رجلاً قائماً في الحديقة التي استقبلت غيث السحابة المذكورة، ممسكاً بمسحاته يحول الماء من هنا إلىٰ هناك في الحرة والسهل والوادي.

ويغلب علىٰ الظن أنه رأىٰ في هٰذا المشهد، مشهد إفراغ السحابة التي تابع سيرها ما هي مثقلة به من الماء في تلك الحديقة علىٰ صورة من الشمول، وقيام هٰذا الرجل بتحويل الماء بمسحاته في الحديقة نفسها.. يغلب علىٰ الظن أنه رأىٰ في ذٰلك قرينة علىٰ أن الرجل المومىٰ إليه هو صاحب الاسم الذي يتطلع بشوق إلىٰ العلم به، وما إذا كان اسمه هو الاسمَ الذي طرق سمعه وهو في الفلاة التي لا ماء فيها ولا أنيس؟

إذن لا بد من الاستفسار وهو علىٰ تلك الحال من الرغبة العارمة في معرفة الحقيقة، ولنشهد مرة أخرىٰ ما دار من الحوار بين السائل الذي ملأ سمعه صوت الملك القائل: «اسق حديقة فلان»، وبين صاحب الحديقة التي بدت محطّ هٰذه التكرمة بالسقيا.

قال صاحبنا للرجل: «**يا عبد الله ما اسمك؟**» ـ والنداء بـ (يا عبد الله) في هٰذا الجو المفعم بمظاهر قدرة الله تعالىٰ وحكمته وعلمه وفضله لا يخفىٰ عظم دلالته فقال: فلان: الاسم الذي سمع في السحابة. نعم هو الاسم الذي سمع في السحابة.

ومن حسن التقدير لهٰذه الكلمات التي ازدان بها الحوار حق قدرها: تصور ما كان لهٰذا الجواب من أثر فعّال في نفس صاحبنا، حتىٰ كأنه ـ علىٰ ما يبدو ـ وقع علىٰ كنز عظيم: فقد عمل هٰذا التطابق بين الاسمين عمله في تحقيق ما كان يرمي إليه من كشف الغطاء الذي زاده إيماناً بأحقية الفضل الإلٰهي علىٰ الأحباء المقربين لقد سمع ورأىٰ، ويا لروعة ما سمع ورأىٰ، وسبحان العليم الحكيم ذي الفضل العظيم.

وانظر إلىٰ هٰذا التفاعل الإيماني مع الحدث ـ كما نشهد في خطوة أخرىٰ مع الحوار ـ ما كان أعظمه وأروعه!!

فكان في الجواب ما يشعر بهٰذا التفاعل المقترن بالاطمئنان بما كان من انكشاف ما كان غيباً، فإذا هو وجود وحركة علىٰ أرض الواقع، ها إنه يجيبه بقوله: «**إني سمعت صوتاً في السحاب الذي هٰذا ماؤه يقول: اسق حديقة فلان لاسمك**». أرأيت إلىٰ قوله: «هٰذا ماؤه» إنه توكيد للتطابق بين ما سمع وبين ما يراه متحققاً علىٰ أرض الواقع، فالسحاب الذي انطلق منه الصوت آمراً بالسقاية هٰذا ماؤه علىٰ وجه اليقين. وإذن فالسؤال وجيه كل الوجاهة!

وفي متابعة من قبل صاحبنا لاهتمامه بالوصول إلىٰ معرفة الحقيقة، والرغبة في انكشاف ما هو مغيب عنه، مصحوباً ذٰلك بالحرص علىٰ الانتفاع بالدرس الذي يترتب علىٰ ذٰلك، والاعتبار بما جرىٰ ويجري.. في متابعة واعية لهٰذا: انتقل من إجابته التي دفعت تعجب صاحب الحديقة من السؤال عن اسمه، إلىٰ سؤال آخر جدير بالكثير من التقدير؛ لأن نفعه يتجاوز إلىٰ الناس عبر العصور، وهو سؤال يحمل ـ مع الحصافة وحسن التأتي ـ الرغبة الأكيدة في معرفة السبب الذي يكمن وراء ما ثبت من تفضل الله عليه بهٰذه الخصوصية ذات الارتباط بالحديقة، أعني قوله: «**فماذا تصنع فيها؟**».

والملاحظ أنه ما كان يريد الإفصاح عما يصنع فيما يخرج منها دون سؤال، لـٰكن ما دام قد سئل، فلا بد من الجواب، ذٰلكم قوله كما في «صحيح مسلم»: **«أما إذ قلت هـٰذا، فإني أنظر ما يخرج منها، فأتصدق بثلثه، وآكل أنا وعيالي ثلثه، وأرد فيها ثلثه»**[1].

ولمسلم في رواية أخرىٰ من طريق وهب بن كيسان أن الرجل قال: **«وأجعل ثلثه في المساكين، والسائلين، وابن السبيل»**[2].

جزىٰ الله هـٰذا الرجل الموفق خير الجزاء، فقد جمع الخير من أطرافه بهـٰذا الصنيع في هـٰذا الباب من أبواب العلم الصالح، ولذٰلك تفصيل نلتقي عليه في لقاء قادم إن شاء الله وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ نبي الهدىٰ والرحمة....



(١) «السنن الكبرىٰ» للبيهقي: ٤/ ١٣٣.

(٢) «صحيح مسلم» الزهد والرقائق: (٢٩٨٤)، «الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان» الزكاة: (٣٣٥٥).



اسق حديقة فلان

٤

مهما رجعت البصر في العطاء الإلٰهي للعباد، والإنعام عليهم بالظاهر والباطن من النعم: ازددت يقيناً ببالغ حكمته تعالىٰ في توفيق أهل طاعته وتقواه إلىٰ ما يشاء من محابه ومرضياته، والأخذ بأيديهم إلىٰ ما فيه صلاح شأنهم في عاجل أمرهم وآجله، والظفر بالمزيد من فضله جل شأنه وهو الحكيم الخبير ذو الفضل العظيم.

وقد بلغ من حرص نبينا المصطفىٰ عليه الصلاة والسلام علىٰ هداية أمته، كيما تصدق وجهة الفرد والجماعة في طلب مرضاة الله والاستزادة من فضله الذي لا يحد.. أن جعل من طرائق تلك الهداية نصيباً من النماذج المعبّرة في قصص من سبق، الأمر الذي يفتح باب العظة والاعتبار علىٰ مصراعيه، ويباعد بين الأمة وبين أن تكون مغيبة عن وقائع التاريخ التي فيها من الرغب والرهب آيات لأولي النُّهَىٰ.

ولا تسل عن قول النبي ﷺ البليغ في ذٰلك، وأسلوبه المشرق بنور الهدىٰ وجمال التعبير، حتىٰ إنه ليقرب البعيد، ويكشف الحجب عن المغلق، فإذا بدواعي الاستنارة بما صدر عن السابقين إيجاباً أو سلباً، مذللة الطرائق، واضحة المعالم لكل ذي عينين، لم يعدم البصيرة تصحب البصر.

كان لا بد لي من التذكير بهٰذه الحقائق علىٰ هٰذا النحو من الإيجاز، وأنا بسبيل اصطحاب البقية الباقية من القول في قصة الرجل والسحابة، وإنفاذ ما سبق من الوعد بشيء من الإيضاح الذي يستدعيه كلام صاحب الحديقة وهو يجيب صاحبنا عن سؤاله في شأن ما يصنع بالذي تخرجه الحديقة من زرع

وثمر وما إلىٰ ذٰلك، حيث أبان عن أنه يتصدق بثلثه، وينفق علىٰ نفسه وعياله الثلث الثاني، ويرد في الحديقة نفسها الثلث الأخير.

فمما لا ريب فيه: أن التصدق علىٰ الفقراء والمساكين والسائلين وذوي الحاجة بهـٰذا القدر من المال وهو ثلث ما تخرج حديقة هـٰذا المزارع: أمر مشروع علىٰ غاية الأهمية: فهو ـ علىٰ كونه عنوان توفيق إلـٰهي لفاعله وأمارة طاعته سبحانه وتقواه ـ فهو قرض حسن لله ﷻ يقرب إليه زلفىٰ، كما يسهم أيما إسهام في التماسك الاجتماعي، وتقوية بنية المجتمع الاقتصادية، ورفع مستوىٰ التعامل بين أبنائه، ناهيك عن أن الصدقة تزكي ماله وتحفظه وتباركه، ولما كان هـٰذا التصدق هو الأبرز عند العلماء في نظرهم إلىٰ النص: فقد استأثر بوضعه ـ علىٰ اختلاف في الألفاظ ـ عنواناً لحديث القصة؛ كالذي رأينا عن ابن حبان في قوله وهو يترجم لهـٰذا الحديث: (ذكر ما يستحب للمرء أن يتصدق بثلث ما يستفضل كل سنة من أملاكه)[1].

ولـٰكن هـٰذا كله لا يصرف عن أهمية الإنفاق السليم من الشوائب علىٰ النفس والأهل صنيع صاحب الحديقة، والاستعانة باليسر وجِدة المال علىٰ بناء الأسرة بناء سليماً يجعل منها ـ بحق ـ لبنة صالحة قوية في مجتمع إيماني سليم. وهـٰذا أمر مطلوب في شرع الله، وأعظم الأجر في الإنفاق المشروع حاصل عليه إذا حسنت النية وسلم القصد. روىٰ مسلم والنسائي وأحمد وغيرهم ـ واللفظ لمسلم ـ عن أبي هريرة ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «**دينار أنفقته في سبيل الله، ودينار أنفقته في رقبة** ـ أي: عتق رقبة وتحريرها ـ **ودينار تصدقت به علىٰ مسكين، ودينار أنفقته علىٰ أهلك؛ أعظمها أجراً الذي أنفقته علىٰ أهلك**»[2].

وعند الإمام أحمد: «**أفضلها الدينار الذي أنفقته علىٰ أهلك**»[3].

---

(١) «صحيح مسلم» الزهد والرقائق: (٢٩٨٤).

(٢) انظر: «الإحسان»: ٨/ ١٤٢ (٣٣٥٥).

(٣) «صحيح مسلم» الزكاة: (٩٩٥). وانظر: «السنن الكبرىٰ» للنسائي: (٩١٨٣)، «السنن الكبرىٰ» للبيهقي: ٧/ ٤٦٧.

وقل مثل ذٰلك في الإنفاق علىٰ الحديقة نفسها، كما درج عليه الرجل وذٰلك من حيث العناية بالجوانب الفنية والعملية فيها، ورعايتها بالحرث وحسن البذر والزرع والسقاية والتسميد، ومعالجة ما قد يطرأ من آفات، وما إلىٰ ذٰلك من كل ما هو ضروري لحفظها وتنمية ما يخرج من أرضها ويعطي من ثمرها، وهو أمر مطلوب من الوجهة الشرعية، لما أنه ـ مع ما فيه من حفظ النعمة وشكرها ـ يضمن بعون الله القدرة علىٰ الإنفاق في الوجهين الأولين، روىٰ أبو يعلىٰ في مسنده عن عائشة رضي الله عنها بسند للعلماء في واحد من رواته كلام: أن النبي ﷺ قال: «**إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه**»[1]. وهٰذا الترغيب العظيم عام يشمل الفرد والجماعة، كائناً ما كان الثغر الذي أقام المؤمن عليه.

وقد أورد الهيثمي هٰذا الحديث في (البيوع) من «معجم الزوائد» تحت باب عنوانه: (باب نصح الأجير وإتقان العمل).

وأحسن الأخ المحقق لمسند أبي يعلىٰ صنعاً عند الكلام عليه ـ أعني الحديث ـ بقوله هناك: (فانظر يا أخي ما أرقّ هٰذه الدعوة! وما أعذب هٰذا الأسلوب: إلٰهك الذي تسعىٰ لرضاه يحب هٰذا. فهل عليك إلا أن تحبه وترعاه؟!

إنها دعوة لكل إنسان ـ مهما بلغ موقعه في الحياة ـ أن يتقن عمله في الموقع الذي هو فيه.

فإتقان عمل الحاكمين: رعاية شؤون الأمة داخل البلاد وخارجها رعاية تعود عليها بالخير، وتأطرها بالحق دعوة والتزاماً.

وإتقان عمل المربين: تفجير كل طاقة خيرة في النفوس، وترسيخ قواعد الحق فيها، وإتمام صرح بناء الأخلاق الفاضلة.

وإتقان كل ذي حرفة حرفته في أن يجعل ما يقوم بصنعه من أدوات يؤدي وظيفته التي صنع من أجلها أحسن أداء.

---

(١) «المسند»: (١٠١٧٤).

(٢) وذكره الهيثمي في «معجم الزوائد» في البيوع: ٩٨/٤، وابن حجر في «المطالب

نقول: إن ديناً يأمر أتباعه بذٰلك: لهو النظام الوحيد الذي يداوي جراحات الإنسانية المعذبة التي أرهقها ويرهقها استغلال المستغلين، وآلمها ويؤلمها ما يسببه حقد الحاقدين)[١].

وفي عود علىٰ بدء: ما بد من التأكيد كرة أخرىٰ علىٰ أن هـٰذا المزارع المؤتمن صاحب الحديقة قد جمع الخير من أطرافه في هـٰذا الباب من عمل الصالحات ووضع الأمور مواضعها بدقة وانتظام.

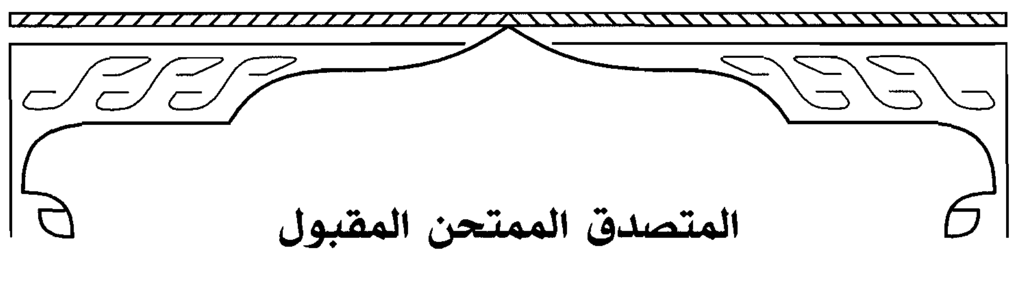
وفي تصرفه بما تخرج الحديقة علىٰ النحو الذي يرىٰ في هـٰذه المثالثة صدقة في سبيل الله، وإنفاقاً علىٰ نفسه وأهله، ثم إنفاقاً فيما يصلح شأن الحديقة نفسها: دلالة علىٰ صفاء القلب، وحصافة العقل، والقدرة علىٰ ترتيب الأولويات بحكمة وتدبير، وكل أولـٰئك مسبوق بتوفيق الله تعالىٰ الذي تفضل عليه جراء سلوكه الفائق بما تفضل. وسبحان من يختص برحمته من يشاء وهو ـ جلّ شأنه ـ ذو الفضل العظيم.

وفي خاتمة المطاف: تجدر الإشارة إلىٰ ما نقع عليه عند الإمام أبي العباس القرطبي في كتابه «المفهم» من (أن في حديث القصة دليلاً علىٰ صحة القول بكرامات الأولياء ـ يعني الذين دل عليهم قوله تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس] وأن الولي قد يكون له مال وضيعة، ولا يناقضه قوله ﷺ: **«لا تتخذوا الضيعة، فتركنوا إلىٰ الدنيا»** ـ كما روىٰ أحمد والترمذي[٢] ـ لما هو معلوم من أن المقصود بالنهي، إنما هو: من اتخذها مستكثراً ومتنعِّماً ومتمتعاً بزهرة الدنيا، لما يخاف عليه من الميل إلىٰ الدنيا، والركون إليها. أما من اتخذها معاشاً يصون بها دينه وعياله فاتخاذها بهـٰذه النية من أفضل الأعمال، وهي من أفضل الأقوال)[٣].

العالية»: (١٢٧٥) وعزاه إلىٰ أبي يعلىٰ. وينظر: «كنز العمال»: ٣/ ٩٠٧ (٩١٢١).

(١) «مسند أبي يعلىٰ»: ٧/ ٣٤٧ ـ ٣٤٨ الحاشية (١).

(٢) «المسند»: ١/ ٣٧٧، والترمذي: (٢٣٢٨).



المتصدق الممتحن المقبول

(١)

لله ما أكثر الدواعي التي تُحوج في حياة الأمة إلىٰ ترسيخ الاعتقاد بأن الله تبارك وتعالىٰ لا يُضيع مثقال ذرة لعامل صحح النية وأحسن القصد، وأنه ـ سبحانه ـ الحكيم في كل ما يقدِّر علىٰ العباد ذو الفضل العظيم!!

وصلّىٰ الله وسلّم وبارك علىٰ معلّم الناس الخير، المبيِّن عن الله ما أراد، وما أكثر وأوفر ما يقع عليه الناظر في سنته المطهَّرة ـ وهي بيان الكتاب الكريم ـ من صورة التبيان المنير لهٰذه الحقيقة، وهو يرفع قواعد البناء المكين للفرد والمجتمع، كيما يظل كلٌّ من المؤمن والمؤمنة متفائلاً علىٰ دروب الطاعة لله جلَّ شأنه بشتىٰ صنوفها وميادينها، والقيام ببذل الجهد في كل طريق توصل إلىٰ مرضاته ﷻ في نور خطاب التكليف، آية كان أو حديثاً.

من ذٰلك ما نجده في القصص الذي اشتملت عليه نصوص هٰذه السنة في ساحة متسعة الأرجاء، متعددة النواحي؛ إذ لم يألُ النبي عليه الصلاة والسلام جهداً في أن يحيط الأمة ـ وبخاصة إذا توافرت المناسبة ـ بالكثير من النماذج التي اختزنها التاريخ، والتي وصلتنا بالطرق العديدة المأمونة، بما فيها من العظات والعبر، ومن عيونها: إبراز تلك الحقيقة التي نذكِّر بها، حقيقةِ أن الله بعدله وفضله لا يظلم الناس شيئاً، ولا يضيع عنده عمل عامل من ذكر أو أنثىٰ، ما دام هٰذا العمل قد أُدِّي وفق السَّنن الشرعي المطلوب، وأن لله الحكمة البالغة في كل ما يقضي ويقدر، وقد يكون منعه ـ فيما يظهر لنا ـ عبَده الصالح مطلباً يرجوه: عينَ العطاء.

وما أحسبه من مكرور القول: أن أذكِّر بما قلته في مناسبة تتصل بما

نحن بسبيله من حرص المصطفىٰ ﷺ علىٰ هداية الأمة في هٰذه الغاية وغيرها، كيما تصدق وجهة الفرد والجماعة في طلب مرضاة الله، والاستزادة من فضله الذي لا يُحدُّ: قد بلغ مبلغ أن يوسع ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ في هديه الميمون للكثير من النماذج ذاتِ العلاقة بذٰلك، في قصص من سبق، الأمر الذي يفتح باب العظة والاعتبار علىٰ مصراعيه، فيشدُّ أزر العاملين، ويوقظ بصداه الغافلين، ويباعد بين الأمة وبين أن تكون مغيّبة عن وقائع التاريخ، التي فيها علىٰ أرض الواقع يوم ذاك: من دواعي الرغب في الخير، والرهب من نقيضه: آياتٌ لأولي النُّهىٰ.

ونحن في هٰذه العجالة اليوم: علىٰ موعد مع نموذج مما نوحي إليه من قصص السابقين الذي نبَّأنا به النبي عليه الصلاة والسلام: قِوامه أن رجلاً من أهل الصلاح كان يحرص علىٰ الصدقة في سبيل الله؛ فصادف أن تصدّق مرات ثلاثاً، وكان يظهر بعد كل مرة أن الصدقة وقعت في يد من لا يستحقها.

فبعد المرة الأولىٰ تبيَّن أنها وقعت في يد سارق، ولما أعاد الكرة تبين أنها وقعت في يد زانية، أما في المرة الثالثة: فوقعت في يد غني، وكان في كل مرة يناجي مولاه بحمده سبحانه دليلَ الرضا لقضاء الله، حتىٰ إذا وقعت الواقعة في الثالثة قال بكثير من الحسرة المشبعة بالرضا والتسليم: «**اللهم لك الحمد، علىٰ سارق وعلىٰ زانية وعلىٰ غني**» وإذا بالفضل الإلٰهي يغمره، فيأتيه آتٍ في المنام يبشّره بقبول الصدقة بمراتها الثلاث، ويكشف عما يمكن أن يكون لله من الحكمة البالغة فيما حصل! ومن يدري: لعل الصدقة تعمل عملها الخيِّر النَّيِّر في قلب كلٍّ من الثلاثة، وسبحان مقلب القلوب!!

ذٰلكم ما روىٰ البخاري ومسلم والنسائي وابن حبان والطبراني وغيرهم عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**قال رجل: لأتصدقنَّ الليلة بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها في يد سارق، فأصبحوا يتحدثون: تُصدِّق الليلة علىٰ سارق. فقال: اللهم لك الحمد. لأتصدقنَّ بصدقة، فخرج بصدقته، فوضعها في يد زانية، فأصبحوا يتحدثون: تُصدِّق الليلة علىٰ زانية. فقال: اللهم لك الحمد علىٰ زانية. لأتصدقنّ بصدقة. فخرج بصدقته، فوضعها في يد غنيٍّ،**

فأصبحوا يتحدثون: تُصدِّق علىٰ غنيٍّ. فقال: اللهم لك الحمد؛ علىٰ سارق، وعلىٰ زانية، وعلىٰ غنيّ، فأُتيَ، فقيل له: أما صدقتك: فقد قُبلت ـ أو فقد تُقبلت ـ أما السارق: فلعله أن يستعفَّ عن سرقته، وأما الزانية: فلعلها أن تستعفَّ عن زناها. وأما الغنيُّ فلعله أن يعتبر فَينفقَ مما أعطاه الله»[1].

أرأيت: رسول الله ﷺ يُشهدنا ـ وهو المعصوم الذي لا ينطق عن الهوىٰ ـ وقائع هٰذه القصة علىٰ صورة تُشعر بأنها قد جرت في مجتمع ذي ألوان في أبنائه؛ فمن رجل صالح مقبل علىٰ مرضاة الله بالصدقة إلىٰ امرأة تعصي الله طاعةً للشيطان، وسارق يأكل أموال الناس بالباطل، مضافاً إليهم غنيّ قابض يده عن عمل الخير. وهٰذا الرجل الموحىٰ إليه في صدر الحديث يقبل علىٰ الصدقة بعزم وحزم ها نحن أولاء نراه يقول: «لأتصدقنَّ» أو «لأتصدقنَّ الليلة» وهٰذا من باب الالتزام كالنذر مثلاً ـ كما يقول الحافظ ـ والقسم فيه مقدّر، فكأنه قال: والله لأتصدقنَّ[2]، وكان أن وضع الصدقة في يد سارق أي وهو لا يعلم أنه سارق. وكان من صدقه ـ وهٰذا درس عظيم للعاملين ـ أنه عندما علم أن صدقته وقعت في يد سارق: لم يلبث أن قال: اللهم لك الحمد؛ أي: هو لك لا لي؛ لأن صدقتي وقعت بيد من لا يستحقها، فلك الحمد. . (الحديث). . . أيْ كان ذٰلك بإرادتك لا بإرادتي، فإن إرادة الله كلها جميلة تبعث علىٰ الرضا وانشراح الصدر.

هٰكذا سلَّم الرجل، وفوَّض، ورضي بما قدر الله، فحمد مولاه المعطي المانع علىٰ تلك الحال؛ لأنه المحمود سبحانه علىٰ جميع الأحوال، لا يحمد علىٰ مكروه سواه. قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وقد ثبت أن النبي ﷺ كان إذا رأىٰ مالاً يعجبه قال: «**اللهم لك الحمد علىٰ كل حال**»[3].

---

(١) انظر: «المفهم لما أشكل من تلخيص مسلم»: ٧/ ١٣٧ ـ ١٣٨ حول الحديث (٢٧١٢).

(٢) وانظر: «الجامع الصحيح» للبخاري مع «فتح الباري»: ٣/ ٢٩٠ رقم (١٤٢١)، «الجامع الصحيح مع شرحه لابن بطال»: ٣/ ٤٢٢، و«صحيح مسلم بشرح النووي»: ٧/ ١١٠، «سنن النسائي»: ٥/ ٥٥ رقم (٢٥٢٣)، «الإحسان»: ٨/ ١٤٣ رقم (٣٣٥٦).

ذٰلكم بأن الله هو المحيط بكل شيء علماً، وله الحكمة البالغة فيما يقدر ويقضي سبحانه فهو في ذٰلك كلّه العليم الحكيم، وأين علم العباد، من علم وحكمة ربّ العباد؟!

أرأيت كيف قرر القرآن هـٰذه الحقيقة في معرض شأنٍ عظيم من شؤون التكليف وهو فرضيةُ القتال في سبيل الله، فقال تعالىٰ في سورة البقرة: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة].

روىٰ الإمام الطبري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنت رِدفَ النبي ﷺ فقال: «**يا ابن عباس، ارْضَ عن الله، بما قدّر وإن كان خلاف هواك فإنه مُثبتٌ في كتاب الله**». قلت: يا رسول الله، فأين وقد قرأت القرآن؟ قال: «**في قوله: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾** [البقرة: ٢١٦]»[(١)].

ولنا لقاء قادم إن شاء الله نصحب فيه ما نبَّأت به القصة من الفضل الإلـٰهي علىٰ ذٰلك الرجل المتصدق الممتحن الذي صدَق الله فصدقه، وما يحمل ذٰلك من العبرة الغنيّة بما يشدُّ العزائم في دروب الإيمان وعمل الصالحات ويوقظ الهمم وصلّىٰ الله وبارك علىٰ الرحمة المهداة سيّدنا محمد بن عبد الله وعلىٰ آله الطيبين الطاهرين وصحابته الغرّ الميامين ومن تبعهم بإحسان إلىٰ يوم الدين.



(١) انظر: «فتح الباري»: ٣/ ٢٩٠.　　(٢) «فتح الباري»: ٣/ ٢٩٠.

المتصدق الممتحن المقبول

٢

هٰذه عودة إلىٰ ما قصَّت علينا السنة المطهرة من خبر ذٰلك الرجل ممن خلوا من قبلنا، الذي عزم صادقاً علىٰ أن يتصدق، وأنفذ ما عزم عليه، ثم فوجئ بأن الصدقة وقعت في يد من لا يستحقها، فتصدق ثانية، وتكررت المفاجأة من حيث وقوع الصدقة في الموقع غير المناسب فحمد الله أيضاً. ثم عاود التصدق، فتبين للمرة الثالثة أن صدقته وقعت في يد من لا يستحقها، فحمد الله.

وقد مرَّ بنا من قبل أن ما فوجئ به هٰذا المتصدق الممتحن في المرة الأولىٰ: هو وقوع الصدقة في يد سارق، أما في المرة الثانية: فمبعث المفاجأة: وقوعها في يد امرأة منحرفة والعياذ بالله، حتىٰ إذا وصلنا إلىٰ المرة الثالثة: طالعتنا القصة بوقوع ما تصدق به في يد غني يبدو أنه كان قابض اليد عن فعل الخير!

والملاحظ ـ كما نرىٰ ـ أن صاحبنا جاز العقبة التي كانت امتحاناً لقوة إيمانه ومقدار رضاه بما قدر الله إذ لم تثنه المفاجأة أول مرة عن إعادة الكرة مرة ثانية بعد أن حمد الله علىٰ ما حصل ووقوع الصدقة في غير موقعها المناسب لم يحل دونه ودون أن يحمد الله، ويتصدق مرة ثالثة، ويتكرر الامتحان، فتقع الصدقة ثالثة في يد من لا يستحقها. كل هٰذا وهو في كل مرة عندما يتصدق لا يدري أنه قد وضع الصدقة في غير موضعها.

وكان من مظاهر التوفيق تكرار الحمد الدال علىٰ يقظة القلب التي ارتقت به إلىٰ مصاف أهل الرضا والتسليم. وها هو ذا يقول أعقاب المحاولة الثالثة: «**اللهم لك الحمد علىٰ سارق وعلىٰ زانية وعلىٰ غني!!!**».

إنه لم ييأس من روح الله، وكان يدرك ـ كما يبدو من مواقفه الرضيَّة المستعلية علىٰ نزعات الهوىٰ والشيطان ـ أنه لا بد لله تعالىٰ من حكمة فيما وقع، ومردُّ الأمور أولاً وآخراً إليه سبحانه، وكيف لا يكون ذٰلك وهو جلَّ شأنه المحيط بكل شيء علماً، وهل يقاس علم العباد المحدود بعلمه المطلق المحيط، فسبحانه من إلـٰه عليم حكيم لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون!!

وهـٰكذا كان هـٰذا الرجل الذي لم تزلَّ له قدم عند الامتحان، صادق الوجهة راضياً كل الرضا بقدر الله، وإذن فليحمد الله تعالىٰ قلباً وقالباً بلسانه وقلبه، فهو سبحانه المستحق للحمد علىٰ الأحوال كافة، أدركنا الحكمة فيما قضىٰ وقدَّر، أو لم ندركها، وكلما ازداد العبد تفويضاً وتسليماً بعد الأخذ بالأسباب كما أمر الله كان ذٰلك أدعىٰ لرضا الله عنه وقبول عمله. ومن رحمة الله بنا نحن المسلمين أن رسول الله ﷺ كان خير قدوة وأعظم أسوة في ذٰلك، فقد كان من خلقه ـ كما هو معلوم ـ أنه إذا رأىٰ ما لا يعجبه قال: «**اللهم لك الحمد علىٰ كل حال**». وهـٰذا في مجال الرضا عن الله والتسليم لأمره، لا في ساحة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكان يربي أصحابه والأمة من ورائهم علىٰ هـٰذا الخلق.

يؤكد ذٰلك ما روىٰ الإمام الطبري ـ كما أسلفنا ـ عن عامر بن واثلة قال: قال ابن عباس رضي الله عنهما: كنت رِدفَ النبي ﷺ ـ أي: راكباً خلفه ـ فقال: «**يا ابن عباس، ارض عن الله بما قدَّر وإن كان علىٰ خلاف هواك**» قلت: يا رسول الله، فأين وقد قرأت القرآن؟ قال: «**في قوله:** ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة]»[1].

تلا ذٰلك قول شيخ المفسرين في تأويل قوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾: (يعني بذٰلك جل ثناؤه: والله يعلم ما هو خير لكم مما هو شر لكم، فلا تكرهوا ما كتبت عليكم من جهاد عدوكم وقتال من أمرتكم بقتاله؛ فإني

(١) انظر: «جامع البيان عن تأويل آي القرآن»: ٢/ ٢٠٠ دار المعرفة.

أعلم أن قتالكم إياهم هو خير لكم في عاجلكم ومعادكم، وتركُكم قتالَهم شرٌ لكم وأنتم لا تعلمون من ذٰلك ما أعلم. يحضهم ـ جلَّ ذكره ـ بذٰلك علىٰ جهاد أعدائه ويرغبهم في قتال من كفر به)[1].

وفي عود علىٰ بدء: لا بد من الإشارة إلىٰ ما ذهب إليه أبو العباس القرطبي في تعليل الحمد الذي كان من المتصدِّق علىٰ ما حصل بجملته: من أنه إشعار بألم قلبه، إذ ظنَّ أن صدقته لم توافق محلَّها، وأن ذٰلك لم ينفعه، ولذٰلك كرَّر الصدقة، فلما علم الله صحة نيته تقبلها منه، وأعلمه بفوائد صدقاته[2].

ولا يخفىٰ أن أبا العباس يريد بما أشار إليه من القبول وفوائد الصدقات: ما كشف عنه الرسول ﷺ ـ حين أراح قارئ القصة وسامعها من عناء التفكير الطويل بما حصل لصاحبنا بعد تلكم المفاجآت وحمده مولاه عليها ـ بإخباره أن الرجل أُتي فقيل له: أما صدقتك: فقد قبلت، مضافاً إلىٰ ذٰلك تبشيره بما يدل علىٰ حكمة الله فيما حصل؛ فلعل السارق يستعف بتلك الصدقة سالكاً سبيل التوابين المتطهرين، ولعل تلك المرأة المنحرفة طاعةً للشيطان والهوىٰ، تستعفُّ عن انحرافها وتتحول إلىٰ طريق الاستقامة والطُّهر، ولعل ذٰلك الغنيّ القابضَ يده عن الصدقة والبذل في سبيل الله، يعتبر بما كان من التصدق فينفق مما أعطاه الله، اقتداءً بمن تصدق عليه، وتجاوزاً عما كان فيه من صفة البخل إلىٰ صفة السماحة وأداء الحقوق[3].

(فأُتي فقيل له)؛ أي: فأُريَ في المنام، وقال العلَّامة السِّندي في حاشيته علىٰ شرح السيوطي لسنن النسائي «المجتبىٰ»: (ورؤيا غير الأنبياء وإن كان لا حجة فيها، لٰكن هٰذه الرؤيا قد قررها النبي ﷺ، فحصل الاحتجاج بتقريره ﷺ وبارك عليه)[4].

---

(١) انظر: «جامع البيان» للطبري: ٢/ ٢٠١ دار المعرفة.
(٢) المصدر السابق: ٢/ ٢٠١.
(٣) وانظر: «المفهم» للقرطبي: ٣/ ٦٧ رقم (٨٨٩).
(٤) وانظر: «شرح الطيبي علىٰ مشكاة المصابيح»: ٥/ ١٥٣٢ ـ ١٥٣٣ رقم (١٨٧٦).

وقد جزم ابن بطال في «شرحه لصحيح البخاري»: بأن البشارة المذكورة بلفظ (لعل) دليلُ قبول ما تصدق به الرجل، إذ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وقوله: «فلعله أن يستعف عن سرقته» فإن (لعل) من الله علىٰ معنىٰ القطع والحتم، ودلّ ذٰلك أن صدقة الرجل علىٰ السارق والزانية والغني قد تقبلها الله؛ لأنها إذا كانت سبباً إلىٰ ما يرضي الله فلا شك في فضلها وقبولها)[1].

وهٰذا ما ذهب إليه الإمام النووي؛ فقد عنون لحديث القصة بقوله: (باب ثبوت أجر المتصدق وإن وقعت الصدقة في يد فاسق ونحوه) مستنبطاً أن (فيه ثبوت الثواب في الصدقة وإن كان الآخذ فاسقاً وغنياً، ففي كل كبد حرَّىٰ أجر، وهٰذا في صدقة التطوع، وأما الزكاة: فلا يُجزِي دفعها إلىٰ غني)[2].

ولم يدع الحافظ ـ كما عوَّدنا ـ أن يضع أيدينا علىٰ عدد من الفوائد فقال: (وفي الحديث دلالة علىٰ أن الصدقة كانت عندهم مختصةً بأهل الحاجة من أهل الخير، ولذٰلك تعجبوا من الصدقة علىٰ الأصناف الثلاثة. وفيه أن صدقة المتصدق إذا كانت صالحة قُبلت صدقتُه ولو لم تقع الموقع. . إلىٰ أن قال: وفيه فضل صدقة السر، وفضل الإخلاص، واستحبابُ إعادة الصدقة إذا لم تقع الموقع، وأن الحكمَ للظاهر حتىٰ يتبين سواه، وبركةُ التسليم والرضا، وذمُّ التضجُّر بالقضاء ـ كما قال بعض السلف: لا تقطع الخدمة ولو ظهر لك عدم القبول).

بقي أن نشير إلىٰ ما دلت عليه بعض الأحاديث في واقع أمتنا من أن للمتصدق أجرَ ما نواه، سواء صادف المستحق أو لا، ذٰلكم ما روىٰ البخاري وغيره من حديث معن بن يزيدَ بن الأخنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ الذي قال فيه: (وكان أبي يزيد أخرج دنانير يتصدق بها، فوضعها عند رجل في المسجد، فجئت فأخذتها، فأتيته بها فقال: والله ما إياك أردت، فخاصمته إلىٰ رسول الله ﷺ فقال: «**لك ما نويت يا يزيد، ولك ما أخذت يا معن**»[3]. وكان من فقه

---

(١) «سنن النسائي (المجتبىٰ) بشرح السيوطي وحاشية السِّندي»: ٥/٥٦ رقم (٢٥٢٣).
(٢) «شرح صحيح البخاري» لابن بطال: ٣/٤٢٢، باب التصدق علىٰ غني وهو لا يعلم.
(٣) انظر: «صحيح مسلم بشرح النووي»: ٧/١١٠.

البخاري يرحمه الله أن وضع هٰذا الحديث تحت باب: (إذا تصدق علىٰ ابنه وهو لا يشعر)[1].



(١) «الجامع الصحيح» مع «الفتح»: ٣/ ٢٩١ رقم (١٤٢٢).



تحكيم السنة وقبيصة بن المخارق

(١)

هـٰذه خطوة علىٰ طريق ما أرجو أن نسعد به من اصطحاب قصة وقعت في عهد الصحابة عليهم الرضوان: سداها ولحمتها: وضعُ الاهتمام بالسنة المطهرة علىٰ صعيد حركة المجتمع موضعه الذي تمليه شرعتنا المباركة، وقيام واحد من الصحابة بذٰلك في واقعة كان هو محورَها، بجانب أفراد من المجتمع ردَّهم إلىٰ الطريق السَّوي بما ثبت عن الرسول ﷺ في مثل مطلبهم الذي رفض رضي الله عنه الاستجابة لهم في تحقيقه.

والخطوة التي أعني: عجالة من القول تذكّر بما هو معلوم من الأهمية البالغة لطاعة الرسول ﷺ ـ وهو المبلغ عن الله ما أراد ـ في حياة المسلمين: ميادينِها وجوانبها كافة!

وهو تذكير يراد له أن يكون وُصلتنا إلىٰ القصة المشار إليها بما تحمل من صورة العطاء السخيِّ الذي كانت تتسم به حركة الصحابة وسلوكهم، العطاء المتجدد في نور طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ التي هي من طاعة الله: في كل ما يأخذون وما يذرون، وهم يتابعون رحلة الإحكام لبُنىٰ المجتمع الأمثل، ورفع قواعد الحضارة التي لا تشكو في ظل هداية الإسلام عوجاً ولا تناقضاً بين الواقع والادِّعاء، كالذي نرىٰ في الحضارة المتغطرسة اليوم!!

فوجوب طاعة الرسول المؤتمن علىٰ بيان الكتاب: باتباع سنته وأخذ النفوس بهديه، حقيقة إيمانية، لا يتمارىٰ بها إلا امرؤ سفه نفسه واتبع هواه، فانقلب سوءَ منقَلب، وكان عاقبة أمره خُسراً.

وهـٰذه العجالة ليست مقام حشد الأدلة ـ التي تكاد تعصىٰ علىٰ الحصر ـ

تأييداً لهٰذا الذي نقول، ولٰكن حَسْبنا من ذٰلك: أن الله تعالىٰ قد فرض طاعة الرسول ﷺ والانتهاء إلىٰ حكمه في العديد من المواطن في كتابه الكريم؛ كما في قوله جل شأنه: ﴿... وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [آل عمران] وقوله: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر:٧]. وليس ذٰلك فحسب؛ بل جعل سبحانه طاعة رسوله من طاعته، فقال جلَّ وعزَّ: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء:٨٠] وهٰذا دليل قاطع علىٰ أن الأمة حين تقبَل عن رسول الله عليه الصلاة والسلام، تكون قبلت عن الله ﷻ؛ لأنه ـ تباركت أسماؤه ـ قد فرض ذٰلك. قال الإمام الشافعي في كتابه «الرسالة»: (وقد فرض الله في كتابه طاعة رسوله ﷺ والانتهاء إلىٰ حكمه؛ فمن قبل عن رسول الله، فبفرض الله قَبِل)[1] ويقول في موطن آخر: (فعن الله قَبِل).

وإذا كانت طاعة الرسول عليه الصلاة والسلام من طاعة الله، فالعكس بالعكس والعياذ بالله. ففي كتاب (الأحكام) من «الجامع الصحيح» بدأ الإمام البخاري الكلام بباب عنوانه: باب قوله تعالىٰ: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء:٥٩][2] ثم روىٰ بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصىٰ الله، ومن أطاع أميري فقد أطاعني، ومن عصىٰ أميري فقد عصاني**».

قال الحافظ في قوله ﷺ: «من أطاعني فقد أطاع الله»: (هٰذه الجملة منتزعة من قوله تعالىٰ: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾؛ أي: لأني لا آمر إلا بما أمر الله به؛ فمن فعل ما آمره به فإنما أطاع من أمرني أن آمره، ويحتمل أن يكون المعنىٰ: لأن الله أمر بطاعتي، فمن أطاعني فقد أطاع أمر الله بطاعتي، وفي المعصية كذٰلك)[3].

وهٰكذا: فالجنة مفتَّحة الأبواب لمن أطاع، والعكس بالعكس أيضاً.

---

(١) المصدر السابق: ١/ ٢٩١ رقم (١٤٢٢).
(٢) «الرسالة» للإمام الشافعي: ص٢٢ (ف٥٨).
(٣) وانظر: «الجامع الصحيح» مع «فتح الباري»: ١٣/ ١١١ رقم (٧١٣٧) الأحكام.

رویٰ البخاري وأحمد عن أبي هريرة ﷺ، أن النبي ﷺ قال: «**كل أمتي يدخلون الجنة؛ إلا من أبىٰ**، قالوا: يا رسول الله ومن يأبىٰ؟ قال: **من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبىٰ**»[1] ولفظه عند أحمد: «**كل أمتي يدخلون الجنة يوم القيامة إلا من أبىٰ..**» وأخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي[2]. ورواه الطبراني في «الأوسط» بسند حسن عن أبي سعيد الخدري بلفظ: «**والذي نفسي بيده لتدخلنَّ الجنة كلّكم؛ إلا من أبىٰ وشرد علىٰ الله شُراد البعير ـ أو شِراد البعير ـ**» قيل: يا رسول الله، ومن يأبىٰ أن يدخل الجنة؟ فقال: «**من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني دخل النار**»[3] ولفظ الحاكم في إحدىٰ رواياته: «**إلا من شرد علىٰ الله شِراد البعير عن أهله**»[4].

(شرد البعير): شَروداً وشُراداً وشِراداً: ندَّ ونفر فهو شارد وشرود.

ومما يحمد للصحابة عليهم الرضوان، ويزيدهم قرباً من الله ﷻ، ورفعة قدر عنده، وذكراً حسناً في الأولين والآخرين أنهم كانوا في حياته ﷺ وبعد لحاقه بالرفيق الأعلىٰ: علىٰ أحسن حال من اتباع سنته والأخذ بهديه حفظاً ووعياً، علماً وعملاً وتبليغاً لمن وراءهم من المسلمين بالكلمة والقدوة. والقصة التي نحن بسبيل اصطحابها، والاعتبار بوقائعها من خلال تصرف واحد من الصحابة هو قبيصة بن المخارق ﷺ[5]: واحدة من الدلائل الكثيرة الوفيرة التي تشهد لهٰذا الأمر الجلل الذي جرىٰ التنبيه عليه بهٰذه اللمحة السريعة التي لا يتسع المقام لأكثر منها؛ ذٰلك بأن محور هٰذه القصة ما قام به هٰذا الصحابي في واقعة عرضت له من تطبيق عملي للحكم الذي علِمه في مثل هٰذا من الرسول عليه الصلاة والسلام، ولنبدأ بقصة هٰذه الواقعة وهي واقعة اجتماعية فيها مشابه مما حصل له في قصة مع النبي عليه الصلاة

(١) المصدر السابق: رقم (٧١٣٧)، و«الفتح»: ١٣/ ١١٢.
(٢) «الجامع الصحيح» مع «الفتح»: رقم (٧٢٨٠) ١٣/ ٢٤٩ الاعتصام.
(٣) «المستدرك»: ١/ ٥٥ و٤/ ٢٤٧.
(٤) «المعجم الوسيط» للطبراني: رقم (٨١٢).
(٥) «المستدرك»: ٤/ ٢٤٧.

والسلام حيث أعطىٰ صلوات الله وسلامه عليه حكمه ووجه إلىٰ ما يجب حيث لم يكن منه رضي الله عنه إلا التطبيق العملي للهدي المحمدي فحكم بما حكم به الرسول الكريم؛ لأن طاعته ﷺ من طاعة الله، والأمر يتعلق بضوابط التعاون الاقتصادي علىٰ ساحة العطاء والمنع، والأسباب التي تحِل معها إراقة ماء الوجه والمسألة، فالمسألة لا تحل إلا عند الضرورة القصوىٰ والضرورة تقدر بقدرها. وكم في ذٰلك من إثارة لكوامن العزة والرغبة في العمل، وأن اليد العليا خير من اليد السفلىٰ لذا كان لزاماً أن نعرض لقصة الواقعة الأولىٰ، وكيف عملت عملها في نفس قَبيصة رضي الله عنه ثم نتبعهَا قصته مع نفر من قومه بسلطان السنة المطهرة إلىٰ الصواب في أمر اجتماعي علىٰ غاية الأهمية!!

روىٰ مسلم في باب من تحلُّ له المسألة من كتاب الزكاة في «صحيحه» وابن حبان وابن خزيمة، وعبد الرزاق في «المصنف» وأبو داود والنسائي وأحمد وغيرهم ـ واللفظ لمسلم ـ عن قبيصة بن مخارق الهلالي رضي الله عنه قال: تحمَّلتُ حَمالةً، فأتيت رسول الله ﷺ أسأله فيها. فقال: «**أقِم حتىٰ تأتينا الصدقةُ، فنأمرَ لك بها** ـ وفي رواية لأحمد: **نؤديها عنك ونخرجها من إبل الصدقة** ـ قال: ثم قال: **يا قبيصة، إن المسألة لا تحِلُّ إلا لأحد ثلاثة: رجلٍ تحمَّل حمالةً، فحلَّت له المسألة حتىٰ يصيبها، ثم يُمسك. ورجلٍ أصابته جائحة اجتاحت ماله، فحلَّت له المسألة حتىٰ يُصيب قِواماً من عيش** ـ أو قال: **سِداداً من عيش** ـ **ورجلٍ أصابته فاقة حتىٰ يقومَ ثلاثة من ذوي الحجا من قومه: لقد أصابت فلاناً فاقةٌ، فحلَّت له المسألة، حتىٰ يصيب قِواماً من عيش** ـ أو قال: **سِداداً من عيش** ـ. **فما سواهنَّ من المسألة يا قبيصة: سحتاً يأكلها صاحبها سحتاً**»[1].

قوله: (تحملت حمالة) الحمالة ـ بفتح الحاء ـ: ما يتحمله الإنسان عن

---

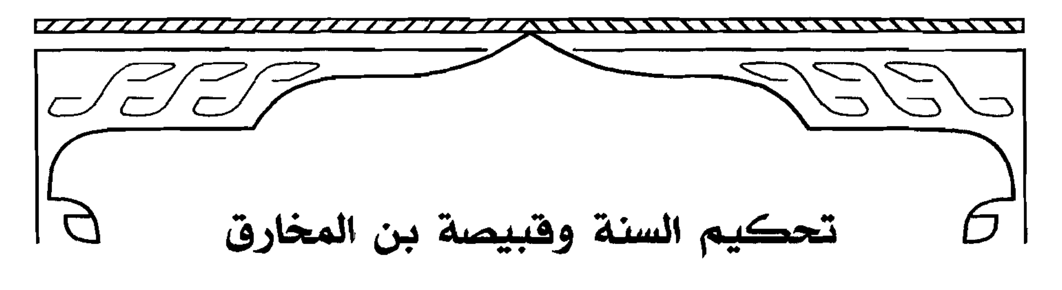
(١) «تهذيب الكمال»: ٢٣/ ٤٩٢ ـ ٤٩٣.

(٢) «صحيح مسلم»: (١٠٤٤)، «الإحسان في تقرير صحيح ابن حبان»: ٨/ ٨٥ رقم (٣٢٩١)، ابن خزيمة: (٢٣٧٥)، عبد الرزاق: (٢٠٠٠٨)، أبو داود: (١٦٤٠)،

غيره من دية أو غرامة، فيكون المعنىٰ: تكلفت مالاً لإصلاح ذات البين. قال الإمام الخطابي: هي أن يقع بين القوم التشاجر في الدماء والأموال، ويُخاف من ذٰلك الفتن العظيمة، فيتوسط الرجل فيما بينهم لإصلاح ذات البين ويضمن لهم ما يترضاهم بذٰلك دفعاً للفتنة[1].



النسائي في «المجتبىٰ»: (٢٥٧٩)، «المسند»: (١٥٩١٦).



تحكيم السنة وقبيصة بن المخارق

(٢)

من أمارات التوفيق، وصدق الوجهة عند المسلم، وأنه من أهل الرضا عند الله ﷻ: أن يكون وقَّافاً عند حدود الله، يدور مع الحق حيث دار، لا يزيغ ـ قيد أنملة ـ عن هدي الكتاب والسنة عملاً بالعلم، وطاعةً لله ﷻ، ولا يزحزحه عن ذٰلك رغب في الدنيا ولا رهب!

وأنت واجد أن هـٰذا النهج المضيء في السلوك: كان لا يُفتقد عند واحد من أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام، الذين آمنوا به ﷺ وعزروه، ونصروه، واتبعوا النور الذي أنزل معه ـ وكان العمل بهديه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ الذي هو بيان للكتاب، في موقع الحرص الشديد منهم عليه، ووضعه موضعه في كل صغيرة وكبيرة. كان هـٰذا وهم يعمرون الأرض، ويبنون الحضارة المثلىٰ في إدارة حكيمة واعية لشؤون الحياة، وإحكام لبُنىٰ المجتمع المسلم الذي رفع قواعده الرسول ﷺ وكانوا في ذٰلك جنودَه الأبرار.

أقول هـٰذا في متابعة لرحلتنا المتواضعة مع الذي جرىٰ لصحابينا الجليل قَبيصة بن مُخارق أو ابن المخارق مع نبيه المصطفىٰ عليه الصلاة والسلام ـ كما رأينا من قبل ـ حيث طلب معونته بالمال من النبي ﷺ بعد أن ضاقت ذات يده بسبب حمالة تحملها لإصلاح ذات البين بين فريقين من أبناء المجتمع، وبيَّن له عليه الصلاة والسلام الشرائط التي لا تحل المسألة من الناس إلا بتوافر واحد منها الأمر الذي يذكر بحقيقة اليد العليا خير من اليد السفلىٰ، بعد أن قال: «**بل نحملها عنك من إبل الصدقة**».

ويمتثل قَبيصة ويطيع؛ لأن طاعة الرسول من طاعة الله، ويقع الدرس

موقعه من قلبه وعقله، ويتفاعل معه تفاعلاً جعله حريصاً علىٰ العمل به كلَّما دعا داع إلىٰ ذٰلك، حتىٰ إذا دارت الأيام دورتها: عرضت له ـ بعد زمن ـ قضية من النوع الذي جرىٰ له مع النبي عليه الصلاة والسلام حين سأله المال بعد الذي أنفقه في إصلاح ذات البين، ولٰكن طلب المال هنا لم يكن نتيجة تحمُّل حمالة بل كان لأمر لا يصلح سبباً لحل سؤال الصدقة كما بين ذٰلك الرسول الكريم فأبىٰ وقام بالتطبيق العملي لما كان من هديه عليه الصلاة والسلام في هٰذا الباب، وكان هٰذا منه دليل الصدق في الاتباع والحرص علىٰ الأخذ بالسنة المطهَّرة عملاً بقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧].

وباب التعاون علىٰ الخير ـ فيما وراء الصدقة ـ مُشرَع لمن يريد الخير. وهٰذه قصة ما جرىٰ:

أخرج ابن حبان في «صحيحه» بسنده عن كنانة العدوي قال: كنت عند قبيصة بن المخارق فاستعان به نفر من قومه في نكاح رجل من قومه، فأبىٰ أن يعطيهم شيئاً، فانطلقوا من عنده. قال كنانة: فقلت له: أنت سيد قومك، وأتوك يسألونك، فلم تعطهم شيئاً، قال: أما في هٰذا: فلا أعطي شيئاً، وسأخبرك عن ذٰلك، تحملت بحمالة في قومي، فأتيت النبي ﷺ، فأخبرته، وسألته أن يعينني، فقال: «**بل نحملها عنك يا قبيصة من إبل الصدقة**» وعند أبي داود: «**أقم يا قبيصة حتىٰ تأتينا صدقة فنأمر لك بها**»[1] ـ أي: زكاة ـ ثم قال: «**إن المسألة لا تحلُّ إلا لثلاثة: رجلٍ تحمَّل بحمالة، فقد حلّت له حتىٰ يؤديها، أو رجلٍ أصابته جائحة، فاجتاحت ماله، فقد حلّت له، حتىٰ يصيب قِواماً من عيش ـ أو سِداداً من عيش ـ أو رجلٍ أصابته فاقة، فشهد له ثلاثة من ذوي الحجا من قومه، أن حلَّت له المسألة، فقد حلَّت حتىٰ يصيب قِواماً من عيش أو سِداداً من عيش، فالمسألة فيما سوىٰ ذٰلك سُحتٌ**» وعند مسلم ـ كما رأينا من قبل ـ «**فما سواهنَّ من المسألة يا قبيصة، سحتاً يأكلها صاحبها سحتاً**»[2].

---

(١) انظر: «المجتبىٰ» للنسائي بشرح السيوطي و«حاشية السِّندي»: ٥/ ٨٨ ـ ٨٩.
(٢) «معالم السنن» للخطابي: ٢/ ٦٦.

(تحمّل حمالة أو بحمالة) أي: تكفَّل كفالة، والحميل: الكفيل، وقد أشرت من قبلُ إلىٰ قول الخطابي في معنىٰ الحَمالة: (هي أن يقع بين القوم تشاجر في الدماء والأموال، ويُخاف من ذٰلك فتن عظيمة، فيتوسط الرجل فيما بينهم، ويسعىٰ لإصلاح ذات البين، ويضمن لهم ما يرضيهم دفعاً للفتنة)[1].

وذهب الإمام النووي (إلىٰ أن الحَمالة ـ بفتح الحاء ـ هي المال الذي يتحمله الإنسان؛ أي: يستدينه ويدفعه في إصلاح ذات البين؛ كالإصلاح بين قبيلتين ونحو ذٰلك، وإنما تحل له المسألة ويُعطىٰ من الزكاة بشرط أن يستدين لغير معصية)[2].

وفي قوله ﷺ: «أصابته جائحة فاجتاحت ماله» قال في «لسان العرب»: الجَوحَة والجائحة: الشدة والنازلة العظيمة التي تجتاح المال من سَنَة أو فتنة. وعن أبي عبيد: الجائحة: المصيبة تحُلُّ بالرجل في ماله فيجتاحه كلَّه[3].

وقوله: «حتىٰ يصيب قِواماً من عيش أو سِداداً من عيش» القِوام بكسر القاف: والسِّداد بكسر السين: بمعنى واحد، وهو ما يغني من الشيء، وما تُسدُّ به الحاجة.

جاء في «النهاية» لابن الأثير: (وفي حديث السؤال «حتىٰ يُصيب سِداداً من عيش»؛ أي: ما يكفي حاجتَه، والسِّداد بالكسر: كل شيء سددت به خللاً، وبه سُمّي سِدادُ الثغر والقارورةِ والحاجة)[4] ومنه قولهم: سِدادٌ من عَوَزٍ.

أما السَّداد بفتح السين: فهو الإصابة في المنطق والتدبير وكذٰلك في الرمي ونحوه.

---

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي»: ٧/ ١٣٤.
(٢) «معالم السنن»: ٢/ ٦٦.
(٣) «شرح النووي علىٰ صحيح مسلم»: ٧/ ١٣٤.
(٤) «اللسان» مادة: (ج وح).

(الحجا) بالكسر والقصر: العقل.

و(السُّحت): الحرام. وسمي سُحتاً لأنه يسحت البركة فيذهب بها، وقيل: سمي سُحتاً: لأنه مهلك، يُقال: سحته الله؛ أي: أهلكه وأبطله. وقال في «المصباح»: السُّحت كل مال حرام لا يحل كسبه ولا أكله[1]. لذا كانت دلالة كلمة السُّحت جدَّ كاشفة عما أراده ﷺ من الوعيد!!

هٰذا وتخصيصُ الرجل الذي أصابته الفاقة بلزوم أن يشهد ثلاثة من قومه بذٰلك، والحكمُ علىٰ المخالفة عما بينه الرسول ﷺ بأنها أكل سحت: مما يدعو إلىٰ التذكير بلفظ «صحيح مسلم» فيهما إذ إن فيه ما يسعف في مزيد من فقه القصة والانتفاع بها. جاء هناك ـ كما أسلفنا من قبل ـ: «ورجل أصابته فاقةٌ حتىٰ يقوم ثلاثة من ذوي الحجىٰ من قومه: لقد أصابت فلاناً فاقة، فحلَّت له المسألة حتىٰ يُصيبَ قِواماً من عيش ـ أو قال: سِداداً من عيش ـ فما سواهنَّ من المسألة يا قبيصة، سُحتاً يأكلها صاحبها سحتاً».

ولقد استوقفت العلماء كلمة (يقوم) هنا، حتىٰ حكم البعض بأن صوابها يقول، جاء في «شرح الطيبي لمشكاة المصابيح» هٰكذا في جميع النسخ وهو صحيح (قال الصنعاني: كذا وقع في صحيح مسلم، والصواب (يقول): باللام وكذا أخرجه أبو داود. أقول: قد سبق أنَّ (يقوم) أبلغ، والمقام له أدعىٰ وحذف القول في الكلام الفصيح شائع قال تعالىٰ: ﴿وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾ [الكهف:٤٨]؛ أي: قلنا لقد جئتمونا[2].

وقال الإمام النووي: (هٰكذا هو في جميع النسخ: يقوم ثلاثة؛ أي: يقومون بهٰذا الأمر فيقولون: لقد أصابته فاقة، والحجىٰ مقصور وهو العقل، وإنما قال ﷺ: «من قومه» لأنهم أهل الخبرة بباطنه، والمالُ مما يخفىٰ في العادة، فلا يعلمه إلا من كان خبيراً بصاحبه)[3].

---

(١) «النهاية» لابن الأثير. مادة: (س د د).
(٢) «المصباح المنير» مادة: (س ح ت).
(٣) «شرح الطيبي للمشكاة»: ٥/ ١٥١٠ رقم (١٨٣٧).

أما عن التعبير بـ(سحتاً) في قوله ﷺ: «سُحتاً يأكلها صاحبها سُحتاً» وهو هٰكذا في جميع النسخ. فقال العلماء: فيه إضمار؛ أي: أعْتقِدُه سُحتاً أو يؤكل سُحتاً.

وإلىٰ لقاء قادم نتابع فيها رحلتنا مع هٰذه القصة إن شاء الله والسلام عليكم ورحمة الله.





قبيصة وتحكيم السنة

(٣)

كانت لنا من قريب وقفة ليست بالطويلة مع الصحابي الجليل قَبيصة بن المخارق الهلالي سيد قومه رضي الله عنه، سعدنا من خلالها بقصة ما جرىٰ له مع نفر من قومه، طلبوا معونته في تزويج رجل من العشيرة، فأبىٰ أن يعطيهم شيئاً، فانطلقوا من عنده. قال كنانة العدويُّ راوي الخبر: فقلت له: أنت سيِّد قومك، وأتوك يسألونك، فلم تعطهم شيئاً!

ولئن كان واضحاً أنه لا غرابة في هٰذا التساؤل من كنانة: إن مخارقاً أجابه إجابة ذات شقين:

أما الشق الأول: فهو الذي يدل أن أولٰئك النفر من قومه كانوا يبغون المعاونة من الصدقة، وليس الرجل المراد معاونته في الزواج من أهل الصدقة.

وأما الشق الثاني: فقد أوضح مخارق رضي الله عنه لكنانة يرحمه الله أن إباءه أن يعطيهم هو إنفاذ لحكم علمه من الرسول عليه الصلاة والسلام في واقعة حصلت له من قبل، معه صلوات الله وسلامه عليه، وكان لذٰلك قصة!.

ذٰلكم قوله: (أما في هٰذا: فلا أعطي شيئاً، وسأخبرك عن ذٰلك؛ تحملت بحَمالة في قومي، فأتيت النبيَّ ﷺ، فأخبرته وسألته أن يعينني، فقال: «**بل نحملها عنك يا قبيصة، ونؤديها إليهم من إبل الصدقة**»).

ثم كشف له عن أمر في غاية الأهمية، وهو تسخير النبي ﷺ هٰذه الواقعة لبيان من تحلُّ لهم الصدقة، وأنه إذا سألها من لا يستحقها، فأكلها ـ وهي لا تحل له ـ: كان ذٰلك سُحتاً والعياذ بالله؛ إذ قال صلىٰ الله وسلم وبارك عليه بعد

ذٰلك: «**إن المسألة لا تحلُّ إلا لأحد ثلاثة: رجلٍ تحمَّل حمالةً، فقد حلّت له، حتىٰ يؤديَها، ورجلٍ أصابته جائحةٌ فاجتاحت مالَه، حتىٰ يصيب قِواماً من عيش ـ أو سِداداً من عيش ـ ورجلٍ أصابته فاقة، فشهد له ثلاثة من ذوي الحجا في قومه أن قد حلَّت له المسألةُ، فقد حلَّت له، حتىٰ يصيبَ قِواماً من عيش ـ أو سداداً من عيش ـ والمسألة فيما سوىٰ ذٰلك سُحتٌ**»[1] وعند أبي داود: «**وما سواهن يا قبيصة، سحت يأكلها صاحبها سحتاً**»[2].

والملاحظ أن علماءنا أجزل الله مثوبتهم لم يألوا جُهداً في تناول القصتين المزدانتين بهٰذا القدر من هدي النبي عليه الصلاة والسلام: باستنباط ما هنالك من حكم وأحكام، شأنهم في الوقوف الأمين المحكَم من سنة النبي عليه الصلاة والسلام التي أكرم الله الأمة بأن جعلها بحكمته البالغة، بياناً لكتابه العزيز.

وغير خافٍ ما أشهدَناه تصرفُ النبي ﷺ وبيانُه المتألق من آفاق هٰذا الهدي الميمون علىٰ الصعيد الاجتماعي وبنية المجتمع الاقتصادية، ناهيك عن علاقة الفرد بالجماعة من هٰذا الجانب، الأمر الذي ضاعف عناية العلماء بالاستنباط الموحىٰ إليه.

ها هو ذا الإمام أبو العباس القرطبيُّ يزيد الأمر وضوحاً في بيان معنىٰ قول قبيصة رضي الله عنه: (تحملت حمالة) فيقول: أيْ ألزمتها نفسي، والحَمالة ما لزم الإنسانَ تحمُّله من غُرم أو دية. وكانت العرب إذا وقعت بينهم ثائرة اقتضت غرماً في دية أو غيرها: قام أحدهم فتبرَّع بالتزام ذٰلك، والقيام به، حتىٰ ترتفع تلك الثائرة.

وجميل إنصافُه يرحمه الله، بمعرفة الفضل لأهله ولو كان ذٰلك في الجاهلية حيث قال: ولا شكَّ أن هٰذا من مكارم الأخلاق، ولا يصدر مثله

---

(١) «شرح النووي علىٰ صحيح مسلم»: ٧/ ١٣٤.

(٢) وانظر: «المفهم لما أشكل من تلخيص مسلم» لأبي العباس القرطبي: ٣/ ٨٧ رقم (٩١١)، «الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان»: ٨/ ١٨٩ رقم (٣٣٩٥).

(٣) انظر: «معالم السنن» للإمام الخطابي: ٢/ ٦٦. وانظر: «شرح السنة» للإمام البغوي:

إلا من سادات الناس وخيارهم. وكانت العرب لكرمها، إذا علمت بأن أحداً تحمَّل حمالة بادروا إلىٰ معونته، وأعطوه ما يُتمُّ به وجه مكرمته، وتبرأ ذمته. وهٰذا الإنصاف: هو ما هدىٰ إليه الإسلام في شأن أخلاق الجاهلية من تفريق بين حسنها وسيئها.

ثم نبَّه إلىٰ أمر عظيم يستبين معه سمُّو موقف النبي ﷺ من صنيع قبيصة حيث كان منه ـ وهو سيد الهداة وإمامهم ـ كمال التقدير والمعاونة. يقول أبو العباس: ولو سأل المتحمِّل في تلك الحَمالة ـ يعني لو سأل المعاونة ـ لم يُعَدَّ ذٰلك نقصاً، بل شرفاً وفخراً. ولذٰلك سأل هٰذا الرجل رسول الله ﷺ في حمالته التي تحمَّلها علىٰ عاداتهم، فأجابه ﷺ إلىٰ ذٰلك، بحكم المعونة علىٰ المكرمة، ووعده النبي ﷺ بمالٍ من الصدقة؛ لأنه غارم من جملة الغارمين المذكورين في آية الصدقات[1].

وفي شأن قوله ﷺ: «إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة» وبيان من هم؟ ذهب صاحب «المفهم» إلىٰ أنه لما قرر النبي ﷺ منع قاعدة المسألة من الناس بما تقدم من الأحاديث وبمبايعتهم علىٰ ذٰلك، وكانت الحاجات والفاقات تنزل بهم، فيحتاجون ـ يعني بعضهم ـ إلىٰ السؤال: بيَّن لهم النبي ﷺ من يخرج من عموم تلك القاعدة وهم هٰؤلاء الثلاثة.

ويعني أبو العباس بالأحاديث التي تقدمت في تقرير النبي ﷺ منعَ قاعدة المسألة من الناس، ومبايعة الصحابة ﷺ علىٰ ذٰلك: تلك الأحاديث من «صحيح مسلم» الذي تولىٰ هو تلخيصه وشرح ما أشكل من تلخيصه من مثل قوله ﷺ فيما روىٰ أبو هريرة ﷺ: «**من سأل الناس أموالهم تكثراً فإنما يسأل جمراً ـ أو جمر جهنم ـ فليستقلَّ أو ليستكثر**» وأخرجه ابن ماجه وابن حبان وأحمد وغيرهم[2].

٦/ ١٢٣ رقم (١٦٢٥).

(١) المصدر السابق: ٣/ ٨٧.

(٢) «المفهم»: (٩٠٨)، «المسند»: (٧١٦٣)، «صحيح مسلم»: (١٠٤١)، «سنن ابن

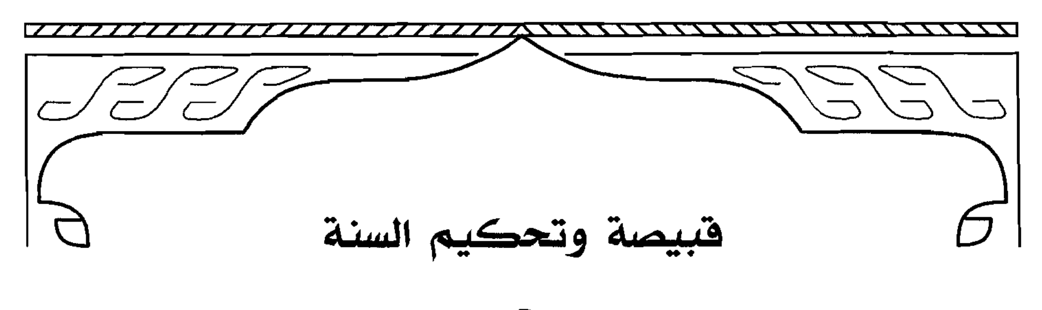
قال السِّندي في معنىٰ (تكثراً)؛ أي: ليكثِّر به ماله، أو بطريق الإلحاح والمبالغة في السؤال[1]. وقوله ﷺ: «فليُقلَّ أو ليستكثر» هو أمر علىٰ جهة التهديد والتوبيخ كما في قوله تعالىٰ: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف:٣٩] لا للإذن والتخيير، والمعنىٰ ـ كما يقول القرطبي ـ: فإنه يعاقَب علىٰ القليل منه والكثير[2].

وإلىٰ لقاء قادم إن شاء الله نتابع معه رحلتنا مع ما وقَفنا عليه علماؤنا الأعلام من أحكام وحكم استنبطوها من قصة صحابينا النابه المنوَّر قبيصة ﷺ، التي جمعت بين شذرات من هدي المصطفىٰ عليه الصلاة والسلام وحرص هٰذا الصحابي علىٰ العمل بهٰذا الهدي المبارك الذي هو بيان الكتاب العزيز. وصلىٰ الله وبارك علىٰ إمام الهداة وسيد الأنبياء محمد بن عبد الله وعلىٰ آله وصحابته ومن استمسك بسنته وجاهد في سبيل الله إلىٰ يوم الدين.



ماجه»: (١٨٣٨)، «الإحسان»: (٣٣٩٣) ٨/ ١٨٧.

(١) وانظر: «المفهم»: ٣/ ٨٥، «سنن ابن ماجه بشرح السيوطي وحاشية السندي»: ٢/ ٤٠١.



قبيصة وتحكيم السنة

(٤)

أن تكون القصة ـ كما هي الحال في قصص السنة النبوية ـ صورة حيَّة لأسلوب النبي ﷺ الفاذِّ الحكيم، وسلطانِ أحكام السنة المطهَّرة في حركة المجتمع وعلاقة الفرد بالجماعة، مضافاً إلىٰ ذٰلك حرص الصحابة ﷺ علىٰ هٰذا، كالذي رأينا فيما سبق من قصة الصحابي قبيصة بن المخارق الهلالي ﷺ. . . . أقول: أن تكون القصة علىٰ هٰذا المستوىٰ الرفيع في المجتمع الذي بنته يد محمد ﷺ الصناع، وسواعدُ من أكرمهم الله بصحبته: أمرٌ عظيم بالغ الأهمية علىٰ ساحة ما يجب من التفاعل الحقيقي بين هدىٰ النبوة وبين المجتمعات الإسلامية مهما تطاول الزمن، واختلفت البقاع.

من هنا كان ما سبقت الإشارة إليه من عناية علمائنا الأعلام يرحمهم الله باستنباط الأحكام والحكم من قصة قبيصة، كيما يؤدوا أمانة البلاغ، ويبصروا الأمة من خلال ذٰلك، بما يجب من طاعة رسول الله ﷺ وأخذ النفوس بسننه القولية والفعلية وإحكام بنية المجتمع الاقتصادية والاجتماعية وعلاقة الفرد بالجماعة: بضوابطها التي سَداها ولُحمتها هدي النبي عليه الصلاة والسلام.

وقد أشرت في كلمات سلفت إلىٰ ما ذهب إليه الإمام أبو العباس القرطبي في كتابه «المفهم» من الكشف عن العلاقة بين ما سبق تفصيله من بيان النبي عليه الصلاة والسلام للضوابط التي لا تحلُّ المسألة إلا بتحققها بادئاً ذٰلك بقوله: «**يا قبيصة، إن المسألة لا تحلُّ إلا لأحد ثلاثة**» وهم: الذي تحمل حمالة، ومن أصابت ماله جائحة، والذي شهد ثلاثة من ذوي الحجىٰ من قومه بفقره. . . أجل بين ما بيَّنه صلوات الله وسلامه عليه من ذٰلك، وبين

ما قرره من قاعدة منع المسألة من الناس بما تقدم من الأحاديث، وبمبايعتهم علىٰ ذٰلك.

ومن الأحاديث التي عناها في تقرير قاعدة المنع من «صحيح مسلم» وتقدم شرحها عنده: ما روىٰ مسلم وغيره عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من سأل الناس أموالهم تكثراً** ـ أي: بغية تكثير أمواله ـ **فإنما يسأل جمراً** ـ **أو جمراً من جهنم** ـ **فليستقلَّ أو ليستكثر**»[1]. وقد سبق إيراد هٰذا الحديث وذكرُ دلالته علىٰ المراد.

ومنها ما روىٰ البخاري ومسلم وأحمد وابن ماجه وغيرهم ـ واللفظ لمسلم ـ عن أبي هريرة ﵁ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لأن يغدو أحدكم فيحطِبَ علىٰ ظهره، فيتصدقَ به، ويستغنيَ به عن الناس: خير من أن يسأل رجلاً أعطاه أو منعه ذٰلك؛ فإن اليد العليا أفضل من اليد السفلىٰ، وابدأ بمن تعول**»[2].

(حطب يحطِب): جمع الحطب يجمعه، ومثله احتطب يحتطب.

واللفظ عند البخاري من رواية الزبير بن العوّام ﵁ عن النبي ﷺ قال: «**لأن يأخذَ أحدُكم حبلَه، فيأتي بحُزمة الحطب علىٰ ظهره، فيبقيها، فيكف الله بها وجهه، خيرٌ له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه**»[3]. وفي رواية أبي هريرة عنده: «**والذي نفسي بيده؛ لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب علىٰ ظهره..**» الحديث[4].

وهٰذا القسم من النبي ﷺ في هٰذه الرواية ما تضمن من أهمية بيانية في توكيد المعنىٰ المراد قد استوقف الحافظ ابن حجر، فقال في «فتح الباري»:

---

(١) المصدر السابق: ٢/ ٤٠١، «المفهم»: ٣/ ٨٥.

(٢) انظر ما سبق ص(١٧٨).

(٣) «الجامع الصحيح» مع «الفتح» الزكاة: (١٤٧١) ٣/ ٣٣٥، «المساقاة»: (٢٣٧٣) ٥/ ٤٦، «المفهم»: (٩٠٩) الزكاة، «صحيح مسلم بشرح النووي»: ٧/ ١٣١ الزكاة، «سنن ابن ماجه»: (١٨٣٦)، «مسند أبي يعلىٰ»: (٦٧٥).

(٤) «الجامع الصحيح» مع «الفتح»: ٣/ ٣٣٥ رقم (١٤٧١) زكاة.

(وزاد في أول حديث أبي هريرة قوله: «والذي نفسي بيده» ففيه القسم علىٰ الشيء المقطوع بصدقه لتأكيده في نفس السامع) ثم بيّن رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن في الحديث الحضَّ علىٰ التعفف عن المسألة والتنزُّهِ عنها، ولو امتهن المرء نفسه في طلب الرزق وارتكب المشقة في ذٰلك، ولولا قبحُ المسألة في نظر الشرع: لم يفضِّل ذٰلك عليها، وذٰلك لما يدخل علىٰ السائل من ذُلِّ السؤال، ومن ذلِّ الرد إذا لم يُعط، ولما يدخل علىٰ المسؤول من الضيق في ماله إن أعطىٰ كل سائل.

ثم قال: (وأما قوله: «خيرٌ له»: فليست بمعنىٰ أفعل التفضيل؛ إذ لا خير في السؤال مع القدرة علىٰ الاكتساب، والأصح عند الشافعية: أن سؤالَ من هٰذا حالُه حرام. ويحتمل أن يكون المراد بالخير فيه، بحسب اعتقاد السائل وتسميته الذي يُعطاه خيراً، وهو في الحقيقة شرٌّ)[1].

وعلىٰ ما هو معلوم ـ كما دلت النصوص ـ: أن اليد العليا هي المنفقة والأخرىٰ هي السائلة: طالعنا الإمام الخطابي في كتابه «معالم السنن» بوجه من الإيضاح؛ نجده في قوله هناك: (وقد يتوهم كثير من الناس أن يد المعطي مستعلية فوق يد الآخذ ـ يجعلونه من علو الشيء إلىٰ فوق ـ وليس ذٰلك عندي بالوجه، وإنما هو من علاء المجد والكرم، يريد به ـ يعني الرسول عليه الصلاة والسلام ـ الترفع عن المسألة والتعفف عنها). قال: وأنشدني أبو عمر قال: أنشدنا أبو العباس، قال: أنشدنا ابن الأعرابي في معناه:

إذا كان بابُ الذل من جانب الغنىٰ
سموت إلىٰ العلياء من جانب الفقر

يريد به التعزز بترك المسألة والتنزهِ عنها[2].

وفي عود علىٰ بدء: ما بدٌّ من التعريج علىٰ ما أشار إليه الإمام القرطبي من حديث مبايعة الصحابة علىٰ عدم المسألة، وهو واحد من النصوص ذات العلاقة الموضوعية بحديث قصتنا التي وقعت لمخارق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وما كان إذ ذاك من هدي النبي عليه الصلاة والسلام.

---

(١) المصدر السابق: ٣/ ٣٣٥ رقم (١٤٧٠) زكاة.

ذٰلكم ما روىٰ أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه والبيهقي وغيرهم ـ واللفظ لمسلم ـ عن عوف بن مالك الأشجعي ﷺ قال: كنا عند رسول الله ﷺ: تسعة أو ثمانية أو سبعة، فقال: «**ألا تبايعون رسول الله؟**» وكنا حديثي عهد ببيعة. فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله! ثم قال: «**ألا تبايعون رسول الله؟**» فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله! ثم قال: «**ألا تبايعون رسول الله؟**» قال: فبسطنا أيدَينا وقلنا: قد بايعناك يا رسول الله! فعلام نبايعك؟ قال: «**علىٰ أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، والصلوات الخمس، وتطيعوا الله** ـ وأسرَّ كلمة خفيّة ـ **ولا تسألوا الناس شيئاً**» فلقد رأيت بعض أولٰئك النفر يسقط سوط أحدهم، فما يسأل أحداً يُناوله إياه[1].



---

(١) «فتح الباري»: ٣/ ٣٣٦.
(٢) «معالم السنن»: ٢/ ٧٠.
(٣) «صحيح مسلم بشرح النووي»: ٧/ ١٢٢، «المفهم»: (٩١٠) ٣/ ٨٦، «سنن أبي





أصحاب الغار
والتوسل بصالح العمل

(١)

كلما ازدادت مخالطة الإيمان بشاشة القلب، وصفا هٰذا القلب من أكدار التلفُّت والهوىٰ، وكان علىٰ حضور مع الله الذي يعلم السرَّ وأخفىٰ، لا تبارحه محبته والإنابة إليه، ويغمره نور التقوىٰ والخشوع بين يديه، وتحررت النفس من سجن الغفلة والشهوات.. كان ذٰلك أدلَّ علىٰ سلامة الوجهة، والتذوّق لأحقية ما دلَّ عليه قول الله جل شأنه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات] من وجوب العبودية له ـ سبحانه ـ والصدق فيها، والثبات عليها في كل شأن من الشؤون.

وهنالك يكون المؤمن علىٰ حال مباركة، من صلاح القلب وانقياد الجوارح له، لا يبارح فيها لباس التقوىٰ في الظاهر والباطن، يبتغي إلىٰ مولاه الوسيلة بعمل الصالحات، غير مشرك بعبادته ـ جل شأنه ـ أحداً.

وذٰلكم ما أمر الله به المؤمنين بقوله تباركت أسماؤه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَـٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [المائدة]. قال قتادة: (أي تقربوا إليه بما يرضيه) ومعلوم أن ما يرضيه هو العمل بكتابه وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام.

وقد استشهد الإمام الطبري لتفسير الوسيلة بالقربة والتقرب بقول الشاعر:

إذا غفل الواشون عُدنا لوصلنا
وعاد التصافي بيننا والوسائل

أما الوسيلة التي هي عَلَم علىٰ أعلىٰ منزلة في الجنة، وهي منزلة

رسول الله ﷺ وداره في الجنة، والتي رغّب ﷺ شديد الترغيب بالدعاء له أن يؤتاها صلوات الله وسلامه عليه مع الفضيلة والمقام المحمود، فليست المقصودة هنا ماذا كان الأمر كذٰلك: فإذا مسَّ المؤمن شيء من الضُّر، واعتراه البلاء، وانقطع الرجاء من العباد، وجد باب الفرج مشرعاً عند من لا يخيب سائله، ولا ينقطع منه الرجاء، فهو الذي يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء، وهنالك يبسط كف الضراعة يدعوه متوسلاً إليه بما كان من صالح عمله، مستدراً فرجه بالمقبول من هـٰذا العمل، مستنجزاً وعده بإجابة المضطر إذا دعاه، فلا يلبث أن يكرمه الله بكشف الغمة وتفريج الكربة، عاجلاً أو آجلاً علىٰ ما يرىٰ من الحكمة ﷻ.

أقول هـٰذا، وأنا بسبيل اصطحابٍ لما أخبر عنه النبي ﷺ من قصة ثلاثة نفر كانوا قبلنا، نزلت بهم نازلة كادت تودي بحياتهم، وعلىٰ نور من تقواهم لله ﷻ، أجمعوا أمرهم وهم في الشدّة الشادة أن يدعو كلٌّ منهم ربه ويتوسل إليه بأرجىٰ عمل عمله، فكان التفضل منه ـ سبحانه ـ بالقبول وكشف ما كانوا به من شديد الكرب.

وقد بوَّب الإمام النووي رحمه الله لهـٰذه القصة في كتابه «الأذكار» بقوله: (باب دعاء الإنسان وتوسله بصالح عمله إلىٰ الله تعالىٰ)[1] أما في «شرحه لصحيح مسلم» فقال: (قصة أصحاب الغار الثلاثة والتوسل بصالح العمل)[2] وإليكم خبرها:

أخرج البخاري ومسلم وأحمد والبغويُّ وغيرهم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**بينما ثلاثة نفر يتمشون، أخذهم المطر، فأووا إلىٰ غار في جبل، فانحطّت علىٰ فم غارهم صخرة من الجبل، فانطبقت عليهم، فقال بعضهم لبعض: انظروا أعمالاً عملتموها صالحة لله فادعوا الله تعالىٰ بها، لعلَّ الله يفرجها عنكم، فقال أحدهم:**

داود».

(١) «الأذكار» للنووي مع شرحها «الفتوحات الربانية علىٰ الأذكار النووية»: للعلامة محمد بن علان: ٧/ ٢٥٣.

اللهم! إنه كان لي والدان شيخان كبيران، وامرأتي، وليَ صبيةٌ صغار أرعىٰ عليهم، فإذا أرحت عليهم، حلبت، فبدأت بوالديّ فسقيتهما قبل بنيَّ، وأنه نأىٰ بي ذات يوم الشجر، فلم آت حتىٰ أمسيت فوجدتهما قد ناما، فحلبتُ كما كنت أحلب، فجئت بالحلاب، فقمتُ عند رؤوسهما، أكره أن أوقظهما من نومهما، وأكره أن أسقي الصبية قبلهما، والصبية يتضاغون عند قدمي، فلم يزل ذٰلك دأبي ودأبهم حتىٰ طلع الفجر، فإن كنتَ تعلم أني فعلتُ ذٰلك ابتغاء وجهك، فافرج لنا منها فرجة، نرىٰ منها السماء. ففرّج الله منها فرجة، فرأوا منها السماء.

وقال الآخر: اللهم! إنه كانت لي ابنة عم أحببتها كأشد ما يحب الرجال النساء، وطلبت إليها نفسها، فأبت حتىٰ آتيها بمائة دينار، فتعبتُ حتىٰ جمعت مائة دينار، فجئتها بها، حتىٰ إذا قدرت عليها، وفي رواية: وجلست منها مجلس الرجل من المرأة قالت: يا عبد الله! اتقِ الله، ولا تفتح الخاتم إلا بحقه. فقمت عنها، فإن كنت تعلم أني فعلتُ ذٰلك ابتغاء وجهك، فافرج لنا منها فرجة. ففرج لهم.

وقال الآخر: اللهم! إني كنتُ استأجرت أجيراً بفَرَق أرُزٍّ[1]، فلما قضىٰ عمله قال: أعطني حقي، فعرضت عليه فرقه فرغب عنه، فلم أزل أزرعه حتىٰ جمعت منه بقراً ورعاءها، فجاءني فقال: اتقِ الله ولا تظلمني حقي. قلتُ: اذهب إلىٰ تلك البقر ورعائها، فخذها. فقال: اتقِ الله ولا تستهزئ بي. فقلت: إني لا أستهزئ بك، خذ ذٰلك البقر ورعاءها، فأخذه فذهب به، فإن كنت تعلم أني فعلت ذٰلك ابتغاء وجهك، فافرج لنا ما بقي. ففرج الله ما بقي»[2].

وعند البخاري: «ففرَّج الله عنهم، فخرجوا».

(الغار): الثقب في الجبل. (أرعىٰ عليهم) أي: أرعىٰ غنمهم قال في «اللسان»: وفلان يرعىٰ علىٰ أبيه؛ أي: يرعىٰ غنمه[3] ومعنىٰ: فإذا أرحتُ

---

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي»: ١٧/ ٥٥ كتاب الرقاق.
(٢) «صحيح مسلم»: (٢٧٤٣) الرقاق.
(٣) «الجامع الصحيح» مع «فتح الباري»: رقم (٣٤٦٥) ٦/ ٥٠٦ الأنبياء. حديث الغار.

عليهم؛ أي: إذا رددت الماشية من المرعىٰ إليهم، وإلىٰ موضع مبيتها ـ مأواها ـ وهو مُراحها ـ بضم الميم كما يقول صاحب «القاموس». تقول: أرحتُ الماشية وروّحتها بمعنىٰ[1].

(نأىٰ بي ذات يوم الشجر): هو بتقديم الهمزة علىٰ الألف (نأىٰ) وفي بعض النسخ (ناءَ) بتأخير الهمزة، وهما لغتان وقراءتان؛ أي: بَعُد من طلبِ المرعىٰ[2]: إذ النأيُ: البعد

(فجئت بالحلاب): الحِلاب بكسر الحاء: إناء يُحلب فيه تملؤه حلبة ناقة، وقد يراد بالحِلاب اللبن المحلوب، كما قيل: الخِراف لما يُخرف ـ أي: يُقطع ـ من النخل من فاكهة.

قوله: (يتضاغون) أي: يصيحون ويستغيثون من الجوع، والصوت هنا: هو الصياح والبكاء. ضغاء بضم الضاد والمد، وكما يقول صاحب «أساس البلاغة»: تقول: سمعتُ ضُغاء الأرنب والثعلب وضغا يضغو[3].

(لم يزل ذٰلك دأبي) أي: حالي اللازمة. و(الفرجة): بضم الفاء وفتحها: الخلوص من شدة.

وقولها: (إلا بحقه): أرادت بالحق الحلال؛ أي: لا أُحل لك أن تقربني إلا بتزويج صحيح[4].

أما (الفَرَق) في قوله: استأجرت أجيراً بفَرَق أرزٍّ: فهو بفتح الفاء، وفتح الراء وإسكانها والفتح أجود وأشهر ـ كما يقول الإمام النووي ـ: إناء يسع ثلاثة آصع[5].

(رغب عنه): كرهه وسخطه ـ أو وسخط عليه ـ وتركه.

وقال الإمام النووي في بيان معنىٰ (ولا أغبق قبلهما أهلاً ولا مالاً): (لا

---

(١) «اللسان»: مادة: (رعي).
(٢) «القاموس المحيط»: مادة: (روح).
(٣) وانظر: «صحيح مسلم» مع «إكمال إكمال المعلم» للعلامة الأبيّ: ٧/ ٩٢.
(٤) «أساس البلاغة» مادة: (ض غ و). (٥) «فتح الباري»: ٦/ ٥٠٥.

أغبُقُ بفتح الهمزة وضم الباء أي ما كنت أقدّم عليهما أحداً في شرب نصيبهما عشاء من اللبن، والغَبق شُرب العِشاء ـ أو العشي ـ والصَّبوح: شرب أول النهار. يقال منه: غبقتُ الرجل بفتح الباء أغبُقُه بضمها مع فتح الهمزة غبقاً فاغتبق؛ أي: سقيته عشاءً فشرب)[1].



(١) «صحيح مسلم بشرح النووي»: ١٧/٥٧.



أصحاب الغار
والتوسل بصالح العمل



هـٰذا حديث موصول بما قصّت علينا السنة المطهرة ـ فيما قصّت ـ علىٰ طريق الهداية والاعتبار ـ من أخبار الماضين، وأعني به نبأ النفر الثلاثة، الذين راحوا يتمشون إذ أصابهم المطر المدرار، فأووا إلىٰ غار في حضن جبل، طلباً للنجاة من الغرق المؤكد..

ولأمر يريده الله، انطبق عليهم هـٰذا الغار بسبب صخرة انحطّت علىٰ فمه من الجبل فسدَّته وأحدق بهم الخطر من جديد.

وهنالك توسّلوا ـ وقد لفّتهم الشدة الشادّة بظلامها ـ إلىٰ الله تعالىٰ كلٌ بعمل صالح عمله، إن كان ذٰلك العمل مقبولاً عنده سبحانه: أن يدركهم بعظيم فضله، ويفرّج عنهم ما هم فيه من عظيم الكرب، فاستجاب الله ـ وهو الرحيم الرحمٰن الذي يعطي السائل ويجيب المضطر إذا دعاه ـ وفرّج عنهم ما هم فيه، فإذا بهم يستنشقون عبير الحياة بعد الذي كانوا فيه من الخطر المدلهم. وما أجمل الفرج الإلـٰهي يأتي بعد نازلة شديدة أطبقت من هنا وهناك، لا خلاص منها إلا بفضل من الله وإحسان!!

وغني عن البيان: أن روح هـٰذه القصة: صلاح هـٰؤلاء الثلاثة، وصدق لجئهم إلىٰ الله متوسلين إليه ـ جل شأنه ـ بما يمكن أن يكون مقبولاً من صالح العمل عند كل واحد منهم: أن يصرف عنهم ما هم فيه من تلك النازلة التي حلّت بهم، وهم لا يستطيعون منها فكاكاً، ثم استجابته لهم.

وإذا كان الأمر كذٰلك، والرسول عليه الصلاة والسلام لا يقص علىٰ

الأمة من أنباء من سلفوا إلا لنعتبر بأعمالهم، فنعمل بحسنها ونتجنب قبيحها، فلا مندوحة عن التذكير مرة أخرىٰ بما لابتغاء الوسيلة إلىٰ الله تعالىٰ، تقرباً إليه، ورجاءه تنفيس ما يكون من كرب وتفريج ما يكون من هم وغم: من قدْر عظيم ذي علاقة وطيدة بحياة المسلم وعلاقته عاجلاً، وآجلاً بالمولىٰ ﷻ، وهو ما يبدو واضحاً عند أولـٰئك النفر الثلاثة في زمنهم السالف.

ها هو ذا القرآن الكريم: قد رتّب الفلاح علىٰ تقوىٰ الله في الظاهر والباطن، وابتغاء الوسيلة إليه بكل ما هو في مرضاته وقربة منه، وعلىٰ الجهاد في سبيله، والفلاحُ هو الفوز والنجاة والبقاء في الخير، ومن قول المؤذن (حيّ علىٰ الفلاح)؛ أي: هلمّوا إلىٰ طريق النجاة والفوز.

ذٰلكم قوله جلّ وعلا في سورة المائدة ـ كما أسلفنا من قبل ـ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَـٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [المائدة][1].

وإني مذكر هنا مرة أخرىٰ بما روىٰ شيخ المفسرين الطبري عن أبي وائل والحسن البصري من تفسير (الوسيلة) في هـٰذه الآية بالقربة في الأعمال وهو ما قاله مجاهد وعطاء وسفيان الثوري وغير واحد. ومن هـٰذا الباب قول قتادة: (ابتغوا إليه الوسيلة)؛ أي: تقربوا إليه بطاعته والعمل بما يرضيه.

وروىٰ الطبري بسنده عن ابن وهب قال: قال ابن زيد في قوله: (وابتغوا إليه الوسيلة) قال: المحبة، تحببوا إلىٰ الله، وقرأ ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [الإسراء:٥٧][2].

وغير خاف أن القرب منه ـ سبحانه ـ والحظوة لديه، والحب له إنما يكون بأداء فرائضه القلبية وهي التي من أعمال القلوب ولا يطلع عليها أحد إلا هو جل شأنه. والبدنية التي هي من أعمال الجوارح، وتلك التي هي مركبة منهما.

---

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي»: ١٧/ ٥٨.

(٢) انظر: «محاسن التأويل» للعلامة القاسمي: ٦/ ١٩٦٨ فما بعد.

وفي التقرب إليه بالنوافل بغية الوصول إلىٰ محبته، خير كثير وفير، ذٰلكم ما جاء في الحديث القدسي الذي رواه الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله قال: من عادىٰ لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرّب إليّ عبدي بشيء أحبَّ إليَّ مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتىٰ أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، وفؤاده الذي يعقل به، ولسانه الذي يتكلم به..**» الحديث[1].

وقد يشكل علىٰ البعض ترتيب المحبة من الله تعالىٰ علىٰ التقرب بالنوافل كما هو ظاهر النص لا علىٰ القيام بالفرائض، ويجاب عن هٰذا الإشكال بأن النوافل إنما يزكو ثوابها عند الله لمن حافظ علىٰ فرائضه وأداها علىٰ الوجه الأكمل[2] فكأن الله تعالىٰ يقول: وما يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل مع قيامه بالفرائض علىٰ الوجه الذي ينبغي. ويؤيده ـ كما يقول الحافظ ـ ما جاء في رواية أبي أمامة: «**ابن آدم، إنك لن تدرك ما عندي إلا بأداء ما افترضت عليك**» وقال الفاكهاني: معنىٰ الحديث: أنه إذا أدىٰ الفرائض، ودام علىٰ إتيان النوافل من صلاة وصيام وغيرهما: أفضىٰ به ذٰلك إلىٰ محبة الله تعالىٰ[3] وجميل ما قال ابن هبيرة: (يؤخذ من قوله: «**وما تقرب**»: أن النافلة لا تقدم علىٰ الفريضة؛ لأن النافلة سميت نافلة؛ لأنها تأتي زائدة علىٰ الفريضة، فما لم تؤدّ الفريضة، لا تحصل النافلة، ومن أدّىٰ الفرض ثم زاد عليه النفل، وأدام ذٰلك، تحققت منه إرادة التقرب)[4].

قال صاحب «الفتح»: (وأيضاً فإن من جملة ما شرعت له النوافل، جبرُ الفرائض كما صح في الحديث الذي أخرجه مسلم: «انظروا هل لعبدي من تطوّع، فتُكتمل به فريضته»؟ الحديث بمعناه، فتبين أن المراد من التقرب بالنوافل: أن تقع ممن أدىٰ الفرائض لا ممن أخلّ بها، كما قال بعض

---

(١) انظر: «جامع البيان» للطبري: ١٠/ ٢٩١.

(٢) «صحيح البخاري» مع «الفتح»: رقم (٦٥٠٢) الرقاق، «المسند»: ٦/ ٢٥٦.

(٣) انظر: «شرح البخاري» لابن بطال: ١٠/ ٢١٢.

الأكابر: (من شغله الفرض عن النفل فهو معذور، ومن شغله النفل عن الفرض فهو مغرور)[1].

وفي عود علىٰ بدء، ما بد بعد أن وقفتنا آية المائدة التي نحن بصددها وهي قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾﴾ علىٰ عظم ما صنع النفر الثلاثة المقصودون بالذكر في لجوئهم إلىٰ الله الذي بيده ملكوت السماوات والأرض، متوسلين إليه ـ كلٌّ علىٰ حدة ـ بصالح عمله المقبول عنده سبحانه.. ما بد من التنبيه إلىٰ أن الله تبارك وتعالىٰ قد خصّ من العبادات المبتغىٰ أن تكون وسيلة للتقرب إليه: الجهاد في سبيله، وهو ـ كما يقول العلامة السعدي ـ بذل الجهد في قتال أعداء الله، بالمال، والنفس، والرأي، واللسان، والسعي في نصر دين الله بكل ما يقدر عليه العبد؛ لأن هٰذا النوع من أجل الطاعات وأفضل القربات، ولأن من قام به فهو علىٰ القيام بغيره: أحرىٰ وأولىٰ[2].

وما أبلغ دلالة قوله تعالىٰ في ختام الآية: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ علىٰ عظيم عدله وفضله إذ جعل الفلاح الذي هو الفوز المبين، والنجاة في العاجلة والآجلة، والبقاء في الخير، ثمرة تقواه سبحانه، وابتغاء الوسيلة إليه بالعمل الصالح والجهاد في سبيله الذي هو من أعظم القربات.

وإلىٰ لقاء قادم إن شاء الله، نستجلي من خلاله، ولو بعضاً من وقفات علمائنا عند أبعاد القصة بأركانها: النفر الثلاثة، وروحها التي تمثل موقفهم في مواجهة المصاب الجلل الذي غشيهم بانسداد فم الغار بالصخرة التي انحطت عليه، حيث لم يكن منهم إلا التوسل إلىٰ الله بصالح العمل، وأثمر ذٰلك بنجاتهم.

وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ الرحمة المهداة سيدنا محمد بن عبد الله وعلىٰ آله وصحابته ومن سعد باتباع هديه إلىٰ يوم اللقاء.

---

(١) «فتح الباري»: ١١/ ٣٤٢ الرقاق. (٢) «فتح الباري»: ١١/ ٣٤٣ الرقاق.



أصحاب الغار والتوسل بصالح العمل

(٣)

كانت لنا في كلمات قريبات رحلة عجلىٰ سعدنا معها باصطحاب قوله تعالىٰ في سورة المائدة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَـٰهِدُواْ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [المائدة] وقد قادنا إلىٰ ذٰلك موقف بينه وبين هٰذا الأمر بابتغاء الوسيلة إليه سبحانه بصالح العمل ـ علىٰ تباعد الزمان ـ نسب صحيح، ألا وهو موقف النفر الثلاثة ممن كانوا قبلنا، الذين أخذهم المطر ـ كما جاء في السنة المطهرة ـ فأووا إلىٰ غار في حضن جبل، فانحطت علىٰ فم غارهم صخرة من ذاك الجبل، فانطبقت عليهم، فلا فرجة يرون منها السماء، ولا حيلة في النجاة من هٰذا الخطر المحدق الذي ضرب عليهم بالأسداد.

لقد كان موقفاً مزداناً بنور الهداية والتوفيق، مسدداً بصدق العبودية وخالص التوحيد، ذٰلك بأنهم ما لبثوا ـ وقد عظم الكرب وجلّ الخطب ـ أن وحدوا الوجهة إلىٰ الله الذي يجيب المضطر إذا دعاه، وأجمعوا أمرهم علىٰ أن يدعوه متوسلين كل بما له من عمل صالح، أن ينفّس كربهم، ويذهب عنهم ما هم فيه من الغم والهم، وما أجمعوا عليه همّوا به وفعلوه.

وكان صدقهم في التضرع إليه سبحانه، وطرق بابه بذاك التوسل، بريد إجابة الدعاء والتفضل بالإحسان، فإذا الفرج يزيل غشاوة الشدة، وإذا النور لا يبقي علىٰ شيء من الظلام.

والحق أن ذٰلك كله لا بد مذكّر بما أخبر الله جل ثناؤه عن ملائكته وأنبيائه عليهم السلام والصالحين من عباده: أنهم يبتغون إليه الوسيلة أيهم أقرب، أجل

يتنافسون التنافس الميمون في القرب من ربهم، ويبذلون ما يستطيعون من الأعمال الصالحة التي تقربهم إليه زلفىٰ، وفي الوقت نفسه تراهم يرجون رحمته ويخافون عذابه، فهم علىٰ صحو دائم في الحالات كافة.

ذٰلكم قول الله تباركت أسماؤه في سورة (الإسراء) ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ۝٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ۝٥٧﴾.

وهٰذه الأمور مجتمعة: المحبة التي يثمرها التقرب إليه بصالح العمل المكلل بالقبول، والخوف والرجاء هي الأصل والمادة في كل خير، خصوصاً أن العبادة ـ كما يقول الحافظ ابن كثير ـ لا تتم إلا بالخوف والرجاء، فبالخوف يحصل الانكفاف عن المناهي، وبالرجاء يحصل الانبعاث إلىٰ الطاعات[1].

وما نزال مع ابتغاء الوسيلة إلىٰ الله والصدق في التقرب إليه: فعلامة المحبة ـ كما دلت النصوص مما ذكر في كتابه ـ كالذي نرىٰ هنا ـ أو جاء علىٰ لسان النبي عليه الصلاة والسلام، أو ثبت في حديث قدسي: أن يجتهد العبد في كل ميدان يقربه إلىٰ الله ـ حسب الثغر الذي أقامه الله عليه ـ وينافس في قربه بإخلاص الأعمال كلها لله، والنصح فيها، وإيقاعها علىٰ أكمل الوجوه المقدور عليها وفق الهدي المحمدي، فمن زعم أنه يحب الله أو يرجو محبته بغير ذٰلك، فهو مدّعٍ لا بينة تقوم علىٰ دعواه[2].

والدعاوىٰ إن لم يقيموا عليها بينات أصحابها أدعياء

فالمحور إسلامية الوسيلة المبتغاة إلىٰ الله والصدق في رجاء محبته، وجمع الخوف لله، وذٰلك ما أمر به سبحانه وأخبر عنه ملائكته وأنبياءه والصالحين من عباده، أنهم يفعلونه.

ولأمر يريده الله ومع تباعد الزمن، جاء تصرف أولٰئك النفر الثلاثة

---

(١) «فتح الباري»: ١١/ ٣٢٣ الرقاق. (٢) انظر: «تيسير الكريم المنان».
(٣) «تفسير القرآن العظيم»: ٥/ ٢١٠٣.

أصحاب الغار الذين حول قصتهم ندندن، وفق هـٰذا الهدي من التوسل بصالح العمل رجاء القرب من الله والتفضل بتفريج الكرب.

ها هم أولاء ـ وقد أحاطت بهم الشدة العظيمة ـ انطباق الصخرة، يقول بعضهم لبعض: «**انظروا أعمالاً عملتموها صالحة لله فادعوا الله تعالىٰ بها لعل الله يفرجها عنكم**» وفي رواية: «**إنه لا ينجيكم، إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم**» وهـٰذا ما دعا الإمام النووي أن يعقد للقصة باباً في كتابه «الأذكار» عنوانه: (باب دعاء الإنسان وتوسله بصالح عمله إلىٰ الله تعالىٰ)(١).

وعملاً بما هداهم الله إليه قال أولهم ـ كما في رواية للبخاري ـ: «**اللهم! إن كنت تعلم أنه كان لي أجير يحمل لي علىٰ فَرَق من أرز**»، فذهب وتركه، ثم قصّ قصة زرعه لفرق الأرز واستثماره شيئاً فشيئاً وشراء بقر بمحاصيله، ثم إعادة ذٰلك إلىٰ الأجير وقال: **فإن كنت تعلم أني فعلت ذٰلك من خشيتك ففرّج عنا، فانساخت ـ أو فانساحت ـ عنهم الصخرة**» أي: انشقت، يعني بعض الشيء كما في باقي الروايات.

ولـٰكن هل من إشكال في هـٰذه المناجاة؟ قال الحافظ في «الفتح»: قوله: («اللهم! إن كنت تعلم» فيه إشكال؛ لأن المؤمن يعلم قطعاً أن الله يعلم ذٰلك، وأجيب بأنه تردد في عمله ذٰلك هل له اعتبار عند الله أم لا؟ وكأنه قال: إن كان عملي ذٰلك مقبولاً فأجب دعائي، وبهـٰذا التقرير يظهر أن قوله: «اللهم» علىٰ بابها في النداء)، وهـٰذا ينطبق علىٰ ما قاله الآخران.

ونعود إلىٰ الثاني لنراه يقول: «**اللهم! إنه كان لي أبوان شيخان كبيران**» وفي رواية: «**أبوان ضعيفان فقيران ليس لهما خادم ولا راع ولا ولد غيري، وكنت أرعىٰ لهما بالنهار وآوي إليهما بالليل**» ثم فصَّلَ القول تفصيلاً يدل علىٰ عظيم اهتمامه بهما، وحرصه علىٰ إسقائهما من لبن غنم له، وتقديمهما بذٰلك علىٰ أولاده ولو كانوا جائعين، وأيّد ذٰلك بواقعة مؤثرة حقاً، حيث جاء مرة وكانا نائمين فظل ينتظرهما وأولاده يتضاغون من الجوع حتىٰ طلع الفجر..

---

(١) انظر: «تيسير الكريم المنان» للشيخ عبد الرحمٰن السعدي: ٤/٢٩١ ـ ٢٩٢.

إلىٰ أن قال: «**فإن كنت تعلم أني فعلت ذٰلك من خشيتك ففرّج عنّا، فانساخت ـ أو فانساحت ـ عنهم الصخرة حتىٰ نظروا إلىٰ السماء**»[1].

والظاهر أن الواقعة مرتبطة بسبب لم يكن بملكه دفعه دل علىٰ ذٰلك قوله ـ كما عند مسلم ـ: «**وأنه نأىٰ بي ذات يوم الشجر**» والمراد: أنه استطرد مع غنمه في الرعي إلىٰ أن بعد مكانه زيادة علىٰ العادة، لذٰلك أبطأ، وفي رواية أخرىٰ: «فإن الكلأ تناءىٰ عليَ» أي تباعد، والكلأ هنا: المرعىٰ[2].

أما الأخير ـ وهو الثاني عند مسلم ـ فدعا بقوله: «**اللهم! إنه كانت لي ابنة عم، أحببتها كأشد ما يحب الرجال النساء، وطلبت إليها نفسها، فأبت حتىٰ أتيتها بمائة دينار. .**» إلىٰ أن قال: «**فلما جلست منها مجلس الرجل من المرأة قالت: اتق الله ولا تفضّ الخاتم إلا بحقه، فقمت وتركت المائة دينار، اللهم! إن كنت تعلم أني فعلت ذٰلك ابتغاء وجهك ـ أو من خشيتك ـ فافرج عنا، ففرّج الله عنهم فخرجوا**»[3].

هٰذا وقد تعددت روايات ما كان من قوة المرأة في دعمها ومدىٰ تأثره بما كانت تقول، حيث تحركت الكوامن الإيمانية له وحلت محلها في استشعار خشية الله وأنه يعلم السر وأخفىٰ، فبجانب ما أثبتنا من رواية البخاري: «**اتق الله ولا تفضّ الخاتم إلا بحقه**»؛ أي: لا أحل لك أن تقربني إلا بتزويج صحيح، نقع علىٰ رواية أخرىٰ تقول فيها: «**أذكّرك الله أن تركب مني ما حرّم الله عليك، قال: فقلت أنا أحق أن أخاف ربي**»، وفي رواية أنه قال لها ـ وقد بدا عليها شيء من الاضطراب والرِّعْدة ـ: «**ما لك؟ قالت: أخاف الله رب العالمين، قال: فقلت: تخافينه في الشدة، ولا أخافه في الرخاء، فتركتها. .**». ووقع في حديث ابن أبي أوفىٰ: «**فلما جلست منها مجلس الرجل**

---

(١) «الأذكار» للنووي: ٧/ ٢٥٣.

(٢) انظر: «الجامع الصحيح» مع «فتح الباري»: رقم (٣١٦٥)، أحاديث الأنبياء: ٦/ ٥٠٨.

(٣) انظر: «صحيح مسلم بشرح النووي»: ١٧/ ٥٥ ـ ٥٦، «فتح الباري»: ٦/ ٥٠٨.

(٤) «الجامع الصحيح» مع «فتح الباري»: ٦/ ٥٠٩ رقاق، «صحيح مسلم بشرح

من المرأة ذكرت النار فقمت عنها» أرأيت!! ذكرت النار فقمت عنها، ذٰلكم هو السلاح الأمضىٰ في مواجهة حبائل الشيطان وتزيينات النفس والهوىٰ، ﴿إِنَّ فِي ذَالِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النازعات].





أصحاب الغار والتوسل بصالح الأعمال

(٤)

ما ازداد المؤمن صلة بهدي النبي ﷺ، فهماً ووعياً وحرصاً علىٰ أخذ النفس بالاتباع: إلا ازداد اقتناعاً بأن هـٰذا الهدي موصول بالسماء، وأنه علىٰ السنن القويم الذي يحقق للأمة ـ أن لو استمسكت به ـ ما فيه العز والتمكين في الدنيا وحسن العاقبة يوم الدين.

وقد تنوعت المسالك عند الرسول صلوات الله وسلامه عليه في هدايته الناس إلىٰ الصراط المستقيم، وتعليمهم وتربيتهم علىٰ الأخذ بأحكام الإسلام وآدابه وأخلاقه، وكان من ذٰلك: ما كان يعمد إليه من الإخبار عن شيء من قصص من كانوا قبلنا من الغابرين، حرصاً منه ﷺ علىٰ الانتفاع بالعظة والاعتبار؛ فما كان خيراً عمل به، وما كان غير ذٰلك اجتنب، وحيل بين المسلم وبين أسبابه ودواعيه.

وهـٰذا من حكمته صلىٰ الله وسلم وبارك عليه في سلوك نهج اعتمده القرآن الكريم الذي اؤتمن هو علىٰ بيانه ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

ولئن كان هـٰذا اللون من القصص يتميز بأنه من الواقع وإليه في زمن أولـٰئك الغابرين:

إن ما حصل من القصص في عصره ﷺ، علىٰ ساحة الدعوة وكل ما يتعلق بها: بدءاً من إكرام البشرية بخطابه بالوحي، وحتىٰ التحق بالرفيق الأعلىٰ: منبع ثرّ من الخير الوفير، ومورد عذب زلال من العطاء علىٰ طريق الفرد والجماعة والأمة.

والقصة لها موقعها من النفس، وقدرتها علىٰ التأثير، وترىٰ العقل السليم يتطلع فيها إلىٰ ربط الجزئيات بالكليات، والنتائج بالمقدمات: الأمر الذي ينير السبيل لفقه الحوادث وعطائها.

وبالحس الإيماني في القلب: تتلمَّس العبرة بالوقائع التي هي بما فيها نسيج القصة في ضوء المحور الذي تقوم عليه، وروحها التي تشيع في تلك الوقائع والتصرفات، من قبل الأشخاص المعنيين.

وبذٰلك يمثل القصص في السنة النبوية روافد عملية قامت في دنيا الواقع: تزيد الإيمان بالقيم التي تنتمي إلىٰ هٰذه السنة، أو تلتقي معها عليها، وتسعف في حمل المكلّف علىٰ العمل بما علم من ذٰلك، وتنمية حوافزه للتطبيق.

وبذٰلك تسلك سبيل الهداية طريقها إلىٰ القلب والعقل من بابين: باب العقيدة والتفكر، ثم باب الأنموذج العملي الواقعي صورة عن تحويل المفهومات إلىٰ حركة ناطقة بالحقيقة، وإنجازٍ.

وكم يعمل ذٰلك عمله في الشد علىٰ يد المجتهد، وإيقاظ الغافل، والمسارعة إلىٰ طاعة الرسول ﷺ التي هي من طاعة الله.

وددت أن تكون هٰذه المقولة تذكيراً لنفسي وإخواني وأنا بسبيل خطوة أخرىٰ مع فهوم علمائنا يرحمهم الله وتعقيباتهم علىٰ قصة الغار والثلاثة، علماً بأن مما يستوقف المرء في الحكمة الإلٰهية بما حصل: أن انفراج الصخرة كاملاً كان ثمرة الأدعية مجتمعة مرحلة بعد مرحلة علىٰ تفاضل بين الداعين، وأن الله تبارك وتعالىٰ جزاهم بما عمل كل واحد منهم من ذٰلك العمل الصالح مخلصاً فيه: أن استجاب دعاءهم وكشف عنهم غمة النازلة التي نزلت بهم؛ دليل ما أثمر اجتماع قلوبهم النقية الصافية من الإسهام في تفريج الكرب بما شاء الله. ولعل من الإنصاف للحقيقة: أن نشير إلىٰ أن ما كشفت عنه القصة من صلاح أولٰئك النفر الثلاثة وإخلاصهم: يدل ـ فيما يدل أيضاً ـ علىٰ أن في المجتمع الذي كانوا هم من أبنائه مناخاً علمياً وتربوياً، يساعد ـ مع التربة الصالحة فيهم ـ علىٰ وجود هٰذه النبتات العظيمة التي تكون ـ حقاً ـ مع الله

في السراء والضراء؛ فأنت ترىٰ الأمانة كل الأمانة في أداء الحقوق عند الأول، وترىٰ الصدق في بر الوالدين عند الثاني، وكم كانت خشية الله ومراقبته علىٰ أكرم صورة وأفضلها عند الثالث وأكرم بهٰذا السلوك النيّر سلوكاً يؤذن بالخير في حياة الفرد والمجتمع علىٰ حد سواء، ناهيك عما يعقبه من مرضاة الله تعالىٰ.

وهٰذا يقودنا إلىٰ نثارات مضيئة مما ذهب إليه علماؤنا فقهاً لحديث هٰذه القصة: فالترجمة التي وضعت لهٰذا الحديث في «صحيح مسلم»: (باب قصة أصحاب الغار الثلاثة والتوسل بصالح الأعمال)[1] إلا ما كان من أبي العباس القرطبي فقد عنون له في كتابه «تلخيص صحيح مسلم» بقوله: (باب الدعاء بصالح ما عمل من أعمال)[2] لذا قال القاضي عياض: (فيه جواز التقرب إلىٰ الله تعالىٰ بما علم العبد أنه أخلصه من عمل صالح، ومناجاته تعالىٰ بذٰلك)[3].

وقد استنبط بعض الفقهاء ومنهم القاضي حسين من الشافعية استحباب ذكر ذٰلك في الاستسقاء واستشكله المحب الطبري، لما فيه من حظ النفس في رؤية العمل، والتذلل باحتقار العمل عند السؤال في الاستسقاء: أولىٰ لأنه مقام التضرع، وأجاب عن قصة أصحاب الغار بأنهم لم يستشفعوا بأعمالهم، وإنما سألوا الله إن كانت أعمالهم خالصة وقبلت: أن يجعل جزاءها الفرج عنهم، قال الحافظ: (فتضمن جوابه تسليم السؤال ولٰكن بهٰذا القيد، وهو حسن)[4].

والحق أن ثناء النبي ﷺ علىٰ هٰؤلاء الثلاثة دالّ أوضح الدلالة علىٰ تصويب فعلهم. قال النووي في كتاب «الأذكار»: باب دعاء الإنسان وتوسله

النووي»: ١٧/ ٥٧.

(١) انظر: «إكمال المعلم بفوائد مسلم» للقاضي عياض اليحصبي: ٨/ ٢٣٦ الذكر والدعاء، «صحيح مسلم بشرح النووي»: ١٧/ ٥٥.

(٢) «المفهم لما أشكل من تلخيص مسلم»: ٧/ ٦٤.

(٣) «إكمال المعلم»: ٨/ ٢٣٦.

بصالح عمله إلىٰ الله، ثم ذكر حديث قصتهم، وبعد أن أشار إلىٰ استحباب بعض الفقهاء ذكر ذٰلك في الاستسقاء قال: (وقد يقال: إن فيه نوعاً من ترك الافتقار المطلق إلىٰ الله تعالىٰ ومطلوب الدعاء: الافتقار، ولٰكن النبي ﷺ أثنىٰ عليهم بفعلهم، فدل ذٰلك علىٰ تصويبه ﷺ لفعلهم)[1].

وبعد أن تبين رَحِمَهُ اللهُ في «شرحه لصحيح مسلم» ما يستنبط من القصة من فضيلة دعاء الإنسان وتوسله بالعمل الصالح، قال: (لأن هٰؤلاء فعلوه فاستجيب لهم وذكره النبي ﷺ في معرض الثناء عليهم وجميل فضائلهم)[2].

هٰذا ولم يدع شراح الحديث جزاهم الله خير الجزاء: أن يكشفوا عما تدل عليه القصة من فضائل اتخذ النبي ﷺ من ذكرها رافداً عملياً علىٰ طريق الهداية إلىٰ الخير، كيما يعتبر السامعون بما حصل ويتعظوا!

فإلىٰ جانب الإشارة إلىٰ ما فيها من استحباب الدعاء في الغمة والكرب، والتقرب إلىٰ الله تعالىٰ بذكر العمل الصالح المبتغىٰ به وجهه الكريم ـ كما سبق ـ: ذكروا ما يدل عليه من فضل الإخلاص في العمل، وفضل بر الوالدين، وخدمتهما وإيثارهما علىٰ الولد والأهل وتحمل المشقة لأجلهما، ناهيك عما يشرق به من فضل العفة والانكفاف عن المحرمات ولا سيما بعد القدرة عليه والهمّ بها، وأن ترك المعصية يمحو مقدمات طلبها، وأن التوبة تجب ما قبلها، أضف إلىٰ ذٰلك أمراً علىٰ غاية من الأهمية علىٰ ساحة الهداية: وهو الإخبار عما جرىٰ للأمم الماضية ليعتبر السامعون والقارئون بأفعالهم، فيعملَ بحسنها ويتركَ قبيحها[3].

وَبَعد، فالثلاثة كلهم صالحون أفاضل، ولٰكن من هو الأفضل؟ ذهب صاحب «الفتح» إلىٰ أن صاحب الأجير نفعه متعد، وأفاد بأنه كان عظيم الأمانة، وصاحب الأبوين: فضيلته مقصورة علىٰ نفسه، إذ كان أشد ما يكون

---

(١) وانظر: «فتح الباري»: ٦/ ٥٠٩ ـ ٥١٠.

(٢) «الأذكار» للنووي: ٣/ ٢٥٦، «الفتح»: ٦/ ٥١٠.

(٣) «صحيح مسلم بشرح النووي»: ١٧/ ٥٦.

براً بأبويه، وصاحب الواقعة مع المرأة أفضلهم؛ لأنه أفاد أن في قلبه خشية ربه، وقد شهد الله لمن كان كذٰلك بأن له الجنة حيث قال: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات] وقد أضاف هٰذا الرجل إلىٰ ذٰلك ترك الذهب الذي أعطاه للمرأة فأضاف إلىٰ النفع القاصر النفع المتعدي، ولا سيما وقد قال: إنها كانت ابنة عمه، فتكون فيها صلة رحم أيضاً[1]. والله أعلم.

اللهم انفعنا بهدي نبيك المصطفىٰ عليه الصلاة والسلام أنت ولي ذٰلك والقادر عليه.



(١) «الفتح»: ٦/ ٥١٠.

العمل لا المسألة

(١)

من خصائص الهدي النبوي الكريم: أن الرسول عليه الصلاة والسلام: كان وهو يرسي قواعد الدولة، في بناء للمجتمع المسلم وإعداد لإنسانه المتميز بإيمانه وقدرته علىٰ العطاء: لا يني يجمع إلىٰ الأسلوب النظري وهو يخاطب العقل والقلب القائم علىٰ الكلمة ـ وهي الأصل ـ والموعظة والخطبة والوصية وما إلىٰ ذٰلك: الأسلوب العملي القائم علىٰ الحركة الفاعلة ومعاونة جند الحق الذين معه علىٰ التطبيق الفعلي بالتجربة والممارسة، وكثيراً ما يبدأ ذٰلك بنفسه عليه الصلاة والسلام.

والحكمة كل الحكمة حاصلة بهٰذا الجمع بين الأسلوبين ووضع كل في موضعه المناسب علىٰ طريق الهداية والبناء، بحيث يتحقق إنجاز ما يراد إنجازه وفق سنن الله في ربط النتائج بالمقدمات والمسببات بالأسباب، علىٰ تنوع الأهداف القريبة والبعيدة، بحسب ما يمليه التخطيط المرحلي، وما يكون من اختلاف الأشخاص والوقائع ومناسباتها في الزمان والمكان، كل هٰذا مع اليقين بحقيقة أن الله جل شأنه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

وفي القصص وغيره من السنة النبوية المطهرة، نماذج كثيرة وفيرة لهٰذا الذي نقول، وإن كانت دواعي وجوده في القصة أكثر من غيرها.

وهاكم ما رواه أصحاب السنن وأحمد والبيهقي والضياء في «المختارة» وغيرهم عن أنس بن مالك ﷺ: أن رجلاً من الأنصار أتىٰ النبي ﷺ يسأله ـ أي: الصدقة ـ فقال: «**أما في بيتك شيء؟**» قال: بلىٰ، حلس نلبس بعضه ونبسط بعضه، وقعب نشرب فيه من الماء. قال: «**أئتني بهما**» قال: فأتاه بهما

ـ وفي رواية: (فأتاه بحلس وقدح) ـ، فأخذهما رسول الله ﷺ بيده وقال: «**من يشتري هـٰذين؟**» قال رجل: أنا آخذهما بدرهمين. فأعطاهما إياه، وأخذ الدرهمين وأعطاهما الأنصاري، وقال: «**اشتر بأحدهما طعاماً فانبذه إلىٰ أهلك، واشتر بالآخر قدوماً فأتني بها**» فأتاه بها، فشد فيها رسول الله ﷺ عوداً بيده، ثم قال: «**اذهب فاحتطب وبع، ولا أرينك خمسة عشر يوماً**» فذهب الرجل يحتطب ويبيع، فجاء وقد أصاب عشرة دراهم، فاشترىٰ ببعضها ثوباً وببعضها طعاماً، فقال النبي ﷺ: «**هـٰذا خير لك من أن تجيء المسألة نكتة في وجهك يوم القيامة، إن المسألة لا تصلح إلا لثلاثة: لذي فقر مدقع، أو لذي غُرم مفظع، أو لذي دم موجع**»[١].

(الحِلس والحَلَس): مثل شِبه وشَبَه: كساء يلي ظهر البعير يفرش تحت القتَب، والقتب للبعير: كالإكاف لغيره وهو البرذعة. قال ابن الأثير في «النهاية»: (في حديث الفتن (عدّ منها فتنة الأحلاس) جمع حلس وهو الكساء الذي يلي ظهر البعير تحت القتب، شبهها به للزومها ودوامها)[٢] ويطلق الحلس ويراد به البساط أيضاً.

أما (القعب): فهو ـ كما جاء في اللسان ـ: القدح الغليظ الجافي وهو يُروي الرجل. وذهب الجوهري في «الصحيح» إلىٰ أنه قدح من خشب مقعر. والجمع: قعبة، مثل جَبْءٍ وجبأة. والجبء: الكمأة الحمراء.

وفي «القاموس» و«شرحه»: (القدوم) كصبور: آلة للنجر والنحت مؤنثة، جمع قدائم وقُدُم، وقد تشدّد الدال فيقال: قدّوم. وفسرها بعضهم بالفأس.

وذهب صاحب «مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح» إلىٰ أن (من) في قوله: «وقعب نشرب فيه من الماء» تبعيضية، أو زائدة علىٰ مذهب الأخفش[٣]؛ أي: نشرب فيه الماء.

---

(١) «الفتح»: ٦/ ٥١١.

(٢) «سنن أبي داود»: ٢/ ١٩٣ (١٦٤١) الزكاة، «معالم السنن» للخطابي: ٢/ ٦٨ ـ ٦٩.

(٣) «النهاية في غريب الحديث والأثر». وانظر: «لسان العرب» مادة: (حلس).

وقوله ﷺ: «فانبذه إلىٰ أهلك»؛ أي: اطرحه إلىٰ أهلك؛ أي: ممن يلزمك مؤونته.

ومعنىٰ (فأتاه بها فشد فيها رسول الله ﷺ عوداً بيده)؛ أي: ممسكاً بيده الكريمة فالمراد ـ كما هو ظاهر ـ أنه عليه الصلاة والسلام أحكم في القدوم مقبضاً من العود والخشب ليمسك به القدوم؛ لان القدوم بغير المقبض لا يستطيع الرجل بها قطع الحطب وغيره بلا كلفة، فلذٰلك فعله ﷺ. وهٰكذا يضع ـ بنور النبوة ـ كل أمر موضعه وكأنه تخصصه الذي لا همّ له غيره[1].

وقوله صلوات الله وسلامه عليه للرجل: «اذهب فاحتطب وبع ولا أرينك خمسة عشر يوماً»؛ أي: اطلب الحطب واجمع، ولا تكن هنا هٰذه المدة حتىٰ لا أراك. (وهٰذا ما يقوله العلامة القاري في «المرقاة» ـ مما أقيم فيه السبب مقام المسبَّب، والمراد نهي الرجل عن ترك الاكتساب في هٰذه المدة ـ وهي خمسة عشر يوماً ـ لا نهي نفسه ﷺ عن الرؤية)[2]. وقد نقل السيوطي عن سيبويه قوله: (من كلامهم لا أرينك هٰهنا، والإنسان لا ينهىٰ نفسه، وإنما المعنىٰ: لا تكوننَّ هٰهنا، فإن من كان هنا رأيته، ونظيره قوله تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران] فإن ظاهره النهي عن الموت، والمعنىٰ علىٰ خلافه؛ لأنهم لا يملكون الموت فينتهون عنه، وإنما المعنىٰ: لا تكونن علىٰ حال سوىٰ الإسلام حتىٰ يأتيكم الموت)[3]؛ يعني: وأنتم علىٰ ذٰلك.

وقوله ﷺ: «هٰذا خير لك من أن تجيء المسألة نكتة في وجهك يوم القيامة» النكتة في الأصل: النقطة أو الأثر القليل كالنقطة أو العلامة: جاء في «أساس البلاغة»: (وفي العين نكتة: بياض أو حمرة. وكل نقطة من بياض في

---

(١) «عون المعبود» لشمس الحق العظيم أبادي: ٢/ ٤١.

(٢) وانظر: «مرقاة المفاتيح» لعلي بن سلطان القاري: ٤/ ١٨١، «عون المعبود»: ٢/ ٤١.

(٣) انظر: «مرقاة المفاتيح»: ٤/ ١٨١، «عون المعبود»: ٢/ ٤١، «شرح الطيبي علىٰ المشكاة»: ٥/ ١٥١٨ (١٨٥١).

(٤) «عون المعبود»: ٢/ ٤١. وانظر: «الفتوحات الإلٰهية علىٰ تفسير الجلالين» للعلامة

سواد أو سواد في بياض: نكتة). وفي «الصحاح»: والنكتة كالنقطة. ورُطَبة منكَّتة إذا بدا فيها الإرطاب: فالمعنىٰ: هٰذا خير لك من أن تجيء المسألة ـ وقد حصلت بغير سبب شرعي ـ حال كونها علامة قبيحة، أو أثراً من العيب في وجهك علىٰ رؤوس الأشهاد يوم القيامة.

وفي شأن ما ختمت به القصة في شأن من ذكره ﷺ مَنْ لا تحل المسألة إلا لهم: قال الإمام الخطابي في «معالم السنن»: (وقوله: (فقر مدقع): فهو الفقر الشديد، وأصله من الدقعاء علىٰ وزن حمراء وهي التراب. ومعناه الفقر الذي يفضي به إلىٰ التراب، لا يكون عنده ما يقي به التراب. و(الغرم المفظع): هو أن تلزمه الديون الفظيعة الفادحة حتىٰ يُنقَطَع به، فتحل له الصدقة، فيعطىٰ له سهم الغارمين. و(الدم الموجع): أن يتحمّل حَمالة في حقن الدماء وإصلاح ذات البين، فتحل المسألة فيها وقد فسرناه فيما مضىٰ) يشير بذٰلك إلىٰ ما سلف من قبل في قصة قبيصة بن مخارق رضي الله عنه.



العمل لا المسألة

٢

هٰذا أوان العودة إلىٰ ما قص علينا أنس بن مالك ﷺ عن الذي جاء إلىٰ الرسول عليه الصلاة والسلام يسأله ـ يعني الصدقة ـ وكان منه صلوات الله وسلامه عليه ـ وهو لا ينطق عن الهوىٰ ـ: أن نقل بحكمته ذٰلك الرجل من حضيض المسألة بلا سبب حقيقي إلىٰ ذروة الكرامة بالكسب المشروع بذات يده، وفي هٰذا الجو المفعم بالرضا وانشراح الصدر لما حصل: بيّن له النبي ﷺ أن ذٰلك خير له من أن يأتي يوم القيامة والمسألة نكتة في وجهه تكون علىٰ رؤوس الأشهاد علامة علىٰ ما صرفه عنه من ذل السؤال، واتبع هٰذا بذكر من تحل لهم المسألة، ولا يكون بها غضاضة عليهم.

والحق أن النبي ﷺ ـ وقد أوتي جوامع الكلم وبالغ الحكمة في الأسلوب ـ قد صرف صاحبنا بلسان الحال عن المسألة حين سأله قائلاً: أما في بيتك شيء.. أجل صرفه عن ذٰلك وأعده نفسياً لقبول ما سيكون منه عليه الصلاة والسلام.

وأخذ صلوات الله وسلامه عليه يعالج المشكلة بالأسلوب العملي المستوفي مقومات الفاعلية والتأثير. ها هو ذا ـ فداه أبي وأمي ـ يقوم بدور البائع في بيع المزايدة، نعم يقوم بذٰلك، فيأخذ الحلس والقعب اللذين أتىٰ بهما الرجل ويقول: «**من يشتري هذين؟**» فيقول رجل: أنا آخذهما بدرهم، فيقول عليه الصلاة والسلام: «**من يزيد علىٰ درهم؟**» مرتين أو ثلاثاً، فيقول رجل: أنا آخذهما بدرهمين. وكان هٰذا ثمن المثل في نظره ﷺ، فأعطاهما إياه، وأخذ الدرهمين وأعطاهما الأنصاري.

ولٰكن هل وقف الأمر عند هـٰذا الحد؟ لا. لقد كان الناصح الأمين صلوات الله وسلامه عليه ـ وهو ولي الأمر والمسؤول الأول في دنيا المسلمين ـ حريصاً الحرص كله علىٰ استكمال رحلة التوجيه والمعاونة علىٰ النقلة النفسية والعملية عند صاحبنا إلىٰ ما هو الأفضل والأكرم مما جاء في طلبه أول الامر؛ وتحقيق ما فيه الخير له وللمجتمع المسلم الوليد.

ها إنه عليه الصلاة والسلام يقول له بعد أن أعطاه الدرهمين ثمن ما بيع من متاع: «**اشتر بأحدهما طعاماً فانبذه إلىٰ أهلك، واشتر بالآخر قدوماً فأتني بها**» فلما أتاه بها قام ﷺ بدور صاحب النجارة المتمكن، إذ شد في القدوم عوداً بيده، فأصبحت صالحة للاستعمال في قطع الحطب، وقال له: «اذهب فاحتطب وبع ولا أرينك خمسة عشر يوماً».

توجيه نبوي حازم نراه في الأمر بالاحتطاب والبيع، وممارسة ذٰلك خمسة عشر يوماً، لا يجوز نقصها، ولو كانت الغاية من النقص الرغبة في لقائه عليه الصلاة والسلام. وقد أشرت فيما سلف إلىٰ أن هـٰذا التعبير ـ وهو من بلاغته ﷺ ـ ليس المقصود به منع نفسه هو عن رؤيته، ولٰكن المقصود الحيلولة دون الرجل ودون أي تباطؤ قد يصدر منه علىٰ حساب العمل المطلوب إنجازه في الكسب بالاحتطاب والجمع والبيع هـٰذه المدة بكاملها دون وكس أو تهاون، وذكّرت بقول سيبويه رحمه الله: (من كلامهم: لا أرينّك هـٰهنا، والإنسان لا ينهىٰ نفسه، وإنما المعنىٰ: لا تكوننّ هـٰهنا، فإن من كان هـٰهنا رأيته).

ثم ماذا؟ تساؤل لا بد منه في هـٰذا المقام. والجواب أن الرجل قد أنجز المهمة بمنتهىٰ النشاط وانشراح الصدر لتوجيه النبي عليه الصلاة والسلام، فاحتطب وجمع الحطب وباعه، وعاد إلىٰ الرسول الكريم وقد أصاب عشرة دراهم، فاشترىٰ ببعضها ثوباً، وببعضها طعاماً، وقال ـ كما في رواية البيهقي ـ: يا رسول الله، لقد بارك الله لي فيما أمرتني.

ورأىٰ سيد المعلمين الحكماء، وإمام المربين النصحاء الأمناء: أن الفرصة سانحة لضم تذكير باليوم الآخر إلىٰ ما حصل من الأسلوب العملي،

وتقديم البديل الصالح، فقال عليه الصلاة والسلام لصاحبنا ﷺ: «هٰذا ـ يعني الكسب المشروع بالعمل وتحمل ما يمكن أن يكون فيه من مشاق ـ خير لك من أن تجيء المسألة نكتة ـ علامة فارقة وأثراً معيباً ـ في وجهك يوم القيامة».

فالله تعالىٰ يعلم السر وأخفىٰ، والافتضاح علىٰ رؤوس الخلائق كائن لمن تحول عن معالي الأمور ـ كما هي شريعة الله ـ إلىٰ سفاسفها مما لم يأذن به الله.

وفي يقيني أن الرجل لا بد أن يكون قد انتفع من الدرس النبوي غاية الانتفاع بدءاً مما شهدناه في القصة واستمرّ معه ذٰلك طوال حياته ـ والله أعلم ـ.

وإنه لدرس جاء بهٰذا الأسلوب العملي الحكيم ليشمل بعموم نفعه الفرد والجماعة حتىٰ يوم الناس هٰذا. وليس مقصوراً علىٰ الأنصاري الذي كان السبب.

وكم يكون صنّاع القرار والمسؤولون عن التنفيذ أوفياء لهدي النبي ﷺ نَصَحة لمجتمعاتهم وأمتهم، إذا وظفوا روح هٰذا النهج من النبي ﷺ في المناهج والمؤسسات وكل ما هو من إحكام بني المجتمع بسبيل. في حرص علىٰ تقديم البديل عند حل المشكلات التي قد تعترض طريق الصادقين في تحكيم شريعة الله في شؤون المسلمين دونما غفلة عن طبيعة الواقع، وما يحمله التطور الاجتماعي والثقافي والاقتصادي، علماً بأن المشكلة ليست في الإسلام الذي هو الدين الذي ارتضاه الله لعباده.. ولٰكنها وراء ذٰلك كما لا يخفىٰ!!

وجميل ما ذهب إليه شراح الحديث في شأن بيع المزايدة المأخوذ من فعل الرسول عليه الصلاة والسلام، فقد أورد الترمذي حديث القصة تحت باب عنوانه: (باب بيع من يزيد)، وقال أبو بكر بن العربي في «عارضة الأحوذي» شرح الجامع الصحيح للترمذي: (هٰذا مبين لحديث النهي عن البيع علىٰ بيع أخيه؛ فإن ذٰلك مخصوص عند التراكن والاقتراب من الإبعاد، فأما حال التسويق وطلب الزيادة قبل ذٰلك فلا بأس به، وعليه يدل الحديث. وقد ذكر

أبو عيسىٰ عن بعضهم، أنه يجوز في الغنائم والمواريث، والباب واحد، والمعنىٰ مشترك لا تختص به غنيمة ولا ميراث)[1].

وقال الخطابي في «معالم السنن»: (في هٰذا الحديث من الفقه، جواز بيع المزايدة، وأنه ليس بمخالف لنهيه ﷺ أن يبيع الرجل علىٰ بيع اخيه؛ لأن ذٰلك إنما هو بعد وقوع العقد ووجوب الصفقة، وقبل التفرق من المجلس، وهٰذا إنما هو في حال المراودة والمساومة وقبل تمام المبايعة. وفيه إثبات الكسب والأمر به. وفيه أنه لم ير الصدقة تحلّ له مع القوة علىٰ الكسب)[2].

هٰذا وفي رواية البيهقي للقصة مزيد مما يعين علىٰ الإحاطة بأبعادها؛ وقد جاء فيها قول النبي ﷺ للرجل بعد ثبوت بيع الحلس والقدح بدرهمين: («**اشتر بدرهم فأساً وبدرهم طعاماً لأهلك**». قال: ففعل، ثم رجع للنبي ﷺ، فقال: «**انطلق إلىٰ هٰذا الوادي، فلا تدع حاجاً ولا شوكاً ولا حطباً، ولا تأتني خمسة عشر يوماً**». قال: فانطلق، فأصاب عشرة، قال: «**فانطلق فاشتر بخمسة طعاماً لأهلك وبخمسة كسوة لأهلك**»، فقال: يا رسول الله، لقد بارك الله لي فيما أمرتني، فقال: «**هٰذا خير من أن تجيء يوم القيامة وفي وجهك نكتة المسألة. إن المسألة لا تصلح إلا لثلاثة؛ لذي دم موجع، أو غرم مفظع، أو فقر مدقع**»[3].

قال الشيخ: فإن لم تقع له الكفاية إلا بمئين أو بألوف: أعطي قدر أقل الكفاية بدليل ما روِّينا في حديث قبيصة بن المخارق عن النبي ﷺ: «**حتىٰ تصيب قواماً من عيش، أو سداداً من عيش**»)[4].

سليمان الجمل: ١/ ١٠٩ في تفسير البقرة.

(١) انظر: «عارضة الأحوذي شرح صحيح الترمذي» لأبي بكر بن العربي: ٥/ ٢٢٤.

(٢) «معالم السنن» للخطابي: ٢/ ٢٩٣، «سنن أبي داود»: (١٦٤١) ٢/ ٢٩٢ فما بعد ـ الزكاة.

(٣) «السنن الكبرىٰ» للبيهقي: ٧/ ٢٥.



الوحدة الموضوعية.. وقصة الأنصاري

(١)

الوحدة الموضوعية في هدي النبي عليه الصلاة والسلام التي ينتمي إليها ويتفيأ ظلالها الأسلوب العملي حركة وتطبيقاً عندما تدعو الحاجة إليه بحيث يكون مثيلاً لأسلوب الكلمة الهادية وما هو منها بسبب: هٰذه الوحدة النيّرة الميمونة، تدل أوضح الدلالة علىٰ نورانية هٰذا الهدي المتصل بالسماء؛ لما أنه بيان الكتاب العزيز ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل:٤٤] ولما أنه الطريقة المثلىٰ التي يستجمع بها الموضوع المطروق من أطرافه هنا وهناك، مصحوباً ذٰلك بالأسلوب المشرق بطرائف الحكمة التي تتسق مع طبيعة الإنسان وفطرته المودعة فيه، وظروفه المحيطة به، وما قد يكتنفه من ملابسات.. وكل أولٰئك علىٰ نور من الهدف الكبير المراد تحقيقه وهو إيصال الهداية إلىٰ القلوب والعقول، وإن كان خلق الهداية مردّه أولاً وآخراً إلىٰ من له الخلق والأمر تبارك وتعالىٰ!!

أذكرني هٰذه الحقيقة التي استدام عطاؤها في دنيا الواقع ـ بدءاً من البعثة المحمدية ـ ثلاثة عشر عاماً قبل أن ينقلها الصحابة عليهم الرضوان بكل دقة وأمانة إلىٰ أمة الإسلام: ما يرىٰ الناظر في نصوص السنة المطهرة التي ترمي علىٰ ساحة البناء للمجتمع الأمثل في المدينة النبوية بعد الهجرة، وإعداد أفراده إعداداً يجمع بين القوة والأمانة اللتين لا يعوزهما التوجه الحضاري من علاقة وثيقة بينها، وبين ما قصَّ علينا أنس بن مالك رضي الله عنه ـ كما أسلفنا من قبل ـ من خبر ذٰلك الرجل الأنصاري رضي الله عنه الذي جاء النبي ﷺ راغباً في التوكؤ علىٰ المسألة ابتغاء شيء من المال، فارتقىٰ به النبي عليه الصلاة والسلام ـ تلقائياً ـ

من مرتبة السؤال إلىٰ مرتبة الأعزة الذين يكسبون عيشهم من حلِّه بالعمل بذات أيديهم مهما بلغت بهم مشقة الجهد، ويجدون بذٰلك ـ حيث اليد العليا خير من اليد السفلىٰ ـ حلاوة النصب في هـٰذه السبيل الكريمة التي لا تقتصر فائدتها علىٰ الفرد، ولـٰكنها تتجاوز إلىٰ المجتمع اقتصادياً واجتماعياً وتنمية لحوافز العطاء كما أرادها النبي ﷺ، وهو يبني مجتمع المدينة القدوة ويعد لبناته الإعداد المطلوب.

والملاحظ أن النبي صلوات الله وسلامه عليه ـ وهو الهادي أبداً إلىٰ الصراط المستقيم ـ رأىٰ بحكمته أن يتجاوز هـٰذا الرجل أسلوب النصح بالكلمة ترغيباً وترهيباً، إلىٰ توجيهه الوجهة العملية، ومعاونته علىٰ إيجاد البديل الصالح عن ذٰلك الأمر المرغوب عنه، وهو المسألة التي لا تحل إلا في حدود ضيقة تمليها الضرورة؛ ها هو ذا صلىٰ الله وسلم وبارك عليه ـ كما عرفنا من قبل ـ يتولىٰ بنفسه ـ وفي ذٰلك درس عظيم لمن ولي من أمر المسلمين شيئاً دق أو جلّ ـ بيع الحلس والقعب اللذين جاء بهما الرجل من داره وهو لا يملك غيرهما: علىٰ طريقة بيع من يزيد، ذٰلكم قوله جزاه الله عن الأمة خير الجزاء: «من يشتري هذين؟» قال رجل: أنا آخذهما بدرهم. قال ﷺ: «من يزيد علىٰ درهم؟» ـ مرتين أو ثلاثاً، قال رجل: أنا آخذهما بدرهمين، فأعطاهما إياه، وأخذ الدرهمين، وأعطاهما الأنصاري.

وهنا ما بد من التساؤل عما حصل بعد ذٰلك؟ الذي حصل أن النبي عليه الصلاة والسلام، أكمل الرحلة في معاونة الرجل عملياً علىٰ تحقيق ما أراد له من الخير؛ ألم تر إلىٰ ما جاء في الروايات، من أنه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أعطىٰ الأنصاري الدرهمين اللذين أخذهما من المشتري، وقال له: «**اشتر بأحدهما طعاماً فانبذه إلىٰ أهلك**» فحل بذٰلك مشكلة الحاجة عند الأهل، ثم قال له: «**واشتر بالآخر قدوماً فائتني بها**» وأطاع الرجل رسول الله فيما أمر علىٰ خير وجه!!

ولا تعجب إذا رأيت الرحمة المهداة عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم

يشد بيده الشريفة عوداً بيده في القدوم التي أحضرها الرجل، حيث أعدها بدقة كيما تكون صالحة لقطع الحطب، وفي ذٰلك قطع لأي اعتذار.

ولم يقف الأمر عند هـٰذا الحد، بل قال للرجل بحزم وجزم: «**اذهب واحتطب وبع ولا أرينك خمسة عشر يوماً**» لقد أمره أن يذهب، وأن يحتطب وأن يبيع وأن لا يركن لأي سبب يشغله عن ذٰلك ولو كان لقاءه عليه الصلاة والسلام.

وأثمر هـٰذا التوجيه النبوي العملي خير الثمرات؛ إذ ذهب الرجل تواً إلىٰ حيث الحطب المباح، وظل يحتطب ويبيع خمسة عشر يوماً لا يراه فيها الرسول عليه الصلاة والسلام، فاغتنىٰ بحمد الله، وأخذ طريقه الحرة الكريمة إلىٰ الكسب المشروع في حياته مولياً ظهره للدعة والكسل ليكون ذٰلك الفرد المؤمن العزيز القادر علىٰ العطاء في مجتمع مؤمن قوي يملك أهلية العطاء والنماء.. وقال الرسول ﷺ منبهاً علىٰ خيرية ما تحول إليه في حسن العاقبة أيضاً يوم الدين: «**وهـٰذا خير لك من أن تجيء المسألة نكتة في وجهك يوم القيامة**». وفي رواية أنه أضاف: «**إن المسألة لا تصلح إلا لأحد ثلاثة؛ لذي دم موجع، أو غرم مفظع، أو فقر مدقع**» وقد سبق تفسير ذٰلك.

وفي عود علىٰ بدء: (لا بد من توكيد ما أسلفت في صدر هـٰذا الحديث من أن الأسلوب العملي الذي سلكه الرسول ﷺ، فأعانه بنفسه علىٰ السير في طريق العمل العزيز والكسب المشروع، وقدم له البديل الصالح عما أراد له الإعراض عنه: ذو نسب صحيح من حيث الوحدة الموضوعية، إلىٰ العديد من النصوص التي استخدم فيها الرسول ﷺ الكلمة ترغيباً في كسب المال من حله بالعمل المشروع وإن كان فيه مشقة ونصب والترهيب من المسألة وسوء عاقبتها في الدنيا والآخرة.

ولمزيد من البيان، هـٰذا تذكير بما روىٰ البخاري ومسلم وأحمد وابن ماجه وغيرهم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لأن يغدو أحدكم فيحطب علىٰ ظهره، فيتصدق به، ويستغني به عن الناس: خير من أن يسأل رجلاً أعطاه أو منعه ذٰلك؛ فإن اليد العليا أفضل من اليد السفلىٰ،**

وابدأ بمن تعول»[1] وعند ابن حبان: «**خير الصدقة ما كان عن ظهر غنىٰ، واليد العليا خير من السفلىٰ، وليبدأ أحدكم بمن يعول**»[2].

وجميل ما نجد عند ابن حبان ـ أبي حاتم ـ في شأن اليد العليا واليد السفلىٰ إذ يقول في «صحيحه»: (قال أبو حاتم: قوله ﷺ: «اليد العليا خير من اليد السفلىٰ» عندي أن اليد المتصدقة أفضل من اليد السائلة، لا الآخذة دون السؤال؛ إذ محال أن تكون اليد التي أبيح لها استعمال فعل باستعماله: أحسن من آخر فرض عليه إتيان شيء، فأتىٰ به، أو تقرب إلىٰ بارئه متنفلاً فيه، وربما كان المعطي في إتيانه ذٰلك أقل تحصيلاً في الأسباب من الذي يُعْطَىٰ. فلما استحال هٰذا علىٰ الإطلاق دون التحصيل بالتفضيل: صحّ أن معناه أن المتصدق أفضل من الذي يسألها)[3].



(١) المصدر السابق: ٧/ ٢٥.

(٢) «صحيح مسلم» (١٠٤٢).

(٣) «الإحسان في تقريب ابن حبان»: ٨/ ١٤٩ (٣٣٦٣).



الوحدة الموضوعية.. وقصة الأنصاري

(٢)

في متابعة لظاهرة الوحدة الموضوعية في الهدي النبوي، والتي من نماذجها الخيرة ما يرىٰ من التواؤم بين قصة ذٰلك الرجل الأنصاري مع الرسول ﷺ التي كان موضوعها: تحويل الرسول ﷺ العملي للرجل عن الرغبة في المسألة، إلىٰ الكد في الكسب المشروع من طريق الاحتطاب وبيع الحطب وممارسة تيسير ذٰلك بنفسه عليه الصلاة والسلام، وما أثمر ذٰلك من الخير، وبين النصوص القولية في هٰذا الباب: التي منها بجانب ما العهد بالإشارة إليه قريب ـ ما مر بنا فيما سلف من القول من بيان نبوي واضح كان سبب وروده ـ كما يروي مسلم وغيره ـ أن قبيصة بن المخارق الهلالي رضي الله عنه تحمّل حمالة وهي الكفالة وضمان مال يدفعه الحميل وهو الكفيل دفعاً للفتنة وتسكيناً للثائرة بين المتشاجرين في الدماء والأموال: فاتىٰ النبي ﷺ فأخبره وسأله أن يعينه، فقال ﷺ: «**بل نحملها عنك يا قبيصة، ونؤديها إليهم من إبل الصدقة**».

ثم قال ﷺ ـ كما جاء في بعض الروايات ـ: «**يا قبيصة، إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة: رجل تحمل بحمالة، فحلت له المسألة، فسأل حتىٰ يصيبها ثم يمسك، ورجل أصابته جائحة، فاجتاحت ماله، فحلت له المسألة، فسال حتىٰ يصيب قواماً من عيش ـ أو سداداً من عيش ـ، ورجل أصابته فاقة، حتىٰ يشهد له ثلاثة من ذوي الحجىٰ من قومه أن قد أصابته جائحة، وأن قد حلت له المسألة، وما سوىٰ ذٰلك من المسائل سحت**».

ورغبة في المزيد من الانتفاع ـ علىٰ قدر ما يتسع له المقام ـ بما كان من استجلاء علمائنا لدلائل القصة وفقه وقائعها: نشير هنا إلىٰ ما نقع عليه عند

الإمام الخطابي الذي ذهب في «معالم السنن» إلىٰ (أن في حديث هـٰذه القصة علماً كثيراً وفوائد جمة، ويدخل في أبواب من العلم والحكم، وذٰلك أنه ـ ﷺ ـ قد جعل من تحل له المسألة من الناس أقساماً ثلاثة: غنياً وفقيرين، وجعل الفقر علىٰ ضربين: فقراً ظاهراً وفقراً باطناً؛ فالغني الذي لا تحل له المسألة: هو صاحب الحمالة). وبعد تفسير وافٍ للحمالة قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وأما النوع الأول من نوعي أهل الحاجة: فهو رجل أصابته جائحة في ماله فأهلكته، والجائحة في غالب العرف: هي ما ظهر أمره من الآفات كالسيل يغرق متاعه، والنار تحرقه، والبرد يفسد زرعه وثماره ونحو ذٰلك من الأمور. وهـٰذه أشياء لا تخفىٰ آثارها عند كونها ووقوعها: فإذا أصاب الرجل شيء منها: فذهب ماله وافتقر؛ حلت له المسألة، ووجب على الناس أن يعطوه الصدقة من غير بينة يطالبونه بها علىٰ ثبوت فقره واستحقاقه إياها)[1].

ويزيدنا صاحب «معالم السنن» بياناً فيقرر أن النوع الآخر من الفقر ـ وهو الفقر الباطن ـ إنما هو فيمن كان له مِلك ثابت وعرف له يسار ظاهر، فادعىٰ تلف ماله من لص طرقه أو خيانة ممن أودعه، أو نحو ذٰلك من الأمور التي لا يبين لها أثر ظاهر في المشاهدة والعيان.

فإذا كان ذٰلك، ووقعت في أمره الريبة في النفوس، لم يعطَ شيئاً من الصدقة إلا بعد استبراء حاله، والكشف عنه بالمسألة عن أهل الاختصاص به والمعرفة بشأنه، وذٰلك معنىٰ قوله ﷺ: «حتىٰ يقول ثلاثة من ذوي الحجىٰ: أصابت فلاناً الفاقة» والحجىٰ: العقل.

وما كان أفقهه وأدقه إبانة، حين علل ما قصد إليه النبي ﷺ من ذٰلك بقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: واشتراطه الحجىٰ تأكيد لهـٰذا المعنىٰ؛ أي: لا يكونوا من أهل الغباوة الغفلة ممن تخفىٰ عليهم بواطن الأمور ومعانيها.

وليس هـٰذا من باب الشهادة، ولـٰكن من باب التبيين والتعرف. وذٰلك أنه لا مدخل لعدد الثلاثة في شيء من الشهادات؛ فإذا قال نفر من قومه أو

---

(١) انظر المصدر السابق: ٨/ ١٥٠.

جيرانه، أو ذوي الخبرة بشأنه: (إنه صادق فيما يدعيه أعطي الصدقة)[1].

هٰذا وتجدر الإشارة إلىٰ أن الإمام البغوي قد لخص في كتابه «شرح السنة» كلام الإمام الخطابي تلخيصاً نافعاً جمع فيه بين الإحاطة بالأحكام والحكم المستنبطة، وبين يسر الأسلوب الذي روعي فيه حال المخاطبين علىٰ اختلاف إمكاناتهم، لذا كان من الفائدة بمكان: النظر في كلام كل من الإمامين أجزل الله مثوبتهما، علماً بأن الخطابي قد توفي سنة ثمان وثلثمائة. أما البغوي: فكانت وفاته سنة عشر وخمسمائة.

وها هو ذا رَحِمَهُ ٱللَّهُ يثبت من روايات حديث القصة رواية مسلم، ثم يقرر بعد شرحه للمفردات وبيان ما يفقه من (هٰذا الحديث: أن النبي ﷺ جعل من يحل له المسألة من الناس ثلاثة: غنياً وفقيرين، فالغني: صاحب الحمالة وهو أن يكون بين القوم تشاحن في دم أو مال فسعىٰ رجل في إصلاح ذات بينهم، وضمن مالاً يبذل في تسكين تلك النَّائرة[2]، فإنه يحل له السؤال، ويعطىٰ من الصدقة قدر ما تبرأ ذمته من الضمان وإن كان غنياً.

وأما الفقيران: فهو أن يكون الرجلان معروفين بالمال، فهلك مالهما، أحدهما هلك ماله بسبب ظاهر، كالجائحة أصابته من برد أفسد زرعه وثماره، أو نار أحرقته، أو سيل أغرق متاعه في نحو ذٰلك من الأمور. فهٰذا يحل له الصدقة حتىٰ يصيب ما يسد خَلّته به، ويعطىٰ من غير بينة تشهد علىٰ هلاك ماله؛ لأن سبب ذهاب ماله أمر ظاهر.

والآخر هلك ماله بسبب خفي من لص طرقه، أو خيانة ممن أودعه، أو نحو ذٰلك من الأمور التي لا تظهر في الغالب؛ فهٰذا تحل له المسألة، ويعطىٰ من الصدقة بعد أن يذكر جماعة من أهل الاختصاص به، والمعرفة بشأنه، أن قد هلك ماله، لتزول الريبة عن أمره في دعوىٰ هلاك المال)[3].

---

(١) انظر: «معالم السنن» للخطابي: ٢/ ٦٦ ـ ٦٧.
(٢) «معالم السنن» للخطابي: ٢/ ٦٧.
(٣) هي الحقد والعداوة، والفتنة تقع بين الناس.

وَبَعْـدُ: فمما يتصل بالوحدة الموضوعية ما أخرج أحمد وابن حبان وغيرهما والطبراني والحاكم وصححه علىٰ شرطهما ووافقه الذهبي عن خالد بن عدي الجهني ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من بلغه معروف عن أخيه من غير مسألة ولا إشراف نفس، فليقبله ولا يردَّه فإنما هو رزق ساقه الله إليه**».

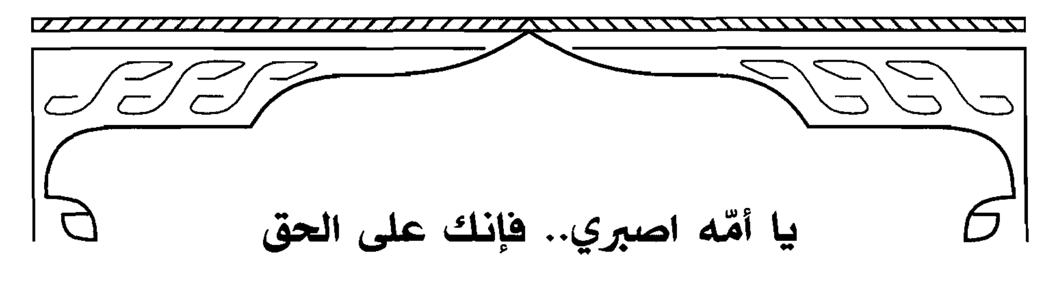
(أشرفت النفس علىٰ الشيء): حرصت عليه وتهالكت.

وقد ذهب ابن حبان في كلامه علىٰ هٰذا الحديث (إلىٰ أن هٰذا الأمر الذي أمرنا باستعماله هو أخذ ما أعطي المرء. والشيئان المعلومان اللذان أبيح له ذٰلك عند عدمهما: هما المسألة وإشراف النفس؛ فإن وجد أحدهما في الغنيّ المستقل بما عنده: زجر عن أخذ ما أعطي دون الفقراء المضطرين. والتارة التي يباح فيها أخذ ما أعطي المرء وإن وجد فيه المسألة أو إشراف النفس: هي حالة الاضطرار. والاضطرار علىٰ ضربين: اضطرار بجِدة واضطرار بعُدم، والاضطرار الذي يكون بجدة هو أن يملك المرء الشيء الكثير من حطام هٰذه الدنيا سوىٰ المأكول والمشروب، وهو في موضع لا يباع فيه الطعام ولا الشراب أصلاً، فهو ـ وإن كان واجداً ـ حكمه حكم المضطر، له ما أعطي وإن كان سائلاً أو مشرف النفس إليه، واضطرار العدم واضح لا يحتاج إلىٰ الكشف عنه)[1].



---

(١) انظر: «شرح السنة» للبغوي: ٦/ ١٢٥ ـ ١٢٦.



يا أمّه اصبري.. فإنك على الحق

(١)

ليس من مكرور القول التذكير بحقيقة علىٰ غاية في الأهمية علىٰ ساحة التعامل مع القصص في السنة النبوية وهي أن ما ثبت في هٰذه السنة المطهرة من القصص، هو من الواقع وإليه. سواء في ذٰلك: ما نُمي عند المحدثين إلىٰ عصر النبي ﷺ وأصحابه عليهم الرضوان، وما نمي إلىٰ زمن من أعصر من كانوا قبلنا في الماضي؛ فأنباء هٰذه القصص مبرأة من أن يكون قوامها نسيج الخيال ـ مثلاً ـ عند كاتب قصصي في ظل تعريف القصة عند أهل الفن والأدب، أو تجسيداً لتصورات معينة من اختراع ناثر موهوب علىٰ هٰذه الساحة، أو ما شابه ذٰلك مما هو إلىٰ الإبداع أقرب منه إلىٰ الواقع!!

وإذا كان الأمر كذٰلك: فلا بد أن يكون التعامل مع الأخبار والوقائع في ميدان القصة هنا: تعاملاً جاداً، لا يعوزه الحرص علىٰ تلمس الفائدة التي يفترض بالمؤمن أن ينشدها لدنياه وآخرته، في نظرة شاملة إلىٰ الأحكام والحكم، وما يكون من العظة والعبرة والدروس.

ذٰلك بأن الحقيقة المومىٰ إليها، تتواءم في وجودها ومنطلقات وقائعها مع كون القصة في عصر النبي ﷺ وأصحابه قد انبثقت من واقع الحركة علىٰ ساحة الهداية فيما يعنيه بناء الحياة الإسلامية والمجتمع الإسلامي، بما يعني ذٰلك من بناء الإنسان المؤمن فيه، ثم مع كونها من أنباء من سبقنا علىٰ أرض التاريخ، إنما أخبر عنها النبي عليه الصلاة والسلام، وهو الذي لا ينطق عن الهوىٰ إن هو إلا وحي يوحىٰ، ليعتبر بها المسلمون ويتعظوا، فما كان من صواب أخذوا به وانتفعوا بعطائه، وما كان غير ذٰلك اجتنبوا بحزم وعزم

الوقوع في مثله، محاذرين أي سبب من أسباب الوصول إليه.

وبهٰذا تجعل السنة الشريفة ـ وهو ما سبق القرآن الكريم إليه ـ حضوراً في دنيا الواقع الذي أنشأه من قبلنا، وأن لا تكون معزولة ـ وهي تحمل الرسالة الخاتمة إلىٰ العالمين ـ أو مغيبة عما وقع فيما مضىٰ مما تنبغي معرفته علىٰ أرض تحركها عن التاريخ في القيام بهٰذه التبعة المباركة، وأنها أمة الشهادة علىٰ الناس يوم الدين.

وبعـد: فماذا علي لو كانت هـٰذه الكلمات طريقنا إلىٰ قصة سداها ولحمتها: عقيدة التوحيد التي لا تشوبها شائبة سحر أو خرافة وصبر أهلها علىٰ مواجهة الابتلاء وشدة الأذىٰ؛ ثباتاً علىٰ الحق، وطلباً لمرضاة الله الذي يتولىٰ عباده الصابرين.

قال الإمام مسلم في كتاب الزهد والرقائق في «صحيحه»: حدثنا هدّاب بن خالد. حدثنا حماد بن سلمة. حدثنا ثابت عن عبد الرحمٰن بن أبي ليلىٰ عن صهيب؛ أن رسول الله ﷺ قال:

«كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ، فَلَمَّا كَبِرَ قَالَ لِلْمَلِكِ: إِنِّي قَدْ كَبِرْتُ فَابْعَثْ إِلَيَّ غُلَاماً أُعَلِّمْهُ السِّحْرَ. فَبَعَثَ إِلَيْهِ غُلَاماً يُعَلِّمُهُ، فَكَانَ فِي طَرِيقِهِ ـ إِذَا سَلَكَ ـ رَاهِبٌ، فَقَعَدَ إِلَيْهِ وَسَمِعَ كَلَامَهُ فَأَعْجَبَهُ، فَكَانَ إِذَا أَتَىٰ السَّاحِرَ مَرَّ بِالرَّاهِبِ وَقَعَدَ إِلَيْهِ، فَإِذَا أَتَىٰ السَّاحِرَ ضَرَبَهُ، فَشَكَا ذٰلك إِلَىٰ الرَّاهِبِ فَقَالَ: إِذَا خَشِيتَ السَّاحِرَ فَقُلْ: حَبَسَنِي أَهْلِي. وَإِذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ فَقُلْ: حَبَسَنِي السَّاحِرُ.

فَبَيْنَمَا هُوَ كَذٰلك إِذْ أَتَىٰ عَلَىٰ دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتِ النَّاسَ فَقَالَ:

ـ اليَوْمَ أَعْلَمُ: السَّاحِرُ أَفْضَلُ أم الرَّاهِبُ أَفْضَلُ؟

فَأَخَذَ حَجَراً فَقَالَ: اللَّهُمَّ! إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ فَاقْتُلْ هـٰذه الدَّابَّةَ، حَتَّىٰ يَمْضِيَ النَّاسُ.

فَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا، وَمَضَىٰ النَّاسُ فَأَتَىٰ الرَّاهِبَ فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ:

ـ أَيْ بُنَيَّ، أَنْتَ اليَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّي. قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ مَا أَرَىٰ وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَىٰ، فَإِنِ ابْتُلِيتَ فَلَا تَدُلَّ عَلَيَّ.

وَكَانَ الْغُلَامُ يُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَيُدَاوِي النَّاسَ مِنْ سَائِرِ الأَدْوَاءِ، فَسَمِعَ جَلِيسٌ لِلْمَلِكِ كَانَ قَدْ عَمِيَ فَأَتَاهُ بِهَدَايَا كَثِيرَةٍ فَقَالَ:

ـ مَا هَاهُنَا لَكَ أَجْمَعُ إِنْ أَنْتَ شَفَيْتَنِي.

فَقَالَ: إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَداً إِنَّمَا يَشْفِي اللهُ، فَإِنْ أَنْتَ آمَنْتَ بِاللهِ دَعَوْتُ اللهَ فَشَفَاكَ.

فَآمَنَ بِاللهِ فَشَفَاهُ اللهُ. فَأَتَىٰ الْمَلِكَ فَجَلَسَ إِلَيْهِ كَمَا كَانَ يَجْلِسُ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ:

ـ مَنْ رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ؟

قَالَ: رَبِّي.

قَالَ: وَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي؟

قَالَ: رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ.

فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّىٰ دَلَّ عَلَىٰ الْغُلَامِ، فَجِيءَ بِالْغُلَامِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ:

ـ أَيْ بُنَيَّ، قَدْ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ مَا تُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَتَفْعَلُ وَتَفْعَلُ؟

فَقَالَ: إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَداً إِنَّمَا يَشْفِي اللهُ.

فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّىٰ دَلَّ عَلَىٰ الرَّاهِبِ، فَجِيءَ بِالرَّاهِبِ، فَقِيلَ لَهُ:

ـ ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ.

فَأَبَىٰ فَدَعَا بِالْمِنْشَارِ، فَوَضَعَ المِنْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ فَشَقَّهُ حَتَّىٰ وَقَعَ شِقَّاهُ، ثُمَّ جِيءَ بِجَلِيسِ الْمَلِكِ فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ. فَأَبَىٰ. فَوَضَعَ الْمِئْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ، فَشَقَّهُ بِهِ حَتَّىٰ وَقَعَ شِقَّاهُ، ثُمَّ جِيءَ بِالْغُلَامِ فَقِيلَ لَهُ:

ـ ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ. فَأَبَىٰ، فَدَفَعَهُ إِلَىٰ نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ:

ـ اذْهَبُوا بِهِ إِلَىٰ جَبَلِ كَذَا وَكَذَا، فَاصْعَدُوا بِهِ الْجَبَلَ، فَإِذَا بَلَغْتُمْ ذُرْوَتَهُ فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ، وَإِلَّا فَاطْرَحُوهُ.

فَذَهَبُوا بِهِ فَصَعِدُوا بِهِ الْجَبَلَ فَقَالَ:

ـ اللَّهُمَّ! اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ.

فَرَجَفَ بِهِمُ الْجَبَلُ فَسَقَطُوا، وَجَاءَ يَمْشِي إِلَىٰ الْمَلِكِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ:

ـ مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟

قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللهُ.

فَدَفَعَهُ إِلَىٰ نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ:

ـ اذْهَبُوا بِهِ، فَاحْمِلُوهُ فِي قُرْقُورٍ فَتَوَسَّطُوا بِهِ الْبَحْرَ، فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلَّا فَاقْذِفُوهُ.

فَذَهَبُوا بِهِ فَقَالَ:

ـ اللَّهُمَّ! اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ.

فَانْكَفَأَتْ بِهِمُ السَّفِينَةُ فَغَرِقُوا، وَجَاءَ يَمْشِي إِلَىٰ الْمَلِكِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ:

ـ مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟

قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللهُ.

فَقَالَ لِلْمَلِكِ:

ـ إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّىٰ تَفْعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ.

قَالَ: وَمَا هُوَ؟

قَالَ: تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَتَصْلُبُنِي عَلَىٰ جِذْعٍ، ثُمَّ خُذْ سَهْماً مِنْ كِنَانَتِي، ثُمَّ ضَعِ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ قُلْ: بِاسْمِ اللهِ رَبِّ الْغُلَامِ. ثُمَّ ارْمِنِي فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذٰلك قَتَلْتَنِي.

فَجَمَعَ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَصَلَبَهُ عَلَىٰ جِذْعٍ، ثُمَّ أَخَذَ سَهْماً مِنْ كِنَانَتِهِ، ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ ثُمَّ قَالَ:

ـ بِاسْمِ اللهِ رَبِّ الْغُلَامِ.

ثُمَّ رَمَاهُ فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صُدْغِهِ فِي مَوْضِعِ السَّهْمِ، فَمَاتَ. فَقَالَ النَّاسُ:

ـ آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ.

فَأُتِيَ الْمَلِكُ فَقِيلَ لَهُ:

ـ أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ؟ قَدْ وَاللهِ نَزَلَ بِكَ حَذَرُكَ، قَدْ آمَنَ النَّاسُ.

فَأَمَرَ بِالأُخْدُودِ فِي أَفْوَاهِ السِّكَكِ فَخُدَّتْ، وَأَضْرَمَ النِّيرَانَ وَقَالَ:

ـ مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ دِينِهِ فَأَحْمُوهُ فِيهَا. أَوْ قِيلَ لَهُ: اقْتَحِمْ.

فَفَعَلُوا، حَتَّىٰ جَاءَتِ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا، فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا، فَقَالَ لَهَا الْغُلَامُ:

ـ يَا أُمَّه، اصْبِرِي، فَإِنَّكِ عَلَىٰ الْحَقِّ».

وأخرجه أحمد في «المسند» وابن حبان والترمذي والنسائي والطبري في «تفسيره» والطبراني وغيرهم.

(الأكمه): الذي ولد أعمىٰ، وربما كان الكمه من مرض.

و(المئشار): مهموز في رواية الأكثرين ـ كما يقول النووي ـ ويجوز تخفيف الهمزة بقلبها ياء فيقال ميشار. وروي المنشار بالنون. وهما لغتان صحيحتان، وهو ما ينشر به.

(مفرق الرأس): مثال مسجد، وسط الرأس حيث يفرق الشعر.

(ذروة الجبل): أعلاه وهي بضم الذال وكسرها.

و(رجف بهم الجبل) أي: اضطرب وتحرك حركة شديدة.

و(القرقور): بضم القافين: السفينة الصغيرة وقيل: الكبيرة، واختار القاضي عياض الصغيرة بعد حكايته خلافاً كثيراً.

و(انكفأت بهم السفينة): انقلبت.

(الصعيد هنا): الأرض البارزة

و(كبد القوس): مقبضها عند الرمي.

(الصُّدغ): بضم الصاد: ما بين العين والأذن.

ومعنىٰ: (نزل بك حذرك) أي: ما كنت تحذر وتخاف.

و(الأخدود): الشق العظيم في الأرض، وجمعه أخاديد.

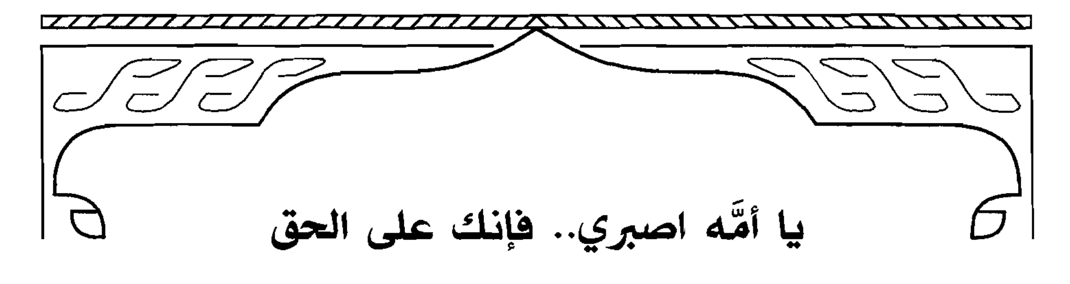
و(أفواه السكك): أبواب الطرق.

وقوله: (من لم يرجع عن دينه فأحموه فيها) أي: ارموه فيها من قولهم:

أحميت الحديدة وغيرها: إذا أدخلتها النار لتحمىٰ. وفي بعض النسخ: فأقحموه بالقاف؛ أي: اطرحوه فيها كرهاً.

(فتقاعست) أي: توقفت ولزمت موضعها وكرهت الدخول.





يا أمَّه اصبري.. فإنك على الحق

٢

من البدائة التي من الضرورة بمكان: استدامة مخالطتها القلب والعقل عند كل مكلف من المسلمين والمسلمات: أنه ما من شيء جاء عن النبي ﷺ في سننه المطهرة وسيرته الشريفة علىٰ صعيد البلاغ دونما خصوصية أو أمر جِبلّي ـ ومن ذٰلك ما ثبت من القصص ـ بخارج عن دائرة الهداية التي هي عنوان وجوده الذاتي الميمون طوال حياته علىٰ أرض التاريخ الإنساني، بدءاً من الإيذان الإلٰهي بالبعثة وإرساله رحمة للعالمين.

وأن ذٰلك ـ وهو حق اليقين بإجماله وتفصيله علىٰ اختلاف الأحوال والشؤون ـ: شاهد صدق هو عين اليقين، علىٰ كونه صلوات الله وسلامه عليه، الرسولَ من عند الله للناس كافة، المبيّن كتابه الذي أنزله عليه بالحق وبالحق نزل، المبلغ عنه سبحانه ما أراد فمن قبل عنه فمن الله قَبِل، وأنه يهدي إلىٰ الحق وإلىٰ صراط مستقيم.

ذٰلك بأن هٰذا الذي صدر عنه ﷺ وبارك عليه، وهو يتلو علىٰ المخاطبين بالرسالة ذكورهم وإناثهم، آيات الله، ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، قياماً بواجب التبليغ، وتحقيقاً لما شاء الله برحمته وفضله إخراج الناس من الظلمات إلىٰ النور بالقرآن علىٰ يديه.. أجل، بأن هٰذا كله ينصب في هٰذا المعين المبارك، معين الهداية إلىٰ الحق، والارتقاء بالإنسان ـ وقد سلك به الصراط المستقيم ـ إلىٰ مستوىٰ الصلة بالله ﷻ الرحيم الرحمٰن، رغبة في ثوابه، وخوفاً من عقابه، في توجه قلبي وعقلي إلىٰ كل ما هو من الاستقامة بسبب، طلباً لمرضاته ﷻ.

ناهيكم عن تنمية القدرة العقلية علىٰ تفسير التاريخ، والاعتبار بالأحداث، والاتعاظ بالوقائع، والتفاعل مع ما لها من أبعاد، كيما يكون ذٰلك رافداً من روافد العقل عن الله جلّ شأنه ما أراد، الأمر الذي يجعل الإنسان علىٰ بينة من أمره في رحلة الحياة حيث الدنيا دار ممر لا دار مقر، وفي تعامله مع الإنسان والكون والحياة نفسها، فيما صحب من ماضي التاريخ بالخبر الصادق في القرآن والسنة، ومن حاضره علىٰ أرض الواقع كما شاء الله أن يكون!!

وهٰذه الحقائق التي أسدتها العناية الإلٰهية إلىٰ البشرية وصدقها الواقع ويصدقها أبلغ تصديق، جاءت تجليتها أعظم ما تكون التجلية في محكم التنزيل، كما في قوله تعالىٰ في سورة البقرة: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾ وقوله جل شأنه في سورة الإسراء: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾﴾ ونقرأ في سورة الزمر قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾﴾.

ويثني الله تبارك وتعالىٰ علىٰ الذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بهٰذا الحق المنزل من ربهم ويبشرهم بجميل عطائه فيقول في سورة محمد: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾﴾ وتفتتح سورة إبراهيم بقول الله جل شأنه: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾﴾ وتطالعنا سورة الحديد بقوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ﴾ [٩] والرسول محمد ﷺ سراج منير: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الأحزاب].

وجدتني ولا مندوحة لي عن إيراد هٰذه الكلمات التي هي من الإيجاز وإليه، بين يدي ما أنا بسبيله من العودة إلىٰ اصطحاب القصة التي أوردتها في سالف قريب من القول كما جاءت عند مسلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «صحيحه»، طلباً للانتفاع بأبعادها المتنوعة العطاء علىٰ صعيد الاعتبار بقصص الماضين، ووضع

ذٰلك موضعه من فقه الوقائع والسلوك، وهي القصة التي عنون لها الإمام النووي في «شرحه لصحيح مسلم» بقوله: (باب قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب والغلام)[1].

والملاحظ بادئ ذي بدء أن ما افتتحت به القصة من قول النبي ﷺ كما روىٰ صهيب رضي الله عنه: «كان ملك فيمن كان قبلكم، وكان له ساحر، فلما كبر قال للملك: إني قد كبرت فابعث إلي غلاماً أعلمه السحر. .» أن ذٰلك دال علىٰ ما كان من العلاقة الوثيقة بين الرجل الأول في أولـٰئك القوم وبين الساحر، وهـٰذا يعني أن الساحر ـ والسحر والساحر كلاهما: عنوان الضلالة وإزراء العقل ـ كان له موقعه علىٰ صعيد الرأي والتدبير عند ذٰلك الرجل، بدليل حرصه بعد أن بلغ من الكبر عتياً، وبدأ يخشىٰ علىٰ نفسه الموت ـ علىٰ أن يبعث له صاحب النفوذ نفسه غلاماً يعلمه السحر. الأمر الذي يوحي بأهمية السحر المورث للخبال وقلة العقل وأباطيل السحرة في ذٰلك المجتمع وأهل النفوذ فيه، حتىٰ إن الساحر يبلغ صديقه الكبير رغبته في تعليم غلام يخلفه في هـٰذا الضلال، لما أن هـٰذا الصديق مصدر قوته وتأييده؛ ومن يدري، فقد يكون هـٰذا الساحر بما لديه من تمويه يسحر به أعين الناس ويسترهبهم ويخيفهم قد سيطر علىٰ عقل صديقه، وأوهمه ما يصرفه عن سلامة التفكير وحسن التدبير، وكم يذكر هـٰذا بما كان عليه فرعون وآله من وثيق العلاقة بالسحر وما هو منها بسبب.

ومهما يكن من أمر: فإن المسلم بوصفه مسلماً يقف من هـٰذه الظاهرة موقف المستنكر أشد الاستنكار، الأمر الذي يدعوه إلىٰ وافر الشكر لمولاه جل وعلا علىٰ نعمة الإسلام الذي علمه ذٰلك، ورباه علىٰ تنقية العقيدة والسلوك من هـٰذا الهراء المردي في الدنيا والآخرة.

وليس عجباً من العجب أن تنقلنا قضية الساحر ورغبته في تهيئة من يخلفه ـ وقد كبر ـ إذا وافته المنية: إلىٰ ما جاء في سورة البقرة عن اليهود

---

(١) «الإحسان»: ٨/ ١٩٥ ـ ١٩٦ (٣٤٠٤).

وكفرهم برسالة النبي عليه الصلاة والسلام ونقضهم الدائم للعهود، وافترائهم بدعوىٰ السحر هنا وهناك وما ترتب علىٰ ذٰلك عند آبائهم من ارتكاب مآثم لم يكن أقلها تكفير سليمان عليه السلام، الذي برأه الله مما يقولون، بعد نبذهم كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون، واتباعهم ما تتلو الشياطين الذين كفروا علىٰ ملكه سلام الله عليه. ذٰلكم قوله جل شأنه: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [البقرة].







يا أمَّه اصبري فإنك على الحق

(٣)

في عودة إلىٰ متابعة الحديث عن قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب والغلام: ما بد من الإجابة عن تساؤل يراد من ورائه معرفة ما حصل بعد أن قال الساحر لكبير القوم: «إني قد كبرت فابعث إليّ غلاماً أعلمه السحر».

الواقع أن حديث القصة قد حمل إلينا هٰذه الإجابة بتفصيل، إذ جاء هناك، كما جاء في رواية مسلم وغيره ـ ما يدل علىٰ تحقيق هٰذه الرغبة ويكشف عن وقوع مفاجآت ترتب عليها أمور في غاية الأهمية!! ها نحن نقرأ هناك: «**فَبَعَثَ إِلَيْهِ غُلَاماً يُعَلِّمُهُ، فَكَانَ فِي طَرِيقِهِ ـ إِذَا سَلَكَ ـ رَاهِبٌ، فَقَعَدَ إِلَيْهِ وَسَمِعَ كَلَامَهُ فَأَعْجَبَهُ، فَكَانَ إِذَا أَتَىٰ السَّاحِرَ مَرَّ بِالرَّاهِبِ وَقَعَدَ إِلَيْهِ، فَإِذَا أَتَىٰ السَّاحِرَ ضَرَبَهُ، فَشَكَا ذٰلك إِلَىٰ الرَّاهِبِ فَقَالَ: إِذَا خَشِيتَ السَّاحِرَ فَقُلْ: حَبَسَنِي أَهْلِي. وَإِذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ فَقُلْ حَبَسَنِي السَّاحِرُ**».

هٰكذا وجد صاحبنا الغلام الموهوب الذي يصلح ـ في نظره ـ لتلقي علم السحر عن ذٰلك الساحر أرومة الضلال والإضلال؛ ولٰكن شاء الله أن تسير الأمور في مسارب أخرىٰ تتنافىٰ مع الذي أراد الساحر وكبير القوم.

وانظر إلىٰ ما جاء به القدر المقدور عند العليم الخبير؛ لقد أزيح الساحر عن أن ينفرد بالغلام الذكي الألمعي ويوجهه كيف يشاء، فقد شركه في ذٰلك راهب كان في طريق الغلام إليه، وشرح الله صدر الغلام بما أودع سبحانه فيه من سلامة الفطرة للقعود إلىٰ ذٰلك الراهب الذي كان ـ كما يبدو ـ علىٰ التوحيد الخالص يومذاك، وأين ما يسمعه الغلام من مخرقات الساحر

وشعوذته طاعة للشيطان: من عقيدة التوحيد التي يتحدث بها إليه الراهب بكلمات منورة بنور الرحمٰن؟!

وبسبب من حصافة الغلام المبكرة: أراد أن يسلك طريق التثبت ليستريح إلىٰ اليقين فيما هو مقدم عليه، كما جاء الخبر بذٰلك.

ويبدو ـ كما هو ظاهر ـ أن القعود إلىٰ الراهب أحدث له إشكالاً في حساب الزمن، إذ شرع الساحر يتسخط عليه حين يتأخر، ويسيء إليه بالضرب، ولما كان أكثر طمأنينة بالراهب شكا إليه صنيع الساحر، وأشار عليه الراهب بما صورته المخالفة للصدق، وذٰلك بادعاء حبس أهله إذا خشي الساحر، وادعاء حبس الساحر له إذا خشي أهله، وكون الراهب لم يجد حرجاً في ذٰلك: دليل علىٰ أنه كان يرىٰ حلَّه دفعاً للأذىٰ المحقق عن الغلام؛ وقد فهم علماؤنا من ذٰلك جواز الكذب للضرورة إذا كان في ذٰلك تحقيق لمصلحة شرعية، قال القاضي عياض: (فيه جواز الكذب للضرورة لا سيما في الله، وفي المدافعة عن الإيمان، ومن يصدّ عنه)[1].

والذي أجمله القاضي عياض: فصله الإمام النووي ـ وهو الفقيه البارع المتمرس ـ بعض الشيء فقرر (أن في حديث القصة جواز الكذب في الحرب ونحوها، وفي إنقاذ النفس من الهلاك، سواء في نفسه أو نفس غيره ممن له حرمة)[2].

ولم يدع أبو العباس القرطبي أن يسعف في الاستدلال علىٰ ذٰلك، فذهب إلىٰ أن (قول الراهب: إذا خشيت الساحر فقل: حبسني أهلي) دليل علىٰ إجازة الكذب لمصلحة الدين، ووجه التمسك بهٰذا أن نبينا ﷺ ذكر هٰذا الحديث كله في معرض الثناء علىٰ الراهب والغلام علىٰ جهة الاستحسان لما صدر عنهما، فلو كان شيء مما صدر عنهما من أفعالهما محرماً لبينه لأمته، ولاستثناه من جملة ما صدر عنهما. ولم يفعل ذٰلك، فكل ما أخبر عنهما حجة

---

(١) انظر هناك: ١٨/ ١٣٠.

(٢) «إكمال المعلم بفوائد مسلم»: ٨/ ٥٥٥ (٣٠٠٥).

ومسوغ للفعل)[1].

وغير خاف ما يجب من تحكيم الضوابط الشرعية عند تحديد المصلحة المشار إليها ـ كما أسلفت ـ وأن الامر ليس متروكاً علىٰ عواهنه. علىٰ أن العلامة أبا عبد الله الأُبّي أشار في كتابه «إكمال إكمال المعلم» إلىٰ احتمال التورية فيما أوصىٰ به الراهب الغلام، أن يقوله دفعاً للأذىٰ؛ فبعد أن أورد كلام القاضي عياض وما ذهب إليه القرطبي في الاستدلال علىٰ الجواز المذكور قال: (قلت: ويحتمل أنه تورية؛ لأن الغلام لا يصل إلىٰ أهله إلا بعد المكث عند الساحر والراهب، والتورية في قوله: حبسني أهلي أَبْيَن؛ لأن الأهل حقيقة إنما هم المرشدون إلىٰ السعادة)[2].

وفي عود علىٰ بدء: لقد فعل الغلام ما أشار به الراهب، وتوالت الأحداث؛ وها هو ذا يفاجأ بنازلة نزلت بالناس، فيجدها فرصة للضرع إلىٰ الله استثباتاً كما أسلفنا وطلباً لمزيد من الطمأنينة بأن يجعل من إذهابها عنهم أو عدم إذهابها دليلاً يكشف عن أي الرجلين أفضل: أهو الراهب أم الساحر؟ فجاء فعل الله سبحانه بما يطمئنه حق الاطمئنان بصحبة الراهب لأن أمره أحب إلىٰ الله من أمر الساحر. جاء في «المسند» عند الإمام أحمد: «**فبينما هو كذٰلك** ـ يعني الغلام ـ **إذ أتىٰ ذات يوم علىٰ دابة فظيعة عظيمة، وقد حبست الناس فلا يستطيعون أن يجوزوا، فقال: اليوم أعلم أمر الراهب أحب إلىٰ الله أم أمر الساحر؟ فأخذ حجراً فقال: اللهم! إن كان أمر الراهب أحبّ إليك وأرضىٰ لك من أمر الساحر، فاقتل هٰذه الدابة حتىٰ يجوز الناس. ورماها فقتلها، ومضىٰ الناس.**

فأخبر الراهب بذٰلك، فقال: أي بني، أنت أفضل مني، وإنك ستبتلىٰ، فإن ابتليت فلا تدلَّ علي»[3].

---

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي»: ١٨/ ١٣٠.

(٢) «المفهم لما أشكل من تلخيص مسلم»: ٧/ ٤٢٤ ـ ٤٢٥ (٢٩٢٧).

(٣) انظر: «إكمال إكمال المعلم» للأبّي: ٧/ ٣٠٦ حديث أصحاب الأخدود.

وفي رواية مسلم: «**فقال له الراهب: أي بني، أنت اليوم أفضل مني، قد بلغ من أمرك ما أرىٰ، وإنك ستبتلىٰ، فإن ابتليت فلا تدلّ علي**».

هٰكذا أكرم الله الغلام، فجزاه بما كان من توحيده الخالص وإنكاره القلبي الشديد للساحر وسحره، بأن قتلت تلك الدابة الفظيعة العظيمة التي كان من أمرها ما كان، بالحجر الذي رماها به.

وتحققت مصلحة الناس بذٰلك. وكانت هٰذه الكرامة دليلاً بعث في نفسه المزيد من الطمأنينة بصحبة الراهب والتلمذة عليه، لما أن وقوعها كان إيذاناً صادعاً بأن الراهب أحب إلىٰ الله من أمر الساحر. وهو ما تضرع إلىٰ مولاه ببيانه.

وسبحان من يوفق من شاء لما شاء سبحانه؛ لقد رأىٰ الغلام بما أوتي من نور البصيرة ونفاذ الرأي، أن يحدث الراهب بما حصل. وهاهو ذا الراهب ـ الذي كان بما هو عليه من الإيمان بالله وبما عند الله أشبه ـ كما يبدو ـ بالجزيرة المضيئة في بحر من الظلمات ـ يكشف عن أمرين هامين:

أولهما ـ اعترافه ـ وهٰذا من الإنصاف بمكان ـ أن تلميذه الغلام ـ وقد وقع له من إكرام الله ما وقع ـ هو أفضل منه اليوم، بمعنىٰ: أنه ركيزة في هٰذا الواقع الأليم من ركائز التوحيد، وأقرب إلىٰ الله منه.

وثانيهما ـ إخباره تلميذه المؤمن الوفيّ بأنه سيبتلىٰ في الله، ويتعرض للمحنة في عقيدته وما هو عليه من التوحيد. وكان مهماً للغاية إيصاء هٰذا التلميذ بأن لا يدلّ عليه إن ابتلي، وحاول الكفرة الجاحدون الذين يعبدون مخلوقاً مثلهم من دون الله: حمله علىٰ ذٰلك.

وهٰذا ليس من العلم بالغيب، ولٰكنه ثمرة من ثمرات الاستنارة بالتوحيد الخالص والصبر علىٰ مقتضياته وحضور القلب مع الله ﷻ.

ولقد صدقت الوقائع ما أُلهِمَه ذٰلك الراهب، وألقىٰ الابتلاء كذلك علىٰ المؤمنين بدءاً من الغلام والراهب، وانتهاء بكل من أكرمهم الله فقالوا: آمنا برب الغلام، وهم الكرام الأجلاء الصابرون: أصحاب الأخدود.

وإلىٰ لقاء قادم نصطحب فيه تلك الوقائع الإيمانية التي كانت نوراً ساطعاً في تاريخ بني الإنسان، ونبعاً غزير العطاء علىٰ طريق الدعاة إلىٰ الله في أمتنا ـ والحال هي الحال ـ أولـٰئك الذين من أمارات التوفيق أن لا يبارح قلوبهم قول الكريم المنان: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].





يا أُمّه اصبري فإنك على الحق

(٤)

ما صحبناه في الماضي القريب من قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب والغلام، التي أخرج حديثها مسلم وأحمد وابن حبان وابن أبي شيبة وغيرهم: مدعاة ـ شأن القصة بكاملها ـ إلىٰ الكثير من التأمل الذي يشارك فيه القلب والعقل، والذي يخلص بالمؤمن إلىٰ قدر واف من العظة والاعتبار اللذين يسعفان ـ والله المستعان ـ علىٰ الانتفاع الإيماني بذٰلك، وتوظيفه علىٰ سلم الهداية التي ما انفكّ رسول الله ﷺ يعمل طوال حياته علىٰ إيصالها إلىٰ العقول والقلوب بشتىٰ الوسائل المنهجية المناسبة، ومنها ما كان يقص علىٰ الأمة من أنباء ما قد سبق بأسلوبه الحكيم المتميِّز صلوات الله وسلامه عليه.

ولقد حمل إلينا ذٰلك الجزء من القصة صورة لمجتمع، سلطانُ الإرادة والتنفيذ فيه لرجل طاغية يمتطيه الشيطان ويحكمه هواه وحب السيطرة علىٰ الآخرين، سيطرة تكاد تلغي وجودهم الإنساني، حتىٰ إنه ليدعي الألوهية، ويا ويل من يتخذ إلهاً غيره، ذٰلك لأنه ـ وهو مصدر العلم كما يزعم ـ لم يعلم لهم من إلٰه غيره، الأمر الذي يذكر بما جاء في الكتاب العزيز من قول فرعون لقومه الذين استخفهم فأطاعوه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص: ٣٨].

وتراه ـ وهو يستهيم بالعقل وحسن التدبير ـ يركن إلىٰ السحر والسحرة ركوناً بلغ مبلغ أن الساحر الذي كان من المقربين لديه يطلب منه ـ عندما كبرت سنه ورقّ عظمه ـ أن يبعث إليه بغلام يعلمه السحر، لكيلا تنقطع تلكم السلسلة العفنة اعتقاداً وفكراً والعياذ بالله، وبعث إليه بغلام.

ولٰكن الله ـ وهو الغالب علىٰ أمره ـ أراد غير ذٰلك؛ فقد كان في طريق هٰذا الغلام الذكي النابه إلىٰ الساحر راهب موحد عاقل حصيف، يكتم إيمانه، شرح الله صدر الغلام للقائه والتلمذة عليه، وكان ذٰلك سبباً في تفتح مواهب هٰذا التلميذ، وسلوكه سلوكاً ينمّ عن فطرة سليمة، وأهلية منوَّرة للتبصر في الأمور.

ثم ما لبث الغلام أن ظهرت عليه بوادر استنارة القلب بالإيمان، وأكرمه الله بكرامة لم تكن بحسبان من حوله، وعندها نبهه الراهب علىٰ أمرين عظيمين:

أولهما: أنه اليوم أفضل منه، وكان هٰذا درساً في الإنصاف والأمانة.

ثانيهما: إعلامه ـ وكأنه ينظر في ذٰلك بنور الله ـ أنه سيبتلىٰ بإيذاء المشركين المتسلطين، فإن حصل هٰذا الابتلاء، فليجتهد أن لا يدل عليه، الأمر الذي يوحي بأنه سيكون من أسباب التعذيب رغبة أولٰئك المتغطرسين أن يعلموا مكان ذاك الراهب المؤمن ـ الذي كان وهو يكتم إيمانه أشبه بجزيرة مضيئة في بحر من الظلمات ـ أجل. . أن يعلموا مكانه ليقتلوه.

وهٰذا الذي أفضىٰ به الراهب إلىٰ الغلام في ذٰلك الجو المرخي سدول ظلامه بعبادة غير الله، والإيمان بالسحر والسحرة، وتعطيل المواهب والعقول: كان ينذر بأيام شداد وأمور عظام قوامها التجسس والتعذيب، حتىٰ النشر بالمنشار والتنكيل والتصفية الجسدية، لكل من يؤمن بالله العظيم ـ كما جاء الخبر عن مرحلة الابتلاء الشديد الأعم ـ فقد قتل الراهب وقتل بعده جليس الملك الذي آمن ثم قتل الغلام، وطرح المؤمنون بعد ذٰلك ـ ويا للهول ـ في النار الملتهبة بأفواه الطريق، وأولٰئك البررة هم أصحاب الأخدود الذين باتوا شعلة مضيئة في مسيرة التاريخ.

وهٰذه عودة إلىٰ تمام القصة حيث التفصيل لهٰذا الإجمال. جاء في «صحيح مسلم» (باب قصة أصحاب الأخدود والساحر والغلام من كتاب الزهد والرقائق):

وَكَانَ الْغُلَامُ يُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَيُدَاوِي النَّاسَ مِنْ سَائِرِ الأَدْوَاءِ، فَسَمِعَ جَلِيسٌ لِلْمَلِكِ كَانَ قَدْ عَمِيَ، فَأَتَاهُ بِهَدَايَا كَثِيرَةٍ فَقَالَ:

ـ مَا هَاهُنَا لَكَ أَجْمَعُ إِنْ أَنْتَ شَفَيْتَنِي.

فَقَالَ: إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَداً إِنَّمَا يَشْفِي اللهُ، فَإِنْ أَنْتَ آمَنْتَ بِاللهِ دَعَوْتُ اللهَ فَشَفَاكَ.

فَآمَنَ بِاللهِ فَشَفَاهُ اللهُ، فَأَتَىٰ المَلِكَ فَجَلَسَ إِلَيْهِ كَمَا كَانَ يَجْلِسُ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ:

ـ مَنْ رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ؟

قَالَ: رَبِّي.

قَالَ: وَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي؟

قَالَ: رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ.

فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّىٰ دَلَّ عَلَىٰ الغُلَامِ، فَجِيءَ بِالغُلَامِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ:

أَيْ بُنَيَّ، قَدْ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ مَا تُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَتَفْعَلُ وَتَفْعَلُ؟

فَقَالَ: إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَداً إِنَّمَا يَشْفِي اللهُ.

فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّىٰ دَلَّ عَلَىٰ الرَّاهِبِ، فَجِيءَ بِالرَّاهِبِ فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ. فَأَبَىٰ فَدَعَا بِالْمِئْشَارِ، فَوَضَعَ الْمِئْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ، فَشَقَّهُ حَتَّىٰ وَقَعَ شِقَّاهُ..).

سبحان من بيده ملكوت السماوات والأرض كيف تدل مقاديره علىٰ ترتيب المسببات علىٰ الأسباب في هٰذه الدار. يسمع جليس الملك الذي كان قد عمي بما تواتر عن الغلام من إبرائه الأكمه والأبرص والمداواة من سائر الأدواء يومذاك فيتعلق بذٰلك، وينتهي به الأمر إلىٰ الإيمان ثم رد الله عليه بصره بدعوة من الغلام، وكان هٰذا مكمن الخطر علىٰ حياته، فكون جليس مدعي أنه الرب الذي يجب أن يعبد: لم يشفع له عنده بعد إعلانه الفاصل: «ربي وربك الله» بل كان أول ضحاياه في وحشية التعذيب، فلا وفاء عند أعداء الله والحق، قساةِ القلوب، بل ولا إنسان.. لأنه ملغىٰ عندهم.

ها هو ذا يأبىٰ أشد الإباء أن يدلّ علىٰ الغلام بعد أن طلب منه ذٰلك،

فأخذه ذاك الذي كان هو صديقه وجليسه بالأمس ناقماً منه اتخاذ رب غيره، ولم يزل هو وزبانيته ينزلون به سوء العذاب، حتىٰ دلهم ـ مكرهاً ـ علىٰ الغلام، وسبحان من لا يكلف نفساً إلا وسعها!!

وجيء بالغلام ـ وهو الفتىٰ الغض حديث السن ـ وأراده الطاغية العتل علىٰ أن يدل علىٰ الراهب الذي هو منه بموقع المعلم الناصح الأمين في تلك الظروف المشحونة بالفتنة والصراع بين التوحيد والوثنية.

وعلىٰ السنن الذي سلك مع جليس الملك: أكره الغلام تحت سياط التعذيب ونار التنكيل علىٰ الدلالة علىٰ أستاذه الأثير لديه.

ولنحاول أن نتصور كم داخل هٰذا الفتىٰ منور القلب من الحسرة والأسىٰ، وهو يقع فيما يقع فيه بالإكراه الملجئ العسير الاحتمال الذي حال دونه ودون ما كان يبتغيه من الوفاء بما أوصاه به من عدم الدلالة عليه إن ابتلي!! قال العلامة الأبّي: (ولا يقال: إن الغلام لم يف للراهب، فإنه عاهده أن لا يدل عليه؛ لأنه ليس في الحديث أن الغلام التزم له، ولو سلّم فهو مكره)[1].

أما الراهب: فقد كان إيمانه بالله وصدق توكله عليه: أقوىٰ من تعرضه لوضع المنشار في مفرق رأسه وشقه به حتىٰ وقع شقاه، من أجل هٰذا استعلىٰ علىٰ هٰذا الوعيد وثبت علىٰ دينه بقوة واعتزاز، حتىٰ كأن لسان حاله يقول: أنا مؤمن آوي بإيماني إلىٰ ركن شديد، وما دام ربي معي يسمع ويرىٰ: فليكن من هٰذا الطاغوت ما يكون!!

وإنه لدرس يتجاوز حدود الزمان والمكان عبر التاريخ؛ لأن رحىٰ الحرب بين الحق والباطل ـ علىٰ المدىٰ ـ دائرة، والعقل الأخروي يقضي بأن يدور أهل الحق مع هٰذا الحق حيث دار مهما كلفهم من ثمن؛ فما عند الله خير وأبقىٰ. ألم تر إلىٰ سحرة فرعون ـ وقد انشرحت صدورهم للإيمان ـ كيف كان ثباتهم علىٰ توحيد الله سبحانه، والتصديق بما أعد لأحبابه المؤمنين

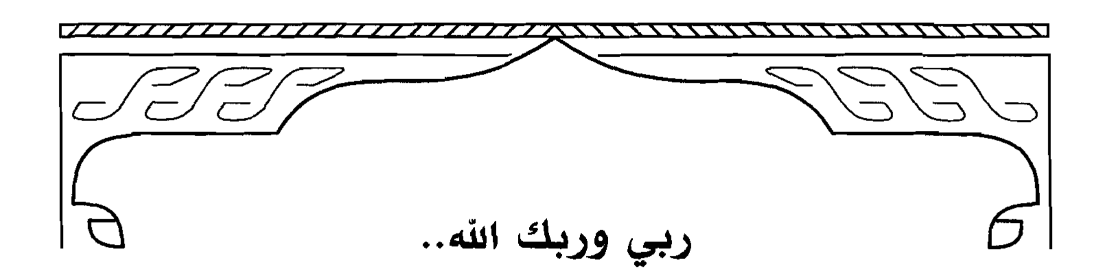
(١) «المسند»: ٣٩/ ٣٥١ (٢٣٩٣١).

الصابرين، حتىٰ رأيناهم ـ باستعلاء يقينهم ـ يزدرون ما كانوا عليه من قبل، ويسخرون من شدة وعيد فرعون مدّعي الألوهية، فلله ما أعظم ما انتهوا إليه. فرعون وزبانيته وقدرته علىٰ الأذىٰ في واد، وهم ـ بما يذوقون من حلاوة ما جاءهم من البينات وعظيم ما عند الله في واد: وأين الظلمات من النور؟ ذٰلكم قوله تعالىٰ: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾﴾، وانظر أي رد حازم مستعل بالإيمان كان ردهم علىٰ فرعون:

﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَـٰيَـٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾ [طه].

هٰذا: والدلالة علىٰ الغلام من قبل جليس الطاغية لم تشفع له وقد قال له: «ربي وربك الله» فجاء به مرة أخرىٰ ليرجع عن دينه، ولما لم تفلح مطارق التعذيب الحاقد في ذٰلك: قضىٰ عليه بالمنشار كما قضىٰ علىٰ الراهب. وويل للظالمين حيثما كانوا وفي أي عصر وجدوا من عذاب يوم أليم. وهنيئاً للصابرين المحتسبين ما ينتظرهم عند الله في جنات النعيم.





ربي وربك الله..

في الطريق إلىٰ اصطحاب ما تبقىٰ من قصة أصحاب الأخدود والساحر والراهب والغلام: لا بد من الإشارة إلىٰ أن ما حفلت به من أمور عظام ـ هي من الآيات الدالة علىٰ وحدانية الله وكمال قدرته وبالغ حكمته في الخلق والتقدير والتدبير: كان جديراً أن يحرك قلب الطاغية فيصحو من غفلته ـ لو كان له قلب ـ ولٰكن لم يزدد إلا عتواً واستكباراً، وحرصاً علىٰ الفتن عن الدين والقضاء علىٰ المؤمنين الموحدين. ذٰلك بأن الذين يركبون متن الضلال ـ مصرين فيستحبون العمىٰ علىٰ الهدىٰ، ويرين علىٰ قلوبهم ما هم متمرغون فيه من الإثم ـ تغلق دون عقولهم منافذ التفكر والتبصر بآيات الله من حولهم، ويصبحون عنها غافلين، فتراهم يمرون بها ـ والجو من حولهم زاخر بآثارها ودلائلها ـ وهم في إعراض عن أية محاولة جادة في فهم شيء من مدلولاتها، فهماً يجعلهم الشراع من وجهة الظلام إلىٰ وجهة النور، موقنين ببالغ حكمة الله في ما خلق وقدّر.

وهٰكذا يظلون مقيمين مقعدين علىٰ ما هم فيه من عمىٰ البصيرة المهين، وكل يوم تطلع شمسه عليهم يحمل جديداً مؤذياً من آثار تلك العماية الضاربة علىٰ قلوبهم بالأسداد، يظهر في تصرفاتهم وسلوكهم فالظلام مطبق، وتزيينات الشيطان والهوىٰ آسرة، والران يحول دون القلب ودون أن يتحرىٰ شيئاً من الخير.

ولقد نعىٰ الله علىٰ أولٰئك الغافلين الذين تجدهم، علىٰ كثرة الآيات في أنفسهم وفي الآفاق من حولهم: يمرون عليها ـ وبدلاً من أن يفتحوا لها قلوبهم وعقولهم، فيتفكروا ويتدبروا، ويكون لهم حسن العاقبة جزاء التفكر والتدبر ـ يرفعون عقيرتهم بالإعراض عنها، ويحرمون نور الهداية بعد الضلال، والعبودية الخالصة لله، بعد الفرعنة والخبط في التيهاء.

يقول ربنا جل شأنه في سورة يوسف: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾.

ثم إن الآيات التي هي العلامات الدالة علىٰ وجود الخلق ووحدانيته وقدرته وحكمته سبحانه، في تدبير لحركة الإنسان والكون والحياة، أعظم تدبير وأحكمه: هٰذه الآيات تكرر ذكرها والإشارة إليها في مواطن عدة من القرآن الكريم من مثل قوله تعالىٰ في خواتيم سورة آل عمران: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾.

وغير خاف أن الآيات التي هي تلك العلامات... لا ينحصر أمر الدلالة فيها، علىٰ الكوني منها والمتعلق بإعجاز الخلق وما إلىٰ ذٰلك ـ مع كونه هو المقدّم ـ ولٰكنها تشمل ما يبرز في حياة العباد من أمور ووقائع لها حضور متميز ـ يدل فيما يدل ـ علىٰ وجود البارئ المصور، ووحدانيته، وكمال قدرته ـ جل شأنه ـ وبالغ حكمته، وأنه المعبود بحق، ولا معبود بحق سواه، بل ما يدعىٰ من دونه هو الباطل بعينه، وله ـ جل شأنه ـ الأسماء الحسنىٰ والصفات العلا، وهو علىٰ كل شيء قدير.

ولٰكن الطاغوت الضليل ـ مطية الشيطان ـ قد حقت عليه ـ كما نطقت القصة ـ كلمة العماية عن الحق؛ حتىٰ إنه ظل شديد الغفلة عما بدا من تحول الغلام عن الساحر المقيم علىٰ الباطل، إلىٰ الراهب الموحد نصير الحق، وعما ظهر علىٰ يد ذٰلك الغلام من تلك الكرامة التي أكرمه الله بها في قتل الدابة العظيمة الفظيعة برميته وكان موتها فرجاً للناس، وتجاهل بِغلّ حاقد ما برز للعيان من إبرائه الأكمه والأبرص، ومداواته الناس من سائر الأدواء يومذاك، ثم ما كان من بصر جليسه الذي آمن بالله، فشفاه الله بدعوة منه. وكل أولٰئك لا تعليل له إلا الإيمان.

ولم يكن عجباً من العجب أن يغفل ويمعن في الغفلة عما كان من قوة ضحاياه في الحق، وصبرهم علىٰ أهوال التعذيب وهم العزّل إلا من سلاح الإيمان والتوكل علىٰ الله.

وهٰكذا لم يقابل هٰذا الغافل المتغطرس ـ وقد أظلمت نفسه ومات قلبه

ـ وضوح الآيات إلا بمزيد من الإعراض عن الحق والشدة علىٰ من أذلهم وصادر حريتهم وأهمل وجودهم حاملاً إياهم بالعسف علىٰ اتخاذه رباً من دون الله، فهو مصر أبداً ـ كما دلت القصة بكاملها ـ علىٰ الفتن عن الدين وإزهاق أرواح المخالفين. ولنعد إلىٰ بقية القصة حيث نقرأ في النص:

«ثُمَّ جِيءَ بِالْغُلَامِ فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ. فَأَبَىٰ فَدَفَعَهُ إِلَىٰ نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَىٰ جَبَلِ كَذَا وَكَذَا، فَاصْعَدُوا بِهِ الْجَبَلَ، فَإِذَا بَلَغْتُمْ ذُرْوَتَهُ فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ، وَإِلَّا فَاطْرَحُوهُ، فَذَهَبُوا بِهِ فَصَعِدُوا بِهِ الْجَبَلَ فَقَالَ: اللَّهُمَّ! اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ. فَرَجَفَ بِهِمُ الْجَبَلُ فَسَقَطُوا، وَجَاءَ يَمْشِي إِلَىٰ المَلِكِ، فَقَالَ لَهُ المَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللهُ. فَدَفَعَهُ إِلَىٰ نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ، فَاحْمِلُوهُ فِي قُرْقُورٍ فَتَوَسَّطُوا بِهِ البَحْرَ، فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ، وَإِلَّا فَاقْذِفُوهُ. فَذَهَبُوا بِهِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ! اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ. فَانْكَفَأَتْ بِهِمُ السَّفِينَةُ فَغَرِقُوا، وَجَاءَ يَمْشِي إِلَىٰ المَلِكِ، فَقَالَ لَهُ المَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللهُ. فَقَالَ لِلْمَلِكِ: إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّىٰ تَفْعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ. قَالَ: وَمَا هُوَ قَالَ: تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ وَتَصْلُبُنِي عَلَىٰ جِذْعٍ، ثُمَّ خُذْ سَهْماً مِنْ كِنَانَتِي، ثُمَّ ضَعِ السَّهْمَ فِي كَبِدِ القَوْسِ، ثُمَّ قُلْ: بِاسْمِ اللهِ رَبِّ الغُلَامِ. ثُمَّ ارْمِنِي فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذٰلك قَتَلْتَنِي. فَجَمَعَ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَصَلَبَهُ عَلَىٰ جِذْعٍ، ثُمَّ أَخَذَ سَهْماً مِنْ كِنَانَتِهِ، ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبِدِ القَوْسِ، ثُمَّ قَالَ: بِاسْمِ اللهِ رَبِّ الغُلَامِ. ثُمَّ رَمَاهُ فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صُدْغِهِ فِي مَوْضِعِ السَّهْمِ، فَمَاتَ، فَقَالَ النَّاسُ: آمَنَّا بِرَبِّ الغُلَامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الغُلَامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الغُلَامِ. فَأُتِيَ الْمَلِكُ فَقِيلَ لَهُ: أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ؟ قَدْ وَاللهِ نَزَلَ بِكَ حَذَرُكَ، قَدْ آمَنَ النَّاسُ. فَأَمَرَ بِالأُخْدُودِ فِي أَفْوَاهِ السِّكَكِ فَخُدَّتْ، وَأَضْرَمَ النِّيرَانَ وَقَالَ: مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ دِينِهِ فَأَحْمُوهُ فِيهَا. أَوْ قِيلَ لَهُ: اقْتَحِمْ. فَفَعَلُوا، حَتَّىٰ جَاءَتِ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا، فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا، فَقَالَ لَهَا الغُلَامُ: يَا أُمَّهِ، اصْبِرِي، فَإِنَّكِ عَلَىٰ الحَقِّ».

هٰكذا يزداد الطاغية عنتاً بوضوح الآيات الدالة علىٰ أن وراء هٰذه الحوادث خالقاً حكيماً لا معقب لحكمه ولا رادّ لفضله علىٰ عباده المؤمنين.

وعلىٰ هٰذا السنن تعامل مع اضطراب الجبل وانكفاء السفينة، ولٰكن ماذا أنت صانع بمن حرم التوفيق ولم ينشرح صدره للهداية علىٰ أي طريق!! بل أمعن في الإصرار علىٰ قتل الغلام بدلالة من الغلام نفسه.

قال الإمام أبو العباس القرطبي: (وقد أظهر الله لهٰذا الملك الجبار الظالم من الآيات والبينات ما يدل ـ علىٰ القطع والثبات ـ أن الراهب والغلام علىٰ الدين الحق والمنهج الصدق، لٰكن من حرم التوفيق: استدبر الطريق ثم قال: وفي هٰذا الحديث إثبات كرامات الأولياء)[1]. وهو ما ذهب إليه الإمام النووي[2] ومن قبله القاضي عياض حيث قال: (وفيه إثبات كرامات الأولياء، وإجابة دعواتهم باختبارهم كما أظهر الله في قصة هٰذا الغلام وكفاية الله له من تلك المهالك)[3].

وكما شاء الله أن يتحول قلب الغلام عن الساحر المتخذ صديقه رباً من دون الله، إلىٰ الراهب المؤمن بالله، وترتب علىٰ ذٰلك ما ترتب من الخير: شاء سبحانه ـ أن يكون موت هٰذا الغلام علىٰ صورة كانت بآثارها أشبه ـ في صراع الحق مع الباطل ـ بالغيث العميم يحيي موات الأرض الخاشعة الهامدة.

أرأيت إلىٰ الطاغوت عندما قال ـ بعد صلب الغلام ـ: باسم رب الغلام، وأصاب السهم صدغ الغلام فمات! كيف تعالت أصوات الناس كافة هناك بقولهم: «آمنا برب الغلام» يكررون ذٰلك مرات ثلاثاً!!

أليس هٰذا غيثاً علىٰ طريق الدعوة الإيمانية إلىٰ يوم اللقاء؟ فإذا أضيف إلىٰ ذٰلك صبر هٰذه الجماهير علىٰ إلقائهم في النار في سبيل الله وما صدر عن الطفل الذي لم يكن في سن الكلام، من قوله لأمه وقد تقاعست خوفاً عليه ثم

---

(١) «إكمال إكمال المعلم» للأُبِّي: ٧/ ٣٠٦.

(٢) «المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم»: (٢٩٢٧) ٧/ ٤٢٤.

(٣) «صحيح مسلم بشرح النووي»: ١٨/ ١٣٠.

علىٰ نفسها من النار: «يا أمه اصبري فإنك علىٰ الحق..!!» إذا أضيف هٰذا إلىٰ ذاك تأكدت حقيقة هٰذا الغيث الذي يعمل عمله دائماً في أجيال المؤمنين، شحذاً للعزائم وصبراً علىٰ متطلبات التغيير من داخل النفوس وخارجها.

هٰذا، وقد كان الهدي المحمدي ـ ومنه هٰذا التذكير بوقائع هٰذه القصة الزاخرة بالعبر ـ ملء السمع والبصر عند أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام، فقد امتحن كثير منهم بالقتل وبالصلب وبالتعذيب الشديد ـ كما يقول القرطبي ـ وبذلوا نفوسهم في الله وأموالهم علىٰ ساحات الجهاد والمحن وغير ذٰلك، ودخلوا البيوت من أبوابها بالإعداد الصحيح وفق سنن الله، وفارقوا ديارهم وأولادهم، حتىٰ أظهروا دين الله، ووفوا بما عاهدوا الله عليه، فكانوا خير قدوة بعد رسول الله علىٰ طريق نصرة الحق، ولا يخلو عصر من المتأسين بصنيعهم والحمد لله، حتىٰ يرث الله الأرض ومن عليها.



رحلة في طلب العلم

أبو اليَسَر.. والطالبان النابهان

(١)

لقد كانت حقبة فياضة بالخير في تاريخنا، مشرقة بنور الهداية والعطاء، ناطقة بالتوجه الحضاري السليم: تلك التي كان الصحابة عليهم الرضوان ـ وهم العدول الفحول والثقات الأمناء، الذين آمنوا بالرسول المصطفىٰ صلوات الله وسلامه عليه، وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه ـ ينقلون فيها دين الإسلام إلىٰ الأمة بأقوالهم وأفعالهم، وممارستهم ـ في ظل ضوابطه ـ للحياة، ثم بسلوكهم المتميز في بناء التاريخ في حالات السلم والحرب والمنشط والمكره، كل أولـٰئك بلا شطط ولا تمحّل ولا إبهام، بل بمنهجية وإحكام فوقه إحكام.

وقد نالوا شرف هـٰذه المهمة الكبرىٰ مستجيبين لأولـٰئك الرجال والنساء من التابعين صادقي الرغبة في التعلم منهم، والأخذ عنهم، بأهلية تجمع إلىٰ التوجه العلمي: حرصاً علىٰ أن يكون الواحد منهم ـ في كل ما يأخذ ويذر ـ في طاعة الله، يرجو ثوابه ويخاف عقابه يوم الدين.

كان عليّ أن أشير إلىٰ هـٰذه الحقيقة الناصعة، وأنا أشرف بالنظر في حديث رواه الإمام مسلم في «صحيحه»، قوامه قصة جرت لعبادة بن الوليد حفيد الصحابي الجليل عبادة بن الصامت ﵁ وأبيه الوليد، إذ كان من توفيق الله إياهما: أن توجها ـ في نور قوله تعالىٰ خطاباً للنبي ﷺ في سورة طه ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [١١٤] وقوله ﷺ ـ فيما روىٰ مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﵄ ـ: «**من التمس طريقاً يلتمس فيه علماً سهّل الله له طريقاً**

إلىٰ الجنة»[1] توجها في نور ذٰلك وغيره من النصوص المرغبة في طلب العلم، علىٰ من تسنىٰ لهما لقياه من الأنصار ﷺ، ليكونا طالبين جادّين همّهما التماس ما عند أولٰئك الصحابة الميسر لقاؤهم، من العلم النافع الذي أكرمهم الله به أخذاً عن الرسول ﷺ، فهداهما الله إلىٰ اثنين في حي الأنصار هما: (أبو اليسر) كعب بن عمرو الأنصاري السلمي الذي لقياه أولاً، ثم جابر بن عبد الله الأنصاري ﷺ.

والذي حصل ـ بتوفيق من الله وعون ـ أنه تحقق لذينك الطالبين الحريصين الحرص كله علىٰ تلقي تلكم المعلومات المنوّرة بنور الرسالة الخاتمة: ما يمكن أن ندعوه بالرحلة العلمية العملية المباركة، مع عدد من الوقائع التي كان التعامل معها بارزاً من خلال هدي النبي عليه الصلاة والسلام، والعمل به علىٰ صعيد الواقع.

وكم كانا سعيدين بما حصل لهما من ذٰلك، إذ كانا يعيشان الواقعة مع شيخهما الصحابي، ويبصران علىٰ ساحة العطاء العلمي كيف تعالج شؤونها بذٰلك الهدي المبارك الذي حفظه ووعاه ﷺ من إمام الهدىٰ والمبلغ عن الله ما أراد نبي الرحمة صلوات الله وسلامه عليه، فاجتمع لهما العلم الشرعي النافع، والتربية بالأسوة مع العمل والممارسة وفق الهدي المحمدي، وأصبحت علاقة كل منهما بسنة النبي ﷺ، وسيرته وسيرة من أخذوا عنه العلم والعمل والأخلاق: تتجدد كل يوم بتنام ملحوظ، وزيادة نيّرة فعّالة بالغة التأثير في الثقافة والسلوك علىٰ سلم التقرب إلىٰ الله، وذٰلك بأخذ النفس بأحكام الإسلام وآداب الإسلام.

علىٰ أن تلك الرحلة الميمونة التي كانت غزيرة العطاء الرباني الذي دونه كل عطاء: تميزت بشقها الثاني الذي كان مع جابر بن عبد الله ﷺ: بالحديث عن عدد من معجزات الرسول عليه الصلاة والسلام، الأمر الذي يضاعف الذوق لحلاوة الإيمان بمن لا ينطق عن الهوىٰ عليه الصلاة والسلام.

---

(١) «إكمال المعلم بفوائد مسلم» للقاضي عياض: ٨/ ٥٥٧ ـ ٥٥٨ (٣٠٠٥).

والحق أن عبادة بن الوليد حفيد عبادة بن الصامت رضي الله عنه ووالده: قد حالفهما السداد وصواب الوجهة حين أتيا البيوت من أبوابها، فطرقا باب الصحابة طلباً لما عند الصحابي من العلم الغزير الذي سداه ولحمته ما جاء في كتاب الله وفي بيانه من سنة النبي عليه الصلاة والسلام، خصوصاً أن الصحابة وهم الجسر المبارك القوي الموثوق الذي وصلنا بهدي السماء: كانوا خير عون للرسول صلوات الله وسلامه عليه في الدعوة والبلاغ، وهو عون بلغ مبلغ أن يكونوا ـ عليهم الرحمة والرضوان ـ ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾، وهو ما أخبر القرآن أنه مثلهم في الإنجيل[1].

ولقد كان من حسن التأتي عند ابن مسعود رضي الله عنه في تبيان هٰذه الحقيقة، قوله ـ كما روىٰ الإمام أحمد ـ: (إن الله نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه، يقاتلون علىٰ دينه؛ فما رأىٰ المسلمون حسناً فهو عند الله حسن، وما رأوا سيئاً فهو عند الله سيئ)[2].

وهاكم الشطر الأول من القصة كما جاءت فيما روىٰ مسلم بسنده في «صحيحه» حيث قال رحمه الله: حدثنا هارون بن معروف ومحمد بن عبادة ـ وتقاربا في لفظ الحديث، والسياق لهارون ـ قالا: حدثنا حاتم بن إسماعيل عن يعقوب بن مجاهد أبي حزرة عن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت قال: خرجت أنا وأبي نطلب العلم في هٰذا الحي من الأنصار، قبل أن يهلكوا، فكان أول من لقينا أبا اليسر صاحب رسول الله ﷺ، وعلىٰ أبي اليسر بُردة ومَعافِريّ، وعلىٰ غلامه بردة ومعافري، فقال له أبي:

يا عمّ، إني أرىٰ في وجهك سُفعة من غضب! قال: أجل؛ كان لي علىٰ فلان بن فلان الحرامي مال، فأتيت أهله، فسلمت فقلت: أثم هو؟ قالوا: لا، فخرج عليَّ ابن له جَفر[3]، فقلت له: أين أبوك؟ قال: سمع صوتك،

---

(١) وانظر: «صحيح مسلم بشرح النووي»: ١٨/ ١٣٤.
(٢) وانظر: الآية بتمامها في (الفتح: ٢٩). (٣) «المسند»: (٣٥٩٨).
(٤) جَفَر: في شكله ضخامة وقيل: هو الذي قارب البلوغ وانظر: «شرح النووي لصحيح

فدخل أريكة أمي. فقلت: اخرج إلي فقد علمت أين أنت، فخرج، فقلت: ما حملك علىٰ أن اختبأت مني؟ قال: أنا، والله أحدثك ثم لا أكذبك، خشيت والله أن أُحدثك فأكذبك، وأن أعدك فأُخلفَك، وكنتَ صاحب رسول الله ﷺ وكنت، والله معسراً.

قال: قلت: آلله؟ قال: آلله. قال: قلت: آلله؟ قال: اللهِ. قلت: آلله؟ قال: آللهِ.

قال: فأتىٰ بصحيفة فمحاها بيده، فقال: إن وجدتَ قضاء فاقضني، وإلا أنت في حِلٍّ. فأشهد بصرُ عينيَّ هاتين ـ ووضع أصبعيه علىٰ عينيه ـ وسمعُ أذني هاتين، ووعاه قلبي هٰذا ـ وأشار إلىٰ مناط قلبه ـ رسولَ الله ﷺ وهو يقول: «**من أنظر معسراً، أو وضع عنه: أظله الله في ظله**».

قال: فقلت: يا عم، لو أنك أخذت بردة غلامك وأعطيته مَعافِريَّك، وأخذت معافريَّه وأعطيته بردتك، فكانت عليك حلة وعليه حلة.

فمسح رأسي وقال: اللهم بارك فيه! يا ابن أخي، بصرُ عيني هاتين وسمعُ أذني هاتين، ووعاه قلبي هٰذا ـ وأشار إلىٰ مناط قلبه ـ رسول الله ﷺ وهو يقول: «**أطعموهم مما تأكلون، وألبسوهم مما تلبسون**» وكان أن أعطيته من متاع الدنيا أهون عليّ من أن يأخذ من حسناتي يوم القيامة[1].



مسلم»: ١٨/ ٣٣٣، «المصباح»: (ج ف ر).

رحلة في طلب العلم

أبو اليَسَر.. والطالبان النابهان

(٢)

ظاهرة الرغبة في تحصيل العلم، التي كانت من عطاء الإسلام، في عصر التابعين تلامذة الصحابة عليهم الرضوان، وامتدت آثارها البانية عبر التاريخ: كان من صورها المشرقة، صنيع التابعي عبادة بن الوليد، حفيد عبادة بن الصامت ﷺ وأبيه الوليد، يوم صح منهما العزم ـ وهو ماجاء في «صحيح مسلم» ـ كما أسلفنا من قبل ـ علىٰ التوجه إلىٰ ذٰلك الحي من الأنصار ابتغاء طلب العلم النافع في واحد من أحياء الأنصار تحقيقاً لما يجب علىٰ المكلَّف تحصيلُه من المعرفة بأمور دينه في العقيدة والعبادات والمعاملات، والسلوك وما إلىٰ ذٰلك، كيما يكون ـ بوصفه مسلماً ذكراً كان أو أنثىٰ ـ علىٰ حال يسهم فيها بحركة الحياة وعمارة الأرض ولا ينسىٰ الله واليوم الآخر، الأمر الذي يضمن معه العمل المخلص بأحكام الدين، والتخلق بأخلاقه وآدابه، كما يتحقق به الوجود الذاتي للفرد والجماعة بالإسلام، حيث الانتماء إلىٰ خير أمة أخرجت للناس.

وكان من الحصافة بمكان: المسارعة إلىٰ ذٰلك قبل أن يهلك حملة العلم، فيفقد هٰذا العلم بموتهم لأن الأصل في تلك الحقبة هو الحفظ، ولم تكن الكتابة منتشرة بين الناس، بل في القليل منهم، فضلاً عن عدم وجود الطباعة ووسائل عدم ضياع العلم التي نراها اليوم، ذٰلكم قول عبادة الحفيد: (خرجت أنا وأبي نطلب العلم في هٰذا الحي من الأنصار قبل أن يهلكوا)[١].

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي»: ١٨/ ١٣٤ ـ ١٣٦ (٧٤٣٧).

=

ونعم الباعث لما صنع عبادة وأبوه: ونعم من صح العزم علىٰ أن يُطلب العلم فيهم ويؤخذ عنهم؛ فمن أحسن قولاً وأقوم علماً وتعليماً، وأحكم أداء لأمانة الأخذ عن رسول الله والتبليغ عنه من الجيل الفريد جيل الصحابة أجزل الله مثوبتهم وعمّهم برضوانه!

وكم كان عبد الله بن مسعود مشرق الإبانة ـ كما رأينا فيما سلف من القول ـ عن حقيقة أن الله كما ابتعث نبيه محمداً ﷺ بالرسالة الخاتمة: اختار ذٰلك الجيل من المهاجرين والأنصار لصحبته، وحمل رسالته والذود عنها، ناهيك عن نقلها وتبليغها عنه.

وها هو ذا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يحضّ علىٰ الاستنان بهم والأخذ عنهم والتشبه بأخلاقهم وطرائقهم، لما أنهم خير هٰذه الأمة، ولما هم عليه من كمال الأهلية لذٰلك؛ فقد روىٰ أبو نعيم بسنده في «الحلية» وغيره عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: (من كان مستناً فليستنّ بمن قد مات، أولٰئك أصحاب محمد ﷺ، كانوا خير هٰذه الأمة، أبرّها قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلّها تكلفاً، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ ونقل دينه، فتشبهوا بأخلاقهم وطرائقهم. فهم أصحاب محمد ﷺ، كانوا علىٰ الهدىٰ المستقيم ورب الكعبة)[1].

وفي عود علىٰ بدء: إذا كان عبادة رحمه الله حفيد عبادة بن الصامت رضي الله عنه وأبوه الوليد: قد ترجما العزم علىٰ طلب العلم في ذٰلك الحي من الأنصار إلىٰ تحرك وتنفيذ، فما الذي حصل لهما في ذٰلك الحي المبارك؟!

الذي حصل أنهما لقيا أول ما لقيا: واحداً من أصحاب الرسول ﷺ وهو كعب بن عمرو السلميّ المعروف بـ(أبي اليسر) لقياه ومعه غلام له، فبلغ من اهتمام عبادة بما جاءا من أجله أن وصف لنا بدقة صورة ما كان عليه أبو اليسر وغلامه حتىٰ من حيث الملبس، وما الذي كان يحمله الغلام بيده، وما

---

(١) «صحيح مسلم» مع «إكمال المعلم» للقاضي عياض: ٨/ ٥٥٩ (٣٠٠٦)، «صحيح مسلم بشرح النووي»: ١٨/ ١٣٥. =

كان من سؤال أبيه الوليد أبا اليسر عن تلك السفعة من الغضب التي يبصرها الناظر في وجهه، حيث قصّ عليهما أبو اليسر قصة السبب في ذٰلك، وفصل القول في هٰذا السبب تفصيلاً كشف عن مشكلة رجع ﷺ في حلها إلىٰ هدي النبي ﷺ بنصّه، دون أي حرج في صدره.

وقد تكفلت الرواية عن الإمام مسلم بالإحاطة بذٰلك إحاطة دلت علىٰ الاهتمام الذي أومأنا إليه، وما ترتب عليه من الفائدة العظيمة؛ فقد جاء هناك: (فكان أول ما لقينا أبا اليسَر صاحب رسول الله ﷺ، ومعه غلام له مع ضِمامة من صحف، وعلىٰ أبي اليسر بُردة ومَعافِريّ، وعلىٰ غلامه بردة ومعافري، فقال له أبي: يا عم، إني أرىٰ في وجهك سُفعة من غضب)[1].

وبعد البيان الواضح عن سببها المتعلق بأمر يتصل بمدين له كان يختبئ منه عندما يسمع صوته بالمطالبة بدَينه؛ نقع في الحديث علىٰ إجابة عن تساؤل تثيره الواقعة في النفس أيما إثارة هي ـ والكلام عن أبي اليسر ـ (فأتىٰ بصحيفته، فمحاها بيده فقال: إن وجدت قضاء فاقضني، وإلا أنت في حلّ) ويتابع هٰذا الصحابي الوقّاف عند الهدي المحمديّ فيقول: (فأشهد بصرُ عينيّ هاتين ـ ووضع أصبعيه علىٰ عينيه ـ وسمعُ أذنيّ هاتين، ووعاه قلبي هٰذا ـ وأشار إلىٰ مناط قلبه ـ رسول الله ﷺ يقول: «**من أنظر معسراً، أو وضع عنه، أظلّه الله في ظله**»)[2].

وهل انتهىٰ الأمر عند هٰذا الحد؟ لا، بل كان هناك تساؤل جديد من عبادة الذي يريد أن يتعلم ـ وهو تلميذ ناشئ ـ من ذاك الصحابي الذي تناولته يد محمد ﷺ الصناع بالتعليم والتربية والتزكية: ما يرىٰ تعلمه من كل تصرف من تصرفاته علىٰ أرض الواقع؛ إذ ما لبث بعد الذي رأىٰ وسمع أن طرق باباً جديداً من أبواب الخير.

ها هو ذا يقول له بحرية كاملة يزينها الأدب الجم: (يا عمّ، لو أنك

(١) انظر: «حلية الأولياء» لأبي نعيم: ١/ ٣٠٥ ـ ٣٠٦.
(٢) «صحيح مسلم بشرح النووي»: ١٨/ ٣٣٣.

أخذت بردة غلامك وأعطيته معافريك) فيجيبه أبو اليسر بما يدل علىٰ أن التوجيه النبوي هو ملء السمع والبصر، وخيرته التي كانت صاحبة السلطان في تصرفاته فيقول: (اللهم بارك فيه! يا ابن أخي، بصر عينيّ هاتين وسمعُ أذني هاتين، ووعاه قلبي هٰذا ـ وأشار إلىٰ مناط قلبه ـ رسول الله ﷺ وهو يقول: «**أطعموهم مما تأكلون، وألبسوهم مما تلبسون**»، وكان أن أعطيته من متاع الدنيا أهون علي من أن يأخذ من حسناتي يوم القيامة)[١].

وأبو اليسر: هو الصحابي الجليل كعب بن عمرو الأنصاريّ السلمي، شهد العقبة الكبرىٰ، كما شهد بدراً وهو ابن عشرين سنة وله فيها آثار كثيرة، وهو الذي أسر العباس رضي الله عنه يومئذ، روىٰ عن النبي ﷺ وقال الحافظ مشيراً إلىٰ القصة بمراحلها التي حولها ندندن: روىٰ عنه عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت، وحديثه مطوّل أخرجه مسلم. مات رضي الله عنه بالمدينة سنة خمس وخمسين. وقيل إنه آخر من مات من أهل بدر رضي الله عنهم أجمعين[٢].

وفي حديث طويل للإمام أحمد فيه ذكر خيبر: أن النبي ﷺ بعثه في حاجة يومذاك، فرآه مولياً وهو يقوم بها، فقال: «**اللهم أمتعنا به**» فكان من آخر الصحابة موتاً، وكان إذا حدث بهٰذا الحديث بكىٰ وقال: أُمتعوا بي لعمري حتىٰ كنت من آخرهم[٣].

ومن الطرائف المؤثرة في حياة أبي اليسر: ما روىٰ الطبري في تفسيره لقوله تعالىٰ في سورة آل عمران: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ . . .﴾ إلىٰ قوله: ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [١٢٣ ـ ١٢٥] عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (كان الذي أسر العباس ـ يعني في بدر ـ أبا اليسر كعب بن عمرو أخا بني سلمة، وكان رجلاً مجموعاً،

---

(١) المصدر السابق: ١٨/ ٣٣٣.

(٢) «صحيح مسلم» مع «إكمال الإكمال»: ٨/ ٥٦٠ ـ ٥٦١ (٣٠٠٦)، «صحيح مسلم بشرح النووي»: ١٨/ ١٣٥ ـ ١٣٦.

(٣) «الإصابة في تمييز الصحابة»: ٤/ ٢٢١ (١٢٤٥) و«تهذيب التهذيب»: ٨/ ٤٣٧ ـ ٤٣٨ (٧٩١) للحافظ ابن حجر، «تهذيب الكمال» للمزي: (٣٦١١).

وكان العباس رجلاً جسيماً، فقال رسول الله ﷺ لأبي اليسر: كيف أسرت العباس أبا اليسر؟ قال: يا رسول الله، لقد أعانني عليه رجل ما رأيته قبل ذٰلك ولا بعده، هيئته كذا وكذا، قال رسول الله ﷺ: «**لقد أعانك عليه ملك كريم**»[1].

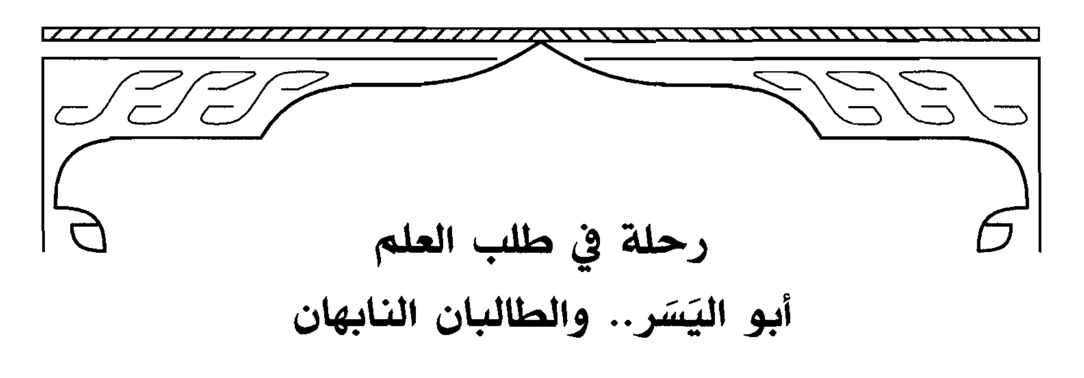
وعند الإمام أحمد: ما روىٰ رضي الله عنه عن النبي ﷺ من دعاء جاء فيه: «..**اللهم! إني أعوذ بك أن يتخبطني الشيطان عند الموت، وأعوذ بك من أن أموت في سبيلك مدبراً**»[2].

هٰذا: والتابعي طالب العلم البارع منوَّر القلب والذهن: عبادة: قد روىٰ عن عدد من الصحابة غير أبي اليسر وهو ثقة. أما أبوه الوليد: فهو صحابي صغير ثقة ولد في عصر النبي ﷺ ورآه، وقد توفي في خلافة عبد الملك بن مروان.



(١) «المسند»: ٣/ ٤٢٧.

(٢) «جامع البيان» للطبري: ٤/ ٧٨. وانظر: «الجامع الصحيح» مع «فتح الباري»: ٧/ ٣٢٢ المغازي ـ من شهد بدراً.



رحلة في طلب العلم

أبو اليَسَر.. والطالبان النابهان



لعل من الخير أن أذكّر بأن أول ما سعدنا به من قبل، مما اشتمل عليه حديث جابر بن عبد الله الطويل وقصة أبي اليسر كعب بن عمرو السَّلميّ في «صحيح مسلم»: ما قص علينا التابعي الجليل حفيد عبادة بن الصامت رضي الله عنه: عبادة بن الوليد بن عبادة، من أنه رحمه الله وأباه الوليد الذي ولد في عصر النبي صلى الله عليه وسلم ورآه؛ فهو من صغار الصحابة: خرجا يطلبان العلم في هٰذا الحي من الأنصار قبل أن يهلكوا.

وهٰذا أوان تفصيل ما سبق التنبيه بإشارة عجلىٰ عليه: من أن ما قصه عبادة هٰذا جزاه الله عن المسلمين كل خير: عنوانَ صفاء في القلب، وحصافة في التفكير؛ لما أنه مؤذن بما كان عليه من الحرص الشديد علىٰ تحصيل العلم الشرعي ـ النافع في دينه ودنياه ـ من أهله الذين أخذوه بلا واسطة عن رسول الله عليه الصلاة والسلام، وكان سلوكهم ترجماناً عملياً لما علموا؛ لأن طاعته صلوات الله عليه من طاعة الله، ومن قبل عن رسول الله فعن الله قبل! وقوله: (قبل أن يهلكوا) مؤذن مرة أخرىٰ بإدراكه للواقع علىٰ ساحة العلم والتعلم حسب النقلة العظيمة التي نقل الإسلام إليها الناس، حيث الرغبة في العلم والاستزادة من المعرفة وحيث الحفظ في الصدور هو الأصل، والكتابة ـ حين توجد ـ رافد مبارك لهٰذا الحفظ؛ فإذا تقاصرت الأمة عن الأخذ من العلماء وظل العلم مختزناً لم ينتشر، والوسائل التي وجدت فيما بعد لم تكن: فمعنىٰ ذٰلك أن ما يحتويه صدر هٰذا العالم

من العلم: يذهب معه إلىٰ القبر وتحرم الأمة منه، وهٰذا من الكوارث بلا ريب.

ومن هنا كان الإقبال عظيماً من التابعين يرحمهم الله علىٰ الأخذ عن الصحابة ﷺ علىٰ تفاوت بينهم في ذٰلك، في هٰذا الأمر الجلل، وجنت الأمة من وراء ذٰلك الخير الكثير في دينها ودنياها، وكل ما فيه تحقيق وجودها الذاتي الحضاري وعطائها الشامل للجميع.

وبعد: فليس عجباً من العجب أن يذكرنا موقف تابعينا عبادة وأبيه أجزل الله مثوبته في مسارعتهما إلىٰ طلب العلم في ذٰلك الحي قبل أن يهلك أهله من الأنصار عليهم الرضوان: برائعة من روائع الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ﷺ ـ وكم له من روائع ـ حين أفزعه أن يستحرّ القتل ـ يشتد ويكثر ـ بقراء القرآن يوم اليمامة في حرب الردة، وخشي إن استحر القتل بهم بالمواطن أن يذهب كثير من القرآن بفقدهم ورأىٰ أن يأمر الخليفة أبو بكر بجمع القرآن حفاظاً عليهم، وبذٰلك يكون هو وإخوانه جنود الحفظ الذي وعد الله لكتابه الكريم بقوله جل شأنه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر] وتحقق ـ بحمد الله ـ الجمع الذي أراد عمر، وذٰلك بعد أن اقتنع أبو بكر، وعهد إلىٰ زيد بن ثابت بتلك المهمة العظمىٰ ﷺ، وظفرت الأمة بإنجاز وعد الله بالحفظ وحاشا لوعده أن يتخلف ولم يذهب من القرآن حرف واحد، ولله الفضل والمنة.

روىٰ الإمام البخاري في باب جمع القرآن من كتاب فضائل القرآن في «الجامع الصحيح» عن عبيد بن السبّاق (أن زيد بن ثابت ﷺ قال: أرسل إلي أبو بكر الصديق مقتل أهل اليمامة، فإذا عمر بن الخطاب ﷺ عنده، قال أبو بكر ﷺ: إن عمر أتاني فقال: إن القتل استحرّ يوم اليمامة بقراء القرآن، وإني أخشىٰ أن يستحرّ القتل بالمواطن، فيذهب كثير من القرآن، وإني أرىٰ أن تأمر بجمع القرآن. قلت لعمر: كيف نفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال عمر: هٰذا والله خير، فلم يزل عمر يراجعني حتىٰ شرح الله صدري لذٰلك، ورأيت في ذٰلك الذي رأىٰ عمر. قال زيد: قال أبو بكر: إنك رجل شاب

عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ، فتتبع القرآن فاجمعه.. إلىٰ أن قال: فتتبعت القرآن أجمعه من العُسُب واللِّخاف وصدور الرجال، حتىٰ وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع غيره ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ [١٢٨] حتىٰ خاتمة براءة، فكانت الصحف عند أبي بكر حتىٰ توفاه الله، ثم عند عمر حياته، ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله عنه)(١).

وإذا كان الخير يجلب الخير ـ والحديث موصول بقول التابعي عبادة بن الوليد (خرجت أنا وأبي نطلب العلم في هٰذا الحي من الأنصار، قبل أن يهلكوا) وفي ذٰلك ما فيه من النورانية في مواجهة الواقع، فلنذكر واحدة من روائع عمر بن عبد العزيز خامس الخلفاء الراشدين ذاتَ نسب إلىٰ رائعة جده عمر بن الخطاب، غير أنها في شأن الحفاظ علىٰ السنة بالتدوين الرسمي؛ لأنه خشي دروس السنة بموت حملتها من العلماء. صحيح أن الأصل في الحفاظ علىٰ السنة وتثبيتها في العقول والقلوب: هو الحفظ، ولٰكن جاءها رافد عظيم هو التدوين الاختياري في عصر النبي عليه الصلاة والسلام، بموافقته كالذي ثبت عن عبد الله بن عمرو بن العاص وعلي رضي الله عنهم، حتىٰ إنه هو ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أمر بكتابة واحدة من خطبه لأبي شاة، وزمرة من أحكام الزكاة، وأمور أخرىٰ، ولٰكن عمر بن عبد العزيز روّعه أن يموت العلماء والسنة في صدورهم، فتذهب بذهابهم، فأراد ـ أعلىٰ الله مقامه في الآخرين ـ أن تدوّن تدويناً رسمياً شاملاً من قبل ولي الأمر؛ فوجّه بعزم وحزم لذٰلك، فكان صنيعه أول تدوين رسمي لها بأمر الدولة، إذ العناية العظيمة بها ـ كما أسلفت ـ من طريق الحفظ أولاً والكتابة ثانياً بعد أن أذن النبي ﷺ بذٰلك: حاصلة من الصحابة والرسول بين ظهرانيهم عليه الصلاة والسلام.

---

(١) «المسند»: ٣/٤٢٧.

(٢) «الجامع الصحيح» عناية زهير الناصر: ٦/١٨٣، «الجامع الصحيح» مع «فتح

قال الإمام البخاري تحت باب كيف يقبض العلم من كتاب العلم في «الجامع الصحيح»: (وكتب عمر بن عبد العزيز إلىٰ أبي بكر بن حزم: انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه، فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء، ولا تقبل إلا حديث رسول الله ﷺ، ولتفشوا العلم، ولتجلسوا حتىٰ يعلَّ من لا يعلم، فإن العلم لا يهلك حتىٰ يكون سراً)[1]. ورواه الدارمي بأخصر من هٰذا[2].

قال الحافظ: (وكانوا قبل ذٰلك يعتمدون علىٰ الحفظ، فلما خاف عمر بن عبد العزيز وكان علىٰ رأس المائة الاولىٰ، من ذهاب العلم، رأىٰ أن في تدوينه ضبطاً له وإبقاء)[3].

وفي عود إلىٰ بدء: ما بدّ من تذكّر أن تابعينا عبادة ـ وقد خرج مع أبيه الوليد يطلبان العلم في ذٰلك الحي من الأنصار قبل أن يهلكوا: كان علىٰ صفاء في حدة الذهن وتنبه لما يرىٰ ويسمع، يلاحظ ذٰلك بدءاً من قوله كما جاء في «صحيح مسلم»: (فكان أول من لقينا أبا اليسر صاحب رسول الله ﷺ، ومعه غلام له معه ضِمامة من صحف، وعلىٰ أبي اليسر بردة ومعافري، وعلىٰ غلامه بردة ومعافري) أرأيت إلىٰ هٰذا الطالب الذكي الألمعي المتفحّص عما يدور حوله؟ وهو في هٰذا صنو أبيه علىٰ حد سواء.

ومما سبقت الإشارة إليه: أن أبا اليسر ﷺ وهو كعب بن عمرو الأنصاري السلمي: قد شهد بدراً وهو ابن عشرين سنة وقيل: إنه آخر من مات من أهل بدر رضي الله عنهم أجمعين.

هٰذا: وقول عبادة: (ضِمامة من صحف) الضمامة بكسر الضاد المعجمة: حزمة يضم بعضها إلىٰ بعض، أو رزمة ـ كما يقول الإمام النووي ـ يضم بعضها إلىٰ بعض. وجاء في «النهاية» لابن الأثير: (وفي حديث أبي

الباري»: ٩/ ١٠ ـ ١١ (٤٩٨٦).

(١) «الجامع الصحيح» مع «فتح الباري»: ١/ ١٩٤، كتاب العلم. وانظر: «الجامع الصحيح»: ١/ ٣١ عناية زهير الناصر.

(٢) «سنن الدارمي» المقدمة: ١/ ١٠٤ (٤٩٣).

اليسَر (ضمامة من صحف)؛ أي: حزمة. وهي لغة في الإضمامة)[1].

ولا يخفىٰ أن وجود هٰذه الضمامة من الصحف بيد غلام أبي اليسر دليل واضح علىٰ العناية بالعلم والتعلّم والتعليم، وقوله: (وعلىٰ أبي اليسر بردة ومعافري) (البردة): شملة مخططة وقيل: كساء أسود مربع فيه صغر ـ كما يقول ابن الأثير ـ تلبسه الأعراب. وجمعها بُرَد[2].

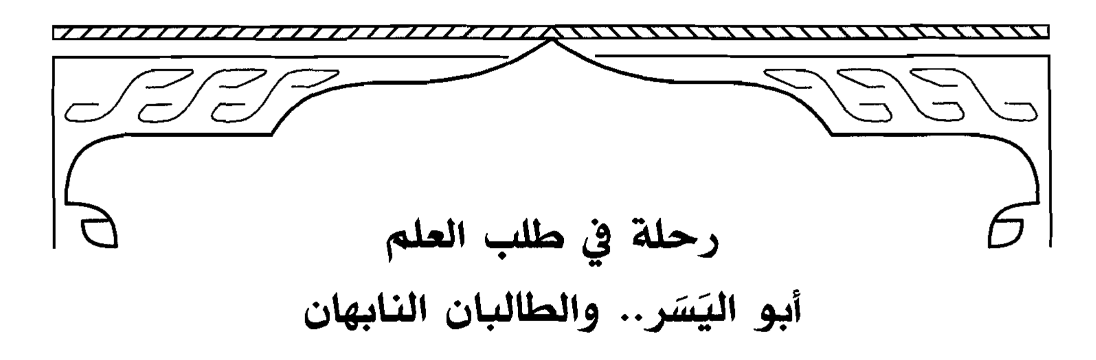
و(معافري): نوع من الثياب منسوب إلىٰ قرية يعمل بها تسمىٰ معافر، وقيل إلىٰ قبيلة باليمن نزلت تلك القرية، والميم زائدة[3].



(١) «فتح الباري»: ١/ ١٩٤.

(٢) «النهاية في غريب الحديث»: مادة: (ض م م).

(٣) المصدر السابق مادة: (برد). وانظر: «شرح النووي علىٰ صحيح مسلم»: ١٨/ ١٣٤.



رحلة في طلب العلم

أبو اليَسَر.. والطالبان النابهان



كان مما أشرقت به قصة عبادة بن الوليد حفيد عبادة بن الصامت رضي الله عنه وانتفاعه بصحبة أبي اليَسَر: اهتمامه بالعلم النافع المنوّر بنور الكتاب والسنة، والذي كان الصحابة رضوان الله عليهم غاية في النباهة والأمانة في حمله عن رسول الله ﷺ ونقله بدقة وأمانة بالغتين إلىٰ تلامذتهم من التابعين، لا بالقول فحسب، ولٰكن بالقول والفعل والممارسة أداء لأمانة التبليغ التي دعا إليها الرسول ﷺ بقوله: «**بلغوا عني ولو آية، ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار**»[1] وقوله: «**نضر الله امرأً سمع منا حديثاً فحفظه حتىٰ يبلِّغَه غيرَه، فرب حامل فقه إلىٰ من هو أفقه منه، ورب حامل فقه ليس بفقيه**»[2].

وكان من مظاهر هٰذا الاهتمام الميمون الذي يشي بكمال الوعي لواقع المجتمع، عند ذٰلك التابعي سليل العزة الإيمانية وصحبة الرسول عليه الصلاة والسلام، أنه خرج هو وأبوه يطلبان العلم في حي من أحياء الأنصار عليهم الرضوان قبل أن يهلكوا، فيفوتهم الخير الذي أخذه أولٰئك البررة عن رسول الله عليه الصلاة والسلام.

وقد أذكرنا قوله: (قبل أن يهلكوا) وما يحمل من تصور صحيح للواقع،

---

(١) وانظر: «شرح النووي علىٰ صحيح مسلم»: ١٨/ ١٣٤، «النهاية» مادة: (عفر).
(٢) رواه البخاري: (٣٤٦١).
(٣) أخرجه الترمذي: (٢٨٤٧)، وأبو داود: (٣٦٦٠)، وأحمد في «المسند»: (٢١٥٩٠)،

والحكمة في مواجهته علىٰ الشكل الذي ينبغي: ما كان من خوف عمر ﵁ أن يذهب كثير من القرآن بسبب استشهاد كثير من قراء الصحابة في حرب الردة مع مسيلمة الكذاب وأعوانه عليهم لعائن الله، واقتراحه مواجهة هٰذا الخطر بجمع القرآن، الجمع الذي تم علىٰ أكمل وجه والحمد لله.

كما أذكرنا هٰذا القول موقف خامس الخلفاء الراشدين، حفيد عمر في الأمر بتدوين السنة تدويناً رسمياً شاملاً تتبنّاه الدولة بعد أن خاف علىٰ السنة من ذهاب العلم ودروسه بموت العلماء أن يذهب ما في صدور أولٰئك الأنصار بذهابهم حين يهلكون، والمسارعةُ إلىٰ الأخذ عنهم قبل هُلكهم: يلتقي ـ كما أسلفنا ـ مع موقف عمر ﵁ في خوفه علىٰ القرآن، وموقف عمر بن عبد العزيز في خوفه علىٰ السنة. وتلك منقبة بالغة الأثر في تاريخنا، وهي مع كونها درساً مجيداً في ضرورة الاهتمام بالعلم النافع وعمل الخير ـ علىٰ وجه العموم ـ وسلوك السبيل التي تحقق ذٰلك، هي محطة حضارية في هٰذا التاريخ نحمد الله علىٰ وقوعها.

علىٰ أن موت العالم العامل المستنير سلوكه بخشية الله ـ من حيث هو ـ وبصرف النظر عن الملابسات في الماضي، أو في عصرنا: مصاب جلل للأمة، لما يمكن أن يترتب عليه من ارتفاع الجاهلين أو المتجاهلين الذين يدورون مع الهوىٰ حيث دار، إلىٰ أن يكونوا مصدر الكلمة في شرع الله فيَضلّون ويُضلّون.

وكم يداخل المؤمن من الرعب ـ وهو يعيش واقع الأمة اليوم ـ عندما يذكر هٰذا الخلل الذي يحدثه فقد العلماء العاملين، سواء بالموت أو بغيره، ويذكر معه حديث النبي ﷺ عن قبض العلم بقبض أولٰئك البررة، الذين هم بحق علماء عاملون عدّلهم رسول الله ﷺ بقوله: «**يحمل هٰذا العلم من كل خلف عدوله..**» الحديث.

أخرج البخاري في كتاب العلم من «الجامع الصحيح» بسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص ﵄ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولٰكن يقبض العلم بقبض العلماء،**

حتىٰ إذا لم يُبق عالماً، اتخذ الناس رؤوساً جهالاً فسئلوا، فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا» وأخرجه مسلم وأحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه والطبراني وغيرهم[1].

قال الحافظ: (وقد اشتهر هٰذا الحديث من رواية هشام بن عروة، فوقع لنا من رواية أكثر من سبعين نفساً عنه من أهل الحرمين والعراقين والشام وخراسان ومصر وغيرها، وافقه علىٰ روايته عن أبيه عروة أبو الأسود المدني وحديثه في «الصحيحين»، والزهري وحديثه في النسائي، ويحيىٰ بن أبي كثير، وحديثه في «صحيح أبي عوانة». ووافق أباه ـ يعني عروة ـ علىٰ روايته عن عبد الله بن عمرو: عمر بن الحكم بن ثوبان وحديثه في مسلم)[2].

وهٰذا الاهتمام من الحافظ بالحديث: سبقه فيما مضىٰ اهتمام عائشة ﵂ بالتثبت من أن عبد الله بن عمرو سمعه الرسول ﷺ وحدث به، والتثبت أيضاً من أن عروة ابن أختها وتلميذها النابه النجيب قد كان دقيقاً في نقله. قال عروة بن الزبير ـ كما في كتاب العلم من «صحيح مسلم» ـ: قالت لي عائشة: يا ابن أختي! بلغني أن عبد الله بن عمرو مار بنا إلىٰ الحج، فالقه فسائله؛ فإنه قد حمل عن النبي ﷺ علماً كثيراً. قال: فلقيته فساءلته عن أشياء يذكرها عن رسول الله ﷺ.

قال عروة: فكان فيما ذكر: أن النبي ﷺ قال: «**إن الله لا ينتزع العلم من الناس انتزاعاً، ولـٰكن يقبض العلماء، فيرفع العلم معهم، ويبقي في الناس رؤوساً جهالاً، يفتونهم بغير علم، فيضلون ويضلون**» وفي رواية له: «**إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس، ولـٰكن يقبض العلم بقبض العلماء**».

قال عروة: حتىٰ إذا كان قابل، قالت له: إن ابن عمرو قد قدم. فالقه ثم فاتحه حتىٰ تسأله عن الحديث الذي ذكره لك في العلم. قال: فلقيته

وابن حبان: (٦٧).

(١) «الجامع الصحيح» مع «فتح الباري»: ١/ ١٩٤ (١٠٠) وانظر: «صحيح مسلم»: (٢٦٧٣)، أحمد: ٢/ ٣٩٧، «سنن أبي داود»: (٤٦٠٩)، الترمذي: (٢٦٧٤)، ابن ماجه: (٢٠٦).

فساءلته، فذكره لي نحو ما حدثني به في مرته الأولىٰ. وفي رواية فردّ عليّ الحديث كما حدّث.

قال عروة: (فلما أخبرتها بذٰلك قالت: ما أحسبه إلا قد صدق. أراه لم يزد فيه شيئاً ولم ينقص)[1].

تثبتت رضي الله عنها وعلمت عروة كيف يكون التأكد في هٰذا الباب من أبواب العلم.

والحق أن مسارعة عبادة وأبيه الوليد إلىٰ طلب العلم في ذٰلك الحين من الأنصار قبل (أن يهلكوا) ذات نسب إلىٰ حضّ النبي ﷺ علىٰ أخذ العلم قبل أن يقبض.

قال صاحب «الفتح» وكان تحديث النبي ﷺ بذٰلك في حجة الوداع كما رواه أحمد والطبراني من حديث أبي أمامة، قال: لما كان في حجة الوداع قال النبي ﷺ: «**خذوا العلم قبل أن يقبض ـ أو يرفع ـ** فقال أعرابي: كيف يرفع؟ فقال: **ألا إن ذهاب العلم ذهاب حملته** ـ ثلاث مرات ـ»[2].

وفي حديث عروة ـ كما يقول القاضي عياض: (حضّ أهل العلم طلبتهم علىٰ الأخذ عن بعضهم بعضاً: وشهادة بعضهم لبعض. وفيه الحض علىٰ حمل العلم والأخذ عن أهله لقول عائشة له: القه فإنه قد حمل عن النبي ﷺ علماً كثيراً)[3].

كما أن فيه استثبات العالم فيما شُكّ فيه مما حُمل عنه، والتلطف في الاستثبات لئلا ينكر العالم ذٰلك ويقع في نفسه شيء.

ها إن أم المؤمنين قد قالت لعروة في المرة الثانية: (فالقه ثم فاتحه حتىٰ تسأله عن الحديث الذي ذكره) لكيلا يفجأه بالسؤال، فينكر هٰذا الصنيع، ويخشىٰ أنه اتهمه[4].

---

(١) «فتح الباري»: ١/ ١٩٥.

(٢) «صحيح مسلم»: ٤/ ٢٠٥٨ ـ ٢٠٥٩ (٢٦٧٣)، «المفهم»: ٦/ ٧٠٧ (٢٦٧٣).

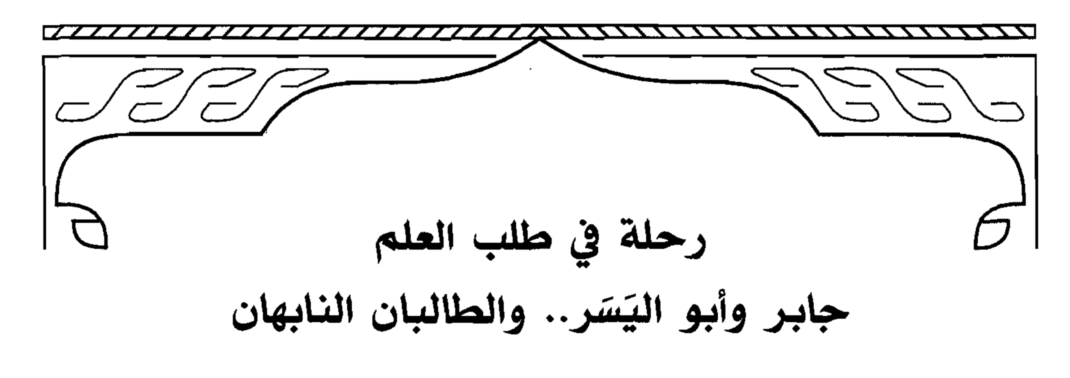
(٣) انظر: «فتح الباري»: ١/ ١٩٥ كتاب العلم.

(٤) «إكمال المعلم بفوائد مسلم» للقاضي عياض: ٨/ ١٦٩ مع «صحيح مسلم»: (٢٦٧٣).

وقال الإمام النووي: (وفي هٰذا الحديث: الحثّ علىٰ حفظ العلم وأخذه عن أهله، واعتراف العالم للعالم بالفضيلة)[1].



(١) «صحيح مسلم» مع «إكمال إكمال المعلم» للأُبّي: ٧/ ١٠٩.



رحلة في طلب العلم

جابر وأبو اليَسَر.. والطالبان النابهان



لعل من الخير التذكير مرة أخرىٰ بما جادت به قصة طالبي العلم الشرعي النافع عبادة بن الوليد وأبيه من أنهما، بتوفيق من الله لقيا الصحابي أبا اليسر رضي الله عنه العلم والعمل جميعاً، وذٰلك من خلال ما رأيا من تصرفه حيال الواقعتين اللتين شهداهما حال اصطحابه لهما، حيث كان يحسن التصرف علىٰ خير وجه ثم يبين لهما أن هٰذا التصرف مبعثه العمل بهدي الرسول ﷺ مورداً النص في ذٰلك[1]، الأمر الذي جعلهما يريان فيه مثلاً رائعاً يحتذىٰ في أخذ النفس بما يوجبه قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

ها هو ذا يمحو صحيفة المدينة ـ كما سبق ـ ويخير أخاه الغريم من الإنظار من استطاع، ووضع الدين عنه إذا عجز عن الوفاء، وكل أولٰئك عملاً بما أبصرت عيناه وسمعت أذناه ووعىٰ قلبه من عظم ما بشّر به النبي ﷺ من يفعل ذٰلك بقوله: «**من أنظر معسراً، أو وضع عنه، أظلّه الله في ظله**»[2] الذي هو نوع من البيان لقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠].

وليس هٰذا فحسب بل جاء ما يقرر حقيقة عمله بما يعلم، وأنه وقّاف

---

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي»: ١٦/ ٢٢٥.

(٢) وانظر ما سلف ص٢٤٤ فما بعد.

دائماً عند الذي قضىٰ الله ورسوله، حين رأىٰ عبادة وأبوه الوليد أنه ـ أعني أبا اليسر ـ رضي الله عنه، قد ألبس غلامه مما يلبس هو سواء بسواء، وعندما اقترح عليه عبادة أن يقوم بنوع من المبادلة بالثياب بينه وبين غلامه بحيث يكون علىٰ أحدهما بردتان وعلىٰ الآخر معافريان، الأمر الذي يجعل لكل منهما ما يناسبه بحسب الظاهر، ما كان منه إلا الدعاء له، والتذكير بأنه قد سوّىٰ في اللباس بينه وبين غلامه، طاعة لما أبصرت عيناه، وسمعت أذناه، ووعىٰ قلبه من قول الرسول ﷺ: **«أطعموهم مما تأكلون، وألبسوهم مما تلبسون»**[1] سبحان الله، إنهم رحماء بينهم.

ومن لطائف المواقف العلمية في فهم النصوص عند الكلام علىٰ اقتراح عبادة المرمىٰ إليه حيث جاءت العبارة بلفظ: «يا عم، لو أنك أخذت بردة غلامك وأعطيته معافريك، وأخذت ـ هٰكذا بالواو ـ معافريه وأعطيته بردتك، فكانت عليك حلّة وعليه حلّة». . من هٰذه اللطائف هنا: أن العلماء قالوا: وجه الكلام وصوابه أن يقول عبادة: أو أخذت ـ هٰكذا بأو بدل الواو ـ ليستقيم الكلام مع المقصود.

هٰذا: ويظل حرياً بنا أن لا نغادر القول في صنيع أبي اليسر الذي كان في وقوفه عند الهدي المحمدي لا يتعداه معلماً مربياً بالأسوة والممارسة حين ترجم ما أخذ عن رسول الله ﷺ إلىٰ حقيقة ماثلة للعيان تنبئ عن صدقه البالغ ووعيه المنوّر بالطاعة، وهو يشارك إخوانه رفع قواعد الحياة بالإسلام.

يظل حرياً بنا التنبّه علىٰ أن عظم البشارة النبوية لمن أنظر معسراً أو وضع عنه، ذاك الذي حمله علىٰ موقفه الإيماني من غريمه المعسر، يقودنا إلىٰ لون آخر من التوجيه النبوي الكريم قوامه التحذير الشديد من الإعراض عن الإحسان مع القدرة عليه، والترهيب من أن يتألىٰ المرء علىٰ الله يبالغ في الحلف باليمين أن لا يفعل الخير.

---

(١) أخرجه الترمذي: (١٣٥٤)، وأحمد في «المسند»: (٨٧١١).

(٢) أخرجه البخاري: (٣٠) و(٦٠٥٠)، ومسلم: (١٦٦١)، وأبو داود: (٥١٥٨)،

روىٰ الشيخان وابن ماجه وغيرهم - واللفظ للبخاري - عن عمرة بنت عبد الرحمٰن قالت: سمعت عائشة ﵂ تقول: «سمع رسول الله ﷺ صوت خصوم بالباب عالية أصواتهم، وإذا أحدهما يستوضع الآخر ويسترفقه في شيء، وهو يقول: والله لا أفعل، فخرج عليهما رسول الله ﷺ فقال: «**أين المتألي علىٰ الله لا يفعل المعروف؟**» فقال: أنا يا رسول الله، فله أيُّ ذٰلك أحب[1].

أرأيت إلىٰ هـٰذه اللهجة المؤنبة الحازمة من رسول الله ﷺ، ثم كيف كانت الاستجابة ممن خوطب بها!!.

معنىٰ (يستوضع الآخر ويسترفقه) أي: يطلب منه أن يضع عنه بعض الدَّين ويترفق به في الاستيفاء والمطالبة.

وفي شأن تسوية أبي اليسر بينه وبين غلامه في الملبس، يقودنا الأمر النبوي بذٰلك إلىٰ ما توعّد به الرسول ﷺ من سوء العاقبة في الآخرة لمن أساء إلىٰ غلامه، من ذٰلك ما روىٰ مسلم بسنده عن أبي مسعود الأنصاري ﵁ قال: كنت أضرب غلاماً لي، فسمعت من خلفي صوتاً «**اعلم أبا مسعود لله أقدر عليك منك عليه**» فالتفتُّ فإذا هو رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، هو حر لوجه الله. فقال: «**أما لو لم تفعل للفحتك النار، أو لمسّتك النار**» ورواه أحمد والترمذي، وقال: حديث حسن صحيح[2].

سبحان الموفق، سرعان ما أعتق أبو مسعود الغلام تعبيراً عن تأثره الصادق بما ذكّره به عليه الصلاة والسلام من أن الله أقدر عليه منه مع هـٰذا الغلام، ثم تبين أنه لو لم يعتقه: لكان التأديب في نار السعير والعياذ بالله!!

وَبَعۡـد. . فهـٰذا أوان النقلة إلىٰ الشطر الثاني من قصة عبادة بن الوليد

والترمذي: (٢٠٥٩).

(١) أخرجه البخاري: (٤٥٧) و(٤٧١) و(٢٤٢٤)، ومسلم: (٣٩٦٠)، وأبو داود: (٣٥٩٥)، والنسائي: (٥٤٢٣)، وابن ماجه: (٢٤٢٩).

(٢) مسلم: (٤٢٨٢)، والترمذي: (٢٠٦٢)، وأبو داود: (٥١٥٩)، وهو في «المسند»:

وأبيه مع الصحابيين الجليلين رضي الله عنهما أبي اليسر وجابر بن عبد الله، وأعني به ما جرىٰ لهما مع جابر بعد أن غادرا أبا اليسر، حيث قصّ عليهما روائع شهدها مع إخوانه من بعض توجيهاته عليه الصلاة والسلام ومعجزاته.

قال جابر رضي الله عنه: أتانا رسول الله ﷺ في مسجدنا هٰذا وفي يده عرجون ابن طاب فرأىٰ في قبلة المسجد نخامة، فحكّها بالعرجون، ثم أقبل علينا، فقال: **«أيكم يحبّ أن يعرض الله عنه؟»** قال: فخشعنا، ثم قال: **«أيكم يحب أن يُعرض الله عنه؟»** قال: فخشعنا. ثم قال: **«أيكم يحبّ أن يُعرض الله عنه؟»** قلنا: لا، أيّنا يا رسول الله. قال: **«فإن أحدكم إذا قام يصلي، فإن الله تبارك وتعالىٰ قِبَل وجهه، فلا يبصُقنّ قِبَل وجهه ولا عن يمينه، وليبصُق عن يساره تحت رجله اليسرىٰ، فإن عجلت به بادرة فليقل بثوبه هٰكذا»**، ثم طوىٰ ثوبه بعضه علىٰ بعض، فقال: **«أروني عبيراً»**، فقام فتىً من الحيّ يشتد إلىٰ أهله، فجاء بخلوق في راحته، فأخذه رسول الله ﷺ فجعله علىٰ رأس العرجون، ثم لطخ به علىٰ أثر النخامة، فقال جابر: فمن هناك جعلتم الخلوق في مساجدكم[1].

(العرجون): الغصن.

(ابن طاب): نوع من التمر.

وقوله: (فخشعنا) كذا رواية الجمهور كما يقول النووي ورواه جماعة بالجيم «جشعنا» وكلاهما صحيح، والأول من الخشوع وهو الخضوع والتذلل والسكون وأيضاً غض البصر والخوف، وأما الثاني: فمعناه الفزع[2].

(فإن عجلت به بادرة) أي: غلبه شيء يريد إخراجه من حلقه.

وغير خاف ما يُرىٰ في هديه عليه الصلاة والسلام من تعظيم أمر الصلاة، وما ينبغي فيها من شديد المراقبة لله عز وجل، والتحرز عن كل ما يتعارض مع ذٰلك، وخصوصاً عندما يكون فيه إيذاء للمسجد بيت الله[3]، وإذا

(١٧٠٨٧)، و(٢٢٣٥٤).

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي»: ١٨/ ١٣٥ (٧٤٣٧).

(٢) «شرح النووي على مسلم»: ١٨/ ٣٣٥ (٧٤٣٧).

(٣) «صحيح مسلم بشرح النووي»: ١٨/ ١٣٥ ـ ١٣٦. وانظر: «إكمال المعلم» للقاضي

كنا علىٰ ذكر من ضيق وسائل التنظيف يومذاك، أدركنا عِظم توجيه النبي ﷺ قولاً وفعلاً إلىٰ ضم النظافة المادية الوسيلة المتاحة يومذاك إلىٰ النظافة المعنوية التي تعني حضور القلب مع الله وشديد مراقبته، وكيف بدأت شرعة جعل الطيب في المساجد منذ ذلك اليوم بفعله عليه الصلاة والسلام، ما يعنيه فعل النبي ﷺ علىٰ صعيد العناية بنظافة المسجد وطيب الرائحة فيه، من التوجه الحضاري المرتبط بالعبادة والأحكام لا يخفىٰ علىٰ منصف[1].



عياض: ٨/ ٥٦١.

(١) «صحيح مسلم»: رقم (١٦٥٩)، «المسند»: رقم (١٧٠٨٧)، «الترمذي»: رقم



رحلة في طلب العلم
جابر وأبو اليَسَر.. والطالبان النابهان

(٦)

من محاسن ما كان من طلب العلم النافع المنوِّر بهدي النبي عليه الصلاة والسلام، الذي سعد به تابعينا عبادة بن الوليد في واحد من أحياء الأنصار. من هٰذه المحاسن ـ وما أكثرها ـ ما وقعنا عليه عند أبي اليسر رضي الله عنه من منهجية دقيقة مشربة بروح الطاعة لله ورسوله في الجمع بين العلم بالهدي النبوي والعمل به جميعاً. .

حتىٰ إذا لقيا جابر بن عبد الله رضي الله عنه ظفرا ـ وهما يصحبانه ـ بقصص عدد من الوقائع التي جرت له مع إخوانه وهم يتحركون بقيادة الرسول عليه الصلاة والسلام، وهي وقائع زاخرة بالأحكام والدروس علىٰ ساحة ما كان ينجزه ﷺ وهو يقود معركة الصراع مع الباطل وأهله من بناء المجتمع الأمثل، ناهيك عن عدد من المعجزات الباهرات، وقد أسعدتنا أسطر سلفت بواقعة ما هدىٰ إليه النبي ﷺ عندما دخل المسجد من إعظام الصلاة ومراقبة الله تعالىٰ فيها، وما ينبغي من تنزيه بيوت الله عن الأذىٰ، والعناية بنظافتها ونشر الريح الطيبة في أرجائها.

ومما قاله جابر وهو يتابع هٰذا القصص المترع بالعطاء: (سرنا مع رسول الله ﷺ حتىٰ إذا كانت عُشَيْشية ودنونا ماء من مياه العرب، قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ رجلٌ يتقدمنا فيمدُر الحوض** ـ يطينه لئلا يشرب منه الماء ـ **فيشرب ويسقينا؟**» قال جابر: فقمت فقلت: هٰذا رجل يا رسول الله! فقال رسول الله ﷺ: «**أيّ رجل مع جابر؟**» فقام جبار بن صخر، فانطلقنا إلىٰ البئر،

فنزعنا في الحوض سجلاً أو سجلين، ثم مدرناه، ثم نزعنا فيه حتىٰ أفهقناه[1].

فكان أول طالع علينا رسول الله ﷺ، فقال: «**أتأذنان؟**» قلنا: نعم يا رسول الله.

فأشرع ناقته فشربت شنق لها فشجت فبالت، ثم عدل بها فأناخها، ثم جاء رسول الله ﷺ إلىٰ الحوض، فتوضأ منه، ثم قمت فتوضأت من متوضأ رسول الله ﷺ، فذهب جبار بن صخر يقضي حاجته، فقام رسول الله ﷺ ليصلي.. إلىٰ أن قال: ثم جئت حتى قمت عن يسار رسول الله ﷺ فأخذ بيدي فأدارني حتىٰ أقامني عن يمينه، ثم جاء جبار بن صخر، فتوضأ، ثم جاء فقام عن يسار رسول الله ﷺ، فأخذ رسول الله ﷺ بيدينا جميعاً، فدَفعنا حتىٰ أقامنا خلفه، فجعل رسول الله ﷺ يرمُقني وأنا لا أشعر ثم فطِنت به، فقال هٰكذا بيده ـ يعني شدّ وسطك ـ.

فلما فرغ رسول الله ﷺ قال: «**يا جابر**».

قلت: لبيك يا رسول الله.

قال: «**إذا كان واسعاً فخالف بين طرفيه، وإذا كان ضيقاً فاشدده علىٰ حقوك**»[2].

(عُشَيْشية): تصغير عشية علىٰ غير قياس.

(فنزعنا في الحوض سجلاً) أي: أخذنا وجذبنا والسّجل: الدلو المملوءة.

(أفقهناه): ملأناه. كما سبق.

(يرمقني): ينظر متتابعاً.

(الحِقو): معقد الإزار والمراد هنا: أن يبلغ السرة.

ألا ما أروع ما نرىٰ من هٰذه الدقة عند جابر رضي الله عنه في استقصاء لما هو

(١٩٤٨).

(١) أفقهناه: ملأناه. «اللسان»: (فقه).

نسيج هٰذه الواقعة من جزئيات متلاحقة، فضلاً عن الكليات، وإحاطة بترابطها وهي تصدر عنه وعن أخيه جبار بن صخر مشعرة بأن رسول الله عليه الصلاة والسلام كان خير معلِّم في ظل قيادته الهادية الحكيمة صلوات الله وسلامه عليه، وقد جمع جابر إلىٰ هٰذا الاستقصاء سلامة العرض والأمانة فيه حتىٰ كأنك تشهده بنفسك اليوم، وكل أولٰئك بأسلوب تعليمي رفيع وبلاغة ناصعة، دليل اليقظة المتناهية عند أولٰئك الجنود البررة الأكفاء وهم يتحركون علىٰ محور الهداية المحمدية طاعةً لله تعالىٰ ولرسولهم وقائدهم محمد عليه الصلاة والسلام.

وماذا أنت قائل في تلك الرائعة الأخرىٰ من جمال التعبير عن بادرة نفسية تؤذن بما هو الغاية في التودد القلبي والأنسة الندية بالحب للرسول ﷺ والأدب معه وطاعته، ألم تره يشهد إلىٰ هٰذا المستوىٰ المتألق بتلكم القبسات المضيئات فيطّلع إلينا بقوله، بعد قول الرسول ﷺ: «مَنْ رجلٌ يتقدمنا فيُمدر الحوض فيشرب ويسقينا»: (فقمت فقلت: هٰذا رجل يا رسول الله) أرأيت، هٰذا رجل يا رسول الله.. حب بلا أنا وطاعة بلا تردد. فما كان من الرسول ﷺ ـ بعد أن سمع تلك الكلمات العِذاب قليلة العدد رائعة البيان مما تبين عنه ـ إلا أن قال: «أيّ رجل مع جابر؟» فقام جبار بن صخر رضي الله عنه.

وقام الصحابيان الجليلان بتهيئة الحوض وملئه بالماء خير قيام، إذ طيناه وأصلحاه ونزعا فيه ما يكفي من الماء حتىٰ امتلأ، والذي حصل أن أول من طلع عليهما بعد هٰذا: كان الرسول عليه الصلاة والسلام والحاجة إلىٰ الماء قائمة من عدة وجوه، ولٰكن هل أقبل عليه الصلاة والسلام علىٰ الحوض يستخدم الماء دون أية مقدمة؟؟

الجواب: لا، إن الرسول ﷺ ـ وهو إمام المربين وسيد القادة الصالحين المصلحين ـ لم يقبل علىٰ الماء في الحوض إلا بعد استئذانهما حيث قال ـ كما أخبر جابر ـ «أتأذن؟» قلنا: نعم يا رسول الله. وكان هٰذا الاستئذان درساً عظيماً في التربية الناجعة، والقيادة الحكيمة النافعة، لقد رأىٰ عليه الصلاة والسلام وهو ينظر بنور الله وبعث متمماً لمحاسن

الأخلاق، أن إنسانية هذين الجنديين وكرامتهما، وما بذلا من جهد في إعداد الحوض ـ طاعة له عليه الصلاة والسلام ـ كيما تنتفع به الجماعة، كل أولٰئك أعطاهما حقاً أدبياً في أن يستأذنا قبل البدء بهٰذا الانتفاع وإن كان رضاهما معلوماً لأنهما فعلا ما فعلا من أجل ذٰلك، وما كان أعظمه قائداً وأصدقه رسولاً ومربياً، حين بدأ بنفسه فقال: «أتأذن؟» فأذنا قائلين: نعم يا رسول الله[١]، وكم يحسن القادة والمربون إذا حاولوا الانتفاع بهٰذا الدرس العظيم والخلق الكريم، وكم في سيرته ﷺ وبارك عليه من دروس في التربية القيادية ومكارم الأخلاق.

قال الإمام النووي في شرحه لهٰذه الكلمات النيّرات: (هٰذا تعليم منه ﷺ الآداب الشرعية والورع والاحتياط والاستئذان في مثل هٰذا، وإن كان يعلم أنهما راضيان وقد أرصدا ذٰلك له ﷺ ولمن بعده)[٢].

هٰذا ومن المعجزات التي قصّ خبرها جابر بأسلوبه المتميز علىٰ تلميذيه عبادة وأبيه: تفوّر الماء بكثرة من بين أصابعه وفي الجفنة التي بسط فيها يده، حتىٰ زاد عن حاجة الناس، قال ـ كما في «صحيح مسلم» ـ: فأتينا العسكر فقال رسول الله ﷺ: **«يا جابر، ناد بوَضوء»** فقلت: ألا وَضوء، ألا وَضوء، ألا وَضوء قال: قلت: يا رسول الله ما وجدت في الركب من قطرة[٣].

وبدأ البحث عن الماء في أشجاب ـ أسقية لرسول الله ـ قال جابر: فقلت يا رسول الله، إني لم أجد فيها إلا قطرة في عزلاء شجب منها ـ أي: يسيراً في فم القربة ـ لو أني أفرغه لشربه يابسه قال: **«اذهب فائتني به»** فأتيته به فأخذه بيده، فجعل يتكلّم بشيء لا أدري ما هو ويغمزه بيديه، ثم أعطانيه، فقال: **«يا جابر، ناد بجفنة»** إلىٰ أن قال: وقال: **«يا جابر وصُبّ عليّ، وقل باسم الله»**، فصببت عليه وقلت: باسم الله، **فرأيت الماء يتفوّر من بين أصابع**

(١) «صحيح مسلم»: ١٨/ ١٩١ (٧٤٣٧).
(٢) «صحيح مسلم بشرح النووي»: ١٨/ ١٣٩ رقم (٧٤٣٧).
(٣) المصدر نفسه: ١٨/ ١٤٠ ـ ١٤١ رقم (٧٤٣٧).

الرسول ﷺ، ثم فارت الجفنة، ودارت حتىٰ امتلأت[1] فقال: «**يا جابر، ناد من كان له حاجة بماء**»، قال: فأتىٰ الناس فاستقوا حتىٰ رووا[2]. قال: فقلت: هل بقي أحد له حاجة؟ فرفع رسول الله ﷺ يده من الجفنة وهي ملأىٰ[3].

(الجفنة): القصعة الضخمة تُشبع العشرة. «المصباح»: (ج ف ن).



(١) المصدر السابق: ١٨/ ١٤٢.

(٢) «صحيح مسلم بشرح النووي»: ١٨/ ١٤٠.

(٣) المصدر نفسه: ١٨/ ١٤٥ ـ ١٤٦.

سعد بن معاذ
شجاعة.. وأخلاق

(١)

من الأمور المهمة التي ينبغي أن يكون الناظر في القصص الذي تحفل به مصادر السنة علىٰ ذكر منه: التنبه إلىٰ أن لا يطغىٰ الجانب التاريخي من القصة عنده علىٰ جانب الهداية الذي هو الأصل، وأن الجانب التاريخي في الواقع شاهد صدق علىٰ ما يتقرر في جانب الهداية، والنظرة التكاملية هي التي تضع القصص في السنة علىٰ محورها الهادي، ويكون الحدث التاريخي في خدمة هٰذا المحور الذي يسعف في تبيان المقصود في هٰذه البابة؛ من نشدان الانتفاع بالقصص وإعطاء المحور الهادي حقه من النظر وفقهِ الواقعة أو الوقائع التي تكون نسيج القصة: مدعاةً لفهم المراد، والرقي بمصطحب القصص إلىٰ تلمّس مواطن العبرة، ليكون ذٰلك زاداً يشد الأزر، ويطرد الغفلة، وبذٰلك يزداد المؤمن إيماناً، ويكون فقه مرامي القصص سبيله إلىٰ الكثير من التبدّل في ثقافته وسلوكه والتجاوز إلىٰ ما هو الأكثر إضاءة، وقدرة علىٰ النفاذ في مسارب التاريخ، وتحليله تحليلاً يضع الأمور مواضعها ويتواءم مع ضوابط العقيدة، والمفهومات التي كانت بها أمتنا خير أمة أخرجت للناس، مصحوباً ذٰلك بعلو الهمة وصدق العزيمة في الإفادة علىٰ صعيدي الفكر والعمل من هٰذا القصص، الذي كثيراً ما يشتمل علىٰ وقائع يشبه أن تكون ترجمة للقيم إلىٰ حركة تعلن إعلانها علىٰ أرض الواقع، سواء في ذٰلك ما كان منها في مجال التصديق الجازم بما جاء في الخبر الصادق عن الغيب، أو ما كان في التفاعل مع ما جاء من ترغيب وترهيب في كتاب الله أو سنة رسوله عليه

الصلاة والسلام، عن طريق الحض علىٰ العمل بأحكام الدين.

وددت أن تكون هٰذه الكلمات وُصلتنا إلىٰ ما قصّه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه من خبر اعتمار سعد بن معاذ رضي الله عنه قبل غزوة بدر ونزوله علىٰ أمية بن خلف، وما كان من موقف أبي جهل، حيث عمل الإيمان عمله في قلب سعد وعقله، فلا تولّي عن الوقفة الصارمة مع الحق، ولا غفلة عن أي نوع من أسلحة المواجهة بيقظة وحكمة، ولم يتخلَّ ابن أم عبد رضي الله عنه عن إعلامنا تحقيق ما أخبر به ﷺ عن مقتل أمية بن خلف في بدر، الأمر الذي يزيد المؤمن إيماناً، ويوقظ الغافل، أن لو تحرر عقله من سلطان الهوىٰ، وأفلتت نفسه من سجن التقليد الأعمىٰ تقليداً لا طائل تحته لمن لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون[1].

روىٰ البخاري في المغازي (باب ذكر النبي ﷺ من يُقتل ببدر) بسنده عن أبي إسحاق السّبيعي قال: (حدثني عمرو بن ميمون أنه سمع عبد الله بن مسعود رضي الله عنه حدّث عن سعد بن معاذ أنه قال: كان صديقاً لأمية بن خلف، وكان أمية إذا مرّ بالمدينة نزل علىٰ سعد، وكان سعد إذا مرّ بمكة نزل علىٰ أمية. فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة انطلق سعد معتمراً، فنزل علىٰ أمية بمكة، فقال لأمية: انظر لي ساعة خلوةٍ لعلّي أن أطوف بالبيت.

فخرج به قريباً من نصف النهار، فلقيهما أبو جهل فقال: يا أبا صفوان، من هٰذا معك؟

فقال: هٰذا سعد.

فقال له أبو جهل: ألا أراك تطوف بمكة آمناً وقد أوَيتم الصُّباةَ، وزعمتم أنكم تنصرونهم وتعينونهم. أما والله لولا أنك مع أبي صفوان ما رجعت إلىٰ أهلك سالماً.

---

(١) المصدر السابق: ١٨/١٤٥ ـ ١٤٦.

(٢) وانظر: «الجامع الصحيح» مع «فتح الباري»: ٧/٢٨٢ رقم (٣٩٥٠) المغازي، باب ذكر النبي ﷺ من يقتل ببدر. «المسند»: ٦/٣٤٣ رقم (٣٧٩٤)، «دلائل النبوة»

فقال له سعد ـ وقد رفع صوته عليه ـ: أما والله لئن منعتني هٰذا لأمنعنّك ما هو أشد عليك منه: طريقك علىٰ المدينة.

فقال له أمية: لا ترفع صوتك يا سعد علىٰ أبي الحكم سيد أهل الوادي.

فقال سعد: دعنا عنك يا أمية، فوالله لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنهم قاتلوك**».

قال: بمكة؟

قال: لا أدري.

ففزع لذٰلك أمية فزعاً شديداً. فلما رجع أمية إلىٰ أهله قال: يا أم صفوان، ألم تري ما قال لي سعد؟

قالت: وما قال لك؟

قال: زعم أن محمداً أخبرهم أنهم قاتليّ. فقلت له: بمكة؟ قال: لا أدري. فقال أمية: والله لا أخرج من مكة.

فلما كان يوم بدر استنفر أبو جهل الناس قال: أدركوا عيركم.

فكره أمية أن يخرج، فأتاه أبو جهل فقال: يا أبا صفوان، إنك متىٰ ما يراك الناس قد تخلفت وأنت سيد أهل الوادي تخلفوا معك.

فلم يزل به أبو جهل حتىٰ قال: أمّا إذ غلبتني فوالله لأشترينَّ أجود بعير بمكة. ثم قال أمية: يا أم صفوان جهزيني.

فقالت له: يا أبا صفوان، وقد نسيت ما قال لك أخوك اليثربي؟

قال: لا، ما أريد أن أجوز معهم إلا قريباً.

فلما خرج أمية أخذ لا ينزل منزلاً إلا عقل بعيره، فلم يزل بذٰلك حتىٰ قتله الله ﷻ ببدر)[1].

للبيهقي: ٣/ ٢٥.

(١) وانظر: «الجامع الصحيح» مع «فتح الباري»: ٧/ ٢٨٢ رقم (٣٩٥٠) المغازي، باب

ورواه أحمد في «المسند»[1]، والبيهقي في «الدلائل»[2].

وتجدر الإشارة بادئ ذي بدء إلىٰ ما قرره الحافظ رَحِمَهُ اللهُ في «الفتح» (من أن قول عمرو بن ميمون أنه سمع عبد الله بن مسعود حدّث عن سعد بن معاذ قال: كان صديقاً لأمية بن خلف: فيه التفات علىٰ رأي، والسياق يقتضي أن يقول: قال: كنت صديقاً، ويحتمل أن تكون (قال) زائدة، ويكون قوله: (قال) من كلام ابن مسعود، والمراد سعد بن معاذ)[3].

ولما كان المقصود بهٰذا التأويل: الحرص علىٰ فهم النص من خلال سلامة التعبير: فلنذكر أن الرواية عند أحمد جاءت عن عبد الله بلفظ (انطلق سعد بن معاذ معتمراً، فنزل علىٰ أمية بن خلف بن صفوان، وكان أمية إذا انطلق إلىٰ الشام ومر بالمدينة نزل علىٰ سعد..) الحديث[4].

وشاء الله أن يكون رجال هٰذه القصة ـ وهٰذا في تاريخ الدعوة ورجالها من الأهمية بمكان ـ ثلاثة كلٌّ له موقعه في رحلة الصراع بين الحق والباطل.

وأولهم السيد الكبير الشهيد سعد بن معاذ من مقدّمي الأنصار وخيرة الشباب في صحبة الرسول عليه الصلاة والسلام، يكنىٰ أبا عمرو، وأمه كبشة بنت رافع الأنصارية من المبايعات، أسلم هو وأسيد بن حضير علىٰ يد مصعب بن عمير في المدينة رضي الله عنهم أجمعين.

وهو إلىٰ عقله الكبير وحصافته المتميزة وحبه الشديد للرسول عليه الصلاة والسلام، شهد بدراً، وأحداً، وثبت مع الرسول عليه الصلاة والسلام يوم أحد، ورمىٰ يوم الخندق ـ الأحزاب ـ سنة خمس من الهجرة، وتوفي بعد شهر من رميته تلك، وهو يومئذ ابن سبع وثلاثين سنة، فصلّىٰ عليه رسول الله ﷺ ودفن بالبقيع.

ثانيهم: أمية بن خلف من بني لؤي أحد جبابرة قريش في الجاهلية،

ذكر النبي ﷺ من يقتل ببدر.

(١) ٦/ ٣٤٣ رقم (٣٧٩٤).

(٢) «دلائل النبوة» للبيهقي: ٣/ ٢٥.

(٣) «فتح الباري»: ٧/ ٢٨٣ المغازي.

أدرك الإسلام، ولم يسلم بل ظلّ علىٰ شركه، وهو الذي كان يشتد في تعذيب بلال الحبشي رضي الله عنه في بداءة الإسلام قبل أن يشتريه أبو بكر ويعتقه، قتل يوم بدر فيمن قتل من أعداء الله المشركين.

أما الثالث: فهو أبو جهل عمرو بن هشام المخزومي، أحد جبابرة قريش ودهاتها وساداتها في الجاهلية، أصر علىٰ شركه بعناد وشدة، وحرص علىٰ إيذاء النبي ﷺ والمسلمين، حتىٰ كانت غزوة بدر الكبرىٰ، فكان من قتلاها، عليه وعلىٰ أمثاله لعائن الله[1]!



(١) المسند»: ١/ ٤٠٠ و٦/ ٣٤٣ رقم (٣٧٩٤).



سعد بن معاذ
شجاعة.. وأخلاق

(٢)

قصة اعتمار سعد بن معاذ ﷺ التي جئنا علىٰ ذكرها من قبل: تزدان بالكثير من الطيب من مهمات الأمور في تلك المرحلة بعد الهجرة، وتقتضينا أهمية ذٰلك: أن نعود إلىٰ رواية أخرىٰ للبخاري في المناقب، وأخرجها البيهقي من طريقه في «الدلائل» فنضمَّها إلىٰ تلك التي أوردناها من قبل، وهي التي أخرجها في المغازي باب ذكر من يقتل ببدر، حيث نقع علىٰ جديد يسعف في المزيد من تبيّن النص من خلال الروايتين وما له من دلائل وأبعاد.

ذٰلكم ما روىٰ بسنده هناك: حدثني أحمد بن إسحاق قال: حدثنا عبيد الله بن موسىٰ قال: حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق ـ يعني السبيعيّ ـ عن عمرو بن ميمون عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: (انطلق سعد بن معاذ معتمراً، قال: فنزل علىٰ أمية بن خلف أبي صفوان، وكان أمية إذا انطلق إلىٰ الشام، فمر بالمدينة، نزل علىٰ سعد، فقال أمية لسعد: ألا انتظر حتىٰ إذا انتصف النهار وغفل الناس انطلقتَ فطفتَ؟

فبينا سعد يطوف إذا أبو جهل، فقال: من هٰذا الذي يطوف بالكعبة؟

فقال سعد: أنا سعد.

فقال أبو جهل: تطوف بالكعبة آمناً، وقد أويتم محمداً وأصحابه؟

فقال: نعم.

فتَلاحيَا بينهما. فقال أمية لسعد: لا ترفع صوتك علىٰ أبي الحكم، فإنه سيد أهل الوادي.

ثم قال سعد: والله لئن منعتني أن أطوف بالبيت لأقطعنَّ متجرك بالشام.

قال فجعل أمية يقول لسعد: لا ترفع صوتك ـ وجعل يمسكه ـ فغضب سعد فقال: دعنا عنك، فإني سمعت محمداً ﷺ يزعم أنه قاتلك.

قال: إيّاي؟

قال: نعم.

قال: والله ما يكذب محمد إذا حدّث.

فرجع إلىٰ امرأته فقال: أما تعلمين ما قال لي أخي اليثربي؟

قالت: وما قال؟ قال: زعم أنه سمع محمداً يزعم أنه قاتلي. قالت: فوالله ما يكذب محمد. قال: فلما خرجوا إلىٰ بدر وجاء الصريخ قالت له امرأته: أما ذكرت ما قال لك أخوك اليثربي؟ قال: فأراد أن لا يخرج فقال له أبو جهل: إنك من أشراف الوادي، فسرْ يوماً أو يومين، فسار معهم يومين، فقتله الله)[1].

ولعل أول ما يستوقفنا من وقائع هٰذه القصة برجالها: سعد رضي الله عنه، ورأسي الضلال: أبي جهل وأمية بن خلف: يقين الشاب سعد وقوة نفسه، خصوصاً أن الصادين عن البيت زعماء الشرك والضلال قد غاظهم أشد الغيظ أن رأوا أن الأمر أفلت من أيديهم أو كاد يوم أن وجد المسلمون ـ بعون الله وفضله ـ ذٰلك الملاذ القوي في المدينة الذي تمثّل بالنصرة والعون للرسول عليه الصلاة والسلام بعد أن أحبوه أكثر من أي عزيز لديهم، وبالأخوة المنورة بنور العقيدة بين المهاجرين والأنصار.

في هٰذا الجو المفعم بحنق المشركين وغيظهم، وحبّ الانتقام من أهل القبلة الذين أخرجوهم من مهوىٰ أفئدتهم: البيت الحرام صادّيهم عنه والمتابعة لهٰذا الصدّ: انطلق الشاب المؤمن سعد رضي الله عنه إلىٰ مكة بعد قدوم رسول الله ﷺ المدينة معتمراً، سالكاً سبيل الحكمة والاحتراس! صحيح أن بقاء التعامل

---

(١) «سيرة ابن هشام»: ٢/ ٢٨٧ ـ ٢٨٩.

الأخلاقي مع صديقه أمية بن خلف، الذي كان ينزل عليه إذا مرّ بمكة وكان أمية إذا مرّ بالمدينة نزل عليه هو: صحيح أن بقاء هـٰذا النوع من التعامل بعد إسلام سعد كان مما شجعه علىٰ ذٰلك ـ والله أعلم ـ ولٰكن لا بد من ملاحظة أن أمية نفسه ـ علىٰ ما له من المنزلة في ذٰلك القبيل المعادي ـ كان في حال توجس وخوف من علم قريش بتحقيق ما عزم عليه سعد من الطواف حول البيت.

ها هو ذا سرعان ما قال لسعد بعد أن قال له سعد: (انظر لي ساعة خلوة لعلي أن أطوف بالبيت): (ألا انتظرْ حتىٰ إذا انتصف النهار، وغفل الناس انطلقتَ، فطُفتَ). ولٰكن هل أغنىٰ هـٰذا الحذر في التوقيت شيئاً؟ الواقع أنه لم يغن الحذر وشاء الله أن يُمتحن سعد في هـٰذه، ويكون منه الموقف الذي يرضي الله ورسوله ويزيد المؤمنين قوة إلىٰ قوتهم، بعد أن لم يغن الحذر ووقع ما كان أمية أبو صفوان يحذر وقوعه.

هـٰذا صاحبنا الشاب التقيّ النقيّ، لم يبال حمارَّة القيظ وراح يطوف فرح القلب حول البيت، وهو علىٰ حال من الأنس البالغ تعز علىٰ الوصف، يناجي مولاه بلسان خاضع وقلب خاشع، باكياً يسكب العبرات حيث تسكب العبرات، وإذا برأس الكفر بالبيت الحرام أبي جهل يبدو علىٰ حال قد لبس معها لبوس الحراسة لمداخل البيت أن تطأها قدما واحد من أهل التوحيد، صداً لهم عن هـٰذا البيت العتيق، فقال: (من هـٰذا الذي يطوف بالكعبة؟ فقال سعد: أنا سعد) وفي الرواية الأخرىٰ: أنه قال لأمية: (يا أبا صفوان، من هـٰذا معك؟ فقال: هـٰذا سعد).

ثم ماذا بعد هـٰذه الإجابة التي كانت غاية في الشجاعة والتناسب مع السؤال الطافح بالتغيّظ والوعيد؟ لقد أفصح أبو جهل عما يجيش به صدره من الحقد والضغينة ـ ناهيك عن الكبر والغطرسة ـ فقال: (تطوف بالكعبة آمناً وقد أويتم محمداً وأصحابه؟

فقال: نعم.

فتلاحيا بينهما).

ومرّ بنا في رواية أخرىٰ للبخاري أنه ـ أخزاه الله ـ قال له:

ـ (ألا أراك تطوف بمكة آمناً وقد أويتم الصُّباة ـ يعني من هاجر من المسلمين ـ وزعمتم أنكم تنصرونهم وتعينونهم).

ثم قال ممعناً في قلة الحياء، والسفاهة الوالغة في الإثم وسوء الأدب:

ـ (لولا أنك مع أبي صفوانَ ما رجعتَ إلىٰ أهلك سالماً).

أرأيت إلىٰ هـٰذه الوقاحة من سيد الوادي كما يقول أمية؟ ألا إنه الاختبار الصعب بالنسبة لسعد في تلك المرحلة التاريخية بعد الهجرة؛ ذٰلك بأن كلمات أبي جهل المقذعةَ الظالمة، وإن كانت له بشكل مباشر، ولـٰكنها ـ بشكل غير مباشر ـ رسالة مغيظة الغيظ كلّه، محنقة الحنق كلّه إلىٰ كل مسلم ومسلمة مهاجرين وأنصاراً بقيادة الرسول المصطفىٰ سيد العالمين في مهاجَره المدينة، عليه الصلاة والسلام.

وما كان أعظمه موقفاً، ذاك الذي كان منه رضوان الله عليه؛ إنه الموقف الذي لا ينبو عن الأدب اللائق بذيّاك الحوار، ولـٰكنه لا يفتقد اللغة المناسبة في وجه أبي جهل ضمن ما تحمله المرحلة من ملابسات؛ وكونه قدم مكة متعطشاً للعمرة مشوقاً للطواف حول البيت طاعةً لله ﷻ: لا يعني شيئاً من الرضا بالمذلّة والهوان وهو علىٰ حال يشبه أن يكون فيها رسول من وراءه من المسلمين، كما أن صبره في هـٰذه المواجهة لن يكون إلا الصبر علىٰ ما يتطلبه الموقف من قوة الشكيمة المزدانة بعزة الإسلام؛ وتحمل الأذىٰ بفاعلية في سبيل الله، فالعزة أولاً وآخراً لله ولرسوله وللمؤمنين، كائناً ما كان أبو جهل أو آباء جهل في كل زمان ومكان.

يقول عبد الله بن مسعود ـ كما في الرواية هنا ـ: فقال ـ أي: لأبي جهل ـ: نعم. فتلاحيا بينهما فتنازعا، دليل أنه قد طال الأخذ والرد بينهما، ولم يدع سعد رضي الله عنه أن يقابل السلاح بمثله، فقال له ـ كما فصلت الرواية الأخرىٰ ـ ورفع صوته عليه: ـ بعد أن ألجأه إلىٰ ذٰلك ـ (أما والله لئن منعتني هـٰذا لأمنعنك ما هو أشد عليك منه: طريقك علىٰ المدينة).

وتتضح أهمية هٰذه المواجهة الشجاعة من سعد: بما شعر به صديقه، والنازلُ عنده ضيفاً: أبو صفوان أمية من الحرج الذي أطبق علىٰ صدره بسببه، إذ كيف يحدث ذٰلك لأبي الحكم ـ أبي جهل ـ وما أدراك ما أبو جهل عنده، فراح يكرر قوله لسعد: (لا ترفع صوتك يا سعد علىٰ أبي الحكم، سيد أهل الوادي) ويبدو أنه كرر ذٰلك دفعاً للحرج، فغضب سعد وأبلغه أنه باستمراره علىٰ الكفر معه لا بد مقتول بيد المسلمين كما أخبر بذٰلك الرسول عليه الصلاة والسلام؛ ففزع أمية فزعاً شديداً، وأخبر زوجته التي شاركته الفزع، ولم يزل به أبو جهل يوم بدر حتىٰ أخرجه إلىٰ المعركة علىٰ كره منه ـ وهٰذا من تناقض الجاهلية ـ وقالت له زوجته: (يا أبا صفوان، أوَقد نسيت ما قاله أخوك اليثربي؟).

وتحقق ما أخبر به الرسول ﷺ وقتل أمية يوم بدر مع من قتل في ذٰلك اليوم الميمون الذي أضاء جنبات التاريخ!

قال الحافظ في «الفتح»: (وفي الحديث معجزات للنبي ﷺ ظاهرة، وما كان عليه سعد بن معاذ من قوة النفس واليقين. وفيه أن شأن العمرة كان قديماً، وأن الصحابة كان مأذوناً لهم في الاعتمار من قبل أن يعتمر النبي ﷺ، بخلاف الحج والله أعلم)[1].



---

(١) «الجامع الصحيح» مع «فتح الباري»: ٦/ ٦٢٩، المناقب: رقم (٣٦٣٢).



سعد بن معاذ
شجاعة.. وأخلاق



سلامة التصور للوعاء الزمني الذي جرت أو تجري فيه وقائع القصة، وما يكتنفه من ملابسات: أثر بالغ في صحة التفسير للتاريخ، والإحاطة بما لتلك الوقائع من أبعاد ودلالات إحاطة تسعف في تفهم الواقع وربط الجزئيات بالكليات، والمسببات بالأسباب، ناهيك عما توفر للناظر المتبصر من تبّين العلاقة الوثيقة بين المقدمات والنتائج، الأمر الذي ينير الطريق إلىٰ التخطيط المرحلي، والإعداد المتكامل لمواجهة ما يجدّ من وقائع وأحداث من هنا، كان لا بد في ضوء ذٰلك من التذكير مرة أخرىٰ بطبيعة المرحلة التاريخية التي وقعت فيها قصة سعد بن معاذ رضي الله عنه مع أبي جهل وأمية بن خلف يوم كان يطوف حول البيت معتمراً في مكة المكرمة، وهو نزيل علىٰ أمية الذي كان ينزل عليه في المدينة، وما كان لذٰلك من أهمية لها وزنها في حَلْبة الصراع بين الحق الذي تنادي به وتذود عن حياضه جماعة المسلمين بقيادة سيد العالمين محمد عليه الصلاة والسلام، وبين الباطل الذي تتبعه وتقاتل دونه قريش بوثنيتها وجاهليتها.

إذ تميزت تلك المرحلة المثقلة بالخير: بنقلة نوعية في ميزان القوىٰ لصالح المسلمين بعد الهجرة المباركة من مكة إلىٰ المدينة، يوم أن فتحت المدينة صدرها للحق وأهله، فكانت النصرة وكان العون الذي لم يعرف العرب له مثيلاً في تاريخ النزاع الذي كان ـ في الأعم الأغلب ـ نزاعاً قبلياً علىٰ أرض الجزيرة وإذن: فليس من التفسير الصحيح لتاريخ تلك الحقبة

وترابط وقائعها في شيء: أن نغفل عن طبيعة العلاقة بين صنيع سعد رضي الله عنه، حيث وقف بقوة نفس لا تهاب، تلك الوقفة المشرفة بعزة الإسلام في مواجهة غطرسة عدو الله أبي جهل واستكباره، ووعيده الذي حال دون تحقيقه ـ كما يزعم ـ بينه وبين تلك المرحلة التي أعقبت الهجرة وتضاعف بسببها وغَر الصدور عند قريش وبخاصة عند زعمائها وفي مقدمتهم هٰذا الزعيم الداهية المتمرس عمرو بن الحكم أبو جهل؛ فالأمر ـ في حقيقته ـ ليس أمراً شخصياً وكفىٰ.. ولٰكنه أبعد من ذٰلك علىٰ ساحة ذاك الصراع.

والذي زاد من حنق أبي جهل ووغر صدره وهو الحوَّل القُلَّب ـ: ما كان من سعد رضي الله عنه ـ بجانب شجاعته ـ من قدرة علىٰ استخدام اللغة المناسبة عند المواجهة، فردّ علىٰ وعيده الحاقد بوعيد المعاملة بالمثل عندما يأخذ هٰذا المشرك طريقه إلىٰ بلاد الشام مارّاً بالمدينة، ناهيك عن استمرار علاقته الطيبة بأمية بن خلف.

وهٰذه رواية أكثر تفصيلاً لذٰلك، نقع عليها عند البيهقي في «دلائل النبوة» حيث يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: (.. فلقيهما ـ أي: سعداً رضي الله عنه وأمية بن خلف ـ أبو جهل، فقال:

يا أبا صفوان: من هٰذا معك؟

قال: هٰذا سعد.

فقال له أبو جهل: ألا أراك تطوف بمكة آمناً وقد آويتم الصُّباة، وزعمتم أنكم تنصرونهم وتعينونهم! أما والله لولا أنك مع أبي صفوان ما رجعت إلىٰ أهلك سالماً.

فقال له سعد: ـ ورفع صوته عليه ـ: أما والله لئن منعتني هٰذا لأمنعنك ما هو أشد عليك منه: طريقك علىٰ المدينة.

فقال له أمية: لا ترفع صوتك علىٰ أبي الحكم سيد أهل الوادي ـ أو فإنه سيد أهل الوادي ـ).

وفي رواية: فتلاحيا بينهما ـ أي: تنازعا وأغلظ كل منهما القول لصاحبه.

وغير خاف أن أبا جهل كان أعجز من أن يخفي ما يغلي به صدره من الحقد والوغَر علىٰ قبيل سعد ﷺ في المدينة، بسبب موقفهم من الهجرة والمهاجرين في سبيل الله، الأمر الذي يؤكد ما ذكرت آنفاً من أن القضية بين سعد وهٰذا الضالّ المضلّ لا تدور رحاها علىٰ محور شخصي ولٰكنها أبعد من ذٰلك؛ فسعد لا يمثّل نفسه في نظر الداهية أبي جهل ولٰكنه يمثل التحدي من قبل أولٰئك الذين آووا من صبؤوا من الوثنية دين الآباء والأجداد، إلىٰ ما دعا إليه محمد ﷺ من التوحيد، وزعموا أنهم ينصرونهم ويعينونهم.

وهٰذا ما دعاه إلىٰ ذٰلك التصرف الأرعن الذي بلغ حدّ الوعيد لسعد بإزهاق روحه لولا علاقته الحميمة بأمية أبي صفوان (أما والله لولا أنك مع أبي صفوان ما رجعت إلىٰ أهلك سالماً).

وإذا كان سعد لم يدع أن يردّ علىٰ خصمه باللغة المناسبة ـ كما أسلفنا ـ فإنه في الوقت نفسه لم يبارح ساحة النصح لصديقه أمية في تذكيره بأن بقاءه في الصف المناوئ للتوحيد ضلال مبين، وأن نهايته قادمة علىٰ يد أهل الحق المسلمين.

ها هو ذا أمية لا يجد ـ مع صداقته لسعد ـ ما يحفظ به ماء الوجه لصاحبه أبي جهل بعد أن لم يستكن سعد لوعيده، بل رفع صوته عليه بقوله: (أما والله لئن منعتني من هٰذا لأمنعنّك ما هو أشد عليك منه، طريقك إلىٰ المدينة) نعم لم يجد إلا أن يكرر قوله لسعد: لا ترفع صوتك ـ وجعل يمسكه ـ كما في رواية البخاري ـ هنالك لم يكن من صحابيّنا ـ وقد ثارت حمية الإسلام في نفسه وسُدّ عليه باب الصبر والحلم ـ إلا الإفضاء إلىٰ أمية بقاصمة الظهر عنده، فقال له مغضباً: (دعنا منك يا أمية، فوالله لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنه قاتلك**»، قال: بمكة؟ قال: لا أدري).

وقد كان عجباً من العجب ما صنع ذٰلك في نفس أمية: إذ فزع لهٰذا النبأ فزعاً شديداً، لما أنه موقن بأن محمداً ﷺ لا يكذب، وحين أخبر امرأته بذٰلك قالت:

ـ فوالله ما يكذب محمد!!

سبحان الله.. ما أعتىٰ ما صنعت الجاهلية في عقل أمية وأمثاله من التناقض! يوقن بوقوع ما أخبر به محمد لأنه صادق ما عهد عليه كذباً، فيفزع أشد الفزع وفي الوقت نفسه لا يصدقُهُ بدعوىٰ الرسالة، بل يُنزل بواحد من خيرة أصحابه الصابرين المحتسبين: بلال، أشدَّ العذاب والنكال، حتىٰ أنقذه الله منه علىٰ يد أبي بكر ﵄. وفيما هو علىٰ هٰذه الحال من الإصرار علىٰ الكفر والعناد: جاءته الآية التي أخبره بها سعد، فلم يغادر ـ وقد غلبت عليه شقوته ـ طريق أصحاب الجحيم.

هٰذا وقد صح أنه تحقق وقوع ما أخبر به سعد؛ إذ لما خرج المشركون إلىٰ بدر، وجاء الصريخ، قالت لأمية امرأته: أما ذكرت ما قال لك أخوك اليثربي؟

فعزم علىٰ عدم الخروج، ثم وقع في شرك أبي جهل واحتياله وقتل في بدر.

ومهما يكن من أمر: فإن موقف صحابينا الشاب سعد بن معاذ ﵁ ـ وكم له من عظيم المواقف ـ يذكّر بكلمات لابن مسعود في الصحابة هي من درر الكلام، ذٰلكم قوله كما في «مسند أحمد»:

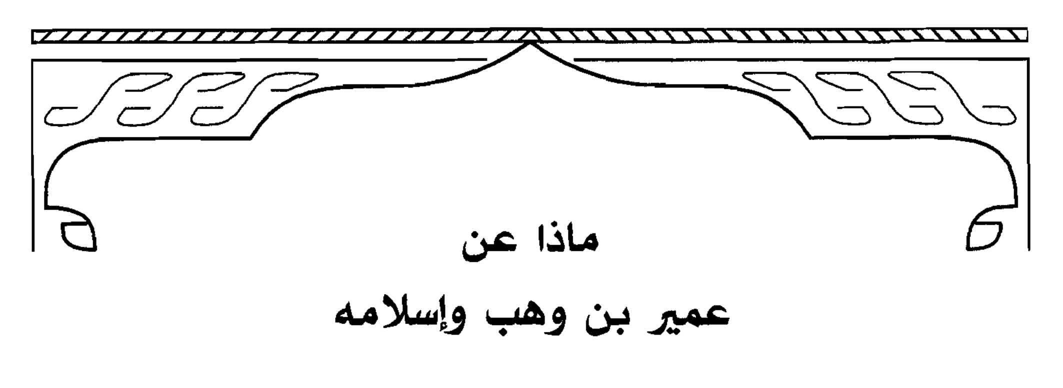
(إن الله نظر في قلوب العباد، فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه، فابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد ﷺ، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه، يقاتلون علىٰ دينه، فما رأىٰ المسلمون حسناً فهو عند الله حسن، وما رأوا سيئاً فهو عند الله سيئ)(١).

صلىٰ الله علىٰ خيرة الله من رسله سيدنا محمد بن عبد الله وعلىٰ آله وصحابته أجمعين وسلم تسليماً كثيراً.



---

(١) «فتح الباري»: ٧/ ٢٨٤ رقم (٣٩٥٠).



ماذا عن
عمير بن وهب وإسلامه

(١)

نحن علىٰ موعد مع قصة معبرّة جرت وقائعها علىٰ وجه التقابل الزمني مع قصة سعد بن معاذ رضي الله عنه، ذٰلك بأنها وقعت توّاً في أعقاب يوم الفرقان يوم بدر وما كان فيه من النصر المبين، بينما وقعت قصة سعد ـ كما أسلفنا ـ مع أبي جهل وأميَّة بنِ خلف بُعيد الهجرة من مكة إلىٰ المدينة، ولا نعدو الحقيقة إن قلنا بوقوعها بين يدي بدر لأن هٰذه المعركة الفاصلة أشرق نورها في شهر رمضان للسنة الثانية من الهجرة، وسعد قدم مكة للعمرة بُعيد وصول رسول الله صلى الله عليه وسلم مهاجراً إلىٰ المدينة.

والقصة التي أعني هي قصة عمير بن وهب رضي الله عنه وإسلامه، وهي قصة حافلة بالدروس والعبر في حلبة الصراع بين الحق والباطل، وازدانت بمعجزة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، كما ازدانت قصة سعد بمعجزة له عليه الصلاة والسلام أيضاً ـ كما مر بنا من قبل ـ.

ومهما يكن من أمر: فلكل من القصتين دلالاتها وأبعادها في تاريخنا، وبخاصة ما كان علىٰ أرض الواقع في تلك الحِقبة الزمنية من رحلة دعوة الإسلام في التاريخ بعد الهجرة الميمونة، وهي الحقبة التي تميّزت بنقلة نوعية في ميزان القوىٰ لصالح المؤمنين، وكان من وراء ذٰلك الخير الكثير لبني الإنسان وفي مقدمتهم أولٰئك المنافحون عن عقيدة التوحيد.

وما أصاب قريشاً من الهزيمة ومَرّغ كبرياءها في بدر، كان مدعاة لتخطيط جديد واتصالات تآمرية يرقص لها الشيطان: ومن ذٰلك ما روىٰ

أصحاب المغازي والسير والطبراني وغيرهم عن عروة بن الزبير أن عمير بن وهب الجمحي جلس مع صفوانَ بن أمية بعد مصاب أهل بدر من قريش في الحجر بيسير، وكان عمير بن وهب شيطاناً من شياطين قريش، وممن كان يؤذي رسول الله ﷺ وأصحابه، ويلقون منه عناءً وهو بمكة، وكان ابنه وهبُ بن عمير في أُسارىٰ بدر.

فذكر أصحابَ القليب ومصابَهم ـ يعني في بدر ـ، فقال صفوان:

ـ إنْ في العيش ـ أو ما في العيش ـ بعدهم خير.

فقال له عمير: صدقتَ والله، أما والله لولا دينٌ عليَّ ليس له عندي قضاء، وعيالٌ أخشىٰ عليهم الضيعة بعدي، لركبت إلىٰ محمد حتىٰ أقتلَه، فإن لي قِبَلَهم علةً أتعلل بها، ابني أسير في أيديهم.

ففرح صفوان بقوله وقال: عليَّ دينك، أنا أقضيه عنك، وعيالُك مع عيالي أواسيهم ما بَقُوا، لا يسعني شيء ويعجِز عنهم.

فقال له عمير: فاكتم شأني وشأنَك.

قال: أفعل.

ثم أمر عمير بسيفه فُشُحِذ له وسُمّ، ثم انطلق حتىٰ قدم المدينة، وهناك رآه عمر بن الخطاب ﷺ الذي كان يتحدث مع بعض إخوانه عن بدر، فاستنكر وجوده، وأوجس التحسّب من مجيئه هٰكذا متوشحاً سيفه، ومما قاله عندها:

ـ والله ما جاء إلا لشر وهو الذي حرَّش بيننا وجَزَرَنا للقوم يوم بدر.

ثم قام عمر فدخل علىٰ رسول الله ﷺ فقال: يا نبي الله، هٰذا عدو الله عمير بن وهب قد جاء متوشحاً سيفه.

قال: فأدخله عليّ.

فأقبل عمر حتىٰ أخذ بحِمالة سيفه في عنقه فلبّبه بها، وقال لرجال كانوا معه من الأنصار: ادخلوا علىٰ رسول الله فاجلسوا عنده، واحذروا عليه من هٰذا الخبيث فإنه غير مأمون.

ثم دخل به علىٰ رسول الله ﷺ، فلما رآه رسول الله علىٰ هٰذه الحال قال: «**أرسله يا عمر، ادنُ يا عمير**».

فدنا ثم قال: أنعموا صباحاً ـ وكانت تحيةَ أهل الجاهلية بينهم ـ.

وفي هٰذا الجو المكفهر لم يشأ رسول الله أن يمرّها بلا تعليم فقال عليه الصلاة والسلام: «**قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير، بالسلام: تحية أهل الجنة**».

فقال: أما والله يا محمد إن كنتُ بها لحديثَ عهد.

ودونما تضييق أو إكراه، أو مصادرة لحريته، وهو من هو في سابقته بالأذىٰ لرسول الله والمسلمين وهو الآن تحت سلطان المسلمين.. كان لا بد أن يسأله رسول الله عن سبب مجيئه وهو متقلّد سيفه أيضاً؟ قال: «**فما جاء بك يا عمير؟**»

قال: جئت لهٰذا الأسير الذي في أيديكم فأحسنوا فيه.

وتزداد روعة الحوار بين رسول الله وبينه، إذ قال له: «**فما بال السيف في عنقك؟**»

قال: قبحها الله من سيوف، وهل أغنت عنا شيئاً!! إنما أُنسيتُه حين نزلت وهو في رقبتي.

قال: اصدقني، ما الذي جئت له؟

قال: ما جئت إلا لذٰلك.

ثم ماذا بعد هٰذه الكذبة البلقاء؟

يشاء الله أن تقع المعجزة وتنكشف الحقيقة ويتحول قلب عمير دونما تبكيت أو تكذيب أو رفع صوت علىٰ الأقل. قال ـ بأبي هو وأمي ـ: «**بل قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحجر، فذكرتما أصحاب القليب من قريش، ثم قلت: لولا دينٌ علي وعيال عندي لخرجتُ حتىٰ أقتل محمداً، فتحمّل لك صفوان بدَينك وعيالك، علىٰ أن تقتلني، والله حائل بينك وبين ذٰلك**».

ولٰكن كيف كان وقع ذٰلك علىٰ عمير؟ لقد استيقظ عقله وشرح الله

صدره للإيمان بعد أن سمع ما لم يكن يخطر علىٰ باله أن يسمعه: قال عروة: قال عمير:

ـ أشهد أنك رسول الله وأنك صادق. لقد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء، وما ينزل عليك من الوحي، وإن هٰذا الحديث كان بيني وبين صفوان في الحجر، لم يطلع عليه أحد غيري وغيره، فأخبرك الله ﷻ به، وفي رواية: فوالله إني لأعلم ما أتاك به إلا الله؛ فالحمد لله الذي هداني للإسلام وساقني هٰذا المساق.

ثم شهد شهادة الحق.

ولما كان الأصل عند المسلمين في السلم والحرب هو الهداية إلىٰ الدين الحق؛ فقد فرحوا بعمير لذٰلك.. جاء عن موسىٰ بن عقبة: ففرح به المسلمون حين هداه الله تعالىٰ، وقال عمر رضي الله عنه: والذي نفسي بيده لكان كذا وكذا أحبّ إليّ من عمير حين طلع، ولهو اليوم أحبُّ إلي من بعض ولدي.

فقال رسول الله ﷺ: «**اجلس يا عمير نواسِك**»، وقال لأصحابه: «**فقِّهوا أخاكم في دينه وأقرئوه القرآن، وأطلقوا له أسيره**» ففعلوا.

أجل: أراد ﷺ ـ وهو بالمؤمنين رؤوف رحيم ـ أن يواسيه في أعقاب ما اعتراه من الخوف الذي كان هو سببه في أول الأمر. أرأيت إلىٰ هٰذه التربية بالقدوة وما فيها للأمة من دروس؟!

هٰذا بجانب الفرح بهداية عمير: سرعان ما وضعه ﷺ ـ وقد شرّفه الله بالإسلام ـ علىٰ مدرجة الأخوة الإيمانية، آمراً أن يصحبها ـ علىٰ الوجوب ـ كما نرىٰ ـ سبيل التكوين الصحيح للمسلم، فقهاً في الدين، وتعلُّماً للقرآن «**فقّهوا أخاكم في الدين وأقرئوه القرآن**»، كيما يكون المسلمَ الحق في ذات نفسه، وفي علاقته بالمجتمع، الأمر الذي يجعل منه طاقة فاعلة في بناء الحياة الإسلامية التي يُنشئ المسلمون في ظلها ـ طاعةً لله تعالىٰ ـ حضارة الإسلام.



صفوان بن أمية.. وإسلام عمير والمرحلة التاريخية



كان فيما أسلفت من القول في قصة عمير بن وهب وصفوان بن أمية، وما ائتمرا به من قتل النبي ﷺ: كونُ هـٰذه القصة تأتي في حِقبة زمنية لعلها نقطةُ البدء في بروز التحول التاريخي علىٰ طريق المواجهة بين أهل الحق وأهل الباطل في أعقاب ما مُني به المشركون من الهزيمة النكراء يوم الفرقان يوم التقىٰ الجمعان. لذا فهي تقع علىٰ التقابل المضيء، مع قصة اعتمار سعد بن معاذ رضي الله عنه وطوافه حول البيت علىٰ مرأىٰ ومسمع من عمرو بن الحكم أبي جهل، تلك التي جرت وقائعها بعيد وصول النبي ﷺ مهاجراً إلىٰ المدينة، حيث لم يعد خافياً يومذاك تحوُّل ميزان القوة إلىٰ صالح المسلمين بعد تلك الهجرة المباركة التي كان عطاؤها بالمهاجرين والأنصار عليهم الرحمة والرضوان عطاء سخياً كلَّ السخاء في تاريخنا وما يزال.. والفارق الزمني بين الواقعتين جدّ قليل.

ولقد كان ما بيّته عمير وصفوان، وَسَمَّ عمير سيفه وقدم المدينة لتحقيقه مدعياً أنه قدمها لفداء أسيره: حدثاً مهماً ذا دلالة علىٰ صورة من صور رد الفعل عند أهل الشرك، لَعقاً لجراح بدر ومحاولةً للانتقام، بشخص الرسول القائد المؤيد بالوحي محمد عليه الصلاة والسلام.

ولـٰكن شاء من بيده قلوب العباد يقلّبها كيف يشاء، وإذا قضىٰ أمراً فإنما يقول له كن فيكون.. شاء سبحانه غير الذي اتفق عليه المؤتمران؛ فإذا بالسحر ينقلب علىٰ الساحر، وإذا بعمير بن وهب الجمحي الجاهلي عاقدِ العزم علىٰ قتل المصطفىٰ صلىٰ الله وسلم وبارك عليه بسيفه المسموم، متكئاً

علىٰ عدم الصدق، لنكران ما قدم المدينة من أجله: إذا به يتحول تحولاً كلياً بعد أن شهد معجزة علم النبي ﷺ بما ائتمر به هو وصفوان في الحجر عند الكعبة، وأن الله حائل بينه وبين ذٰلك.. فانشرح صدره لدعوة الحق، وحمد الله علىٰ أن هداه للإسلام، وخاطب النبي ﷺ وهو ما يزال متقلداً سيفه المشحوذ المسموم بقوله: «أشهد ألا إلٰه إلا الله وأنك رسول الله».

سبحان مقلب القلوب! يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب؛ لقد حلّ نور الإيمان محلّ ظلام الجريمة، وأين هٰذا من ذاك، وأصبح هٰذا السيف الذي سقي السمّ بعد أن شُحِذ عاطلاً عما أُعد لتحقيقه، كما لو أن له أجلاً قد وافاه، فقُتل بهٰذا السمّ، الأمر الذي يذكر مجازية أبي الطيب المتنبي في قوله من قصيدة في بعض ممدوحيه:

القاتِل السيف في جسم القتيل به ... وللسيوف كما للناس آجال

هٰذا وقد انتفع عمير بما وجه إليه النبي ﷺ من تفقيهه في دينه، وتعليمه القرآن، وصدق فيه ما جاء في الهدي النبوي من أن خيار الناس في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقُهوا أي فهموا الدين بحق.

ها هو ذا يعقد العزم علىٰ الدعوة إلىٰ الله، فيستأذن الرسول ﷺ ـ كما روىٰ ابن إسحاق وغيره ـ فيقول: (يا رسول الله، إني كنت جاهداً علىٰ إطفاء نور الله، شديد الأذىٰ لمن كان علىٰ دين الله ﷻ، وأنا أحب أن تأذن لي، فأقدمَ مكة، فأدعوهم إلىٰ الله تعالىٰ، وإلىٰ رسوله ﷺ وإلىٰ الإسلام لعل الله يهديهم ويستنقذهم من الهلكة، فأذن له الرسول ﷺ)[1].

وهٰكذا عاد عمير إلىٰ مكة بعد ولده الذي أطلق من الأسر دون فدىً وشهر إسلامه ولم يأل جهداً في الدعوة إلىٰ الله وأسلم علىٰ يديه خلق كثير.

قال البيهقي في «دلائل النبوة»: (فلحق بمكة، وجعل صفوان بن أمية يقول لقريش: أبشروا بفتح ينسيكم وقعة بدر، وجعل يسأل كل راكب قدم من المدينة هل بها من حدث؟! وكان يرجو ما قال له عمير، حتىٰ قدم عليهم

---

(١) «المسند»: ١/ ٣٧٩ وانظر: «الربانيون قدوة وعمل» محمد أديب الصالح: ص١٢٨.

رجل من المدينة، فسأله صفوان عنه، فقال: قد أسلم، فلعنه المشركون، وقالوا: صبأ، وقال صفوان: لله عليّ أن لا أنفعه بنافعة أبداً، ولا أكلمه من رأسي كلمة أبداً. وقدم عليهم عميرٌ فدعاهم إلىٰ الإسلام، ونصح لهم جهده، فأسلم بشر كثير)[1]. وعند ابن إسحاق: (فأسلم علىٰ يديه ناس كثير).

وهٰذا يدل علىٰ أن إسلام عمير رضي الله عنه ـ بما اقترب به من الدعوة إلىٰ الله في المناخ الصعب بشجاعة المؤمن وبصيرته وعلوّ همة الداعية وحكمته ـ كما كان خيراً له في عاجله وآجله، كان عنوان حركة مباركة أسهمت في تكثير سواد المهتدين إلىٰ الحق، والتخفيف مما يعاني المجتمع من القلق الذي جلبته الزعامات الفارغة عند الصادين عن سبيل الله في تلك الحقبة التي قاربت النهاية في صلح الحديبية وانتهت بالفتح.

علىٰ أن عميراً رضي الله عنه بعد أن أكرمه الله بالإسلام، وأسعده بالدعوة إلىٰ التوحيد: لم يقطع حبل الود بينه وبين ابن عمه صفوان بن أمية، رجاء أن يهديه الله للحق ويستنقذه من الهلكة، وكان ذٰلك بعد الفتح والحمد لله.

ثم إن صحابينا عميراً هاجر إلىٰ المدينة وشهد أحداً مع النبي ﷺ وما بعد ذٰلك من المشاهد كما يقول ابن سعد[2].

ومما يجدر ذكره أن عميراً كان قد ندبه المشركون يوم بدر لحزر المسلمين، وهو ما ذكره عمر رضي الله عنه يوم أساء الظن بمجيئه إلىٰ المدينة، وقد كان ذكياً نابهاً في حزر العدد، وما توحيه وجوه الأبطال المتعطشين للشهادة يترجح الانصراف عن قتال المسلمين، ولٰكن صناع القرار وعلىٰ رأسهم أبو جهل: أبَوا إلا المواجهة القتالية التي جللتهم بالخزي المهين.

قال ابن إسحاق: وحدثني أبي إسحاق بن يسار وغيره من أهل العلم عن أشياخ من الأنصار، قالوا: (لما اطمأن القوم، بعثوا عمير بن وهب الجمحي فقالوا: احزر لنا أصحاب محمد قال: فاستجال بفرسه حول العسكر، ثم رجع

---

(١) «سيرة ابن هشام»: ٢/ ٣١٨. وانظر: «إمتاع الأسماع» للمقريزي: ١/ ١٠٠.
(٢) «دلائل النبوة»: ٣/ ١٤٩، «سيرة ابن هشام»: ٢/ ٣١٨.

إليهم، فقال: ثلاثمئة رجل، يزيدون أو ينقصون، ولـٰكن أمهلوني حتىٰ أنظر أللقوم كمين أو مدد؟ قال: فضرب في الوادي حتىٰ أبعد، فلم ير شيئاً، فرجع إليهم فقال: ما وجدت شيئاً، ولـٰكني قد رأيت يا معشر قريش، البلايا تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع، قوم ليس معهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، والله ما أُرىٰ أن يُقتل رجل منهم، حتىٰ يقتل رجلاً منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادهم، فما خير العيش بعد ذٰلك؟! فَرَوا رأيَكم)[1] وأورده ابن كثير في «البداية والنهاية» من رواية ابن إسحاق[2].

(البلايا): جمع بليّة، وهي الناقة أو الدابة تربط علىٰ قبر الميت، فلا تُعلف ولا تُسقىٰ حتىٰ تموت، وكان بعض العرب ممن يقر بالبعث يقول: إن صاحبها يحشر عليها.

(النواضح): الإبل التي يستقىٰ عليها الماء: جمع ناضح.

هـٰذا وتدل الروايات علىٰ أن عميراً بقي بعد عمر رضي الله عنهما حيث كانت وفاته بعد السنة الثانية والعشرين للهجرة.

وبعد: فمن حق صفوان بن أمية الجمحي ـ وهو الركن الثاني في قصتنا ـ أن نشير إلىٰ أنه أسلم بعد الفتح وحسن إسلامه؛ ذٰلك بأنه هرب يوم الفتح، ولـٰكن صديقه عمير بن وهب الذي كان يريد له أن يُسلم: طلب له الأمان من الرسول ﷺ فأمّنه ورجع.

وقد حضر حنيناً وهو مشرك ثم شرح الله صدره للإسلام، ودخل الإيمان قلبه فكان من سادات المسلمين، كما كان من سادات المشركين، وشهد اليرموك، وكان أميراً علىٰ بعض الكراديس، ثم لم يزل مقيماً بمكة حتىٰ توفي بها رضي الله عنه سنة اثنتين وأربعين للهجرة.

روىٰ عن الرسول ﷺ وروىٰ عنه كثيرون[3].

---

(١) «الطبقات الكبرىٰ» لابن سعد: ٤/ ٢٠٠.

(٢) «سيرة ابن هشام»: ٢/ ٢٧٤.

(٣) «البداية والنهاية» لابن كثير: ٥/ ٨٦ ـ ٨٧.

(٤) وانظر: «سيرة ابن هشام»: ٤/ ٦٠، «تهذيب الكمال» للمزي: رقم (٢٨٨١)، «البداية

قصتا سعد بن معاذ.. وعمير بن وهب والمرحلة التاريخية

(٣)

نحن علىٰ موعد مع قصة معبرة تؤكد ما سبق بيانه من أهمية العلاقة بين القصة وبين المرحلة التاريخية التي كانت وعاءها الزمني، وهي قصة عمير بن وهب، وإسلامه في أعقاب يوم الفرقان، والعهد قريب بقصة سعد بن معاذ ﵁ يوم قدم مكة معتمراً بعد أن قدم رسول الله ﷺ المدينة، وما حصل من الملاحاة الشديدة بينه وبين أبي جهل عندما رآه يطوف بالكعبة ومعه صديقه أمية بن خلف الذي كان نازلاً عليه بمكة، لما أن خلفاً كان ينزل علىٰ سعد بالمدينة في ذهابه ـ يوم يذهب ـ إلىٰ الشام.

وقد جرت الإشارة إلىٰ الأهمية التي تحملها المرحلة التاريخية التي جرت فيها وقائع القصة وهي مرحلة ما بعد الهجرة المباركة مباشرة، لما أن الهجرة قد عملت عملها ـ بفضل الله ـ في تبدّل ميزان القوىٰ لصالح المسلمين، ولم يغب ذٰلك عن قريش ممثلة في زعمائها الذين يتولون كثير الصد عن سبيل الله، ومحاولة فتن المسلمين عن دينهم، والوقوف المتعنت المؤذي في وجه الدعوة الإسلامية أن تأخذ طريقها إلىٰ القلوب والعقول، وفي مقدمة هٰؤلاء عمرو بن الحكم أبو جهل، فجاشت الصدور عندهم بالحنق والغيظ، وتضاعفت إرادة الأذية والإيقاع بأحباء الله الموحدين، وكان موقف أبي جهل في فظاظته وما بدا فيه من قلة الحياء والقِحة، صورة بينة عن هٰذا التوجه الظالم في معركة الصراع بين الحق والباطل.

وفرضت طبيعة تلك المرحلة التي اتسمت بجديد لصالح المسلمين في

حلبة الصراع، علىٰ أبي جهل أن لا ينظر في ملاحاته ومنازعته سعداً علىٰ أنه ينافح عن قضية شخصية بينه وبين سعد، ولٰكنه يقوم بما يقوم به، علىٰ أنه مواجهة لزعيم يمثل في تلك الحقبة تحدي المدينة وأهلها لقريش يوم آوىٰ الأنصار ـ تحت راية التوحيد ـ إخوانهم المهاجرين، وكانوا في عونهم ونصرتهم علىٰ أكمل الوجوه.

وموقف سعد الإيماني الصارم الشجاع من عدوان أبي جهل وقلة حيائه يعبّر عن إدراك سعد لطبيعة تلك المواجهة، تتجاوز شخصه إلىٰ الجماعة وما يجب من المنافحة عن عزة الإسلام وكرامة المسلم والذود عن حياض الدعوة أن يقتحم، ولو علىٰ هٰذه الصورة من الملاحاة بينه وبين أبي جهل وكان من حصافته ردّه علىٰ وعيد أبي جهل باللغة المناسبة وذٰلك بتهديده بمنعه من طريقه إلىٰ المدينة في ذهابه إلىٰ الشام، وأنه لم ينحنِ لزعامته التقليدية في ظل الجاهلية الجهلاء.

وَبَعْــدُ: فلا بد من التفكير مرة أخرىٰ بأن سعداً ـ وما أوفر مناقب سعد ـ لما كانت الهداية إلىٰ الإسلام هي الأصل عنده، فإنه لم ينس ـ وهو في حميّا تلك المواجهة، وصديقه أمية يخشىٰ علىٰ أبي جهل أن يمرّغ عنفوانه في التراب بسبب رفعه صوته عليه وهو سيد أهل هٰذا الوادي، فيحضه علىٰ عدم رفع صوته ويمسكه ـ لم ينس وهو في ظل تلك الشدة من الملاحاة مع أبي جهل، وعقلانية صديقه أمية الجاهلة، أن يذكّر هٰذا الصديق الوفي بمراجعة نفسه فيما هو فيه من الضلال، وأن نهايته قادمة علىٰ يد المسلمين بإخبار الصادق المصدوق ﷺ ما دام في صف الباطل، وقد كشفت الروايات الصحيحة ـ كما أسلفنا ـ من أنه قال ـ كما جاء في بعضها ـ: والله لا أخرج.

وأعود إلىٰ توكيد هٰذا التناقض المخزي عنده وعند زوجته، حيث التصديق الجازم للخبر المومىٰ إليه، إذ محمد والله لا يكذب، ثم عدم التصديق برسالته عليه الصلاة والسلام، وقد احتال عليه أبو جهل فأخرجه إلىٰ بدر، وتحققت معجزة الرسول ﷺ.

يقول عبد الله بن مسعود في رواية أكثر تفصيلاً: (.. فلم يزل أبو جهل حتىٰ قال: إذ غلبتني فوالله لأشترينّ أجود بعير بمكة.

ثم قال أمية: يا أم صفوان جهزيني.

فقالت له: يا أبا صفوان، أوقد نسيت ما قال لك أخوك اليثربي؟

قال: لا، وما أريد أن أجوز معهم إلا قريباً.

قال: فلما خرج أمية أخذ لا ينزل منزلاً إلا عقل بعيره، فلم يزل بذٰلك حتىٰ قتله الله ببدر)[1].



والنهاية» لابن كثير: ١١/ ١٥١، «الأعلام» للزركلي: ٣/ ٢٠٥.

طاشت السجلات.. وثقلت البطاقة

لله ما أعظم ما كان من إكرام الله أمتنا بعقيدة التوحيد تخالط بشاشتها القلوب، وترقىٰ بالمؤمن إلىٰ المستوىٰ الذي يجعله بعمله وإخلاصه في الدين ممن يظفرون بالنجاة في الدار الآخرة دار القرار يوم تجزىٰ كل نفسٍ بما كسبت ولا يسأل حميم حميماً، وقد ينشر الله عليه رحمته علىٰ تقصير شديد يكون قد ألمَّ به في دار العمل، وهو تقصير يقرّه ولا ينكر منه شيئاً، فيجوز المخاطرَ في تلكم الساعات العصيبات بالكلمة الطيبة التي هي دائماً مصدر السعادة وينبوع الخير في الدنيا ويوم الدين «شهادة أن لا إلٰه إلا الله وأن محمداً رسول الله».

وهٰذه حقيقة تتجلىٰ في واحدة من عدد من الوقائع قصّ النبي ﷺ أخبارها علىٰ أصحابه والأمة من بعدهم، مما أطلعه الله عليه من غيب يوم القيامة، حيث يخلّص الله رجلاً من المسلمين صادقاً في توحيده ـ كما يبدو ـ كان مسرفاً علىٰ نفسه في الدنيا، وذٰلك برجحان حسنة له قِوامها بطاقة فيها أشهد أن لا إلٰه إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، بعد أن اعترف بما هو مدوّن من سيئاته في سجلات بالغة الطول، ولم ينكر من مضموناتها شيئاً وأقرّ بأن الكتبة الحافظين عليهم السلام، لم يظلموه شيئاً، إذ توضع تلك السجلات في كفة والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ولا يثقل مع اسم الله شيء.

ذٰلك ما روىٰ أحمد والترمذي وابن حبان وابن ماجه والبيهقي والطبري عن عبد الله بن يزيدَ أبي عبد الرحمٰن المعَافري الحُبُليّ قال: سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله** عز وجل **سيخلّص ـ يستخلص ـ رجلاً من أمتي علىٰ رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعة**

وتسعين سجلاً كلّ سجل مدُّ البصر - وعند الترمذي: مثل مدّ البصر - **ثم يقول له: أتنكر من هذا شيئاً؟ أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يا رب! فيقول: أفلك عذر أو حسنة؟ فيُبهت - أو فيُهاب - الرجل فيقول: لا يا رب؛ فيقول: إن لك عندنا حسنة** - وعند أحمد في «المسند» - **حسنة ً واحدةً، وإنه لا ظلم عليك اليوم، فتُخرج له بطاقة فيها (أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله) فيقول: احضُر وَزْنَك! فيقول: يا رب! ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟! فيقول: إنك لا تُظلم. قال: فتوضع السجلات في كفة، والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات، وثقلت البطاقة، ولا يثقل مع اسم الله شيء**. وعند ابن حبان: قال: **فلا يثقُلُ اسم الله شيء**»[1].

وأخرجه الحاكم في «المستدرك» في موضعين، صححه في الموضع الأول على شرط مسلم ووافقه الذهبي. وقال في الموضع الثاني: صحيح الإسناد ولم يخرجاه - يعني البخاري ومسلماً - ووافقه الذهبي أيضاً[2].

وقد جاء افتتاح القصة عند ابن ماجه وفي إحدى الروايتين عند الحاكم بلفظ: «**يُصاح برجل من أمتي يوم القيامة على رؤوس الخلائق..**» الحديث[3] أي: ينادى.

(يخلِّص): يميز ويختار.

(السجل): الكتاب الكبير الذي كتبت فيه الأعمال. يقال: سجل القاضي بالتشديد؛ أي: قضى وحكم وأثبت حكمه في السجل. وفي «اللسان»: السجل: كتاب العهد ونحوه والجمع سجلات، وهو أحد الأسماء المذكرة المجموعة بالتاء.

(فيبهت الرجل): البَهْتُ: الانقطاع والحيرة.

---

(١) «الجامع الصحيح» مع «فتح الباري»: ٧/ ٢٨٢، «دلائل النبوة»: للبيهقي ٣/ ٢٧.

(٢) وانظر: «المسند»: رقم (٦٩٩٤)، الترمذي مع «تحفة الأحوذي»: ٧/ ٣٩٥ رقم (٢٧٧٦)، «سنن ابن ماجه»: رقم (٤٣٠٠)، «الإحسان»: رقم (٢٢٥)، «شرح السنة» للبغوي: رقم (٤٣٢١)، «القيامة مشاهدها وعظاتها» لمحمد أديب الصالح: ١/ ٢٥٦.

(٣) «المستدرك» للحاكم: ١/ ٥٢٩.

(ويهاب) أي: يُوقَع في هيبة، فيقول من كمال الهيبة: لا يا رب جواباً عن قول الله له: «أفلك عذر أو حسنة أو ألك عن ذٰلك حسنة؟» كما هي الرواية عند ابن ماجه.

(والبطاقة): عن ابن الأعرابي: الورقة. وقال غيره: رقعة صغيرة، وفي حديث ابن عباس ﵄، قال لامرأة سألته عن مسألة: اكتبيها في بطاقة؛ أي: رقعة صغيرة. وفي «النهاية» لابن الأثير: (فيه «**يؤتىٰ برجل يوم القيامة وتخرج له بطاقة فيها شهادة أن لا إلـٰه إلا الله**»، البطاقة: رقعة صغيرة يثبت فيها مقدار ما يجعل فيه، إن كان عيناً فوزنه أو عدده، وإن كان متاعاً فثمنه. قيل: سميت بذٰلك لأنها تشد بطاقة من الثوب، فتكون الباء حينئذ زائدة)[1].

ومهما يكن من أمر: يظلّ بيان النبي ﷺ باستعمال السجلات والبطاقة، في الكشف عما يكون من فضل الله تعالىٰ وسعة رحمته بذٰلك العبد المسلم: غايةً في البلاغة وروعة الأسلوب، وكم أدّت كلمة «طاشت» في قوله: فطاشت السجلات غرضها في هـٰذا البيان النبوي إذ معنىٰ «طاشت»: خَفَّتْ، ولذا رفعت؛ لأن الطيش الخفة، وفي المقابل ثقلت تلك الرقعة الصغيرة التي هي البطاقة. وإذن فليشرّق الذهن وليغرّب علىٰ ساحة التدبر والاعتبار، ما حلا له التشريق والتغريب، بعد أن يشهد في هـٰذه الصورة المؤثرة المعبرة البادية علىٰ رؤوس الخلائق يوم الحساب: سعة رحمة الله تعالىٰ وعظيم فضله في ذٰلك اليوم العصيب.

هـٰذا: وقد أحسن الحافظ الإمام أبو حاتم ابن حباب البستي فيما اختاره في «صحيحه» ترجمة ـ عنواناً ـ للحديث الذي حمل إلينا هـٰذه القصة التي نسعد باصطحابها؛ قصة البطاقة والسجلات، إذ قال ﵀: (ذكر البيان بأن الله جل وعلا، بتفضله قد يغفر لمن أحبّ من عباده ذنوبه بشهادة له ولرسوله ﷺ، وإن لم يكن له فضل حسنات يرجو بها تكفير خطاياه)[2].

(١) «سنن ابن ماجه»: ٤/٥١٧ رقم (٤٣٠٠)، «المستدرك» للحاكم: ١/٥٢٩.

(٢) «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير: مادة: (بطق). وانظر: «اللسان» مادة: (بطق) أيضاً.

وغير خاف وضوح المناسبة بين الترجمة كما هي عند ابن حبان، وبين حديث القصة؛ أرأيت إلىٰ ما عومل هـٰذا الرجل ـ وهو صاحب تلك السجلات الكثيرة المنذرة بسوء العاقبة يوم الحساب ـ والتي لم ينكر شيئاً منها ـ.. أرأيت إلىٰ ما عومل به من التلطف والإيناس حيث أخرجت له تلك البطاقة المباركة التي فيها الشهادتان، ثم إلىٰ ما زيد من الكرم الإلـٰهي بأن قيل له: «احضر وزنك» الأمر الذي يعمل عمله ـ وسبحان من عطاؤه هو العطاء ـ في إدخال الكثير من الطمأنينة إلىٰ نفسه، وتعلقه بحبل الرجاء... رجاء أن يظفر من الكرم الإلـٰهي بنعماء بعد نعماء.

أجل: قيل له: «احضر وزنك» قال العلامة المباركفوري: (أي: الوزن الذي لك، أو وزن عملك، أو وقت وزنك، أو آلة وزنك ـ وهو الميزان ـ ليظهر لك انتفاء الظلم، وظهور العدل، وتحقق الفضل)[1].

ويظل شعوره بما تحمل تلك السجلات من خطر محدق بمصيره، باعثاً علىٰ الاستغراب والدهشة فيقول: «يا رب ما هـٰذه البطاقة» أي: الواحدة مع هـٰذه السجلات ـ أي: الكثيرة الطويلة ـ وماذا هي صانعة بجانبها وفي مقابلتها؟!

ويزداد عظم التلطف الإلـٰهي مرة أخرىٰ، فيؤانَسُ الرجل بأن يقال له: «فإنك لا تُظلم»؛ أي: لا يقع عليك ظلم ولذٰلك لا بد من الوزن، وهـٰذا من كمال المعاملة بالفضل من الرحيم الذي لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون؛ لأنه لو عومل بالعدل وفق القاعدة النورانية: (الناس مجزيون بأعمالهم إن خيراً فخير، وإن شراً فشر): لاختلف الأمر اختلافاً أين هو من البشارة بنفي الظلم؟

وفي خاتمة المطاف: ما الذي أثمن الوزن؟ ها إن المشهد يزداد علىٰ رؤوس الخلائق تألقاً بنور العطاء الإلـٰهي إذ وضعت السجلات في كفة والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات، وثقلت البطاقة.. وهـٰكذا نجا الرجل صاحب السجلات بإخلاص في عقيدته واعتراف بتقصيره، وصدَق قول

---

(١) «صحيح ابن حبان»: ١/ ٣٩٢ رقم (٢٢٥).

النبي ﷺ: «إن الله سيخلّص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة. .» الحديث.

اللهم! اجعلنا من أهل التوحيد الخالص الذين همهم طاعتك وطاعة رسولك، عملاً بحق الكلمة الطيبة: «لا إلٰه إلا الله محمد رسول الله».





آخر أهل الجنة دخولاً

١

جزىٰ الله نبينا ورسولنا محمداً ﷺ خير الجزاء، وآتاه الوسيلة والفضيلة، وبعثه المقام المحمود يوم يقوم الناس لرب العالمين؛ فقد أدّىٰ الأمانة، وبلّغ الرسالة، ونصح للأمة، وجاهد في الله حق جهاده حتىٰ أتاه اليقين.

وأنت واجد أنه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ لم يدع ـ وهو بالمؤمنين رؤوف رحيم ـ طريقاً من طرق الخير إلا دلّ عليه بالكلمة والممارسة وحسن الأسوة، وأمر به ورغّب فيه، ولا باباً من أبواب الشر إلا عمل علىٰ إغلاقه دون المؤمن، فنهىٰ عنه وحذّر من الوقوع فيه؛ كل أولـٰئك بمختلف الأساليب الحكيمة المشرقة بنور النبوة، والمتسقة مع الإنسان من حيث هو إنسان في فطرته وما أودع الله فيه من الأهلية والخصائص.

وكان من ذٰلك حرصه ﷺ علىٰ أن يقصّ علىٰ أصحابه رضي الله عنهم وأرضاهم، ما روَوه بأمانة ودقة بالغة إلىٰ من بعدهم، من أنباء ما يقع يوم يقوم الأشهاد من أمور جسام تصدّق أول ما تصدق قول الله تعالىٰ: ﴿وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورىٰ:٧]، وهي أمور أراد لها ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وهو يؤدي أمانة البلاغ والتزكية: أن تشدَّ أزر أهل الطاعة المتقين، وتوقظ أهل الغفلة السادرين، ناهيك عن بعث الحياة في عزائم المتوانين المقصّرين؛ فمن بشارة إلىٰ نذارة، ومن حديث عن ثمرات الخوف والرجاء في حقائق يشهدها في تلك الساعات العصيبات الخلق أجمعون، إلىٰ الإخبار عن وقائع تزخر بها عرصات القيامة تقوم شاهد صدق يؤكد علىٰ وجه اليقين حقيقة ما جاء في الكتاب والسنة من وعد أو وعيد؛

الأمر الذي يعمل ـ علىٰ هدي السمع والطاعة ـ عمله الخيّر في القلوب والعقول تفكراً واعتباراً، ويحمل عند أولي النهىٰ الذين يفقهون عن الله ورسوله، علىٰ أن يكون المؤمن أكثر يقظة للالتزام بطاعة الله تعالىٰ والحرص علىٰ تقواه، في كل شأن من شؤون دينه ودنياه وآخرته، بحيث. . . . . هٰذا الالتزام. . . . . . في هٰذه الدار، دار الفناء فلا يقع هٰذا المؤمن في شرك الغفلة فيظلم نفسه بشيء من نسيان الله واليوم الآخر، الأمر الذي تتحقق معه الاستقامة التي هي نور طريقه إلىٰ النجاة يوم الخوف، والفوز بجنة الخلد هناك في دار البقاء، وما بعد ذٰلك من نعماء الرضوان الأكبر التي دونها كل نعماء.

هٰذا: والعهد قريب بما سعدنا به من اصطحاب ما أخرج الترمذي وابن ماجه وابن حبان في «صحيحه» والحاكم والبيهقي وغيرهم عن رسول الله ﷺ من رواية عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، من خبر ذٰلك الرجل صادق العقيدة من أمة محمد عليه الصلاة والسلام، الذي كان مسرفاً علىٰ نفسه في الدنيا، ولٰكن ذٰلك لم يحل دونه ـ وهو المخلص في توحيده ـ ودون التذلل الخاشع بين يدي مولاه في الآخرة والاعتراف بما كان عليه في الدنيا من التقصير؛ وأن الكتبة الحافظين لم يظلموه شيئاً، فتجلّىٰ الله عليه بواسع رحمته، وعامله بعظيم فضله، فخلَّصه من الهلكة علىٰ رؤوس الخلائق في ذٰلك اليوم العصيب، وذٰلك بما أكرمه به من وضع سجلاته الكثيرة الزاخرة بما لا يرضي، في كفة، وبطاقةٍ فيها شهادته لله بالوحدانية، ولعبده محمد بالرسالة «**أشهد أن لا إلـٰه إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله**»: في كفة، بعد أن أمره بحضور وزنه، فطاشت تلك السجلات، وثقلت البطاقة ولا يثقل مع اسم الله شيء. وبسبب من هٰذا العطاء الذي هو محض الفضل الإلـٰهي الذي تجاوز العدل وتخطاه، أصبح هٰذا الرجل من الناجين من الجحيم، الفائزين بالنعيم المقيم، ورضوان رب العالمين.

وأعظم بها عبرة ترتفع بالمؤمن ـ خوفاً ورجاءً ـ إلىٰ مدارج القرب الإلـٰهي، فيضاعف ـ وهو يحسن الظن بمولاه ـ من العمل الصالح ما به

تضاعف المثوبة ويعظم الأجر، ويكون ـ علىٰ الدوام ـ أوثق بما عند الله من الفضل والإحسان منه بما في يده، حتىٰ إذا لقيه جل شأنه يوم لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً، لقيه وهو علىٰ حال من كمال الرضا والتسليم، منكراً ذاته، معترفاً بتقصيره، ويا بشرىٰ عبد مؤمن أقبل علىٰ مولاه في ذٰلك اليوم المهول ونور العبودية الخالصة يسعىٰ بين يديه.

ولما كان الخير لا يجلب إلا الخير كما أخبر عليه الصلاة والسلام: فلنعرج علىٰ قصة أخرىٰ محورها التفضل الإلـٰهي العظيم؛ فهي ذات نسب إلىٰ قصة ذٰلك الرجل المتفضَّل عليه من أمة محمد صلوات الله وسلامه عليه، وأعني بها قصة آخر أهل الجنة دخولاً.. الجنة تلك التي يتجلىٰ فيها رب العالمين بواسع رحمته وكريم إحسانه علىٰ رجل في قلبه جذوة إيمان، والتي رواها البخاري ومسلم وغيرهما، واللفظ للبخاري ـ فقد روىٰ بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (قال أناس: يا رسول الله، هل نرىٰ ربنا يوم القيامة؟ فقال: «**هل تضارّون في الشمس ليس دونها سحاب؟**» قالوا: لا يا رسول الله، قال: «**هل تضارّون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب؟**» قالوا: لا يا رسول الله، قال: «**فإنكم ترونه يوم القيامة كذٰلك...**» إلىٰ أن قال: «**حتىٰ إذا فرغ الله من القضاء بين عباده، وأراد أن يُخرج من النار من أراد أن يُخرج ممن كان يشهد أن لا إلـه إلا الله، أمر الملائكة أن يُخرجوهم فيعرفونهم بعلامة آثار السجود، وحرم الله علىٰ النار أن تأكل من ابن آدم أثر السجود، فيخرجونهم قد امتَحشوا، فَيُصب عليهم ماء يقال له ماء الحياة، فينبتون نبات الحبة في حَمِيل السيل، ويبقىٰ رجل مُقبل بوجهه علىٰ النار فيقول: يا رب قد قشبني ريحها وأحرقني ذَكاؤها: فاصرف وجهي عن النار، فلا يزال يدعو الله فيقول: لعلك إن أعطيتك أن تسألني غيره فيقول: لا وعزّتِك، لا أسألك غيره، فيصرف وجهه عن النار. ثم يقول بعد ذٰلك: يا رب قربني إلىٰ باب الجنة، فيقول: أليس قد زعمت أن لا تسألني غيره؟ ويلك يا ابن آدم ما أغدرك. فلا يزال يدعو، فيقول: لعلي إن أعطيتك ذٰلك تسألني غيره، فيقول: لا وعزتك، لا أسألك غيره، فيعطي اللهَ ما شاء من عهود ومواثيق أن لا يسأله غيره، فيقرّبه إلىٰ باب الجنة،**

فإذا رأىٰ ما فيها سكت ما شاء الله أن يسكت، ثم يقول: ربّ أدخلني الجنة. ثم يقول: أوَليس قد زعمت أن لا تسألني غيره. ويلك يا ابن آدم ما أغدرك!! فيقول: يا ربّ! لا تجعلني أشقىٰ خَلقك. فلا يزال يدعو حتىٰ يضحك، فإذا ضحك منه أذن له بالدخول فيها، فإذا دخل فيها قيل: تمنّ من كذا فيتمنىٰ. ثم يقال له: تمنّ من كذا، فيتمنّىٰ، حتىٰ تنقطع به الأماني، فيقول له: هـٰذا لك ومثله معه». قال أبو هريرة: وذٰلك الرجل آخر أهل الجنة دخولاً).

قال عطاء: وأبو سعيد الخدري جالس مع أبي هريرة لا يغير عليه شيئاً من حديثه، حتىٰ انتهىٰ إلىٰ قوله: «**هـٰذا لك ومثله معه**» قال أبو سعيد: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**هـٰذا لك وعشرة أمثاله**» قال أبو هريرة: حفظت (مثله معه)[1].

(امتحَشوا): احترقوا جاء في النهاية لابن الأثير: (فيه «يخرج قوم من النار قد امتحشوا»؛ أي: احترقوا. و(المَحْشُ): احتراق الجلد وظهور العظم)[2].

و(الحِبَّة) بكسر الحاء: مفرد الحِبّ بالكسر: بِزر ما لا يقتات مثل بزور الرياحين والعشب وتنبت في البراري وجوانب السيول.

و(حميل السيل) فعيل بمعنىٰ مفعول: ما يحمل من غثائه وطينه وما إلىٰ ذٰلك.

(قشبني ريحها) سَمّني وآذاني وأهلـٰكني[3].

و(ذَكاؤها) (الذكاء) بفتح الذال: شدة وهج النار يقال: ذكَّيت النار: إذا أتممت إشعالها ورفعتها[4].

ومعنىٰ (انفقهت): انفتحت واتسعت.

---

(١) «تحفة الأحوذي شرح سنن الترمذي»: ٧/ ٣٩٦ رقم (٢٧٧٦).
(٢) «الجامع الصحيح» مع «فتح الباري»: (١١/ ٤٤٥) رقم (٦٥٧٣ ـ ٦٥٧٤). الرقاق.
(٣) «النهاية» لابن الأثير، مادة: (محش).
(٤) وانظر: «شرح النووي علىٰ مسلم» الإيمان، «فتح الباري»: ١١/ ٤٥٩.

آخر أهل الجنة دخولاً

(٢)

الهدي المحمدي نور كله وخير كله، والسعيد السعيد من وفق لسلامة الاتباع علىٰ علم وحضور قلب، ولحسن التأسي علىٰ نور من الله ووقوف عنه: نصوص الوحي متلواً كان وهو القرآن، أو غير متلو وهو السنة.

وإذا كان الأمر كذٰلك: فكم يحسن المؤمنون والمؤمنات صنعاً إذا هم فتحوا قلوبهم وعقولهم لقصص السنة النبوية ـ وهو باب عريض من أبواب الهداية في هٰذا الباب ـ وعملوا علىٰ الانتفاع بما أخبر به النبي ﷺ من شؤون ما أطلعه الله عليه من الغيب، سواء أكان ذٰلك من أخبار الماضين، أم كان مما يقع يوم البعث والنشور؛ فأولو النهىٰ أصحاب العقول الراجحة والقلوب الخاشعة، هم الذين ينتفعون حقاً بالقصص القرآني، وقصص السنة فيتفكرون ويعتبرون: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:١٧٦] وهنالك تراهم وقد غشيتهم الرحمة، فأصبحوا من أهل الاستقامة الذين تسمو بهم عزائمهم الإيمانية، إلىٰ أن يكونوا أكثر تقديراً ووعياً لما أكرم الله به أمتنا في كتابه الكريم وعلىٰ لسان نبيه عليه أفضل الصلاة وأزكىٰ التسليم: من فضيلة الحضور في التاريخ: ـ كما أشرت غير مرة ـ إذ شاء لها أن لا تكون مغيبة عن شيء ينفع العلمُ به من الماضي، ولا عن شيء مما يقع يوم القيامة من أمور، يُحرك الهمم إلىٰ ما فيه النجاة من الجحيم والفوز بجنات النعيم ورضوان السميع العليم.

كل ذٰلك كيما يكون المكلف علىٰ بينة من أمره فلا يقعد عن اللحاق بركب المتقين، والعمل بعمل أهل الآخرة، ليوم شديد الهول تستعلن فيه

الحقيقة التي أخبر الله عنها بقوله جل شأنه: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء].

قادني إلىٰ التذكير بهٰذه الحقائق، ما أنا بسبيله من العودة إلىٰ نص الحديث الذي حمل إلينا قصة ذٰلك الرجل من أبناء أمتنا الذي بدا وهو آخر أهل الجنة دخولاً الجنة، كيما نسعد باصطحاب ما في تلك القصة من عبر ودروس لعل من أهمها ما يتعلق بما للكلمة الطيبة من نور في القلب وأثر في النجاة يوم القيامة، وإن طالت حقبة التطهير من دنس المخالفة عن الصراط السوي في نار السعير، ثم ما يجب علىٰ المكلف من العمل دائماً علىٰ زيادة إيمانه بأن لله الأسماء الحسنىٰ والصفات العلىٰ، وأنه أفهم بعباده منهم بأنفسهم، وأنه مالك يوم الدين الفعال لما يريد القادر القاهر المتصرف بملكه كما يشاء، وإذا قضىٰ أمراً فإنما يقول له كن فيكون.

وإذا كنا قد أوردنا رواية الإمام البخاري فيما سبق؛ فلعل من الخير إيراد رواية الإمام مسلم اليوم لما بينهما من بعض التخالف اليسير في التعبير عن الوقائع حيناً ومن بعض الزيادة هنا حيناً آخر، الأمر الذي يسعف المؤمن بمزيد من التَّبَيُّنِ وإدراك ما للقصة من أبعاد في موضوعها المضيء بالحقائق العظام.

وإليكم ما جاء في «صحيح مسلم» من قول النبي ﷺ ـ كما روىٰ أبو هريرة رضي الله عنه ـ: «.... **ثم يفرغ الله تعالىٰ من القضاء بين العباد، ويبقىٰ رجل مقبلٌ بوجهه علىٰ النار، وهو آخر أهل الجنة دخولاً الجنة فيقول: أي ربّ، اصرف وجهي عن النار، فإنه قد قشبني ريحها وأحرقني ذَكَاؤها. فيدعو الله ما شاء الله أن يدعوه. ثم يقول الله تبارك وتعالىٰ: هل عسيت إن فعلتُ ذٰلك بك أن تسأل غيره!** ـ وعند البخاري ـ كما سبق ـ «لعلك إن أعطيتك أن تسألني غيره» ـ. **فيقول: لا أسألك غيره، ويعطي ربَّه من عهود ومواثيق ما شاء الله فيصرف الله وجهه عن النار**».

سبحان الله! يبدو أن إقباله بوجهه علىٰ النار بعد أن نبت بسبب ماء الحياة في أعقاب الامتحاش بها: أمرٌ مأمور به ولا يستطيع الفَكاك منه إلا

بإذن إلٰهي. وجاءت رحمة جديدة فأُلهم الدعاء بصرف وجهه عن النار شاكياً ما يلاقيه من أذىٰ ريحها وشديد وهَجها، وأكثر من هٰذا الدعاء والتضرع لمن يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء، وأخذ علىٰ نفسه المواثيق أن لا يسأل غير هٰذا. فاستجاب الله له وصرف وجهه عن النار.

ولٰكن ما الذي حدث بعد هٰذا: لقد فتحت الرحمة الإلٰهية آفاق الطمع بالفضل العظيم، فراح هٰذا الرجل كلما أعطي نعمة، طمع في غيرها راجياً مولاه بلا كلفة، كل هٰذا مع ما يعطي من مواثيق علىٰ غير هٰذا، وتناله رحمة الله التي وسعت كل شيء وتناله، ويتعاظم الإحسان ويتعاظم، حتىٰ يضحك الله تعالىٰ منه ويدخله الجنة، ويبلغ العطاء الإلٰهي مبلغ أن يأمره الله بالتمني، مذكراً إياه بكذا وكذا من أمانيه، وتبارك الذي يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء، وخزائنه ملأىٰ لا تغيضها نفقة: لقد تمنىٰ الرجل حتىٰ انقطعت به الأماني، فقال الله له: ذٰلك لك ومثله معه، أو ذٰلك لك وعشرة أمثاله. تفصيل ذٰلك عند مسلم؛ حيث البلاغة النبوية الفاذة وإحاطة الأسلوب وروعته.

«**فإذا أقبل علىٰ الجنة ورآها سكت ما شاء الله أن يسكت. ثم يقول: أي ربّ! قدمني إلىٰ باب الجنة. فيقول الله له: أليس قد أعطيت عهودك ومواثيقك لا تسألني غير الذي أعطيتك. ويلك يا ابن آدم! ما أغدرك! فيقول: أي رب! ويدعو الله حتىٰ يقول له: فهل عسيت إن أعطيتك ذٰلك أن تسأل غيره! فيقول: لا، وعزتك! فيعطي ربَّه ما شاء من عهود ومواثيق. فيقدمه إلىٰ باب الجنة فإذا قام علىٰ باب الجنة، انفهقت له الجنة. فرأىٰ ما فيها من الخير والسرور. فيسكت ما شاء الله أن يسكت ثم يقول: أي رب! أدخلني الجنة. فيقول الله تبارك وتعالىٰ له: أليس قد أعطيتَ عهودَك ومواثيقك أن لا تسأل غير ما أُعطيت، ويلك يا ابن آدم! ما أغدرك! فيقول: أي رب! لا أكون أشقىٰ خلقك. فلا يزال يدعو الله حتىٰ يضحك الله تبارك وتعالىٰ منه.** ـ وعند البخاري: «لا تجعلني أشقىٰ خلقك» ـ. **فإذا ضحك الله منه، قال: ادخل الجنة. فإذا دخلها قال الله له: تمنَّهْ. فيسأل ربه ويتمنىٰ. حتىٰ إن الله ليذكره من كذا وكذا، حتىٰ إذا انقطعت به الأماني: قال الله تعالىٰ: ذٰلك لك ومثلُه معه**».

هٰذا ولم يدع الإمام مسلم ـ وهو ما رأيناه عند البخاري من قبل ـ أن يزيد الأمة وثوقاً بصحة هٰذا الحديث الذي جاء علىٰ خبر القصة بوقائعها المفصلة برواية أبي هريرة ﷺ فقال: (قال عطاء بن يزيد: وأبو سعيد الخدري مع أبي هريرة لا يرد عليه من حديثه شيئاً. حتىٰ إذا حدّث أبو هريرة: أن الله قال: «ذٰلك لك ومثله معه» قال أبو سعيد: «وعشرة أمثاله معه» يا أبا هريرة. قال أبو هريرة: ما حفظت إلا قوله: «ذٰلك لك ومثله معه» قال أبو سعيد: أشهد أني حفظت من رسول الله ﷺ قوله: «**ذٰلك لك وعشرة أمثاله**» قال أبو هريرة: وذٰلك الرجل آخر أهل الجنة دخولاً الجنة).

قال الإمام النووي عند شرحه للحديث في «صحيح مسلم»: (قال العلماء: وَجْهُ الجمع بينهما: أن النبي ﷺ أُعلم أولاً بما في حديث أبي هريرة، ثم تكرم الله تعالىٰ فزاد ما في رواية أبي سعيد، فأُخبر به النبي ﷺ ولم يسمعه أبو هريرة)[1] وهٰذا يرجح غلبة الظن بأن الرسول ﷺ تحدث بهٰذه القصة غير مرة والله أعلم.



(١) «النهاية» لابن الأثير، مادة: (ذكا).

(٢) «صحيح مسلم بشرح النووي»: ٣/١٧ فما بعد كتاب الإيمان. إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة لربهم تبارك وتعالىٰ. صحيح مسلم: (٢٩٩)، باب معرفة طريق الرؤية:



الرحمة النبوية.. وأم الفراخ

كلما نظرت في أخلاق النبي ﷺ وسيرته المثلىٰ، ازددت يقيناً بما كان عليه من خُلق الرحمة والترغيب بهٰذا الخُلق والثناءِ عليه، وكل أولٰئك في تميز يملي علىٰ التاريخ ما يملي من الدروس والعبر، ويضع إنسانية الإنسان موضعها من التكريم الذي أسداه ربنا تبارك وتعالىٰ، فلا شيء لديه ـ ﷺ ـ يحول دون قدر هٰذه الإنسانية قدرها، مهما اختلفت ميادين الحركة علىٰ طريق الفرد والجماعة، ولا بدع في ذٰلك، فهو ـ ﷺ ـ الرحمة المهداة، ورسالته التي أوحىٰ الله إليه بها، رحمة للعالمين، ويأخذ خلق الرحمة عنده في التعامل مع خلق الله درجة يعز وصفها بيقين.

ومن الدلائل الكثيرة علىٰ ذٰلك: ما قصّت علينا السنة فيما أخرج أحمد والشيخان وأبو داود وابن حبان وغيرهم بالسند المتصل واللفظ للبخاري، أن أبا هريرة رضي الله عنه قال: قبّل رسول الله ﷺ الحسن بن علي وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالساً، فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قبّلت منهم أحداً، فنظر إليه رسول الله ﷺ ثم قال: «**من لا يرحم لا يُرحم**»[1].

هٰكذا لم يقتصر الأمر علىٰ أن يكون عليه الصلاة والسلام سيد الرحماء من عباد الله، ولٰكنه هدىٰ أيضاً إلىٰ أخذ النفس بهٰذا الخلق الكريم من خلال هٰذه القاعدة النورانية: «من لا يرحم لا يُرحم»؛ أي: من لا يكن من أهل الرحمة فإنه لا يُرحم، وبعد هٰذا الترهيب المرعب من ذا الذي يرضىٰ لنفسه أن يكون من المحرومين المبعدين، الذين لا تنالهم الرحمة، إلا أن يكون

كتاب الإيمان ١/ ١٦٣.

(١) أخرجه البخاري: (٥٩٩٧)، ومسلم (٢٣١٨)، وأحمد في «المسند»: (٧١٢١)

مضروباً علىٰ قلبه بالأسداد كالذي نرىٰ في عتاة الضالين المتكبرين، أعداء الله وأعداء الإنسان والعياذ بالله؟!

ويزيدنا الهدي النبوي ما يقتضي مزيداً من الاهتمام بهٰذا الأمر الجلل الذي يرقىٰ له توجيه خاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليه.

ذٰلك بأن الرحمة عند رسولنا المصطفىٰ عليه الصلاة والسلام ـ وهو الرحمة المهداة ـ لم تقتصر علىٰ أن تكون في حدود الإنسان بوصفه إنساناً ولٰكنها تجاوزت هٰذه الحدود إلىٰ أن تكون حتىٰ للعجماوات من مخلوقات الله، وإنه لأفق حضاري من آفاق الهدي النبوي لا يماري فيه إلا مكابر سَفِهَ نفسه، وهٰذه واحدة من القصص في ذٰلك.

قال الإمام الحافظ أبو داود السجستاني في كتابه «السنن» باب الأمراض المكفرة للذنوب: من كتاب الجنائز: (حدثنا عبد الله بن محمد النفيلي، قال: حدثنا محمد بن سلمة، عن محمد بن إسحاق، قال: حدثني رجل من أهل الشام يقال له أبو منظور، عن عمه قال: حدثني عمي، عن عامر الرام أخي الخضر ـ قال أبو داود: قال النفيلي: هو الخضر ولٰكن كذا قال ـ قال: إني لببلادنا إذ رفعت لنا رايات وألوية، فقلت: ما هٰذا؟ قالوا: هٰذا لواء رسول الله ﷺ، فأتيته وهو تحت شجرة قد بسط له كساء، وهو جالس وقد اجتمع إليه أصحابه، فجلست إليهم، فذكر رسول الله ﷺ الأسقام، فقال: «**إن المؤمن إذا أصابه السقم ثم أعفاه الله منه، كان كفارة لما مضىٰ من ذنوبه، وموعظة له فيما يستقبل، وإن المنافق إذا مرض ثم أعفي كان كالبعير، عقله أهله ثم أرسلوه، فلم يدر لم عقلوه، ولم يدر لم أرسلوه**»؟

فقال رجل ممن حوله: يا رسول الله وما الأسقام؟ والله ما مرضت قط، فقال رسول الله ﷺ: «**قم عنّا فلستَ منا**».

فبينا نحن عنده، إذ أقبل رجل عليه كساء، وفي يده شيء قد التفّ عليه، فقال: يا رسول الله، إني لما رأيتك أقبلتُ إليك، فمررت بغيضة شجر، فسمعت فيها أصوات فراخ طائر، فأخذتهن فوضعتهن في كسائي، فجاءت أمهن فاستدارت علىٰ رأسي، فكشفت لها عنهن فوقعت عليهن معهن، فلففتهن

بكسائي، فهنّ أولاء معي، قال: «**ضعهنّ عنك**»، فوضعتهن وأبت أمهن إلا لزومهنّ.

فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «**أتعجبون لرُحم أم الأفراخ فِراخها؟**» قالوا: نعم يا رسول الله، قال: «**فوالذي بعثني بالحق، لله أرحم بعباده من أم الفراخ بفراخها، ارجع بهنّ حتىٰ تضعهن من حيث أخذتهن وأمهن معهن**» فرجع بهن)[1].

قال المنذري في «الترغيب والترهيب»: (رواه أبو داود وفي إسناده راو لم يسم) لٰكن في كتاب «أُسد الغابة في معرفة الصحابة» لابن الأثير الجزري هٰذا الإسناد لحديث القصة هٰكذا: أخبرنا أبو أحمد عبد الوهاب بن علي بإسناده إلىٰ أبي داود، حدثنا محمد النفيلي قال: حدثنا محمد بن سلمة عن محمد بن إسحاق عن أبي منظور عن عمه عامر الرام أخي الخضر[2] و«الخضر» ـ كما في «تاج العروس» ـ: بالضم، قبيلة وهم رماة مشهورون ومنهم عامر الرامي ـ أو الرام بحذف الياء تخفيفاً ـ.

(ثم أعفاه الله منه)؛ أي: «ثم عافاه الله منه».

(الغيضة): الأجمة، وهي ـ كما جاء في «المصباح المنير» ـ: الشجر الملتف وجمعه غياض.

وقوله: (أتعجبون لرحم أم الأفراخ فراخها): (الرُّحم): بضم الراء وسكون الحاء: الرحمة ومثله: المرحمة. و(الأفراخ والفِراخ والفُروخ): جمع فرخ وهو ولد الطاء.

و(٧٢٨٩) وابن حبان (٤٥٧).

(١) «سنن أبي داود»: ٥/ ٥ ـ ٦ (٣٠٨٩)، ورواه ابن أبي الدنيا تاماً ومختصراً في «حسن الظن بالله»: (٢٠)، والبيهقي في «شعب الإيمان»: (٧١٣٠)، وابن عبد البر في «التمهيد»: ٢٤/ ٥٨، والبغوي في «شرح السُّنَّة»: (١٤٤٠)، وابن الأثير في «أسد الغابة»: ٣/ ١٢١، والمزي في «ترجمة عامر الرامي» من «تهذيب الكمال»: ١٤/ ٨٦٨٧ من طريق محمد بن إسحاق بهذا الإسناد، وأخرجه البخاري معلقاً في «التاريخ الكبير»: ٦/ ٤٤٦. وانظر: «لمحات في أصول الحديث» للدكتور محمد أديب الصالح: ١٩٦ ـ ٢٠٤.

(٢) «أسد الغابة»: ٣/ ١٢١. وانظر: «عون المعبود» لشمس الحق العظيم أبادي: ٣/

والملاحظ أن مما هدىٰ إليه النبي ﷺ في هٰذا الشق الأول من التوصية: بيانه ما رحمة الله بعبده المؤمن إذا أصابه المرض وعافاه ـ سبحانه منه ـ أن ذٰلك يكون كفارة لما مضىٰ من ذنوبه، وأنه ـ جل شأنه ـ يغير قلبه فيكون السَّقم والمعافاة منه موعظة له فيما يستقبل من أيام عمره، وبذٰلك يكون انتفع بالمرض والشفاء مرتين:

الأولىٰ: تفضل الله عليه بأن يكون ما أصابه كفارةً لما مضىٰ من آثامه.

الثانية: صفاء قلبه الذي يرقىٰ به ـ وهٰذا مزيد إكرام منه سبحانه ـ إلىٰ أن يكون من أولي النهىٰ الذين يتعظون بما ينالهم من مرض ونحوه، فيزدادون همة في الطاعة والإنابة إلىٰ الله ﷻ، وأن يقابلوا ما يمتحنهم الله به في الحياة بكمال الرضا والتسليم.

وبيّن ﷺ أن هٰذا كله شأن المؤمن، أما المنافق المضروب علىٰ قلبه ـ والعياذ بالله ـ بظلام النفاق والمرض المستعصي، فلا ينتفع بشيء مما حصل مرضاً وشفاءً، لما أنه ممن قال الله فيهم: ﴿أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾ [محمد: ٤] إنّها قلوب لا تستقبل رحمة، ولا تنتفع بموعظة[1].

وكان من بلاغته الفاذّة عليه الصلاة والسلام، وأسلوبه الرفيع المتميز هٰذا التشبيه الذي لم يدع في إيضاح المراد زيادة لمستزيد، حين شبه المنافق المصفّح القلب الذي لم ينتفع ـ قيد أنملة ـ بمرضه ولا بشفائه لأنه عديم الإحساس، حين شبهه بمخلوق أعجم هو البعير، عقله أهله برُمة في رجل أو غيرها، ثم أطلقوه من عقاله، فلم يدر لم عقلوه، ولم أطلقوه وأرسلوه!!

وفي خطوة أخرىٰ مع هٰذا الحديث الزاخر بالعبر، نقع علىٰ ما قصّ ذٰلك الرجل علىٰ الرسول ﷺ والآخرون يسمعون، من قصة أم الفراخ

١٤٩، و«بذل المجهود» للشيخ خليل السهارنفدري: ١٤/ ٤٩.

(١) عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن عظم الجزاء من عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط**» الترمذي: (٢٣٩٦)، ابن ماجه (٤٠٣١)، أحمد في «المسند»: (٢٣٦٢٣)، وعن عائشة ﵂ رفعته: «**ما من مصيبة تصيب المسلم إلا كفر الله بها عنه حتى الشوكة يشاكها**»

وفراخها، وما بدا من عظيم توجيه الرسول ﷺ إلىٰ الإحساس ـ من خلال عطفها علىٰ أولادها ـ بواسع رحمة الله تعالىٰ عليه، ثم ما كان من رحمته عليه الصلاة والسلام بالفراخ وأمهن، الأمر الذي دلّ علىٰ ما لخلق الرحمة من موقع متميز في نفسه صلوات الله وسلامه عليه.

وأنت واجد أن الصحابي رضي الله عنه كان صادقاً كل الصدق فيما تحدث به عن هٰذه الأسرة الضعيفة من مخلوقات الله، وما أودع الله في قلب الأم من العطف والحنان، حين أحسّ كأن هناك تساؤلاً من النبي ﷺ غير منطوق عما استرعىٰ انتباهه من ذٰلك الشيء الملفوف بالكساء، ورأىٰ بنور البصيرة وثاقب النظر أن في الأمر شيئاً يستدعي الاستفسار.

ها إنه ـ وقد بدا من حديثه أن في الأمر سراً ـ يُريح سامعيه من التطلع إلىٰ حقيقة الأمر، فيكشف عن أنه مرّ ـ وهو مقبل علىٰ الرسول ﷺ ـ بغيضة ـ أشجار ملتفة ـ بها عشاش طيور؛ لأنه سمع أصوات فراخِ طائرٍ، فأخذ أفراخ عش منها فوضعهن في كسائه، ولم تلبث أمهن أن جاءت فحلّقت فوق رأسه، وكأنها تبحث أو تعترض اعتراض الأم، وعندها كشف لها عن الفراخ، فوقعت عليها، فما كان منه إلا أن لفّ الجميع بكسائه، يقول رضي الله عنه ـ كما رأينا ـ (فأخذتهن فوضعتهن في كسائي، فجاءت أمهن فاستدارت علىٰ رأسي فكشفت لها عنهن، فوقعت عليهن معهن، فلففتهن بكسائي، فهنَّ أولاء معي).

سبحان الله! لقد كان إحساسه صادقاً أن الطائر الكبير الذي استدار علىٰ رأسه هو أمُّهن، وكان حسناً أنه لم يحجب الفراخ عنها، بل كشف لها عنهن، وبدافع من غريزة الأمومة التي أودعها الله قلبها، وقعت عليهن معهن، حتىٰ كأنها تطلب منه ـ بلسان الحال ـ وحدة المصير مع فراخها، وذٰلك ما فعله بلف الجميع بكسائه.

ويمكن القول بأن الرسول عليه الصلاة والسلام ـ بوافر عقله وعظيم شفقته ورحمته ـ أراد ـ والله أعلم ـ أن يجمع إلىٰ وثوقه الكامل بما فصّل الصحابي من القول: أن يستجلي الحقيقة أكثر وأكثر كيما يكون ذٰلك عوناً علىٰ سلم الهداية والتوجيه إلىٰ الاعتبار بخلق الله وحكمته فيما خلق، والتنبيه علىٰ

سعة رحمته ﷻ وأنه أرحم بعباده من الأم بأولادها حتىٰ في العجماوات، نعم أراد أن يستجلي حقيقة الصلة بين هٰذا الطائر الكبير الذي حوّم فوق رأس الرجل ثم انضم إلىٰ الفراخ، وبين الفراخ نفسها، فمع إحساس صحابينا أنها أم الفراخ، ليس هناك ما يمنع احتمال أن يكون واحداً من الجوارح رأىٰ تلك الفراخ مجتمعة فانقضّ عليها ليأكلها إن أمكنه ذٰلك، أو يخطفها مع عادة الطيور الجارحة بعض الأحيان، فكان أن وقع في الشرك، لذا لم يكن منه ﷺ بعد أن سرد الرجل الخبر بكامله أن أمره بوضع ما هو ملفوف بكسائه من الفراخ والطائر، إذ قال له: «ضعهن عنك».

والذي حصل: أن الرجل امتثل لأمر رسول الله ﷺ فوضعهن علىٰ الأرض، وتبيّن حقاً أن الطائر الكبير هو أم هٰذه الفراخ، إذ لم تطر هرباً مما قد يقع لها، بل ظلّت معهن، ودلالة ذٰلك علىٰ طبيعة الصلة بينها وبينهن وأنها صلة أمومة: لا تخفىٰ، فهي تريد البقاء معهن غير عابئة بأي مصير ينالها مهما يكن شأنه!!

أرأيت!! (فوضعهن وأبت أمهن إلا لزومهن).. ولنتصور حال التعجب والدهشة التي سادت حين صدّق الخبر الخُبر ورأىٰ الحاضرون بأم أعينهم الفراخ وأم الفراخ أمام ناظريهم وهٰذا ما فتح باب التذكير والهداية، وصلىٰ الله عليه وسلم علىٰ رسول الله، كم كان هادياً حكيماً حين وظّف الواقعة علىٰ طريق الإبانة عن سعة رحمة الله تعالىٰ التي هي فوق ما تعجبوا منه من رحمة أم الفراخ وحنوها «أتعجبون لرُحم ـ لرحمة ـ أم الفراخ فراخها؟» فقالوا: نعم يا رسول الله. قال: «فوالذي بعثني بالحق، لله أرحم بعباده من أم الفراخ بفراخها».

وأخيراً برزت بعد هٰذا التذكير بسعة رحمة الله تعالىٰ ـ كيما يعمل المؤمن من الصالحات محسناً الظن بمولاه ﷻ، لا يداخل قلبه شيء من القنوط ـ برزت تلك النعماء العظيمة التي أكرم الله بها صفوته من خلقه محمداً عليه الصلاة والسلام، ألا وهي خلق الرحمة والحنو والإشفاق علىٰ الضعيف من مخلوقات الله، حيث يتجاوز ذٰلك كلُّه حدود البشر إلىٰ العجماوات. فبعد

أن وضع الصحابي الفراخ وأمهن علىٰ الأرض، وتجلّت الحقيقة له عليه الصلاة والسلام أكثر وأكثر، فاجأ كلَّ أولـٰئك الذين عجبوا من شدة تعلق أم الفراخ بفراخها، ونبههم من خلال ذٰلك علىٰ سعة الرحمة التي لا تحدّ عند الرحيم الرحمٰن.. فاجأهم بما تفيض به نفسه من الرحمة المحمدية وما يملأ قلبه من العطف علىٰ ذوي الحاجة ومنهم هـٰذا الطائر أم الفراخ الأضعف منها، مؤكداً لأمته أن «**من لا يَرحم لا يُرحم**»[1]، وأن «**الراحمين يرحمهم الرحمٰن**»[2]، فقال للرجل: «**ارجع بهن حتىٰ تضعهنَّ من حيث أخذتهنَّ، وأمهن معهن**»، فرجع بهن[3].

لقد أراد ـ فداه أبي وأمي ـ أن يعيد هـٰذه الأسرة من الطيور، الأم وفراخها إلىٰ وضعها الطبيعي في عشها حيث كانت في الغيضة، ويُذهب ما أصابها من الرعب حين أخذها صحابيٌّنا من عشها، وشاءت الأم بما أودع الله فيها من غريزة الأمومة أن تكون مع أولادها تلازمهم مهما كانت العواقب![3].

وسبحان من رحِمها وأولادها، بما امتلأ به قلب سيد الرحماء محمد عليه الصلاة والسلام من الرحمة والشفقة والحنوِّ علىٰ الضعفاء والمستضعفين.. الأمر هنا ـ والحال هي الحال ـ غنيٌّ عن التعليق. وحسبك أنه صلوات الله وسلامه عليه عمل علىٰ الارتفاع بالمكلَّف إلىٰ هـٰذا المستوىٰ الإنساني الرفيع، والظفر برحمة الله الرحيم الرحمٰن، وذٰلك بقوله عليه الصلاة والسلام: «**الراحمون يرحمهم الرحمٰن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء**»، أو «**ارحموا أهل الأرض يرحمكم من في السماء**»[4].

«البخاري»: (٥٦٤٠)، «مسلم»: (٢٥٧٢). وانظر: (٣٠٨٩) من «سنن أبي داود».

(١) «سنن أبي داود»: (٥٢١٨). وينظر: «الجامع الصحيح» مع «فتح الباري»: ١٠/ ٥٢٤ (٥٩٩٧)، «مسلم»: (٣٣١٨).

(٢) وانظر: «سنن أبي داود»: «**الراحمون يرحمهم الرحمٰن، ارحموا أهل الأرض يرحمكم من في السماء**»: (٤٩٤١)، و«الجامع الكبير» للترمذي: (١٩٢٤).

(٣) ما سلف: ص٣١٦.

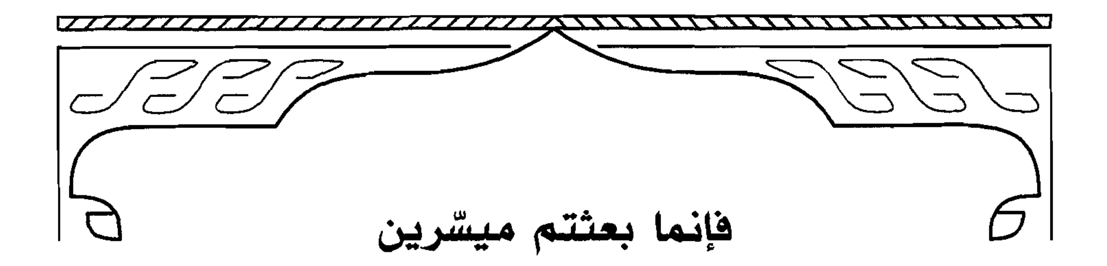
(٤) وانظر ما سلف: ٣١٣، «سنن أبي داود»: ٥/ ٥ ـ ٦ و(٤٩٤١). «سنن الترمذي»:

ويا عجباً لأولٰئك الطغاة الذين عميت منهم البصائر، فراحوا يعذبون البشر، بدل أن يرحموا، ويعتدون علىٰ الإنسان وحرماته بدل أن ينصفوا، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل، بدل أن يصِلوا ـ وغير ذٰلك كثير ـ مستبدلين الذي هو أدنىٰ بالذي هو خير. . ويا ليت لهم آذاناً تسمع، وقلوباً تعي، إذن لذكروا ـ ولو مرة قد تكون علىٰ سبيل التندُّر والعياذ بالله ـ قول جبار السماوات والأرض: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾﴾ [إبراهيم].

وفي هٰذا اليوم الذي تشخص فيه من شدة الهول الأبصار: لا تنفعهم معذرتهم، ولا تغني عنهم قواهم التي عتوا بها عن أمر الله شيئاً، ومن عدل الله المطلق: ما تشهده الخلائق كيف أن ظلمات ظلمهم وبغيهم تقودهم إلىٰ شر عاقبة وأسوإ مصير، ألم تر إلى قول الله تعالىٰ في تقرير هٰذه الحقيقة: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾ [غافر][1].



(١٩٢٤)، «النكت الظراف» للحافظ ابن حجر: ٤/٢٣٦ ـ ٢٣٧.



فإنما بعثتم ميسّرين

كم هي عظيمة جدّ عظيمة: حقيقة أن القصة من قصص السنة النبوية، تعمل عملها في إشعار الناظر للتبصر أنه لا يعاود النظر في روضة من رياض السيرة النبوية النضرة، وأخلاق المصطفىٰ عليه الصلاة والسلام ـ وهو يؤدي أمانة الهداية والتبليغ، مهما تكررت المعاودة ـ إلا ويطالعه من الوقائع ومظاهر السلوك: ما يزيده يقيناً علىٰ يقين، بأن الواقع العملي في حياته ﷺ النورة بالتمكين للخير عند الفرد والجماعة، إيماناً وثقافة وعملاً، في إقلاع عما عداه: يؤكد أيما تأكيد: سموّ المنهج المسلوك، وأحقية ما خاطبه الله تعالىٰ به في قوله جل شأنه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم].

وأنه ـ جزاه الله عن الأمة خير الجزاء ـ بعث ـ بلا ريب ـ ليتمم صالح الأخلاق[1]؛ وأن ذٰلك خليقة ميمونة تصحب ما كان من هدايته الخلق إلىٰ ما فيه سعادة الدارين، أن لو استجابوا لنداء تلك الهداية المحمدية الموحىٰ بها من السماء، المعان علىٰ فقهها، وإدراك مراميها: ببيانه عليه الصلاة والسلام.

وأنت واجد أن سلامة التصور لآفاق تلك الهداية المتسعة الأرجاء في

(١) وانظر: «سنن أبي داود»: ٣/ ٤٦٩ (٣٠٨٩).

(٢) روىٰ الإمام أحمد بسنده عن أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق**» «المسند»: (٨٩٥٢) ١٤/ ٥١٢ ـ ٥١٣، وأخرجه مالك في «الموطأ»: (١٦٣٤) بلاغاً بلفظ: «**إنما بعثت لأتمم حسن الأخلاق**»، وقال ابن عبد البر عن حديث أحمد: (هٰذا حديث مدني صحيح، ويدخل في هٰذا المعنىٰ: الصلاح والخير كله، والدين، والفضل، والمروءة، والإحسان والعدل؛ فبذٰلك بعث ليتممه. وقد قالت العلماء: إن أجمع آية للبر والفضل، ومكارم الأخلاق: قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النحل]) «التمهيد» لابن

بناء الفرد والمجتمع والدولة، مع الحرص علىٰ قدر إنسانية الإنسان قدرها ـ وكثيراً ما تكون القصة أحياناً باباً من أبواب ذٰلك ـ: تكشف عن المزيد من الأهمية لاستجلاء تلك الحقيقة، خصوصاً وأن الواقع الذي كان يواجهه سيد المربين معلم الخير ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالحكيم السديد من التصرف ـ في وضع الأمور في مواضعها ـ والكريم الرفيع من الخلق النبيل: متنوع البواعث والشؤون، مثقل بتركة، للجهل والجاهلية فيها النصيب الأوفىٰ، وإن كان ذٰلك مصحوباً بقدر ثمين من الأخلاق.

الأمر الذي يذكر مرة أخرىٰ بعظمة المنهج الذي يجود به قول الله تباركت أسماؤه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾ [الجمعة].

وَبَعـْـد: فهٰذه واحدة من القصص الذي نقع عليه في نصوص السنة النبوية: تدل ـ والهدي المحمدي كله خير ونور ـ: أوضح الدلالة علىٰ ما نشير إليه. وهي قصة تبدو صغيرة في مبناها، ولٰكنها غزيرة العطاء في دلالاتها ومعناها؛ لما أنها أنموذج رفيع للعطاء الرباني في رسالة الإسلام، التي بعث بها محمد عليه الصلاة والسلام.

والمحور الأبرز في هٰذه القصة: ما كان من أعرابي دخل المسجد، وبعد أن صلىٰ ركعتين: أتىٰ بأمرين نكرين، كانا مبعث الاستغراب والاستنكار الشديدين بعامة وثانيهما بخاصة، من الصحابة عليهم الرحمة والرضوان.

وفي مواجهة لصنيع الأعرابي، ثم لموقف الصحابة منه: علم المعلم الرفيق رسول الله، ونبه وأمر ونهىٰ وقعّد ـ من خلال تعليم أصحابه ـ ما يلزم من القواعد في مثل هٰذه الشؤون؛ كل أولٰئك بأسلوب رفيع مؤثر، غاية في الحكمة والرفق والتكرمة لإنسانية الإنسان.

وإليكم القصة المشار إليها كما جاء بها متكاملة صحاح النصوص.

قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان عن الزهري عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة ﵁ قال: دخل أعرابي المسجد فصلىٰ ركعتين، ثم قال: اللهم ارحمني ومحمداً، ولا ترحم معنا أحداً!!

فالتفت إليه النبي ﷺ فقال: «**لقد تحجّرت واسعاً**».

ثم لم يلبث أن بال في المسجد!! فأسرع الناس إليه.

فقال لهم رسول الله ﷺ: «**إنما بعثتم ميسّرين، ولم تبعثوا معسرين. أهريقوا[1] عليه دلواً من الماء، أو سجلاً[2] من ماء**»[3][4].

عبد البر: ٢٤/ ٣٣٣ ـ ٣٣٤.

(١) «أهريقوا» أريقوا، من الإراقة؛ لأن الهاء في «هراق» بدل من همزة «أراق» يقال: أراق الماء يريقه، وهراقه يهريقه ـ بفتح الهاء ـ هِراقة، ويقال فيه: أهرقت الماء إهراقاً، فيجمع بين البدل والمبدل. «النهاية» لابن الأثير: ٥/ ٢٦٠، «المصباح» للفيومي: مادة: (هرق).

(٢) «السجل» بفتح السين وسكون الجيم، وزن «فَلس»: الدلو العظيمة، أو الدلو إذا كانت مملوءة ماء. «المصباح» مادة: (سجل).

(٣) «المسند»: (٧٢٥٤) ١٢/ ٢٤٢ ـ ٢٤٦ شرح الشيخ أحمد شاكر.

(٤) تجدر الإشارة هنا: إلىٰ ما جاء عند الشيخ أحمد شاكر رحمه الله من قوله عند شرحه للحديث: (وهـٰذا الحديث واضح المعنىٰ في وصف هـٰذا الأعرابي البادي الجافي، جاء من البادية: بجفائه وجهله، فصنع ما يصنع الجافي الجاهل، حتىٰ علمه معلم الخير ﷺ.. إلىٰ أن قال: (أفليس ـ بعد هـٰذا ـ أن يغلب الهوىٰ وبغض الإسلام رجلاً مستشرقاً كبيراً كنا نظن أنه من أبعد المستشرقين عن أهواء المبشرين ـ المنصرين ـ ودناءات المنحرفين!! هو المستشرق بروكلمان... ذٰلك المستشرق الذي كنا نتوهمه متسامياً علىٰ ما يرتكس فيه إخوانه علماء المشرقيات، ألف كتاباً في «تاريخ الشعوب الإسلامية».. هـٰذا الرجل الذي كنا نظنه عاقلاً! يقول في الجزء الأول من كتابه هـٰذا (ص١٦ من الترجمة العربية) حين يتحدث عن بلاد العرب قبل الإسلام، وعن أحوالهم الاجتماعية في شمال الجزيرة، يقول بالحرف الواحد:

(والبدوي كائن فردي النزعة، مفرط الأنانية قبل كل شيء. ولا تزال بعض الأحاديث تسمح للعربي الداخل في الإسلام، أن يقول: اللهم ارحمني ومحمداً ولا ترحم معنا أحداً)!!

هـٰكذا يقول هـٰذا الرجل الواسع الاطلاع علىٰ الكتب العربية والمؤلفات الإسلامية!! غير الجاهل بكلام العرب، ولا الغافل عن معنىٰ ما يقرأ. والحديث أمامه في كتب السُّنَّة، ينقل منه حرفاً واحداً، ويدع ما قبله وما بعده! هـٰذا الرجل الذي أظهرت كلمته أن الإِحَن والعصبية الصليبية تملأ صدره، وتغطي علىٰ بصره وعقله!!

حادث فردي، من بدوي جاهل، لم يمرّ دون أن ينكر عليه الناس، ودون أن يعلمه المعلم الرفيق ﷺ ـ: يجعله هـٰذا المفتري الكذاب: قاعدة عامة لخلق أهل البادية! بجعل هـٰذه الحادثة الجزئة قاعدة كلية، وهـٰذا أعجب أنواع الاستنباط فيما رأينا =

قلت: هٰكذا وجه النبي عليه الصلاة والسلام دعوة الأعرابي التي تخالف عن الإيمان بسعة رحمة الله جلّ شأنه، فلم يزد علىٰ أن قال له مترفقاً: «لقد تحجّرت واسعاً»؛ أي: ضيقت ما وسع الله، وخصصت به نفسك وإياي فحسب، ورحمة الله وسعت كل شيء (يقال ـ كما جاء عند ابن الأثير ـ: حجرت الأرضَ واحتجرتُها: إذا ضربت عليها مناراً يمنعها من غيرك)[1].

ثم بيّن، صلوات الله وسلامه عليه، البيان المشرق ـ فداه أبي وأمي ـ للصحابة ـ وقد أسرعوا إلىٰ الرجل إسراعاً ذا معنىٰ ـ: أن الذي يتسق مع حملهم رسالة الإسلام أن يكونوا ميسرين ولا معسرين.. إلىٰ آخر ما كان من تعليمه الفائق الغاية في الدقة ـ وقد أمسك بعاتق الميزان ـ وهو يواجه ما وقع في مسجده وبحضرته.

وقال الحافظ ابن حجر: (قوله: فإنما بعثتم: إسناد البعث إليهم علىٰ طريق المجاز لأنه هو المبعوث ﷺ بما ذكر، لٰكنهم لما كانوا في مقام التبليغ عنه في حضوره وغيبته أطلق عليهم ذٰلك، إذ هم مبعوثون من قبله بذٰلك؛ أي: مأمورون)[2].

وعلمنا!!

= ولست أدري لماذا عفا عن أهل البادية، فلم يستنبط أيضاً من هٰذه الحادثة الفردية، قاعدة كلية أخرىٰ: أن من خلق أهل البادية إذا دخلوا مسجداً، أو حضروا جمعاً عظيماً من الناس: أن يبادروا إلىٰ البول في المسجد أو في حضرة الناس! حتىٰ يكون هٰذا المستشرق منطقياً مع نفسه، والأعرابي صاحب الحادثة صنع الأمرين!!

ولم يكتف المستشرق بما بدا منه من ذكاء وأمانة: فافترىٰ علىٰ الإسلام الكذب الصراح، حين زعم أنه لا تزال بعض الأحاديث تسمح للعربي الداخل في الإسلام أن يدعو بهٰذا في صلاته! هٰذا صحيح أم كذب؟!) إلىٰ آخر ما قال الشيخ العلامة رحمه الله.

وينظر: «المسند» بشرحه: ١٢/ ٧٢٥٤ ـ ٧٢٥٦ حيث قال بعد ذٰلك: (وإن أعجب فعجب أن يدع الدكتور عمر فروخ التعليق علىٰ كلام هٰذا المستشرق الكذوب؛ وأن يقتصر الأستاذان معرّبا الكتاب علىٰ التعليق ببيان موضع الحديث في بعض كتب السنة نقلاً عن فهارس المستشرقين.

(١) «النهاية» لابن الأثير: ١/ ٢٤١ ـ ٢٤٢.

وسيأتي في روايات أخر: ما يزيد من قدْره ﷺ إنسانية الإنسان قدرها - وهو يعلم ويربي - علىٰ أكمل وجه.

وروىٰ الإمام البخاري بسنده عن ابن شهاب الزهري قال: أخبرني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود: أن أبا هريرة قال: قام أعرابي، فبال في المسجد، فتناوله الناس، فقال لهم النبي ﷺ: **«دعوه وهريقوا علىٰ بوله سجلاً من ماء - أو ذنوباً[1] من ماء - فإنما بعثتم ميسّرين، ولم تبعثوا معسرين»**[2].

وله في رواية أخرىٰ: عن يحيىٰ بن سعيد قال: سمعت أنس بن مالك قال: جاء أعرابي، فبال في المسجد، فزجره الناس، فنهاهم النبي ﷺ.

فلما قضىٰ بوله، **أمر النبي ﷺ بذَنُوبٍ من ماء، فأهريق عليه**[3].

وتقع علىٰ رواية للبخاري فيها مزيد من التوضيح، إذ روىٰ عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، أن أبا هريرة أخبره أن أعرابياً بال في المسجد، فثار إليه الناس ليقعوا به.

فقال لهم رسول الله ﷺ: **«دعوه وأهريقوا علىٰ بوله ذنوباً من ماء - أو سجلاً من ماء - فإنما بُعثتم مُيَسِّرين، ولم تُبعثوا مُعَسِّرين»**[4].

أرأيت إلىٰ هـٰذا التنبه لكل شاردة وواردة من قبل الصحابة ﷺ؟ الذين يربيهم النبي ﷺ علىٰ عينه، وكيف ينظم - ﷺ - توجهاتهم ويضبط انفعالاتهم؛ كالذي نرىٰ من أنه لم يحل دونهم ودون إنكار المنكر، ولـٰكن هداهم إلىٰ ما فيه تحقيق الطهارة، دونما عدوان علىٰ كرامة الإنسان وإنسانية الإنسان.

قال الحافظ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وفي هـٰذا الحديث من الفوائد: أن الاحتراز من النجاسة: كان مقرراً في نفوس الصحابة، ولهـٰذا بادروا إلىٰ الإنكار بحضرته

---

(١) «فتح الباري»: ١/ ٣٢٤.

(٢) الذنوب: الدلو الملأىٰ ماء. وقال ابن فارس: الدلو العظيمة «فتح الباري»: ١/ ٣٢٤.

(٣) «الجامع الصحيح»: (٢٢٠) ٣٨ - ٣٩.

(٤) «الجامع الصحيح»: (٢٢١) مع «فتح الباري»: ١/ ٣٢٤.

(٥) «الجامع الصحيح»: (٦١٢٨) ص٨٥٣. وفي رواية لأحمد: (فتناوله الناس) فقال لهم

قبل استئذانه، ولما تقرر عندهم أيضاً من طلب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر. واستُدلَّ به علىٰ جواز التمسك بالعموم، إلىٰ أن يظهر الخصوص.

قال ابن دقيق العيد: والذي يظهر أن التمسك يتحتم عند احتمال التخصيص عند المجتهد، ولا يجب التوقف عن العمل بالعموم لذٰلك؛ لأن علماء الأمصار ما برحوا يفتون بما بلغهم من غير توقف علىٰ البحث عن التخصيص، ولهٰذه القصة أيضاً؛ إذ لم ينكر النبي ﷺ علىٰ الصحابة، ولم يقل لهم: لِمَ نهيتم الأعرابي؟ بل أمرهم بالكف عنه للمصلحة الراجحة، وهي دفع أعظم المفسدتين باحتمال أيسرهما، وتحصيل أعظم المصلحتين بترك أيسرهما.

وفيه: المبادرة إلىٰ إزالة المفاسد عند زوال المانع، لأمرهم عند فراغه بصبّ الماء)[1].

هٰذا: ونقع في المصادر الموثقة علىٰ ما يُشعر بمزيد من عناصر القصة التي كان ميدانها المسجد النبوي ـ كما نرىٰ ـ ومحاور الهداية والتعليم فيها للصحابة وللأعرابي، وهي محاور كان لإنسانية الإنسان فيها أتمُّ الحضور.

قال الإمام مسلم: حدثنا زهير بن حرب، حدثنا عمر بن يونس الحنفي، حدثنا عكرمة بن عمار، حدثنا إسحاق بن أبي طلحة، حدثني أنس بن مالك ـ وهو عم إسحاق ـ قال: بينما نحن في المسجد مع رسول الله ﷺ إذ جاء أعرابي، فقام يبول في المسجد، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: مَهْ مَهْ[2].

قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تُزرموه**[3]**، دعوه**» فتركوه حتىٰ بال.

ثم إن رسول الله ﷺ دعاه، فقال له: «**إن هٰذه المساجد لا تصلح لشيء من هٰذا البول، ولا القذر، إنما هي لذِكْرِ الله ﷻ، والصلاةِ، وقراءةِ القرآن**»

رسول الله ﷺ: «**دعوه..**» «المسند»: (٧٧٩٩) ١٣/ ٢٠٩.

(١) «فتح الباري»: ١/ ٣٢٤ ـ ٣٢٥

(٢) مه مه: قال الإمام النووي: (هي كلمة زجر، ويقال: بَه به، بالباء أيضاً. قال العلماء: هو اسم مبني علىٰ السكون معناه: اسكت. قال صاحب «المطالع» هي كلمة زجر، قيل: أصلها: ما هٰذا؟ ثم حذف تخفيفاً) «شرح النووي علىٰ مسلم»: ٣/ ١٩٣.

ـ أو كما قال رسول الله ﷺ ـ قال: فأمر رجلاً من القوم، فجاء بدلوٍ من الماء فشنَّهُ عليه(١).

أرأيت!! لقد خشي النبي ﷺ ـ وهو الرؤوف الرحيم ـ علىٰ الأعرابي: أن يصيبه ضرر من قَطْعِ بوله فنهىٰ الصحابة عن قطع بوله بقوله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ «لا تُزرموه» ولم يكتف بذٰلك بل قال بعدها: «دعوه».

وهٰذا التوجيه منه عليه الصلاة والسلام يفيد العموم في تكرمة إنسانية الإنسان، وإن كان السبب هنا: الخوف علىٰ صحة الأعرابي؛ لأن خصوصَ السبب لا يمنعُ عمومَ اللفظ.

ثم إن الرسول ﷺ ـ وهو المعلم الرفيق ـ لم يترك الأمر علىٰ عواهنه؛ بل أمر بالماء للتطهير. وما أعظم ما كان منه من تعليم الصحابة الحضور ـ ومن ورائهم الأمة ـ من مراعاة المصلحة، ودرء المفسدة، ودفع أحد الضررين باحتمال أخفّهما. وكم كان رائعاً أنه ـ بعد ذٰلك كله ـ لم يدع أن يعلم ذٰلك الأعرابي بكل رفق ما كان يجهل من الأمور العظام التي تصلح للمساجد، لا ما صنع هو، وما علىٰ شاكلته.

قال الإمام النووي في معرض الكلام علىٰ ما يُستنبط من هٰذه القصة كما جاءت عند مسلم: (.. وفيه الرفق بالجاهل وتعليمه ما يلزمه من غير تعنيف ولا إيذاء، إذا لم يأت بالمخالفة استخفافاً أو عناداً! وفيه دفع أعظم الضررين باحتمال أخفهما، لقوله ﷺ: «دعوه».

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال العلماء: كان قوله ﷺ: «دعوه» لمصلحتين:

إحداهما: أنه لو قُطعَ عليه بوله: تضرر، وأصل التنجيس قد حصل في جزء يسير من المسجد، فكان احتمال زيادته أولىٰ من إيقاع الضرر به ـ أي: الأعرابي ـ.

---

(١) لا تقطعوا عليه بوله، يقال: زرم البولُ: إذا انقطع، وأرزمته أنا «النهاية»: (زرم).

(٢) «صحيح مسلم»: (٢٨٥) ١/ ٢٣٦ ـ ٢٣٧، ورواه ابن حبان: (١٤٠١)، والترمذي: (١٤٧)، وابن ماجه: (٥٢٨). وانظر: «شرح السُّنَّة» للبغوي: (٥٠٠)/ ٤٠٠ ـ ٤٠١،

والثانية: أن التنجيس قد حصل في جزء يسير من المسجد، فلو أقاموه في أثناء بوله لتنجست ثيابه وبدنه ومواضع كثيرة من المسجد، والله أعلم)[١].

ثم إن الإمام النووي لم يدع أن يبين زمرة من الأحكام التي اشتمل عليها ما جاء في تعليم النبي ﷺ الأعرابي مما تصلح له المساجد، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(قوله ﷺ: «إن هـٰذه المساجد لا تصلح لشيء من هـٰذا البول ولا القذر، إنما هي لذكر الله وقراءة القرآن» ـ أو كما قال ﷺ ـ فيه صيانةُ المساجد وتنزيهها عن الأقذار والقذىٰ والبصاق ورفع الأصوات والخصومات والبيع والشراء وسائر العقود وما في معنىٰ ذٰلك)[٢].

وَبَعْـدُ: فمما يُسعفُ في الإحاطة بكل ما وقع في القصة التي نَسعدُ باصطحابها في تبين لملامحها واستلهام لدروسها. إيراد ما أشرنا إليه من بعض الروايات التي تكشف عن أن الأعرابي ـ وقد غمره نور الهدىٰ النبوي، حيث سَعةُ الصدر، والرفق في التعليم، وعدم إهدار إنسانية الإنسان بجريرة خطأ أوقعه فيه الجهل ـ أن الأعرابي أفصح في أعقاب ما حصل، وبعد أن فقه: عما كان من كريم خُلقِ النبي ﷺ في مواجهة صنيعه وهو يعلمه، فقال: (فقام النبي ﷺ إليّ، بأبي هو وأمي، فلم يَسُبَّ ولم يؤنب ولم يضرب) وكان ذٰلك دليلاً علىٰ أنه ـ وهو الأعرابي المؤمن ـ كان سريعَ التأثر النافع بما حصل من التعليم والتوجيه!!

روىٰ الإمام أحمد بسنده عن أبي سلمة، عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: دخل أعرابي المسجد، ورسول الله ﷺ جالس، فقال: اللهم اغفر لي ولمحمد، ولا تغفرْ لأحدٍ معنا. فضحك رسول الله ﷺ وقال: «**لقد احتظرتَ**[٣] **واسعاً**»، ثم ولىٰ حتىٰ إذا كان في ناحية المسجد فَشَج[٤] يبول، فقام إليه رسول الله ﷺ فقال: «**إنما بُنِيَ هـٰذا البيتُ لذكر الله والصلاة، وإنه لا يُبالُ فيه**»، ثم دعا

«السنن الكبرىٰ» للبيهقي: ٢/ ٤١٢ ـ ٤١٣.

(١) «شرح النووي علىٰ مسلم»: ٣/ ١٩١. (٢) المصدر السابق: ٣/ ١٩١ ـ ١٩٢.

(٣) احتظرت: منعت «أساس البلاغة»: (حظر). واسعاً؛ أي: دعوت بمنع من لا منع فيه من رحمة الله ومغفرته «شرح ابن ماجه» للسندي: ١/ ٣٠٠.

بِسَجْلٍ من ماء فأفرغه عليه. قال: يقول الأعرابي بعد أن فقه: فقام النبي ﷺ إليّ، بأبي هو وأمي، فلم يسبَّ ولم يؤنّب[1] ولم يضرب[2].

ونجد عند ابن ماجه في روايته للقصة من طريق أبي بكر بن شيبة: (. . فقال الأعرابي بعد أن فقه: فقام إلي - بأبي وأمي[3]، ولم يسبَّ -، فقال: «**إن هٰذا المسجد لا يُبال فيه، وإنما بني لذكر الله والصلاة**»، ثم أمر بسجل من ماء، فأفرغ[4] علىٰ بوله)[5].

ورویٰ ابن حبان بسنده عن الفضل بن موسىٰ، عن محمد بن عمرو بن علقمة الليثي، عن أبي سلمة بن عبد الرحمٰن، عن أبي هريرة ﷺ قال: دخل أعرابي علىٰ رسول الله ﷺ المسجد، وهو جالس، فقال: اللهم اغفر لي ولمحمد، ولا تغفر لأحد معنا.

قال: فضحك رسول الله ﷺ، ثم قال: «**لقد احتظرت واسعاً**» ثم ولىٰ الأعرابي، حتىٰ إذا كان في ناحية المسجد: فَحَّج[6] ليبول!

فقال الأعرابي بعد أن فقه في الإسلام فقام إلي رسول الله ﷺ، فلم يؤنبني ولم يسبني، وقال: «**إنما بني هٰذا المسجد لذكر الله والصلاة؛ وإنه لا يبال فيه**». ثم دعا بسجل من ماء فأفرغه عليه[7].

هٰكذا سرعان ما أثمر تعليم النبي ﷺ بأسلوبه الرفيق، وتوجيهه المنور بالحكمة، أمراً ونهياً، وتنبيهاً. . سرعان ما أثمر عند الأعرابي ما أشرنا إليه

---

(١) فشج: فرق بين رجليه ليبول، والفشج: تفريق ما بين الرجلين «النهاية»: (فشج).
(٢) يؤنب: من التأنيب وهو المبالغة في التعنيف والتوبيخ «النهاية»: (أنب).
(٣) «المسند»: (١٠٥٣٣) ١٦/ ٣١٥ - ٣١٦.
(٤) أي: بأبي هو وأمي.
(٥) فأفرغ: فصب: من الإفراغ بمعنىٰ الصب «المصباح»: (فرغ).
(٦) «سنن ابن ماجه» مع شرح السندي: (٥٢٩٠) ١/ ٣٠٠ وانظر: «المصنف» لابن أبي شيبة: ١/ ١٩٣.
(٧) فحّج: فرق بين رجليه وباعد بينهما، من «التفحُّج» وهو تفريق ما بين الرجلين «القاموس المحيط»: (فحج).

من قبل، من قوله الجميل. بعد أن فقه في الإسلام: وهو ما رأينا في رواية أحمد، ورواية ابن ماجه، ورواية ابن حبان هنا، وهو قول ينمُّ عن أثر الثقافة الإيمانية الحقة في الإنسان.

لقد صادف التصرفُ الرفيق في التنبيه، والأسلوبُ الحكيم الرفيع في التعليم، اللذان صدرا عن معلم الناس الخير عليه الصلاة والسلام: الفطرةَ السليمة عند ذٰلك الأعرابي، والاستعدادَ القلبي والعقلي للخير؛ فكانت النتيجة الرائعة السليمة، التي سبقت بتلكم المقدمات السليمة من سيد العالمين عليه الصلاة والسلام.

وهٰذا كله لا يصرفنا عن بقية الدروس التي نتمثل في تعليمه الصحابة أيضاً بالقول والفعل شأن تعليمه الأعرابي بالقول والفعل ـ وإنها لدروس شهدها الأولون، وهي جدّ ضرورية للآخرين إلىٰ يوم الدين.

وفي خاتمة المطاف: لعل من الخير التذكير بأن ما أشرقت به قصتنا التي سعدنا باصطحابها، من كريم خلق النبي ﷺ الذي لا يبارح تعليمه ـ وهو معلم الناس الخير ـ ولا هديه ـ علىٰ وجه العموم ـ قد تكررت الوقائع التي استنارت به أيما استنارة في تلك الحقبة المباركة التي حملت قصصها علىٰ صعيد الهداية في شتىٰ ميادينها، حيث البناء الإسلامي المكين.

صحب النبيَّ ﷺ فرأىٰ من يُسره:

● من ذٰلك ما روىٰ الإمام البخاري قال: (حدثنا أبو النعمان: حدثنا حماد بن زيد، عن الأزرق بن قيس قال: كنا علىٰ شاطئ نهَر بالأهواز، قد نضب[1] عنه الماء، فجاء أبو برزة الأسلمي ﷺ علىٰ فرس، فصلىٰ، وخلّىٰ[2] فرسه. فانطلقت الفرس، فترك صلاته وتبعها حتىٰ أدركها، فأخذها ثم جاء، فقضىٰ صلاته[3].

---

(١) «الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان»: (٩٨٥) ٣/ ٢٦٥ و(١٤٠٢) ٤/ ٢٤٨.

(٢) نضب عنه الماء: غار في الأرض وذهب «المصباح»: (نضب).

(٣) خلّىٰ فرسه: تركها «إرشاد الساري» للقسطلاني: ٩/ ٧٦. =

وفينا رجل ـ له رأي ـ[1] فأقبل يقول: انظروا إلىٰ هـٰذا الشيخ، ترك صلاته من أجل فرس!!

فأقبل ـ أي: أبو برزة ـ فقال: ما عنفني أحد منذ فارقت رسول الله ﷺ. . . .

وقال: إن منزلي متراخٍ، فلو صليتُ، وتركتُ: لم آت أهلي إلىٰ الليل.

وذكر أنه صحب النبي ﷺ، فرأىٰ من تيسيره)[2].

• وفي رواية أخرىٰ للبخاري عن الأزرق بن قيس (.. فجعل رجل من الخوارج يقول: اللهم! افعل بهـٰذا الشيخ، فلما انصرف الشيخ ـ أي: أبو برزة ـ قال: إني سمعت قولكم، وإني غزوت مع رسول الله ﷺ ستَّ غزوات، أو سبع غزوات، أو ثمانياً، وشهدت تيسيره، وإني كنت أن أرجع مع دابتي أحب إليّ من أن أدعها ترجع إلىٰ مألفها فيشقّ عليّ)[3].

• وجاء في «سير أعلام النبلاء» للذهبي: يحيىٰ الحمّاني، حدثنا حماد، عن الأزرق بن قيس قال: كنا علىٰ شاطئ نهر بالأهواز، فجاء أبو برزة يقود فرساً، فدخل في صلاة العصر.

فقال رجل: انظروا إلىٰ هـٰذا الشيخ ـ وكان انفلت فرسه ـ فاتبعها حتىٰ أدركها، فأخذ بالمقود، ثم صلىٰ.

قال: فسمع أبو برزة قول الرجل، فجاء فقال: (ما عنّفني أحد منذ فارقت

---

(١) قضىٰ صلاته: أدّاها. قال الحافظ ابن حجر: (ظاهر سياق القصة أن أبا برزة لم يقطع = صلاته، يؤيده قوله في رواية عمرو بن مرزوق: (فأخذها ثم رجع القهقرىٰ) فإنه لو كان قطعها ما بالىٰ أن يرجع مستدبر القبلة، وفي رجوعه القهقرىٰ: ما يشعر بأن مشيه إلىٰ قصدها ما كان كثيراً. . وفي «مصنف ابن أبي شيبة»: (سئل الحسن عن رجل صلىٰ فأشفق أن تذهب دابته، قال: ينصرف. قيل له: أَفَيتم؟ قال: إذا ولىٰ ظهره القبلة: استأنف). وقد أجمع الفقهاء علىٰ أن المشي الكثير في الصلاة المفروضة يبطلها، فيحمل حديث أبي برزة علىٰ القليل كما قررناه) «فتح الباري»: ٣/ ٨٢ ـ ٩٣.

(٢) فاسد: ـ بالتنوين ـ للتحقير، وكان يرىٰ رأي الخوارج، لا يرىٰ ما يرىٰ المسلمون من الدين. وانظر: «إرشاد الساري»: ٩/ ٧٦.

(٣) «الجامع الصحيح»: (٦١٢٧) ص٨٥٣.

رسول الله ﷺ غير هٰذا. إني شيخ كبير، ومنزلي متراخ، ولو أقبلت علىٰ صلاتي وتركت فرسي، ثم ذهبت أطلبها: لم آت أهلي إلا في جنح الليل.

لقد صحبت رسول الله ﷺ، فرأيت مِن يُسْره).

فأقبلنا نعتذر مما قال الرجل[1].

فوالله ما كهرني ولا نهرني:

• وروىٰ مسلم بسنده عن عطاء بن يسار، عن معاوية بن الحكم السلمي، قال: (بينا أنا أصلي مع رسول الله ﷺ، إذ عطس رجل من القوم، فقلت: يرحمك الله! فرماني القوم بأبصارهم. فقلت: واثكل أُمِّياه[2]! ما شأنكم تنظرون إلي؟ فجعلوا يضربون بأيديهم علىٰ أفخاذهم، فلما رأيتهم يصمّتونني[3]، لٰكني سكتّ!

فلما صلىٰ رسول الله ﷺ ـ فبأبي هو وأمي ـ! ما رأيت معلماً قبله، ولا بعده أحسن تعليماً منه. فوالله ما كهرني[4] ولا ضربني، ولا شتمني!

قال: «**إن هٰذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن**» أو كما قال رسول الله ﷺ. .)[5] الحديث.

---

(١) «الجامع الصحيح»: (١٢١١) ص١٦٣.

(٢) «سير أعلام النبلاء»: ٣/ ٤١. وانظر: «تاريخ مدينة دمشق»: ٦٢/ ٩٤ ـ ٩٥.

(٣) واثكل أمياه: الثّكل: بضم الثاء وإسكان الكاف، وبفتحهما جميعاً: لغتان كالبخل والبخَل. حكاهما الجوهري وغيره، وهو فقدان المرأة ولدها، وامرأة ثكلىٰ وثاكل، وثكلته أمه ـ بكسر الكاف ـ وأثكله الله تعالىٰ أمّه. أي وأفْقَد أمي إياي فإني هلكت «صحيح مسلم بشرح النووي»: ٥/ ٢٠.

(٤) يسكّتونني، غضبت وتغيرت، قاله الطيبي: «عون المعبود لحل مشكلات سنن أبي داود»: ١/ ٣٤٩ لشمس الحق العظيم أبادي: ٥/ ٢٠.

(٥) كهره، ونهره، وانتهره: زجره «أساس البلاغة»: (كهر). وفي شأن ضربهم علىٰ أفخاذهم ليسكتوه. قال النووي: وهٰذا محمول علىٰ أنه كان قبل أن يشرع التسبيح لمن نابه شيء في صلاته. وفيه دليل علىٰ جواز الفعل القليل في الصلاة، وأنه لا تبطل به الصلاة، وأنه لا كراهة فيه إذا كان لحاجة «شرح النووي علىٰ مسلم»: ٥/ ٢٠.

(٦) «صحيح مسلم»: (٥٣٧)، «صحيح مسلم بشرح النووي»: ٥/ ٢٠، «سنن أبي

• قلت: الملاحظ أن بين هٰذه القصة، وقصة الأعرابي المؤمن: مشابه بعضها أقرب من بعض، سواء من حيث الفرد الذي يصدر عنه ما يدعو للاستغراب، أو من حيث موقف الجماعة الناقد، أو من حيث الموقف البالغ السموّ من النبي صلىٰ الله وسلم وبارك عليه، في تنبيهه الرفيق، وتعليمه الفاذ، وتوجيهه الأمثل للفرد وللجماعة بما يحقق للإنسان كرامته ويقدره علىٰ أن يكون طاقة فاعلة علىٰ قاعدة إيمانية في المجتمع المسلم.

ولا تثريب علينا بعد هٰذا أن نذهب إلىٰ أن المجتمع الذي تتوافر له هٰذه المقومات الإيمانية والثقافية، والعملية، هو المجتمع القدوة الذي يرقىٰ إلىٰ أن تتسع له آفاق الحضارة المثلىٰ في هٰذه الدار، والسعادة الأبدية يوم يقوم الناس لرب العالمين.

من ثمار الأسلوب الرفيق.. وتتمة القصة:

وَبَعْـد: فلا بدع أن يؤتي الأسلوب الرفيق من معلم الناس الخير عليه الصلاة والسلام أكله في جوانب عدة من شخصية معاوية السُّلمي ﵁ بعد أن فقه، ومنها: رغبته في الإفادة الأوسع من النبي عليه الصلاة والسلام علماً وأدباً ووضعاً للأمور مواضعها في ظل ما يجوز وما لا يجوز في الشريعة المطهرة.

وقبل ذٰلك: شجاعته في السؤال والاستفسار عن قضايا عنده كيما يفقه حكمها ويدرك شيئاً من أسرار التشريع فيها.

وذٰلك ما نجده في تتمة القصة كما أوردها الإمام مسلم ﵀[1] فقد جاء هناك في أعقاب قول الصحابي الجليل بعد سرده ما حصل وقوله: (أو كما قال رسول الله ﷺ).

قلت يا رسول الله! فإني حديث عهد بجاهلية، وقد جاء الله بالإسلام، وإن منا رجالاً يأتون الكهّان! قال: «**فلا تأتهم**».

داود»: (٩٣٠) ص١٥٥، «سنن النسائي»: (١٢٢٠) ص١٨٧.

قال: ومنا رجال يطّيّرون[1]: قال: «**ذاك شيء يجدونه في صدورهم، فلا يصدنّهم**» ـ قال ابن الصبّاح: فلا يصدَّنكم ـ قال: قلت: ومنا رجال يخطّون[2]! قال: «**كان نبيّ من الأنبياء يخطّ، فمن وافق خطه فذاك**».

قال[3]: وكانت لي جارية ترعىٰ غنماً لي قِبل أُحد والجوّانيّة[4]، فاطّلعتُ ذات يوم، فإذا الذيب قد ذهب بشاة من غنمها، وأنا رجل من بني آدم، آسف كما يأسفون. لٰكني صككتها صكّة[5].

فأتيت رسول الله ﷺ، فعظّم ذٰلك عليّ. قلت: يا رسول الله! أفلا أعتقها؟

قال: «**ائتني بها**» فأتيته بها.

فقال لها: «**أين الله؟**» قالت: في السماء. قال: «**فمن أنا؟**» قالت: أنت رسول الله.

قال: «**أعتقها فإنها مؤمنة**»[6].



---

(١) «صحيح مسلم»: (٥٣٧)، «صحيح مسلم بشرح النووي»: ٥/ ٢٠.

(٢) يطيرون: يتشاءمون، من (الطيرة) ـ بوزن عنبة ـ وهي التشاؤم «المصباح»: (طير).

(٣) يخطّون: جاء في «لسان العرب» في معاني (الخط) أنه ضرب من الكهانة، وخلاصة الكلام فيه: أن من يدّعي هٰذا العلم يقصده صاحب الحاجة، فيخط في الأرض خطوطاً ويمحو بعضها ليستنبئها: هل تنجح الحاجة وتقضىٰ؟ أم لا! وفي «المعجم الوسيط»: علم الخط: علم الرمل (خطط).

(٤) وعند أبي داود: (٩٣٠) قال: قلت.

(٥) الجوانية: بفتح الجيم وتشديد الواو، وبعد الألف نون مكسورة ثم ياء مشددة: موضع في شماليّ المدينة قرب أحد. وانظر: «شرح النووي لمسلم»: ٥/ ٢٣.

(٦) قال في «المصباح»: صكّه صكّاً: إذا ضرب قفاه ووجهه بيده مبسوطة، (صكّ) وقال النووي: صككتها: لطمتها: ٥/ ٢٤ شرح مسلم.

(٧) «صحيح مسلم»: (٥٣٧)، «سنن أبي داود»: (٩٣٠)، «المجتبىٰ» للنسائي: (١٢٢٠)، وانظر: «معالم السنن» للخطابي: ١/ ٢٢٠. وللأهمية ينظر كلام الإمام

أسلمت ثم أسلم قومها

الإنسان والهدي النبوي.. المعجزة والأخلاق.. فتح مغاليق القلوب

(١)

كثيرة كثيرة هي تلك القيم الرفيعة التي يزدان بها القصص في السنة النبوية المطهّرة، ويبرزها التصرف المكين الهادي، من المعلم الرفيق سيدنا محمد رسول الله عليه الصلاة والسلام ـ حين تكون القصة وأبعادها في عصر النبوة ـ ومع صحبه المهاجرين والأنصار الكرام، عليهم الرحمة والرضوان.

تلك القيم التي تتمثّل في السموّ الإيماني عند الفرد والجماعة، والرضا الذي ما بعده رضا، بما يحكمُ به النبيُّ المصطفىٰ علىٰ وجه التشريع والبيان في أي أمر من الأمور في الحياة، سواء كان ذٰلك في شؤون العبادة ـ علىٰ وجه العموم ـ أو السلوك والتعامل مع الآخرين مسلمين كانوا أو غير مسلمين.

أقول: وكثيرةٌ وفيرة هي تلكم الثمرات الحسان، التي نقع عليها ـ من خلال القصة، والتحرك مع أبعادها ـ في سلوك البناة العظام لحضارة الإسلام في ظل تلك القيم، علىٰ نور من هدي السماء، أولـٰئك الذين كان الواحد منهم ـ ذكراً كان أو أنثىٰ ـ صورةً عملية ناطقة بحقائق الإسلام الحنيف، في العقيدة والشريعة والأخلاق.

وليس ذٰلك فحسب: بل كان هـٰذا النهج الفريد منهم باباً عريضاً مباركاً من أبواب الانتصار للدعوة في غزو النفوس، وفتح مغاليق القلوب لنورها. ناهيك عن تقديم النموذج للسلوك الأمثل ـ علىٰ تنوع الأحوال ـ والذوق

الحضاري اللذين لا يصرفهما صارف، عن قَدْرِ إنسانية الإنسان قَدْرها، في اصطحابٍ للأسلوب الحكيم المناسب عملاً بقوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء].

أقول هـٰذا، وسلطان القلم الصديق يشدّني إلىٰ قصة من قصص العهد النبوي الكريم، برزت فيها الروح الجماعية التي كانت دعامة ميمونة من دعائم المسيرة بقيادة المصطفىٰ عليه الصلاة والسلام، مضموماً ذٰلك، إلىٰ ما كان من هَدْيِهِ وتعليمه وتنبيهه بالقول أو الفعل أو الإقرار أو القدوة، حسب الذي يقتضيه المقام، حيث التثقيف المناسب، والتربية المناسبة في ظل حقيقة لا معدىٰ عن تصورها الدائم، وهي أن المكلف حامل العقيدة التي تجري الأحكام علىٰ نورها: هو إنسان، يصيب ويخطئ ويقوىٰ ويضعف، ويذكر وينسىٰ ـ والله أعلم بما يصلح هـٰذا الإنسان ـ.

الأمر الذي يجعل أحكام الشريعة ـ في ظل مقاصدها، وتحديد المصلحة فيها ـ مُتَّسقة تمام الاتساق مع الفطرة التي فطره الله عليها، وما جُبلَ عليه من الاستعداد للتعامل المناسب مع أخيه الإنسان، ومع الكون والحياة، بل ومع إيمانه باليوم الآخر، وأنّ إلىٰ الله تبارك وتعالىٰ المرجع والمآب.

كما برز فيها: حُسْنُ التصرف من الصحابة في أمر عسير، كان حل المشكلة فيه، مرتبطاً برأي امرأة لم تستنر بعدُ بنور الإسلام. وكان أن أسلمت بمعجزة من النبي ﷺ: انضم إليها ـ مع سلامة الفطرة عندها ـ: حُسْنُ تصرفهم عليهم الرحمةُ والرضوان.

وقد يُتساءل عن ثمرة إسلام تلك المرأة فيما وراء شخصها، وتجيب القصة عن ذٰلك، بأنها ـ بقوة إيمانها وما رأت من الرسول عليه الصلاة والسلام ومن أصحابه ـ استطاعت أن تقنع قومها بالإسلام، وهـٰكذا فُتحت مغاليق القلوب لنور الإسلام والحمد لله!

وما أكرمها نتيجةً تقف علىٰ قمة العطاء في دنيا وقائع القصة الميمونة التي كانت غزيرة العطاء. قلت: وما يزال القلم يستحثني للتذكير بأمرين اثنين

بالغي الأهمية، يسطع نورهما من خلال السلوك المتميز عند الصحابة الكرام، أولـٰئك الجند الوقَّافين عند حدود الله، وكل ما فيه مَرضاةُ رسولهم الكريم، فهم راضون أبداً بالتحول عن مرادهم ـ إن وقع ـ إلىٰ مراده، إذ إنه لا ينطق عن الهوىٰ، في نهج مبارك لا يتعارض مع الذي كان لهم ـ كما دلت الوقائع ـ من حرية الرأي، وإعطاء المشورة، والجرأة المصحوبة بالأدب معه عليه الصلاة والسلام في كل شأن له مساس بمصلحة الإسلام والجماعة.

وأول الأمرين المومىٰ إليهما ـ والله أعلم ـ: الحب الفريد الذي لا يكمل الإيمان إلا به، حتىٰ إنهم ليحبونه أكثر من حُبِّ أحدهم نفسه التي بين جنبيه، الحب الذي بلغ مبلغَ ما نجدهُ عند عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أنه ـ بعد وفاته عليه الصلاة والسلام ـ كان من فرط حبه له، شديدَ التتبع لآثاره في منازله صلوات الله وسلامه عليه، حتىٰ قالت عائشة رضي الله عنها ـ كما روىٰ ابن سعد ـ: (ما كان أحد يتّبع آثار النبي ﷺ في منازله، كما كان يتّبعه ابن عمر)[1].

نذكر هـٰذا ونذكر معه ما روىٰ عاصم بن محمد عن أبيه قال: (ما سمعت ابن عمر ذاكراً رسول الله ﷺ إلا ابتدرت عيناه تبكيان)[2].

وهـٰذا أبو نعيم الأصبهاني يروي بسنده عن نافع عن ابن عمر، أنه كان في طريق مكة يأخذ ـ أو يقول ـ برأس راحلته يثنيها، ويقول: لعلَّ خُفّاً يقعُ علىٰ خُفّ ـ يعني: خفّ راحلة النبي ﷺ ـ[3].

لا تعجب بعد هـٰذا: إذا رأيت ابن الأثير يقول في «أسد الغابة»: وكان ـ يعني ابن عمر ـ كثيرَ الاتباع لآثار رسول الله ﷺ حتىٰ إنه ينزل منازله، ويصلي في كل مكان صلىٰ فيه، حتىٰ إن النبي ﷺ نزل تحت شجرة، فكان ابن عمر يتعاهدها بالماء لئلا تيبس[4].

ثاني الأمرين: الطاعةُ الواعية المبصرة التي لها أوفىٰ نصيب من نور

النووي في شرحه لحديث القصة: ٥/ ٢٤ ـ ٢٥، «صحيح مسلم بشرح النووي».

(١) «الطبقات الكبرىٰ»: ٤/ ١٤٥، وانظر: «أسد الغابة» لابن الأثير: ٣/ ٢٤١.

(٢) «الطبقات الكبرىٰ»: ٤/ ١٦٨.

(٣) «الحلية»: ١/ ٣١٠، «سير أعلام النبلاء»: ٣/ ٢٣٧.

القلب، ونباهة العقل، لِمَا أنَّ طاعةَ رسول الله ﷺ من طاعة الله، وأن مَنْ قَبِلَ عن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ـ كما يقول الإمام المطّلبي ـ فعن الله قَبِلَ، وأمثلتها في تاريخ الإسلام تَعزُّ علىٰ الحصر.

وإنها للطاعة التي عرّفت بها منجزاتها علىٰ كل صعيد ينضوي تحت شمول الإسلام في بناء الفرد والجماعة والمجتمع، بل والدولة والأمة، بدءاً بما قدمته يد محمد ﷺ الصَّناع لذٰلك البناء بالقول والفعل، والجهاد والقدوة.

نعم وإنها للطاعة الواعية المبصرة، التي بلغت مبلغ أن الرسول ﷺ ذكر بأسلوبه البيّن الرفيق امرأة مسلمة لم تكن علىٰ وفاق مع زوجها، بأن تعود إلىٰ هٰذه الروح لما أنه يعاني ما يعاني من ذٰلك النِّفارِ بينهما، فتقول له بكل بساطة ووضوح: يا رسول الله أتأمرني؟ قال عليه الصلاة والسلام: «**إنما أنا شافع ـ أو إنما أنا أشفع ـ**» قالت: لا حاجةَ لي فيه.

قلت: هٰكذا أعلن فقه الطاعة المباركة إعلانه في التفريق بين الأمر النبوي والشفاعة.. ولٰكن كثيراً من الناس علىٰ الحق يفترون!!

قال البخاري: حدثنا محمد، أخبرنا عبد الوهاب، حدثنا خالد، عن عكرمة، عن ابن عباس: أن زوج بريرة كان عبداً يقال له مُغيث، كأني أنظر إليه يطوفُ خلفها يبكي، ودموعه تسيل علىٰ لحيته، فقال النبي ﷺ لعباسٍ: «**يا عباس، ألا تَعجب من حُبِّ مُغيثٍ بريرة، ومن بُغضِ بريرة مغيثاً؟**» فقال النبي ﷺ: «**لو رَاجعتِه**»! قالت: يا رسول الله أتأمرني؟ قال: «**إنما أنا أشفع**» قالت: لا حاجة لي فيه[1].

وجاء عند أحمد في «المسند».. فقال رسول الله ﷺ: «**إنه زوجك**» قالت: تأمرني به يا رسول الله! قال: «**إنما أنا شافع**» فخيّرها، فاختارت نفسها[2].

---

(١) «أسد الغابة»: ٣/ ٢٤١.

(٢) «الجامع الصحيح»: (٥٢٨٣).

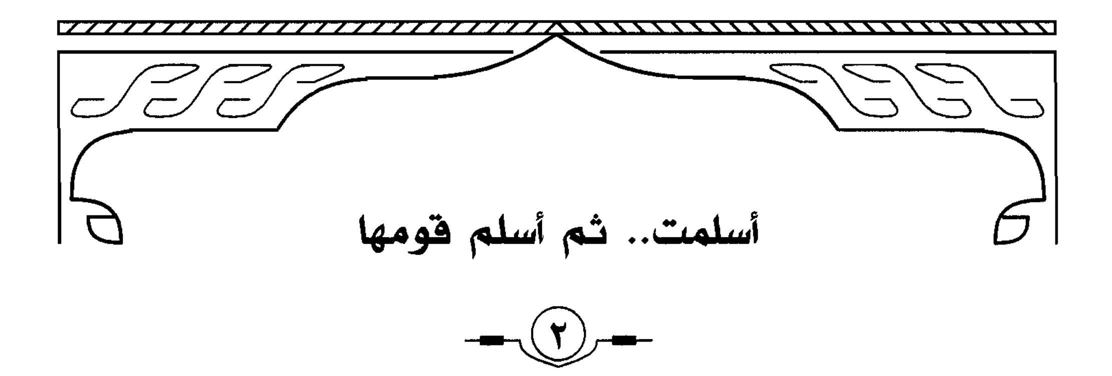
(٣) «المسند»: (١٨٤٤) ٣/ ٣٤٢ ـ ٣٤٣، ورواه أبو داود: (٢٢٣١) ص٣٦٠، وابن

وما بدّ بعد هٰذا: من التذكير بأن القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ذَكَّر الأمةَ بعظيم قدر الصحابة الذين آمنوا وهاجروا، والذين آوَوا ونصروا، فأبان لهم عن أن الإنجيل جاء قبل قرون علىٰ ذكر هٰؤلاء البررة الصادقين الذين استقامت بنيتهم الفكرية العملية في ضوء إيمانهم ومحبتهم للنبي ﷺ وطاعته التي هي من طاعة الله، فأصبحوا وكأن كل واحد منهم أُنموذج حيّ لصاحب الرسالة ولٰكن لا يُوحَىٰ إليه، الأمر الذي أثمر قوة التعاون، ووحدة الجهد والجهاد لإعلاء كلمة الله: فكانوا كزرعٍ أخرج شطأه فآزره، فاستغلظ فاستوىٰ علىٰ سوقه.. وكان من وراء ذٰلك الخيرُ الوفير.

ذٰلكم قول الله تبارك وتعالىٰ: ﴿...وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ [الفتح: ٢٩].

وهاكم القصة المشرقة بالعطاء كما جاءت بها النصوص:





أسلمت.. ثم أسلم قومها

(٢)

الإنسان والحركة.. والهدي النبوي:

قال الإمام البخاري:

حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ، قَالَ: حَدَّثَنِي يَحْيَىٰ بْنُ سَعِيدٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا عَوْفٌ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو رَجَاءٍ، عَنْ عِمْرَانَ، قَالَ: كُنَّا فِي سَفَرٍ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَإِنَّا أَسْرَيْنَا[١]، حَتَّىٰ كُنَّا فِي آخِرِ اللَّيْلِ، وَقَعْنَا وَقْعَةً[٢] وَلَا وَقْعَةَ أَحْلَىٰ عِنْدَ الْمُسَافِرِ مِنْهَا، فَمَا أَيْقَظَنَا إِلَّا حَرُّ الشَّمْسِ، وَكَانَ أَوَّلَ مَنِ اسْتَيْقَظَ فُلَانٌ ثُمَّ فُلَانٌ ثُمَّ فُلَانٌ ـ يُسَمِّيهِمْ أَبُو رَجَاءٍ فَنَسِيَ عَوْفٌ ـ ثُمَّ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ الرَّابِعُ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا نَامَ لَمْ يُوقَظْ حَتَّىٰ يَكُونَ هُوَ يَسْتَيْقِظُ؛ لأَنَّا لَا نَدْرِي مَا يَحْدُثُ لَهُ فِي نَوْمِهِ[٣]، فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ عُمَرُ، وَرَأَىٰ مَا أَصَابَ النَّاسَ، وَكَانَ رَجُلاً جَلِيداً[٤]، فَكَبَّرَ وَرَفَعَ صَوْتَهُ

ماجه: (٢٠٧٥) ١/ ٦٧١، والدارمي: (٢٣٢٩) ص٣١٥.

(١) أسرينا: قال السندي: الإسراء: سير الليل. وفي «المصباح المنير»: سريت الليل وأسريته: قطعته بالسير «المصباح»: (سرىٰ)، وينظر: «الصحاح» للجوهري: (سرا).

(٢) وقعنا وقعة: الوقعة: النومة في آخر الليل. «اللسان»: (وقع) فالمراد هنا: تلك الوقعة المعهودة لمن عزل آخر الليل من المسافرين.

(٣) قال الإمام النووي: (قال العلماء: كانوا يمتنعون من إيقاظه ﷺ لما كانوا يتوقعون من الإيحاء إليه في المنام. ومع هٰذا: فكانت الصلاة قد فات وقتها؛ فلو نام آحاد الناس اليوم، وحضرت صلاة، وخيف فوتها: نبهه من حضره، لئلا تفوت الصلاة) «صحيح مسلم بشرح النووي»: ٥/ ١٩٠.

(٤) جليداً ـ بفتح الجيم وكسر اللام ـ من الجلادة وهي الصلابة، والجليد القوي =

بِالتَّكْبِيرِ، فَمَا زَالَ يُكَبِّرُ وَيَرْفَعُ صَوْتَهُ بِالتَّكْبِيرِ حَتَّىٰ اسْتَيْقَظَ لِصَوْتِهِ النَّبِيُّ ﷺ، فَلَمَّا اسْتَيْقَظَ شَكَوْا إِلَيْهِ الَّذِي أَصَابَهُمْ قَالَ: «**لَا ضَيْرَ ـ أَوْ لَا يَضِيرُ**[1] **ـ ارْتَحِلُوا**». فَارْتَحَلَ فَسَارَ غَيْرَ بَعِيدٍ ثُمَّ نَزَلَ، فَدَعَا بِالوَضُوءِ[2]، فَتَوَضَّأَ وَنُودِيَ بِالصَّلَاةِ فَصَلَّىٰ بِالنَّاسِ، فَلَمَّا انْفَتَلَ مِنْ صَلَاتِهِ إِذَا هُوَ بِرَجُلٍ مُعْتَزِلٍ لَمْ يُصَلِّ مَعَ الْقَوْمِ قَالَ: «**مَا مَنَعَكَ يَا فُلَانُ أَنْ تُصَلِّيَ مَعَ الْقَوْمِ؟**». قَالَ: أَصَابَتْنِي جَنَابَةٌ وَلَا مَاءَ. قَالَ: «**عَلَيْكَ بِالصَّعِيدِ فَإِنَّهُ يَكْفِيكَ**[3]».

المعجزة والأخلاق:

ثُمَّ سَارَ النَّبِيُّ ﷺ فَاشْتَكَىٰ إِلَيْهِ النَّاسُ مِنَ الْعَطَشِ فَنَزَلَ، فَدَعَا فُلَاناً[4] ـ كَانَ يُسَمِّيهِ أَبُو رَجَاءٍ نَسِيَهُ عَوْفٌ ـ وَدَعَا عَلِيّاً فَقَالَ: «**اذْهَبَا فَابْتَغِيَا**[5] **الْمَاءَ**».

= «النهاية»: (جلد). زاد مسلم هنا صفة «أجوف»؛ أي: رفيع الصوت يخرج صوته من جوفه بقوة قال: «وكان أجوف جليداً» «صحيح مسلم بشرح النووي»: ٥/ ١٩٢.

(١) لا ضير: أو لا يضير؛ أي: لا ضرر عليكم في هٰذا النوم، وتأخير الصلاة به، والضير والضر والضرر بمعنىٰ. والشك بين (لا ضير) و(لا يضير) صرح به البيهقي. وينظر: «صحيح مسلم بشرح النووي»: ٥/ ١٩٢ ـ ١٩٣، «إرشاد الساري» للقسطلاني: ١/ ٣٧٥.

(٢) فدعا بالوضوء: الوَضوء ـ بفتح الواو ـ: الماء يتوضأ به، وبضم الواو: الفعل «المصباح»: (وضؤ).

(٣) عليك بالصعيد: الصعيد: وجه الأرض تراباً كان أو غيره. «المصباح»: (صعد) واللام في كلمة الصعيد من قوله ﷺ: «**عليك بالصعيد**» للعهد المذكور في الآية الكريمة ﴿فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [النساء:٤٣] وفي رواية سلم بن زرير: فأمره أن يتيمم بالصعيد. قال النووي: فيه جواز التيمم للجنب إذا عجز عن الماء، وهو مذهبنا ـ أي الشافعية ـ ومذهب الجمهور. وينظر: «فتح الباري»: ١/ ٤٥١، «إرشاد الساري»: ١/ ٣٧٥، «شرح النووي علىٰ مسلم»: ٥/ ١٩٠ وقال الحافظ: (ودل قوله: «يكفيك» علىٰ أن المتيمم في مثل هٰذه الحالة لا يلزمه القضاء، ويحتمل أن يكون المراد بقوله: «يكفيك»؛ أي: للأداء، فلا يدل علىٰ ترك القضاء) «الفتح»: ١/ ٤٥١.

(٤) هو عمران بن حصين، ويدل علىٰ ذٰلك قوله في رواية سلم بن زرير عند مسلم: (ثم عجلني النبي ﷺ في رَكب بين يديه، نطلب الماء..) وهٰذه الرواية دلّت ـ كما يقول الحافظ ـ علىٰ أنه كان هو وعي فقط، لأنهما خوطبا بلفظ التثنية، ويحتمل أنه كان معهما غيرهما علىٰ سبيل التبعية لهما، فيتجه إطلاق لفظ (ركْب) في رواية مسلم، وخُصّا بالخطاب لأنهما المقصودان بالإرسال. «الفتح»: ١/ ٤٥٢. =

فَانْطَلَقَا، فَتَلَقَّيَا امْرَأَةً بَيْنَ مَزَادَتَيْنِ ـ أَوْ سَطِيحَتَيْنِ[1] ـ مِنْ مَاءٍ عَلَىٰ بَعِيرٍ لَهَا، فَقَالَا لَهَا: أَيْنَ الْمَاءُ؟ قَالَتْ: عَهْدِي بِالْمَاءِ أَمْسِ هٰذه السَّاعَةَ، وَنَفَرُنَا خُلُوفٌ[2]. قَالَا لَهَا: انْطَلِقِي إذاً. قَالَتْ: إِلَىٰ أَيْنَ؟ قَالَا: إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ. قَالَتِ: الَّذِي يُقَالُ لَهُ الصَّابِئُ[3] قَالَا: هُوَ الَّذِي تَعْنِينَ فَانْطَلِقِي. فَجَاءَا بِهَا إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ وَحَدَّثَاهُ الْحَدِيثَ قَالَ: فَاسْتَنْزَلُوهَا عَنْ بَعِيرِهَا، وَدَعَا النَّبِيُّ ﷺ بِإِنَاءٍ، فَفَرَّغَ فِيهِ مِنْ أَفْوَاهِ الْمَزَادَتَيْنِ ـ أَوِ السَّطِيحَتَيْنِ ـ وَأَوْكَأَ[4] أَفْوَاهَهُمَا، وَأَطْلَقَ الْعَزَالِيَ[5]، وَنُودِيَ فِي النَّاسِ: اسْقُوا وَاسْتَقُوا. فَسَقَىٰ مَنْ شَاءَ، وَاسْتَقَىٰ مَنْ شَاءَ، وَكَانَ آخِرَ ذَاكَ أَنْ أَعْطَىٰ الَّذِي أَصَابَتْهُ الْجَنَابَةُ إِنَاءً مِنْ مَاءٍ قَالَ: «**اذْهَبْ،**

---

(١) فابتغيا: وفي رواية: «فابغيا»، وعند أحمد في «المسند»: (١٩٨٩٨): «فأبغيانا» والمراد: الطلب، يقال: ابغ الشيء؛ أي: اطلبه، وابتغ الشيء؛ أي: تطَّلبْه، وأبغني ضالتي؛ أي: اطلبها لي «أساس البلاغة»: (بغىٰ)، «الفتح»: ١/ ٤٥٢، «المصباح»: (بغىٰ). =

(٢) مزادتين: تثنية مزادة ـ بفتح الميم والزاي ـ: الراوية أو القربة الكبيرة، سميت بذٰلك لأنه يزاد فيها جلد من غيرها. و(سطيحتين): تثنية (سطيحة) ـ بفتح السين وكسر الطاء: بمعنىٰ المزادة، أو وعاء من جلدين قوبل أحدهما بالآخر، فسُطح عليه. و(أو) هنا شك من الراوي وهو عوف «الفتح»: ١/ ٤٥٣، «إرشاد الساري»: ١/ ٣٧٥ وفي رواية مسلم: (فإذا نحن بامرأة سادلة) ـ أي مدلّية ـ رجليها بين مزادتين «صحيح مسلم بشرح النووي»: ٥/ ١٩٠ ـ ١٩١.

(٣) نفرُنا خلوف: أي رجالنا غُيّب، ولذٰلك خرجت المرأة للماء، وخلوف: بضم الخاء جمع خالف، يقال لمن غاب. «النهاية»: (خلف). وقال الخطاب: (الحيّ خُلوف إذا غابوا وخلفوا أثقالهم، وخرجوا في رعي أو سقي ونحوه)، وينظر: «شرح البخاري» لابن بطال: ١/ ٤٨٧، هٰذا ونفر الإنسان: رهطه وعشيرته، وهو اسم جمع لا واحد له من لفظه. وفي «المصباح»: (النفر ـ بفتحتين ـ: الرجال من ثلاثة إلىٰ عشرة، وقيل: إلىٰ سبعة، ولا يقال: نفر فيما زاد علىٰ العشرة) (نفر).

(٤) الصابئ من: صبأ صبوء: إذا خرج من دين إلىٰ دين غيره، وكانوا يقولون للمؤمنين ذٰلك ذماً، لأنهم خرجوا عن دين قريش إلىٰ الإسلام. «النهاية»: (صبأ)، وفي رواية: (الصابي) بتسهيله ياء بلا همز من (صبا) يَصبي؛ أي: المائل.

(٥) أوكأ: شدّ وربط. «اللسان»: (وكأ).

(٦) العزالي: بفتح العين والزاي، وكسر اللام، ويجوز فتحها: جمع عزلاء بإسكان الزاي، وهي مصب الماء من الراوية، ولكل مزادة عزلاوان من أسفلها. وينظر:

فَأَفْرِغْهُ عَلَيْكَ». وَهِيَ قَائِمَةٌ تَنْظُرُ إِلَىٰ مَا يُفْعَلُ بِمَائِهَا، وَايْمُ اللهِ[1] لَقَدْ أُقْلِعَ عَنْهَا، وَإِنَّهُ لَيُخَيَّلُ إِلَيْنَا أَنَّهَا أَشَدُّ مِلأَةً[2] مِنْهَا حِينَ ابْتَدَأَ فِيهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**اجْمَعُوا لَهَا**». فَجَمَعُوا لَهَا مِنْ بَيْنِ عَجْوَةٍ وَدَقِيقَةٍ وَسَوِيقَةٍ، حَتَّىٰ جَمَعُوا لَهَا طَعَاماً، فَجَعَلُوهَا فِي ثَوْبٍ، وَحَمَلُوهَا عَلَىٰ بَعِيرِهَا، وَوَضَعُوا الثَّوْبَ بَيْنَ يَدَيْهَا.

فتح مغاليق القلوب.. والإسلام بعد الكفر:

قَالَ لَهَا: «**تَعَلَّمِينَ[3] مَا رَزِئْنَا[4] مِنْ مَائِكِ شَيْئاً، وَلٰكِنَّ اللهَ هُوَ الَّذِي أَسْقَانَا**»[5]. فَأَتَتْ أَهْلَهَا، وَقَدِ احْتَبَسَتْ[6] عَنْهُمْ، قَالُوا: مَا حَبَسَكِ يَا فُلَانَةُ؟ قَالَتِ: الْعَجَبُ، لَقِيَنِي رَجُلَانِ فَذَهَبَا بِي إِلَىٰ هٰذَا الَّذِي يُقَالُ لَهُ الصَّابِئُ، فَفَعَلَ كَذَا وَكَذَا، فَوَاللهِ إِنَّهُ لَأَسْحَرُ النَّاسِ مِنْ بَيْنِ هٰذه وَهٰذه. وَقَالَتْ بِإِصْبَعَيْهَا[7]

«الفتح»: ١/ ٤٥٢، «إرشاد الساري»: ١/ ٣٧٦.

(١) ايم الله: من ألفاظ القسم، كقولك: لعمر الله وعهد الله، وتفتح همزتها وتكسر، وهمزتها وصل، وقد تقطع، وفيها لغات كثيرة «النهاية»: ١/ ١٨٦ (أيم).

(٢) أشد ملأة: بكسر الميم وسكون اللام بعدها همزة، وفي رواية للبيهقي: (أملأ منها) والمراد ـ كما يقول الحافظ ـ: أنهم يظنون أن ما بقي فيها من الماء أكثر مما كان أولاً «الفتح»: ١/ ٤٥٣. وأقلع: كُفَّ وترك.

(٣) تعلَّمين ـ بفتح التاء والعين وتشديد اللام ـ أي اعلمي. وفي رواية: (تعلمين) ـ بفتح التاء وسكون العين وتخفيف اللام ـ. وللأصيلي: «قالوا»، وللإسماعيلي: «قال لها رسول الله ﷺ» فتحمل رواية الأصيلي علىٰ أنهم قالوا لها ذٰلك بأمره. «الفتح»: ١/ ٣٥٣، وجاءت الرواية عند أحمد في «المسند»: (٢٩٨٩٨) بلفظ: «**تعلمين والله ما رزئناك من مائك شيئاً ولٰكن الله هو سقانا**».

(٤) ما رزئنا ـ بفتح الراء وكسر الزاي، ويجوز فتحها، وبعدها همزة ساكنة ـ أي ما نقصنا من مقدار مائك شيئاً، وفي رواية مسلم: (واعلمي أنا لم نرزأ من مائك).

(٥) أسقانا: جاء في «أساس البلاغة»: قول الزمخشري: سقاكم الله تعالىٰ الغيث والدرّ، وأسقاكم ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ [النحل:٦٦]، وفي «اللسان»: سقاه الله الغيث وأسقاه. وينظر: «المصباح» مادة: (سقىٰ).

(٦) احتبست عنهم: من الحبْس وهو ضد التخلية؛ ويعني: الإمساك عن الوجه. وينظر: «اللسان»: (حبس).

(٧) قالت بإصبعيها؛ أي: أشارت. قال الحافظ في «الفتح»: ١/ ٣٥٣: (وهو من إطلاق

الْوُسْطَىٰ وَالسَّبَّابَةِ، فَرَفَعَتْهُمَا إِلَىٰ السَّمَاءِ ـ تَعْنِي السَّمَاءَ وَالأَرْضَ ـ أَوْ إِنَّهُ لَرَسُولُ اللهِ حَقّاً، فَكَانَ الْمُسْلِمُونَ بَعْدَ ذٰلك يُغِيرُونَ[1] عَلَىٰ مَنْ حَوْلَهَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَلَا يُصِيبُونَ الصِّرْمَ[2] الَّذِي هِيَ مِنْهُ، فَقَالَتْ يَوْماً لِقَوْمِهَا: مَا أُرَىٰ[3] أَنَّ هٰؤلاء الْقَوْمَ يَدَعُونَكُمْ عَمْداً، فَهَلْ لَكُمْ فِي الإِسْلَامِ؟ فَأَطَاعُوهَا فَدَخَلُوا فِي الإِسْلَامِ.

قال أبو عبد الله: صبأ: خرج من دين إلىٰ غيره وقال أبو العالية: الصابئين ـ وفي نسخة الصابئون ـ فرقة من أهل الكتاب، يقرؤون الزَّبور[4].

تنبيه وتعليق:

وَبَعْـد: فهٰذه القصة التي جئت علىٰ ذكرها آنفاً موزعةً علىٰ مراحل ثلاث: يرىٰ القارئ ـ وهو يصطحبها بوقائعها المتنوعة ـ: أن تلكم الوقائع فيما تزخر به من ملابسات: قد جرت في سفرٍ تزينه روح الجهاد، والسفْر فيها سيد العالمين المبين عن الله ما أراد، ومعه جُلّة من صحابته الكرام عليهم الرحمة والرضوان.. الأمر الذي جعل من الرحلة التي استوعبت ما حصل: رحلةً منوّرة بهديه عليه الصلاة والسلام، وكان من عظمة ذٰلك الهدي الذي من

القول علىٰ الفعل).

(١) يغيرون ـ بضم الياء ـ من: أغار القوم غارة وإغارة: دفع عليهم الخيل. «القاموس» مع «تاج العروس»: (غور)، وينظر: «فتح الباري»: ١/ ٤٥٣، و«المصباح»: (غور).

(٢) الصرم: النّفر ينزلون بأهليهم علىٰ الماء، يقال: (هم أهل صرم والجمع أصرام) «شرح صحيح البخاري»: ١/ ٤٨٨.

(٣) (ما أرىٰ: أن هٰؤلاء القوم يدعونكم عمداً)؛ أي: الذي أرىٰ أن هٰؤلاء القوم يتركونكم من الإغارة عمداً لا جهلاً ولا نسياناً، ولا خوفاً منكم. قال الحافظ: (هٰذه رواية الأكثر، قال ابن مالك: (ما) هٰهنا موصولة ـ أي بمعنىٰ الذي ـ و(أرىٰ) بمعنىٰ: أعلم، والمعنىٰ: الذي أعتقده أن هٰؤلاء يتركونكم عمداً لا غفلة ولا نسياناً، بل مراعاة لما سبق بيني وبينهم، وهٰذه الغاية في مراعاة الصحبة اليسيرة، وكان هٰذا القول سبباً لرغبتهم في الإسلام) «الفتح»: ١/ ٤٥٣.

(٤) «الجامع الصحيح»: (٣٤٤) مع «الفتح»: ١/ ٤٤٧، وأخرجه مسلم: (٦٨٢) ١/ ٤٧٤، وأحمد في «المسند»: (١٩٨٩٨) ٣٣/ ١٢٩ ـ ١٣١، وعبد الرزاق في «المصنف»: (٢٠٥٣٧) ١١/ ٢٧٧، وكذٰلك البيهقي في «السنن الكبرىٰ»: ١/ ٣٢

عناصره البالغةِ الأهمية: التعليمُ، والتربية والتزكية، وهي عناصر، تبدو معالجة الواقع منها دائماً بحسبان، مضموماً ذٰلك إلىٰ شديد حب الصحابة له، وطاعتهم الواعية التي لا ينقصها شيء من يقظة العقل والقلب!

وكان من تقدير المولىٰ ﷻ ـ وهو سبحانه الحكيم الخبير ـ أنْ خُتمت مراحلُ القصة، بالحديث عن تلك المرأة السادلة رجليها بين مَزادتين من ماء علىٰ بعير لها، وما كان بعد الذي رأت من المعجزة الباهرة وكريم الأخلاق: من إسلامها ثم إسلام قومها ـ والحمد لله ـ.

فأَمْلَتْ القصةُ ـ فيما أملت ـ علىٰ التاريخ: هٰذه الصورة المشرقة علىٰ طريق الدعوة إلىٰ الله، التي لا تنفكّ طرفة عين، عن المنهج المتكامل الذي يهدف إلىٰ البناء السليم للإنسان، وتوفير كل ما فيه من سعادة الدارين للأمة التي عمادها الإنسان وإنسانية الإنسان، في عبودية خالصة لله ﷻ: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنبياء].

ويستوقفك أن هٰذه القصة التي رواها البخاري ومسلم وغيرهما: جاءت كما قَصَّ أخبارها علىٰ الأمة الصحابي الجليل عمران بن حصين رضي الله عنه والراويةُ فيها راويةٌ مستثبت أمين، لم يخفَ عليه شيء مما وقع في مراحلها الثلاث علىٰ مختلف الشؤون والأحوال. الأمر الذي يسعف في تَمثُّلِ الهدفِ الكبير، واستخلاص العبر والدروس.

علىٰ أن نفاذ البصيرة عند عمران، وعند إخوانه عليهم الرحمة والرضوان: جعل ذٰلك مصحوباً بالكثير من التنبه الذي لا تعوزه الإحاطة العقلية والنفسية بمرامي ما كان يصدر عن المعلم الرفيق عليه الصلاة والسلام، في توجيهه الفاذّ الحكيم، ووضعه الأمور مواضعها، في تبنيه الأحكام، وتعليمه الرفيق، وهو يهدي إلىٰ الصراط المستقيم، دونما غفلة من الصحب الكرام عن التبصر بما يترتب علىٰ ذٰلك من آثار بانيةٍ في ثقافة الفرد والجماعة، وما تعكسه هٰذه الثقافة المنوّرة بالهدي المحمدي من سلوك.

هٰذا وحريّ بنا استذكار ما توحي به القصة من أنه، مع ما كان يزين سلوك الصحابة في تلك الرحلة المباركة من صادق الحب عليه الصلاة والسلام

ووافر الأدب الجم والطاعة التي لا تكاد تجارىٰ ائتماراً واعياً وامتثالاً فريداً:
كان هو صلوات الله وسلامه عليه، يتصرف علىٰ صعيد الحركة معهم، بوصفه بشراً من البشر يحتاج بجبلّته وفطرته إلىٰ ما يحتاج إليه البشر ويعتريه ما يعتريهم، غير أنه ـ وهو صفوة الله من خلقه ـ يوحىٰ إليه، فهو إمام الأنبياء، وسيد المرسلين عليه الصلاة والسلام.

وتراه ـ فِداهُ أبي وأمي ـ لا يَني يُشعرهم دونما تَكلُّفٍ أو تصنّع، بالمشاركة الأخوية النديّة في كل خطوة يخطوها، كائنة ما كانت الحال؛ فهو معهم، وهم معه، يصحبهم في مختلف الشؤون، معلماً رفيقاً، وهادياً صديقاً، لا حظّ عنده لشيء من الاستعلاء، أو الترفع في أيّ أمر دَقَّ أو جَلّ. .

ها هو ذا يستغرق في تلك النومة التي تلذّ للمسافر المتعب آخر الليل، والتي عبّر عنها راوي القصة عمران بن الحصين، بالوقعة التي لا وقعة أحلىٰ عند المسافر منها، فما أيقظنا إلا حرّ الشمس. . أجل استغرق ـ صلىٰ الله وسلم وبارك عليه ـ في تلك الوقعة، ولم يكن ذٰلك مَدْعاةً لشيء من الاستغراب!!

ولما كان من الأدب أن لا يوقظوه إذا نام؛ لأنهم لا يدرون ما يحدث له من الوحي، فيخافون من إيقاظه قَطْعَ الوحي فلا يوقظونه لذٰلك. . لما كان الأمر علىٰ هـٰذا النحو: لجأ عمر ﷺ إلىٰ التكبير، ورفع صوته فيه، حتىٰ استيقظ بصوته ﷺ.

وجميلٌ لجوء عمر رضوان الله عليه إلىٰ التكبير؛ فإن هـٰذا من سلوك طريق الأدب ـ كما يقول الحافظ ـ والجمع بين المصلحتين، ناهيك عن أن التكبير أصل الدعاء إلىٰ الصلاة. قال المهلب بن أحمد بن أبي صفرة: (وفيه ـ أي: في حديث القصة ـ التأدبُ في إيقاظ السيد كما فعل عمر؛ لأنه لم يوقظ النبي ﷺ بالنداء، بل أيقظه بذكر الله؛ لأن عمر علم أنَّ أمر الله يَحثُّه علىٰ القيام)[1].

وغيرهم.

وتجدر الإشارة إلىٰ أن العلماء استنبطوا من صنيع الصحابة وصنيع عمر بخاصة: التمسك بالأمر الأَعَمِّ احتياطاً، قال المهلب: (وفيه: أن الأمور يُحكم فيها بالأعم؛ لقوله: (كنا لا نوقظ النبيّ ﷺ لأنا لا نعلم ما يحدث له في نومه) وقد يحدث له وحي أو لا يحدث، فحكموا بالأعم، كما حكم علىٰ النائم غيرُه بحكم الحدَث، وقد يكون الحدث أو لا يكون)[1].

قلت: ولم يكن عجباً من العجب أن يشكو الصحابة إلىٰ النبي ﷺ ما أصابهم من نومهم عن صلاة الصبح، حتىٰ خرج وَقْتُها آسفينَ علىٰ فواتِ هٰذه الصلاة في وقتها.

ولٰكن كيف استقبل النبي المعلم صلواتُ الله وسلامه عليه هٰذه الشكوىٰ التي يعلم صِدْقَها، وما تدلُّ عليه من تقوىٰ رفاقهِ عليهم الرضوان؟

لقد استقبلها ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بما فيه تأنيسُ قلوبهم، وطمأنتها علىٰ فوات صلاة الفجر بنومهم عنها حتىٰ خرج وقتها.. أجل طمأنهم بأنهم لا حرج عليهم؛ إذ لم يتعمدوا ذٰلك، بل هم حِراصٌ علىٰ أن تكون الصلاة علىٰ وقتها الحرص كلَّه، فقال ﷺ: «**لا ضير ـ أو لا يضير ـ ارتحلوا**»؛ أي: لا ضرر فيما حصل، وعليهم أن يرتحلوا، فيتحولوا عن ذٰلك المكان الذي أصابتهم فيه الغفلة عن صلاة الفجر حتىٰ خرج وقتها.

إنه الأسلوب الحكيم منه ﷺ، الأسلوب الذي يشد الأزر، ويقوي العزائم ويجعل المسلم علىٰ الجادة أولاً، والطمأنينة القلبية ثانياً فيما يأخذ وفيما يذر.

وما أعظم ما تبع ذٰلك الإيناس الذي جعل القلوب تطمئن، فتسكن ولا تقلق، لما أن الذي طمأن الصحابةَ هو صاحبُ الشريعة الذي يحبونه ويطيعونه صلوات الله وسلامه عليه، فقد فَرَّقَ بين من شرع في النوم مطمئن القلب به، وبين من شرع فيه متعلقاً باليقظة لأداء الصلاة علىٰ وقتها، وتبع ذٰلك الإيناس والطمأنة: تعليم الحكم الشرعي فيما حصل.

---

(١) «شرح صحيح البخاري» لابن بطال: ١/ ٤٨٥.

ها هو ذا ﷺ بعد أن ائتمر صحبه بالرحيل عن المكان الذي حصلت فيه الغفلة، يتوضأ في المكان الذي حَلُّوا فيه بعد الرحيل الأول، ويصلي بهم الفجر قضاء[1]، فعلَّمهم وعلَّمَ الأمة من ورائهم، جواز تأخير الصلاة الفائتة عن وقت ذكرها إذا لم يكن عن تَغافلٍ أو استهانة، مضموماً ذٰلك إلىٰ الحكم الأول، وهو أنه لا ضير في القضاء، ما دام التأخير لم يكن عن عمد، ولٰكن صاحبُه غُلِبَ علىٰ أمره؛ كالذي حصل للصحابة وهم مع رسول الله في ذٰلك النوم[2].

ومهما يكن من أمر: فإن العلماء قد تكلموا في الجمع بين ما نحن بصدده من هٰذا الحديث الذي طلعت علينا به القصة ـ وهو حديث الاستغراق في النوم الذي فاتت معه صلاة الصبح عن وقتها ـ وبين قوله ﷺ: «**إن عيني تنامان ولا ينام قلبي**»[3]، وقد رجح النووي أن القلب إنما يدرك الحسيات المتعلقة به، كالحدث والألم ونحوهما، ولا يدرك ما يتعلق بالعين لأنها نائمة والقلب يقظان، وتابعه علىٰ ذٰلك الحافظ رحمهما الله[4].

وذهب المهلب إلىٰ أن النبي ﷺ قد ينام كنوم البشر في بعض الأوقات، إلا أنه لا يجوز عليه الأضغاث[5] لقوله: «**رؤيا الأنبياء وحي**»[6].

وإذا كان الخير ـ لا بد ـ مُذكِّراً بالخير: فلنذكر ما عرضت له القصة من

---

(١) «شرح صحيح البخاري» لابن بطال: ١/ ٤٨٥، وينظر: «فتح الباري»: ١/ ٤٤٩.

(٢) قال المهلب: (وفيه ـ أي في الحديث ـ: أن من ذكر صلاة، أن له أن يأخذ فيما يصلحه لصلاته من طهور ووضوء، وانتقاء الوجهة التي تطيب عليها نفسه للصلاة، كما فعل الرسول ﷺ بعد أن ذكر الصلاة الفائتة، فارتحل بعد الذكر، ثم توضأ وتوضأ الناس؛ وهٰذا لا يتم إلا في مهلة، ثم أذن واجتمع الناس وصلوا) «شرح صحيح البخاري» لابن بطال: ١/ ٤٨٦.

(٣) وانظر: «أعلام الحديث في شرح صحيح البخاري» للخطابي: ١/ ٣٤١، «فتح الباري»: ١/ ٤٤٩ ـ ٤٥٠، «إرشاد الساري»: ١/ ٣٧٥.

(٤) أخرجه البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها: (١١٤٧) و(٢٠١٣) و(٣٥٦٩).

(٥) «صحيح مسلم بشرح النووي»: ٥/ ١٨٤، «فتح الباري»: ١/ ٤٥٠.

(٦) «شرح صحيح البخاري» لابن بطال: ١/ ٤٨٥.

واقعة الرجل الذي رآه الرسول ﷺ بعد أن انفتل من صلاته، معتزلاً الناس لا يصلي لأنه أصابته جنابة ولا يجد الماء، فقال عليه الصلاة والسلام: «**عليك بالصعيد فإنه يكفيك**» وأن مما استنبطه العلماء منها: جواز الاجتهاد بحضرة النبي ﷺ، وهو ما دلّ عليه موقف الرجل، فَدلَّهُ النبيُّ ﷺ علىٰ الصواب في الأمر.

علىٰ أن في هـٰذا الهدي المحمدي ـ كما يرىٰ الحافظ: أن للعالم إذا رأىٰ فِعْلاً محتملاً: أن يسألَ فاعلَهُ عن الحال فيه ليوضِّحَ له وجهَ الصواب[1]. كما أن فيه التحريض علىٰ الصلاة في الجماعة، وأن ترك الشخص الصلاة بحضرة المصلين مَعِيبٌ علىٰ فاعلهِ بغير عذر[2]. وهـٰذا كله لا يُنسي ما دلّ عليه أسلوب النبي ﷺ: من حسن الملاطفة، والرفق في الإنكار، مُقترنَينِ بالاهتمام البالغ منه عليه الصلاة والسلام بهـٰذا الشأن من شؤون الصلاة في حياة المسلم والمسلمة[3]، لما أنه ـ وهو الهادي إلىٰ صراط مستقيم ـ يريد للفرد المسلم والجماعة المسلمة، تكويناً ثقافياً سَداه ولُحمته الإيمان، والعمل بأحكام الدين الحنيف علىٰ علم بتلك الأحكام، وحرص علىٰ القيام بها علىٰ الوجه المطلوب شأن المخلصين دينَهم لله رب العالمين.

ومن اهتمامه ﷺ بشؤون الجماعة: ما تُطالعنا به القصة من الإسراع في المواجهة الفاعلة لشكوىٰ الناس إليه من العطش؛ إذ دعا علياً وعمران بن حصين، وكَلَّفهما بالمهمة الصعبة في الصحراء، فقال: «اذهبا فابتغيا الماء». وكان من أمر المرأة صاحبة المزادتين ما جاء تفصيله في خاتمة المطاف، وانتهىٰ بإسلامها، ثم إسلام قومها والحمد لله.

ويُذكر هنا: أن اهتمام النبي ﷺ بالحصول علىٰ الماء لمصلحة الجماعة، وإرساله من أرسل في طلبه: كما يعني سلامةَ القيادة الحكيمة وسُموّها عنده ـ جزاه الله عن الأمة خير الجزاء ـ يعني أيضاً شرعية العادة في طلب الماء

---

(١) أخرجه البخاري من رواية ابن عباس رضي الله عنهما: (١١٧) و(١٣٨).
(٢) وانظر: «فتح الباري»: ١/ ٤٥١. (٣) المصدر السابق.

وغيره، دون الوقوف عند خرقها، وأن التسبب في ذٰلك: غير قادح في التوكل؛ لما أن التوكل لا يعني ـ بحال ـ إهمال الأخذ بالأسباب.

ولعل من الخير أن نشير إلىٰ أن علياً وصاحبه عمران ﷺ، قد أحسنا صنعاً في طريقة سؤال المرأة عن الماء، ثم الطلب إليها الانطلاق إلىٰ الرسول صلوات الله وسلامه عليه.

وحين قالت: (الذي يقال له الصابئ؟) كانا علىٰ خيرٍ ما يقتضيه المقامُ بلاغةً، وجودةَ اختيارٍ للجواب المناسب حيث المسؤول عنه صاحب الرسالة المصطفىٰ عليه أفضل الصلاة والتسليم: إذ قالا بإيجاز: (هو الذي تعنين) فهٰذه الكلمات الثلاث التي لا يغني غناءها ـ في هٰذا المقام ـ الكلامُ الكثير: فيها ـ كما يقول العلماء ـ أدبٌ جَمٌّ حسن، ولو قالا لها: (لا) لفات المقصود، أو (نعم) لم يحسن بهما؛ إذ فيه تقرير ذٰلك، فتخلّصا أحسنَ تخلص[1].

ويبدو ـ والله أعلم ـ أن هٰذا الأسلوب المومىٰ إليه ـ بما زانه من الحكمة والقول الحسن ـ قد صادف عند المرأة نباهة وشجاعة أدبية ملحوظة، فكان ذٰلك مَدعاةً لقبولها الانطلاق معهما إلىٰ الرسول عليه الصلاة والسلام، فاستقبلاه بها ـ كما في رواية مسلم ـ فسألها، فأخبرته أنها مُؤْتِمة لها صبيان أيتام.

ويشاء الله أن تقع أمام ناظريها معجزة تكثير الماء ببركته ﷺ، فشرب القوم ـ وهم أربعون رجلاً عطاشٌ ـ حتىٰ رووا جميعاً، وملأوا كل قربة معهم، وإداوة، وتوضؤوا، واغتسل من كان جنباً، وغسّلوا صاحبهم، حيث أعطاه النبي ﷺ إناء من ماء، وقال: «أفرغه عليك».

كل هٰذا ـ بما فيه من خرق للعادة والمألوف ـ يقع وهي قائمة تنظر بوعي عميق وتَتَبُّعٍ شامل إلىٰ ما يحصل، حيث لم يتأثر ماء المزادتين، بل زاد عما كان عليه من قبل، نتيجة فيض الماء بالمعجزة، حتىٰ قال راوي

---

(١) «فتح الباري»: ١/ ٤٥١، «إرشاد الساري»: ١/ ٣٧٥.

الخبر رضي الله عنه: وايم الله لقد أقلع عنها، وإنه ليخيل إلينا أنها أشدُّ مِلأةً منها حين ابتدأ فيها.

ذٰلكم ما دعا الهادي الأمين عليه الصلاة والسلام، أن يقول لها: «تَعلمينَ ما رُزِئنا ـ ما نَقصنا ـ من مائك شيئاً، ولٰكن الله هو الذي أسقانا» وظاهر ذٰلك أن جميع ما أخذوه من الماء مما زاده الله تعالىٰ وأوجده، وأنه لم يختلط فيه شيء من مائها في الحقيقة، وإن كان في الظاهر مختلطاً، وهٰذا أبدع وأغرب في المعجزة. وهو ظاهر قوله: «ولٰكن الله هو الذي أسقانا».

ولم يقف الأمر عند هٰذا الحد، بل انضم إلىٰ المعجزة التي غزت بصرَ المرأة وبَصيرتها: لون ثمين من الإحسان الذي يَنمُّ ـ بلا ريب ـ عن كريم الأخلاق، وصادق المحبة، ويُقَدِّرهُ العربيُّ الأصيل حَقَّ قدره؛ حيث قال النبي ﷺ: «اجمعوا لها ـ أو هاتوا ما عندكم ـ» فجمعوا لها بين كسرة وعجوة ودقيقة وسويقة، حتىٰ جمعوا لها طعاماً، فجعلوها في ثوب، وحملوها علىٰ بعيرها، ووضعوا الثوب بين يديها.

وعند مسلم: وصرّ لها صرّة فقال: «اذهبي فأطعمي هٰذا عيالك، واعلمي أنا لم نرزأ من مائك».

وسبحان مقلب القلوب، الهادي من يشاء إلىٰ الحق وإلىٰ طريق مستقيم. لقد عادت المرأة إلىٰ قومها بعد تلك الرحلة المباركة الحافلة ـ علىٰ قصرها ـ بالعطاء، وكأنها إنسان آخر، تطلّعاً إلىٰ الحق في ظل المعجزة والإحسان، وزوال الغشاوة التي تعادي الفطرة السليمة، وانتهىٰ بها الأمر ـ وهي ترىٰ المسلمين لا يغيرون علىٰ من حولها من المشركين، ولا يصيبون الصرم الذي هي منه.. انتهىٰ بها الأمر إلىٰ أن تسلم وتشير عليهم بالعدول عما هم غارقون فيه من ظلام الشرك والوثنية، وأن يدخلوا في الإسلام دين الله، وكانت مشورة مقرونة بما يرجّح الأخذ بها، حيث قالت لهم يوماً: ما أرىٰ أن هٰؤلاء القوم يدعونكم عمداً، فهل لكم في الإسلام، فأطاعوها، فدخلوا في الإسلام.

وهٰذه الكلمات المشجعة التي تدل علىٰ استقامة تفكيرها، وما تبغيه لقومها من الخير قال فيها الحافظ: (والمعنىٰ: الذي أعتقده أن هٰؤلاء

يتركونكم عمداً، لا غفلة ولا نسياناً، بل مراعاة لما سبق بيني وبينهم، وهٰذا مراعاة للصحبة اليسيرة، وكان هٰذا القول سبباً لإسلامهم)[1].

ويذكر أنه مما قيل في (ما أرىٰ أن هٰؤلاء): (ما) نافية، و(إن) بكسر الهمزة، وعليه فالمعنىٰ: لا أعلم حالكم عن تخلفكم عن الإسلام، مع أنهم يدعونكم عمداً[2].

ومحصل القصة: أن المسلمين صاروا يراعون قومها علىٰ سبيل الاستئلاف لهم، حتىٰ كان ذٰلك سبباً لإسلامهم[3].

وفي رواية مسلم: فهدىٰ الله ذٰلك الصرم بتلك المرأة فأسلمت وأسلموا[4].

وغير خاف أن الذي أزال الغشاوة عن أذهان القوم، وكشف عن هٰذه الحقيقة، فكان من وراء ذٰلك الخير الكثير وهو دخولهم في الإسلام: هو هٰذه المرأة الذكية العاقلة التي دلّ تصرفها مع قومها علىٰ أنها كانت علىٰ سعة في الأفق، وقدرة علىٰ فقه ما يجري بدءاً من حضورها بين يدي الرسول ﷺ ومن كان معه من الصحب الكريم، بعد أن وافقت علياً وعمران رضي الله عنهما علىٰ الذهاب إليه.

وقد صحب ذٰلك كله منها: سلامة الفطرة، مع قدرة علىٰ ترتيب الأولويات بمشيئته تبارك وتعالى.

وإذا كان الأمر كذٰلك في أهليتها وإسلامها، ثم إسلام قومها استجابة لدعوتها: أَفليسَ من حَقِّها علينا ـ وكل ذٰلك بقدر من الله ـ أن نقول بملء فينا: إن هٰذه المرأة المسلمة العظيمة واحدة من مفاخرنا في التاريخ؟!

ثم أليس من الواجب أن يكون لما أعطته وأعطاه مثيلاتها ـ رضي الله

(١) «فتح الباري»: ١/ ٤٥٢، «عمدة القاري شرح صحيح البخاري»: ٤/ ٣٠.
(٢) «الفتح»: ١/ ٤٥٣.
(٣) المصدر السابق.
(٤) وينظر: «فتح الباري»: ١/ ٤٥٣ ـ ٤٥٤، «عمدة القاري»: ٤/ ٣١، «إرشاد الساري»: ١/ ٣٧٥.

عنهن ـ من عِظاتٍ ودروس: مكانه اللائق في الثقافة الحقة، والتربية والدعوة عندنا ـ والحال هي الحال ـ نحن المسلمين؟!

قلت: وفي شأن مراعاة الذِّمام، وائتلافِ الكافر للإسلام: قال المهلب رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(وفيه ـ أي: في حديث القصة ـ: مراعاة ذمام الكافر والمحافظة به[1]، كما حفظ النبي ﷺ هٰذه المرأة في قومها وبلادها، فراعىٰ في قومها ذمامهم، وإن كانت من صميمهم في من أدناهم، وكان ترك الغارة علىٰ قومها: سبباً لإسلامها وإسلامهم وسعادتهم.

وفيه: مقدار الانتفاع بالاستئلاف علىٰ الإسلام؛ لأن قعودهم عن الغارة علىٰ قومها: كان استئلافاً لهم؛ فعل القوم قدر ذٰلك، وبادروا إلىٰ الإسلام رعاية لذٰلك الحق)[2].

وهٰذه رواية مسلم للقصة:

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: حَدَّثَنِي أَحْمَدُ بْنُ سَعِيدِ بْنِ صَخْرٍ الدَّارِمِيُّ، حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللهِ بْنُ عَبْدِ الْمَجِيدِ، حَدَّثَنَا سَلْمُ بْنُ زَرِيرٍ الْعُطَارِدِيُّ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا رَجَاءٍ الْعُطَارِدِيَّ، عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ، قَالَ:

كُنْتُ مَعَ نَبِيِّ اللهِ ﷺ فِي مَسِيرٍ لَهُ فَأَدْلَجْنَا لَيْلَتَنَا، حَتَّىٰ إِذَا كَانَ فِي وَجْهِ الصُّبْحِ عَرَّسْنَا، فَغَلَبَتْنَا أَعْيُنُنَا حَتَّىٰ بَزَغَتِ الشَّمْسُ ـ قَالَ: ـ فَكَانَ أَوَّلَ مَنِ اسْتَيْقَظَ مِنَّا أَبُو بَكْرٍ وَكُنَّا لَا نُوقِظُ نَبِيَّ اللهِ ﷺ مِنْ مَنَامِهِ إِذَا نَامَ حَتَّىٰ يَسْتَيْقِظَ، ثُمَّ اسْتَيْقَظَ عُمَرُ، فَقَامَ عِنْدَ نَبِيِّ اللهِ ﷺ فَجَعَلَ يُكَبِّرُ وَيَرْفَعُ صَوْتَهُ بِالتَّكْبِيرِ، حَتَّىٰ اسْتَيْقَظَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَلَمَّا رَفَعَ رَأْسَهُ وَرَأَىٰ الشَّمْسَ قَدْ بَزَغَتْ قَالَ: «**ارْتَحِلُوا**». فَسَارَ بِنَا حَتَّىٰ إِذَا ابْيَضَّتِ الشَّمْسُ نَزَلَ فَصَلَّىٰ بِنَا الْغَدَاةَ، فَاعْتَزَلَ

---

(١) وانظر: «صحيح مسلم بشرح النووي»: ٥/ ١٩٠ ـ ١٩٢.

(٢) لعل الأصح أن تكون (عليه)، جاء في «المصباح» حافظ علىٰ الشيء محافظة: (حفظ).

رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ لَمْ يُصَلِّ مَعَنَا، فَلَمَّا انْصَرَفَ قَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«يَا فُلَانُ، مَا مَنَعَكَ أَنْ تُصَلِّيَ مَعَنَا؟»**. قَالَ: يَا نَبِيَّ اللهِ، أَصَابَتْنِي جَنَابَةٌ. فَأَمَرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَتَيَمَّمَ بِالصَّعِيدِ فَصَلَّىٰ، ثُمَّ عَجَّلَنِي فِي رَكْبٍ بَيْنَ يَدَيْهِ نَطْلُبُ الْمَاءَ وَقَدْ عَطِشْنَا عَطَشاً شَدِيداً. فَبَيْنَمَا نَحْنُ نَسِيرُ إِذَا نَحْنُ بِامْرَأَةٍ سَادِلَةٍ رِجْلَيْهَا بَيْنَ مَزَادَتَيْنِ، فَقُلْنَا لَهَا: أَيْنَ الْمَاءُ؟ قَالَتْ: أَيْهَاهْ أَيْهَاهْ لَا مَاءَ لَكُمْ. قُلْنَا: فَكَمْ بَيْنَ أَهْلِكِ وَبَيْنَ الْمَاءِ. قَالَتْ: مَسِيرَةُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ. قُلْنَا: انْطَلِقِي إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ. قَالَتْ: وَمَا رَسُولُ اللهِ؟ فَلَمْ نُمَلِّكْهَا مِنْ أَمْرِهَا شَيْئاً حَتَّىٰ انْطَلَقْنَا بِهَا، فَاسْتَقْبَلْنَا بِهَا رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَسَأَلَهَا فَأَخْبَرَتْهُ مِثْلَ الَّذِي أَخْبَرَتْنَا. وَأَخْبَرَتْهُ أَنَّهَا مُوتِمَةٌ لَهَا صِبْيَانٌ أَيْتَامٌ فَأَمَرَ بِرَاوِيَتِهَا، فَأُنِيخَتْ، فَمَجَّ فِي العَزْلَاوَيْنِ العُلْيَاوَيْنِ ثُمَّ بَعَثَ بِرَاوِيَتِهَا، فَشَرِبْنَا وَنَحْنُ أَرْبَعُونَ رَجُلاً عِطَاشٌ حَتَّىٰ رَوِينَا، وَمَلأْنَا كُلَّ قِرْبَةٍ مَعَنَا وَإِدَاوَةٍ. وَغَسَّلْنَا صَاحِبَنَا غَيْرَ أَنَّا لَمْ نَسْقِ بَعِيراً وَهِيَ تَكَادُ تَنْضَرِجُ مِنَ الْمَاءِ ـ يَعْنِي الْمَزَادَتَيْنِ ـ ثُمَّ قَالَ: **«هَاتُوا مَا كَانَ عِنْدَكُمْ»**. فَجَمَعْنَا لَهَا مِنْ كِسَرٍ وَتَمْرٍ، وَصَرَّ لَهَا صُرَّةً فَقَالَ لَهَا: **«اذْهَبِي فَأَطْعِمِي هٰذَا عِيَالَكِ، وَاعْلَمِي أَنَّا لَمْ نَرْزَأْ مِنْ مَائِكِ»**. فَلَمَّا أَتَتْ أَهْلَهَا قَالَتْ: لَقَدْ لَقِيتُ أَسْحَرَ الْبَشَرِ، أَوْ إِنَّهُ لَنَبِيٌّ كَمَا زَعَمَ. كَانَ مِنْ أَمْرِهِ ذَيْتَ وَذَيْتَ. فَهَدَىٰ اللهُ ذَاكَ الصِّرْمَ بِتِلْكَ الْمَرْأَةِ، فَأَسْلَمَتْ وَأَسْلَمُوا.



عقد زواج
في المسجد النبوي بالمدينة النبوية

هٰذه قصة فيها لون من الطرافة المحببة التي لا تخلو من عمق التفكير المتفائل النديّ، نقع عليها فيما صدر عن واحد من عيون التابعين في أثناء الطواف حول الكعبة.

وتطالعنا في المقابل حالة من الاستغراق الماتع ـ عند واحد من كرام الصحابة ـ في معاني الطواف حول البيت العتيق، واللذة الروحية الغامرة فيه، حيث كان ـ كما يقول رضي الله عنه ـ يتراءىٰ الله بين عينيه وهو يطوف!!

وقودنا ذٰلك كله، إلىٰ ما كان من الصحابي، في تحقيق ما أراده التابعي، وأجدني علىٰ عتبة أن أقول: التقيا بعد الطواف ومغادرة مكة المكرمة، في المدينة النبوية، وعقد صَحَابِيُّنا عبد الله بن عمر، عقد زواجَ بنته سودة علىٰ التابعي الجليل: عروة بن الزبير في المسجد النبوي، استجابةً لطلبه ذٰلك في أثناء الطواف! ولكلٍّ أجلٍ كتاب.

وإليكم تفصيل القصة كما أوردتها المصادر:

قال ابن سعد في «الطبقات الكبرىٰ»: أخبرنا محمد بن يزيد بن خُنيس قال: سمعتُ عبد العزيز بن أبي روّاد قال: حدثني نافع: أن عبد الله بن عمر أدركه عروة بن الزبير في الطواف، فخطب إليه ابنته، فلم يردَّ عليه ابنُ عمر شيئاً.

فقال عروة: لا أُراه وافقه الذي طلبتُ منه، لا جَرَمَ لأعاودنَّ فيها.

قال نافع: فقدمنا المدينة قبله، وجاء بعدنا، فدخل علىٰ ابن عمر، فسلم عليه.

فقال له ابن عمر: إنك أدركتني في الطواف، فذكرت لي ابنتي ونحن نتراءى[1] الله ﷻ بين أعيننا، فذٰلك الذي منعني أن أُجيبك فيها بشيء، فما رأيك فيما طلبتَ، أَلكَ به حاجة؟

قال: فقال عروة: ما كنتُ قَطُّ أحرصَ علىٰ ذٰلك مني الساعة!

قال: فقال ابن عمر: يا نافع، ادعُ لي أَخويها. قال: فقال لي عروة: ومَنْ وجدتَ من بني الزبير فادْعُه لنا! قال: فقال ابن عمر: لا حاجة لنا بهم. قال عروة: فمولانا فلاناً، فقال ابن عمر: فذٰلك أبعد!

فما جاء أخواها: حمد الله ابن عمر، وأثنىٰ عليه، ثم قال: هٰذا عندكم عروة، وهو ممن قد عرفنا، وقد ذكر أختكما سودة.

فانا أزوجه علىٰ ما أخذ الله به علىٰ الرجال للنساء، فإمساكٌ بمعروف أو تسريح بإحسان، وعلىٰ ما يستحلُّ به الرجالُ فروجَ النساء.

---

(١) «شرح صحيح البخاري» لابن بطال: ١/ ٤٨٧ ـ ٤٨٨.

(٢) الترائي: تفاعل من الرؤية، وينظر: «النهاية» و«اللسان»: (رأىٰ) ورضي الله عن صحابينا أبي عبد الرحمٰن الإمام القدوة علىٰ طريق التأسي بالنبي ﷺ والعمل بهديه القويم؛ فهٰذه الكلمات المضمَّخة بعبير القرب من الله: فيض من نور الهداية في قوله ﷺ في تعريف الإحسان: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**» وهنيئاً له ﵁ هٰذا الإكرام الإلٰهي الذي ارتقىٰ به أن يكون من أهل المرتبة الأولىٰ في هٰذا المقام.

ولعل من الخير أن أعيد إلىٰ الاذهان أن هٰذه الكلمات الهاديات من النبي ﷺ وردت في الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما ـ واللفظ لمسلم ـ قال أجزل الله مثوبته وأرضاه: (.. حدثني أبي عمر بن الخطاب، قال: بينما نحن عند رسول الله ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرىٰ عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتىٰ جلس إلىٰ النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلىٰ ركبتيه، ووضع كفيه علىٰ فخذيه، وقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «**الإسلام أن تشهد أن لا إلـه إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً**» قال: صدقت. قال: فعجبنا له يسأله ويصدقه. قال: فأخبرني عن الإيمان. قال: «**أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره**» قال: صدقت. قال: فأخبرني عن الإحسان. قال: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك..**»

لكذٰلك يا عروة؟ قال: نعم.

قال: فقد زوجتُكَها علىٰ بركة الله.

قال: قال لي عبد العزيز: قال لي نافع: فلما أَوْلَم عروةُ، بعث إلىٰ عبد الله بن عمر يدعوه. قال: فجاء فقال له: لو كنتَ تقدمتَ إليَّ أمس: لم أَصُم اليومَ، فما رأيك؟ أَقعدُ أو أنصرفُ؟ قال: بل انصرف راشداً! قال: فانصرف[1].

رواية أخرىٰ للقصة.. الجديد والتكامل:

ورویٰ القصة مختصرة بعض الشيء ولٰكن بجديد يوحي بالتكامل: أبو نعيم الأصبهاني، إذ رویٰ بسنده عن حرملة، حدثني أبو الأسود قال: سمعت عروة بن الزبير يقول: (خطبت إلىٰ عبد الله بن عمر ابنته، ونحن في الطواف، فسكت ولم يُجبني بكلمة!

فقلتُ: لو رضيَ لأجابني، والله ما أراجعه فيها بكلمة أبداً!

فقدر له أن صدر إلىٰ المدينة قبلي، ثم قدمت، فدخلت مسجدَ الرسول ﷺ، فسلمتُ عليه، وأدّيتُ إليه من حقه ما هو أهله!

فأتيته ورحب بي وقال: متىٰ قَدِمتَ؟ فقلت: هٰذا حين قدومي ـ أو قلت: الآن ـ فقال: كنتَ ذكرتَ لي سودة بنت عبد الله، ونحن في الطواف نتخايل الله ﷻ بين أعيننا، وكنتَ قادراً أن تلقاني في غير ذٰلك الموطن، فقلت: كان أمراً قدر!!

قال: فما رأيك اليوم؟ قلت: أحرص ما كنت عليه قط، فدعا ابنيه: سالماً وعبد الله، فزوجني)[2].

ومن طريق أبي نعيم رواها الإمام الذهبي كذٰلك[3].

الحديث.. «صحيح مسلم»: (٨) ١/ ٣٦ ـ ٣٧.

(١) «الطبقات الكبرىٰ» لابن سعد: ٤/ ١٦٧ ـ ١٦٨.

(٢) «الحلية»: ١/ ٣٠٩.

قلت: ما حصل من أبي عبد الله عروة بن الزبير ـ وهو عالم المدينة، أحد الفقهاء السبعة، تلميذ خالته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، المتفقه بها ـ من خطبته إلىٰ أبي عبد الرحمٰن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما بنته سودة ـ حفيدة عمر بن الخطاب ـ وهما في الطواف حول البيت العتيق؛ كان ـ والله أعلم ـ بباعثِ الرغبةِ في أن تحصل الموافقة التي تُظِلُّها أنوار الطواف، وبخاصة، وهو يعلم من صلاح ابن عمر وتقواه ما يعلم، ولا بد أن تكون ابنته علىٰ المستوىٰ الرفيع في هٰذه الأسرة الأصيلة.

غير أن الذي رغب أن يفيد منه أبو عبد الله هو نفسه، الذي حال دون أبي عبد الرحمٰن ودون أن يشاركه الحديث بذٰلك، بل سكت.

فأبو عبد الرحمٰن لم يسكت رغبة عما طلب عروة، ولٰكن سكت لأن المقام في نظره ليس مقام خطوبة وتزويج.

ثم أفصح أبو عبد الرحمٰن عن هٰذا الأمر الجلل الذي حمله علىٰ السكوت في قوله: (إنك أدركتني في الطواف، وذكرتَ لي ابنتي ونحن نتراءىٰ الله ـ أو نتخايل الله ـ بين أعيننا).

فعبد الله سكتَ عن إجابةِ عروة في ذٰلك الوقت الذي كان فيه علىٰ حالٍ من نورانية السمو الروحي، واستشعار القُربِ من الله تعالىٰ وهو يطوف حول الكعبة بيته الحرام، لا أنه رفض ـ بسكوته ـ ما طلبه إليه.

ولقد كان ابن عمر صادقاً كل الصدق في تصرفه، إذ بدأ هو الحديث مع عروة للزواج، واستأذنه عبد الله في عدم حضور الوليمة لأنه صائم، ولم يجد غضاضة في أن يأذن له، وأَعْظِمْ بذٰلك من يُسْرٍ في التعامل وعدم التكلف بين صحابي وتابعي.

ومهما يكن من أمر: فَسِمةُ الصدق، وعدم التكلف بين الصحابة عليهم الرضوان وتابعيهم بإحسان يرحمهم الله: واضحةٌ وضوح الشمس في رابعة النهار، وليت أنَّا في هٰذا العصر الذي اهتزت فيه القيم لدىٰ الكثيرين ـ إلا من رحم ربك ـ نعمل علىٰ بناء ثقافة جديدة يراعىٰ في مقوماتها الأصيلة: الحرص علىٰ الانتفاع ـ علماً ومتابعة ـ بما كان عليه أولٰئك النَّبغةُ من الصحابة

رضوان الله عليهم، ومن تبعهم بإحسان؛ ففي ذٰلك الخير الكثير الذي يؤتي أكله في الدنيا، ويوم الدين.

والذي من الخير استذكاره أن ما كان عليه أبو عبد الرحمٰن وعروة في الطواف ـ كما قال رضي الله عنه ـ صورة صادقة لما كان عليه في مختلف الأحوال من محبة الله ورسوله، وسلوكه الطريق الصاعدة، طريق أهل القرب المحبين.

روىٰ ابن سعد بسنده عن عاصم بن محمد عن أبيه قال: (ما سمعت ابن عمر ذاكراً رسول الله ﷺ، إلا ابتدرت عيناه تبكيان)[1].

ويأخذك الإعجاب أكثر وأكثر، فيزيدك ثقة بعظمة ما كان عليه أساتذةُ البُناةِ لحضارتنا حين تقرأ فيما تقرأ عن عبد الله بن عمر وأقرانه عليهم الرحمة والرضوان: ما روىٰ أبو حازم المديني، عن عبد الله بن دينار، قال: (خرجت مع ابن عمر إلىٰ مكة، فَعرَّسنا ـ نزلنا لنستريح ثم نرتحل ـ فانحدر علينا راعٍ من جبل، فقال له ابن عمر: أراع؟ قال: نعم، قال: بِعْني شاةً من الغنم. قال: إني مملوك، قال: قل لسيدك: أكلها الذئب ـ كأنه أراد أن يختبر إيمانه ـ قال: فأين الله عز وجل؟ قال ابن عمر: فأين الله!! ثم بكىٰ، ثم اشتراه بعد فأعتقه[2].

وفي رواية: فأعتقه واشترىٰ له الغنم)[3].



(١) «سير أعلام النبلاء»: ٣/٢٣٦ ـ ٢٣٧.

(٢) «الطبقات الكبرىٰ»: ٤/١٦٨.

(٣) «سير أعلام النبلاء»: ٣/٢١٦.

مشاهد من مجتمع المدينة

الهداية.. وصدق المحبة.. سلطان الأخلاق. التكامل وموقع المرأة في المجتمع

هٰذه قصة لا هي بالطويلة في مبناها اللفظي، ولا هي بالقصيرة فيه!! أما في مبناها المعنوي فهي ـ كما تَنطقُ مشاهدها ـ حافلةٌ بالعطاء، ناطقة بآثار الهداية المحمدية في بناء الفرد والجماعة، تلك الآثار التي تضع أيدينا علىٰ بعض مما كان عليه مجتمع المدينة النبوية الذي نما وترعرع بعد الهجرة المباركة، بقيادة الرسول الكريم سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، الذي أحبه الصحابة الكرام أكثر مما يحبون حتىٰ أنفسهم.

وإنه للمجتمع الذي لا يخفىٰ ما كان يَزينُه من إحكام البناء وتكامله، حيث الكلمة الأولىٰ للإسلام، مُعتقَداً وشريعة وأخلاقاً، وحيث الحضور الشرعي الفاعل للرجل والمرأة جميعاً علىٰ صعيدي الثقافة والممارسة. ناهيك عن الطواعية فيه لقيادة إمام الهداة سيدنا محمد بن عبد الله الذي كان يحرص الحرص كله علىٰ أن يكون للهداية التي تنير بشمول مراميها: طريقَ الفرد والجماعة والأمة، إلىٰ كل ما فيه سعادة الدنيا والآخرة.. النصيب الأوفىٰ في مخاطبة العقل والقلب تعليماً وتزكية علىٰ مختلف الأصعدة، وفي جميع الشؤون والأحوال.

وها نحن أولاء لا نكاد نغادر المشهد الأول في قصتنا المومىٰ إليها، وهو مشهد يدل أوضح الدلالة علىٰ ما كان من أدب النبي ﷺ، وسموّ ما كان عليه من البساطة واليسر، بعيداً عن الكلفة أو شيء من التعقيد في تعامله مع صحبه الكرام ـ وفي مقدمتهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ـ.

أجل: لا نكاد نغادر ذٰلك المشهد الوضاء، حتىٰ يطالعنا ـ علىٰ الصعيد الاجتماعي الأخلاقي ـ مشهد آخر يتسم بالكرم وحب النبي ﷺ، صادر عن الصحابي الجليل أبي الهيثم مالك بن التيهان وزوجه التي كانت ـ مع شجاعتها الأدبية ـ علىٰ السَّنَنِ الرفيع معه، حيث أعلنت الكلمة الطيبة، مقرونة بالضيافة الثمينة إعلانها، وكان لأَم الهيثم دورها المهذب المرموق في ذٰلك. الأمر الذي يفتح الأعين علىٰ ما كان من سلامة الخلية الأولىٰ وقدرتها علىٰ العطاء في ذٰلك المجتمع الذي تُضيء جوانبه حقائقَ الدين دين الإسلام: فكان المجتمع القدوة في تاريخ أمتنا المجيد.

ومما زاد في استنارة هٰذا المشهد، ما كان من لطف النبي ﷺ في سؤال سأله أبا الهيثم وما أعقب ذٰلك من أمر كان سبباً في هدي النبي ﷺ في شأن الاستشارة والمستشار حين قال: «**المستشار مؤتمن**» ثم أمر أبا الهيثم بأن يستوصي خيراً بعبد صالح أعطاه إياه من الأسارىٰ.

وانتهىٰ أمر ما أوصىٰ به النبي ﷺ إلىٰ أن يكون لأم الهيثم القِدح المُعَلّىٰ في تحقيق الوصية من قبل أبي الهيثم، وفق إشارة زوجه علىٰ الوجه الذي ينبغي، فكان من إنصافه رضي الله عنه استجابته الفورية لما أشارت به، والأخذ به عملياً لما أنه يحقق ما حمله إيصاء النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه.

وهٰكذا عمل ما صدر عن أم الهيثم من صواب الرأي الذي أشارت به علىٰ زوجها؛ عمله في شأن العبد الصالح الذي أعطاهما إياه رسول الله ﷺ من السبي، فأكرمه بالعتق قبل أن يقوم بأي عمل في خدمة الأسرة قائلاً: هو عتيق، الأمر الذي سبب للقصة أن تختم بكلمات جوامع من النبي ﷺ ـ وهو سيد المنصفين الذي لا ينطق عن الهوىٰ ـ أبانت للأمة أن الله تبارك وتعالىٰ لم يبعث نبياً ولا خليفة، إلا وله بطانتان.. وفصّل القول فيما وراء ذٰلك.. كما سنرىٰ ـ بعون الله ـ في نص القصة كما حملتها إلينا السنة النبوية.

وهاكم الرواية الأوسع لهٰذا النص، كما جاءت عند الترمذي والبغوي، وغيرهما تحت عنوان:

المستشار مؤتمن:

ولنأخذ رواية الترمذي، حيث قال أبو عيسىٰ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

حدثنا محمد بن إسماعيل، حدثنا آدم بن أبي إياس، حدثنا شيبان أبو معاوية، حدثنا عبد الملك بن عمير، عن أبي سلمة بن عبد الرحمٰن بن عوف، عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: خرج النبي ﷺ في ساعة لا يخرج فيها ولا يلقاه فيها أحد، فأتاه أبو بكر فقال: «**ما جاء بك يا أبا بكر؟**» فقال: خرجت ألقىٰ رسول الله ﷺ وأنظر في وجهه والتسليم عليه[1].

فلم يلبث أن جاء عمر فقال: «**ما جاء بك يا عمر؟**» قال: الجوع يا رسول الله قال: فقال رسول الله ﷺ: «**وأنا قد وجدت بعض ذٰلك[2]**».

وفي رواية مسلم: «**وأنا والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما**».

فانطلقوا إلىٰ منزل أبي الهيثم بن التيهان الأنصاري[3]، وكان رجلاً كثير النخل والشاء ولم يكن له خدم فلم يجدوه.

فقالوا لامرأته: أين صاحبك؟ فقالت: انطلق يستعذب لنا الماء[4].

وفي رواية مسلم: (.. فأتىٰ رجلاً من الأنصار، فإذا هو ليس في بيته؛

---

(١) المصدر السابق: ٣/ ٢١٦، «أسد الغابة» لابن الأثير: ٣/ ٣٤١.

(٢) والتسليم عليه: التسليم: مفعول به لفعل محذوف؛ أي: أسلم التسليم، أو أريه التسليم.

(٣) الجوع: وفي رواية لمسلم: (.. فإذا هو بأبي بكر وعمر، فقال: «**ما أخرجكما من بيوتكما هٰذه الساعة؟**» قالا: الجوع يا رسول الله، قال: «**وأنا والذي نفسي بيده، لأخرجني الذي أخرجكما**»).

(٤) هو أبو الهيثم مالك بن التيهان: قال النووي: بفتح المثناة فوق، وكسر المثناة تحت المشددة.. وكان أحد الستة الذين لقوا رسول الله ﷺ أول ما لقيه الأنصار، وشهد العقبة الأولىٰ والعقبة الثانية.. توفي بالمدينة في خلافة عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا سنة عشرين، وقيل: إحدىٰ وعشرين «تهذيب الأسماء واللغات» للنووي: ٢/ ٧٩ ـ ٨٠، وانظر: «الإصابة»: ٣/ ٢١٢ ـ ٢١٣.

(٥) يستعذب لنا الماء: الماء العذب: هو الطيب الذي لا ملوحة فيه، فالمعنىٰ: يستقيه لنا عذباً طيباً لا ملوحة فيه ويأتينا به «أساس البلاغة»: ص٢٩٥، «النهاية»: ٣/ ١٩٥،

فلما رأته المرأة قالت: مرحباً وأهلاً، فقال لها رسول الله ﷺ: **«أين فلان؟»** قالت: ذهب يستعذب لنا الماء).

فلم يلبثوا أن جاء أبو الهيثم بقِربة[١] يزعُبها[٢] فوضعها، ثم جاء يلتزم النبي ﷺ ويفدّيه[٣] بأبيه وأمه.

وفي رواية مسلم: (.. إذ جاء الأنصاري، فنظر إلىٰ رسول الله ﷺ وصاحبيه، ثم قال: الحمد لله، ما أحدٌ اليوم أكرم أضيافاً مني..).

ثم انطلق بهم إلىٰ حديقته[٤]، فبسط لهم بساطاً[٥]، ثم انطلق إلىٰ نخلة فجاء بقِنوٍ[٦] فوضعه، فقال النبي ﷺ: **«أفلا تنقَّيت[٧] لنا من رطبه»**[٨] فقال: يا رسول الله، إني أردت أن تختاروا ـ أو قال: تخيَّروا ـ من رطبه وبسره[٩]، فأكلوا وشربوا من ذٰلك الماء.

وينظر: «شرح مسلم» للنووي: ١٣/ ١١٢ ـ ٢١٣.

(١) القربة: ظرف من جلد يخرز من جانب واحد، وتستعمل لحفظ الماء، أو اللبن ونحوهما «المعجم الوسيط»: (قرب).

(٢) يزعبها: من: زعب الإناء: ملأه وقطعه، والقربة: احتملها ممتلئة «القاموس»: (زعب)، وقال ابن الأثير: (يزعبها)؛ أي: تدافع بها ويحملها لثقلها. «النهاية»: (زعب).

(٣) يفديه: من: فدّاه تفدية: قال له: جعلت فداك «القاموس»: (فدىٰ) وينظر: «أساس البلاغة»: (فدىٰ).

(٤) قال ابن الأثير: (الحديقة: كل ما أحاط به البناء من البساتين وغيرها، ويقال للقطعة من النخل: حديقة، وإن لم يكن محاطاً بها) «النهاية»: (حدق).

(٥) البساط بكسر الباء: ما يبسط، وهو فِعال بمعنىٰ مفعول كفراش بمعنىٰ مفروش، وجمعه بُسُط «الصحاح» للجوهري: (بسط).

(٦) القنو: العذق بما فيه من الرطب، وجمعه: أقناء. والعذق: عنقود النخل، وهو (الكباسة) ـ العرجون ـ «النهاية» و«المصباح المنير»: (قنا) والجمع قنوان.

(٧) تنقيت: اخترت. من: أنقاه وانتقاه: اختاره «القاموس المحيط»: (نقىٰ).

(٨) الرطب: ثمر النخل إذا أدرك ونضج قبل أن يتنمر، الواحدة (رطبة) «المصباح»: (رطب).

(٩) البسر: التمر قبل إرطابه؛ أي: قبل أن يدرك فيصير رطباً، وذٰلك إذا لوّن ولم ينضج، وإذا نضج فقد أرطب، وقد ذكر الجوهري عدداً من المراتب التي يؤول إليها الطلع فقال: (البسر: أوله طلع، ثم خَلال، ثم بلح، ثم بسر، ثم رطب، ثم تمر.

فقال رسول الله ﷺ: «**هٰذا ـ والذي نفسي بيده ـ من النعيم الذي تُسألون عنه يوم القيامة، ظل بارد ورطب طيب وماء بارد**».

وجاء في رواية مسلم «.. **أخرجكم من بيوتكم الجوع، ثم لم ترجعوا حتىٰ أصابكم هٰذا النعيم**».

فانطلق أبو الهيثم ليصنع لهم طعاماً، فقال النبي ﷺ: «**لا تذبحنَّ ذات درّ**»[1] قال: فذبح لهم عناقاً[2] أو جدياً[3]، فأتاهم بها، فأكلوا.

فقال النبي ﷺ: «**هل لك خادم[4]؟**» قال: لا، قال: «**فإذا أتانا سَبْي فأتنا**».

فأُتي النبي ﷺ برأسين ليس معهما ثالث[5]، فأتاه أبو الهيثم فقال النبي ﷺ: «**اختر منهما**» فقال: يا نبي الله اختر لي، فقال النبي ﷺ: «**إن المستشار مؤتمن[6] خذ هٰذا، فإني رأيته يصلي[7] واستوص به معروفاً**».

الواحدة: بَسرة، وبُسرة «الصحاح» «القاموس» مع «تاج العروس»: (بسر).

(١) ذات در: الدرّ: اللبن، فذات الدر: الحلوب، ومنه قول العرب: درّت الحلوب «أساس البلاغة»: (درر)، وفي رواية مسلم: «إياك والحلوب».

(٢) العناق: الأنثىٰ من ولد المعز قبل استكمالها الحول، والجمع (أعنق) و(عُنوق) «المصباح»: (عنق).

(٣) الجدي: الذكر من ولد المعز الذي لم يبلغ سنة كما قال بعضهم «تاج العروس».

(٤) هل لك خادم؛ أي: غائب، وإلا فقد رآه يقوم بخدمة بيته وأضيافه بنفسه: وهٰذا من أدب النبي ﷺ في الاستفسار، وقد أجابه أبو الهيثم بقوله: لا، أي ليس لي خادم.

(٥) معنىٰ (فأتي رسول الله ﷺ برأسين): فجيء له بأسيرين، وتوكيداً لكونهما اثنين لا أكثر، جاء قول راوي القصة أبي هريرة ﷺ: (ليس معهما ثالث)، وينظر: «المواهب اللدنية» للإمام الباجوري علىٰ «الشمائل المحمدية» للترمذي: ص٦٢٦.

(٦) هٰذا البيان من النبي ﷺ يعني أن الذي طلبت منه المشورة: جعله من استشاره وطلب رأيه فيما فيه المصلحة أميناً في الاختيار له. وعلىٰ هٰذا: فيلزمه رعاية تلك المصلحة له، وأن لا يكتم عليه شيئاً مما فيه الخير والصلاح له، وإلا كان خائناً فيما اقتضته الاستشارة.

(٧) هٰكذا علل النبي ﷺ اختياره بكون هٰذا الرجل يصلي، وفي هٰذا تحقيق للمصلحة في الاستشارة، وعلّم أمته بذٰلك أنه يستدل علىٰ خيرية الإنسان بصلاته لأنها من أهم آثار الصلاح بسبب كونها تنهىٰ عن الفحشاء والمنكر، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ =

فانطلق أبو الهيثم إلىٰ امرأته فأخبرها بقول رسول الله ﷺ، فقالت امرأته: ما أنت ببالغ ما قال فيه النبي ﷺ إلا أن تُعتقه[1]!

قال: هو عتيق.

فقال النبي ﷺ: «**إن الله لم يبعث نبياً ولا خليفة إلا وله بِطانتان: بِطانة تأمره بالمعروف وتنهاه عن المنكر[2]، وبِطانة لا تألوه خَبالاً، ومن يوقَ بطانة السوء فقد وُقي**».

قال أبو عيسىٰ: هٰذا حديث حسن صحيح غريب[3].

شيء من التعقيب:

وَبَعْد: فمن حق هٰذه القصة التي نسعد باصطحابها، والاستنارة بما توحيه مشاهدها الغنية بالعطاء.. من حقها علينا: أن لا نتمارىٰ بأنها ـ جملة وتفصيلاً ـ تعبير رفيع عن واحدة من صور المجتمع القدوة في المدينة النبوية. .المجتمع الذي أملىٰ علىٰ التاريخ ما أملىٰ من الفضائل في ظل الرسالة المحمدية رسالة الإسلام.

وهي صورة تعكس في سلوك الفرد والجماعة بقيادة المصطفىٰ عليه الصلاة والسلام ـ لوناً من ألوان التأثير الفاعل الذي صنعته الثقافة الجديدة المنورة بالهدي الرباني، علىٰ صعيدي التربية والسلوك، مضموماً إلىٰ ذٰلك:

ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥] وحديث «**المستشار مؤتمن**» = أو «**إن المستشار مؤتمن**»: رواه البخاري في «الأدب المفرد»: (٢٥٦)، أبو داود: (٥١٢٨)، والترمذي عن أم سلمة: (٢٨٢٢)، «ابن ماجه»: (٣٧٤٥).

(١) قال العلامة الباجوري: (أي ما أنت ببالغ حق المعروف الذي وصاك به النبي ﷺ إلا بعتقه، فلو فعلت به ـ ما فعلت ـ ما عدا العتق: لم تبلغ ذٰلك المعروف) «المواهب اللدنية علىٰ الشمائل المحمدية» للباجوري: ص٦٢٧.

(٢) هٰذا يدل علىٰ شهادة النبي ﷺ لامرأة أبي الهيثم بأن إشارتها بإعتاق الأسير من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فهي رضي الله عنها بطانة خير.

(٣) «الجامع الصحيح» للترمذي: (٢٣٦٩)، «الشمائل المحمدية» للترمذي مع «المواهب اللدنية» للباجوري: (٣٧٢)، مسلم: (٢٠٣٨) بنحوه مختصراً، «شرح السنة» للبغوي:

العلاقة السامية القائمة علىٰ الحب الصادق والطاعة الواعية بين النبي صلوات الله وسلامه عليه، وبين صحبه الكرام ـ وفي مقدمتهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ـ أخذاً لما آتاهم، وانتهاء عما عنه نهاهم.

وسبحان الحكيم فيما يشاء ويقدر! هٰذا رسول الله ﷺ ـ وهو المعلم والمربي والقائد ـ يخرج ـ كما تقص علينا القصة ـ في ساعة لا يخرج فيها ولا يلقاه فيها أحد؛ فإذا بأبي بكر خارجاً لذٰلك، أخرجته الرغبة في لقيّ الرسول ﷺ، والنظر في وجهه، والتسليم عليه.

ويشاء الله أن يخرج عمر، ويكون الذي أخرجه ـ أيضاً ـ الجوع.

ويتضح مشهد الخروج واللقاءين أكثر وأكثر بما جاء في رواية مسلم: (خرج رسول الله ﷺ ذات يوم أو ليلة، فإذا هو بأبي بكر وعمر! فقال: «ما أخرجكما من بيوتكما[1] هٰذه الساعة؟» قالا: الجوع يا رسول الله).

وكان من أدبه الرفيع الذي يعلم الأدب، ويؤكد كرامة الإنسان الأخ في الله: أنه كشف للصاحبين الكريمين بالقسم: عن أن الذي أخرجه هو الذي أخرجهما، فقال: «وأنا والذي نفسي بيده، لأخرجني الذي أخرجكما».

الجوع والأخلاق.. المساواة وإنسانية الإنسان:

نعم كان من أدبه الرفيع ـ بل بالغ الرفعة ـ وهو الذي يعلم بالقدوة

(٣٦١٢).

(١) هٰذا التعبير بالجمع في قوله ﷺ لأبي بكر وعمر (بيوتكما) من بلاغته عليه الصلاة والسلام، ذٰلك أن من شأن العرب إذا ذكروا الشيئين من اثنين جمعوهما، ولم يعبروا بالمثنىٰ لاستثقال الجمع بين تثنيتين فيما هو كالكلمة الواحدة، وهو هنا في لفظ (بيوتكما) الإضافة؛ لأن بين المضاف والمضاف إليه عُلقة وارتباطاً. ومن هنا قيل: كل ما ثبتت الإضافة فيه، فلفظ الجمع أليق به؛ لأنه أمكن وأخف. وهٰذا في كلام النبي ﷺ مثل قوله تعالىٰ: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٤] إذ جاء التعبير القرآني في (صغت قلوبكما) بالجمع، ولم يجئ بلفظ: فقد صغىٰ قلباكما بالتثنية.

وينظر: «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي: ٢١/٨٣، «البحر المحيط» لأبي حيان:

والعمل، كما يعلم بالكلمة والتوجيه: أن أقسم لهما ـ وهو الصادق المصدوق ـ بالذي نفسه بيده سبحانه: أن الذي أخرجهما ـ وهو الجوع ـ من بيوتهما في هٰذه الساعة: هو الذي أخرجه عليه الصلاة والسلام: ما لا يخفىٰ من توكيد إشعارهما بالتساوي بينه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وبينهما في هٰذا الأمر المتعلق ببشريته ـ عليه الصلاة والسلام ـ تساوياً لا ينافي كونه المؤتمن علىٰ الهداية وتبليغ وحي السماء!

وعلىٰ هٰذا فيُفهم بالأولىٰ ما يلزم من ضرورة أن تأخذ المساواة المنضبطة بضوابط الشريعة ومقاصدها مكانها اللائق في المجتمع الحضاري الذي يراد له أن يكون أبداً مع الذي تمليه الضوابط والمقاصد، التي تقدر إنسانية الإنسان قدرها وتحيطها بكثير من العناية والتكريم، حيث يكون للعدل سلطانه في إحقاق الحق وإبطال الباطل، ولو كره الظالمون!!

هٰذه الصورة.. ودلالة الجوع:

وما من ريب في أن هٰذا الجانب من القصة يدل علىٰ ما كان عليه النبي ﷺ وكبار أصحابه عليهم الرحمة والرضوان من التقلل من الدنيا، وما ابتُلوا به من الجوع وضيق العيش في أوقات.

ونقول: في أوقات؛ لأن الجوع والضيق لم يبلغا مبلغ أن يكونا ظاهرة فيهم، بل دلت الأخبار الصحيحة علىٰ أن ذٰلك قد حصل، ولٰكن لا علىٰ سبيل الاستدامة.

قال الرّسول صلوات الله وسلامه عليه: لم يزل ـ كما يقول الإمام النووي ـ يتقلب في اليسار والقلة، حتىٰ توفي ﷺ: فتارة يوسر وتارة ينفد ما عنده؛ كما ثبت في «الصحيح» أنه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ خرج من الدنيا، ولم يشبع من خبز الشعير، وتوفي ﷺ ودرعه مرهونة علىٰ شعير استدانه لأهله، وغير ذٰلك مما هو معروف في مصادره؛ فكان النبي ﷺ في وقت يوسر، ثم بعد قليل ينفد ما عنده لإخراجه في طاعة الله من وجوه البر، وإيثار المحتاجين، وضيافة الطارقين، وتجهيز للسرايا، وغير ذٰلك.

وهٰكذا كان خلق صاحبيه ﵄، بل أكثر أصحابه. وكان أهل اليسار من المهاجرين والأنصار ﵃ ـ مع برّهم له صلىٰ الله وسلم وبارك عليه، وإكرامهم إياه، وإتحافهم بالطرف وغيرهما: ربما لم يعرفوا حاجته في بعض الأحيان. لكونهم لا يعرفون فراغ ما كان عنده من القوت بإيثاره ذٰلك، ومن علم ذٰلك منهم، ربما كان ضيّق الحال في ذٰلك الوقت كما جرىٰ لصاحبيه، ولا يعلم أحد حاجة النبي ﷺ، وهو متمكن من إزالتها. لٰكن كان ﷺ يكتمها عنهم إيثاراً لتحمل المشاق، وحملاً عنهم. والأدلة علىٰ ذٰلك في الصحيح كثيرة مشهورة.

وكذٰلك كانوا يؤثرون بعضهم بعضاً، ولا يعلم أحد ضرورة صاحبه إلا سعىٰ في إزالتها، وقد وصفهم الله ﷻ بذٰلك: فقال تعالىٰ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر:٩] وقال تعالىٰ: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح:٢٩][1].

أخوة الإيمان.. الفرح والسخاء.. موقع الأسرة وموقع المرأة:

وفي جو من نور الإخوة الإيمانية، وما تحمل من أنس المؤمن، وفرحه بلقياه: لم يجد النبي ﷺ غضاضة في الانطلاق مع صاحبيه ﵄ إلىٰ منزل أبي الهيثم بن التيهان الأنصاري ـ وكان من المنعمين ـ دليل ما كان يزين مجتمع المدينة من بعد عن التكلف والتعقيد في ظل التوادّ الإيماني، والمحبة الخالصة بدءاً من النبي ﷺ مضموماً ذٰلك إلىٰ ما هو ظاهر من حسن الظن عند النبي ﷺ بصاحبه أبي الهيثم ﵁، ونور النبوة في ذٰلك وأمثاله يعطي عطاءه عند التعامل مع الواقع بلا ريب!

ثم ماذا بعد الانطلاق؟

الذي دل عليه المشهد الجديد للقصة: أن أبا الهيثم ﵁ لم يكن في المنزل، ولٰكن زوجته أم الهيثم التي كانت في المنزل ﵄ ما كادت ترىٰ رسول الله ﷺ حتىٰ قالت مرحبة بالضيوف: (مرحباً وأهلاً).

٢/٢٨٦، «الجلال المحلي في تفسير الجلالين»: ٦/١٣٣ مع حاشية الصاوي.

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي»: ١٣/٢١٠ ـ ٢١٢. وانظر تفصيلاً أوفىٰ في «إكمال

وهاتان الكلمتان المعروفتان عند العرب ـ وقولهما من البر ـ تعبران عن الفرحة بالضيف وإشعاره بالتكريم الفائق: إذ المعنىٰ: أتيتَ رحبة، وسعة، وأهلاً تأنس بهم. فاستأنس ولا تستوحش، وأقمْ فلك عندنا ذٰلك.

فنعِمّا هو صنيع أم الهيثم في هٰذا الإحسان الذي صدر عنها بلا كلفة، في استقبال الضيف ـ علىٰ وجه العموم ـ فما ظنك إذا كان الضيف سيد العالمين عليه الصلاة والسلام، ومعه صاحباه المكرَّمان: أبو بكر وعمر رضي الله عنهما؟!

ولئن دلّ هٰذا الترحيب من أم الهيثم علىٰ كريم أخلاقها، وإحسانها في استقبالها الضيوف الأماثل: إنه يدلّ أيضاً علىٰ نصاعة القيم التي تحكم هٰذه الأسرة المسلمة في مجتمع المدينة؛ ذٰلك بأن غياب أبي الهيثم، لم يحُل دون زوجته ودون الترحيب المومىٰ إليه، الأمر الذي يؤكد ما دلت عليه الواقعة من أن في طليعة تلك القيم: السخاء وإيناس الأضياف، وأن للمرأة في المنزل موقعها المرموق في التعاون علىٰ تحقيق ما من أجله حكّمت الأسرة تلك القيم التي رضي الله عنهما للإسلام الحنيف، ودعا إليها.

من هنا لم يكن باعث استغراب أن يجمع شراح الحديث الذي حمل إلينا هٰذه القصة التي نستضيء باصطحابها: أن في صنيع أم الهيثم استحباب إكرام الضيف، بقول: (مرحباً وأهلاً) وشبيهه، وإظهار السرور بقدومه، وجعله أهلاً لذٰلك.

قلت: صحيح كل الصحة أن إكرام الضيف كان من شيم العرب، ولٰكن الإسلام أقر ذٰلك وزاد من استحسانه بأن جعله من أعلام الإيمان، وفي طليعة ما جاء في ذٰلك من صحيح السنة: ما روىٰ البخاري بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت**»[١].

المعلم بفوائد مسلم» للقاضي عياض: ٦/ ٥٠٩.

(١) «الجامع الصحيح»: (٦١٣٦) و(٦١٣٨). وينظر: «فتح الباري» مع «الجامع

ومن حسنات ما قامت به أم الهيثم فوراً دون تراخ بالترحيب بالنبي ﷺ وصاحبيه ـ وهو يسمعها عليه الصلاة والسلام ـ: أن استنبط العلماء جواز سماع كلام الأجنبية، ومراجعتها الكلام للحاجة. وغير خاف أن موقف أم الهيثم ـ بما يحمل من كريم الخلق ـ: مردّه وحدة المنطلق الخيّر عند الرجل والمرأة في الأسرة المسلمة، وهو منطلق إيماني اجتماعي بالغ السمو.

ثم إن دخول النبي ﷺ ـ وهو المبلغ عن الله شريعته ـ منزل أبي الهيثم بناء علىٰ ترحيب زوجته المشعر بالإذن: كما أن فيه واضح الإقرار من النبي ﷺ بموقع المرأة الفاعل في الأسرة: فيه ـ كما يقول الإمام النووي ـ جواز إذن المرأة في دخول منزل زوجها لمن علمت علماً محققاً أنه لا يكرهه ـ أو لا يشقّ عليه ـ بحيث لا يخلو بها الخلوة المحرمة[1].

وهٰكذا.. صدّق الخبَر الخُبْر وأعني ما رآه النبي ﷺ من التوجه إلىٰ منزل أبي الهيثم، وهو ما تقوله العرب حين يصدق العلم بالشيء ما أُخبر عنه سابقاً، ويتأكد ذٰلك فيما سيأتي.

ذٰلكم أنه لم يكد النبي ﷺ يدخل مع صاحبيه رضي الله عنهما المنزل ـ وقد أعلمتهم أم الهيثم أن زوجها ذهب يستعذب للأسرة الماء ـ: حتىٰ جاء رضي الله عنه فنظر ـ كما في رواية مسلم ـ إلىٰ رسول الله ﷺ وصاحبيه، ثم قال: (الحمد لله ما أحد اليوم أكرم أضيافاً مني).

وإنها لكلمات ثمينة جد ثمينة، لما أنها مضمخة بعبير الشكر الخالص لله تعالىٰ علىٰ ما منحه من مجيء النبي ﷺ، وإدلاله في منزله، وطلبه المرتقب من أكل طعامه[2]. وقد جاءت عفو الخاطر، استجابة لتلك المفاجأة العظيمة، وتعبيراً عن الفرح بفضل الله ﷻ ومنّته، فما أحد في ذٰلك اليوم أكرم أضيافاً منه.

الصحيح»: ١٠/ ٥٢٢.

(١) وانظر: «إكمال المعلم بفوائد مسلم» للقاضي عياض اليحصبي: ٦/ ٥١٠، «صحيح مسلم بشرح النووي»: ١٣/ ٢١٢ ـ ٢١٣.

(٢) «إكمال المعلم بفوائد مسلم»: ٦/ ٥١٠ وانظر: شرح الطيبي علىٰ مشكاة المصابيح:

وتجدر الإشارة إلىٰ أن مما استنبطه علماؤنا من كلمات أبي الهيثم هٰذه: استحباب حمد الله وشكره عند حصول نعمة ظاهرة، وعند اندفاع نقمة كانت متوقعة، وفي غير ذٰلك من الأحوال. واستحباب إظهار البشر والفرح بالضيف في وجهه، وحمد الله تعالىٰ ـ وهو يسمع ـ علىٰ حصول هٰذه النعمة، ناهيك عن استحباب الثناء علىٰ ضيفه إن لم يَخَف عليه فتنة[1].

وجميل قول الإمام أبي العباس أحمد القرطبي في كتابه: «المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم» حول هٰذا الشكران من أبي الهيثم ﷺ: (وقول الرجل: الحمد لله، ما أحد اليوم أكرم أضيافاً مني: قولٌ صدقٌ، ومقال حق، إذ لم تقلَّ الأرض، ولا أظلت السماء في ذٰلك الوقت أفضل من أضيافه؛ فإنهم محمد رسول الله ﷺ، وخليفتاه أبو بكر وعمر ﷺ، ولما تحقق الرجل عظم هٰذه النعمة: قابلها بغاية مقدور الشكر، فقال: الحمد لله)[2].

والذي يحسن التنبيه عليه: أن أبا الهيثم ﷺ لم يقتصر ـ كما يدل مجموع الروايات ـ علىٰ ما أُشهدنا من ثنائه علىٰ الله، ثم ثنائه علىٰ أضيافه الكرام بتلكم الكلمات العذاب التي دلت ـ كما يقول النووي ـ علىٰ كمال فضله، وبلاغته وعظيم معرفته؛ لأنه أتىٰ بكلام مختصر بديع في الحسن في هٰذا الموطن ﷺ.

بل بدر منه ـ استجابة لما تفيض به نفسه من السرور العظيم ـ تصرف عملي بالغ الروعة والتأثير، ذٰلكم ما جاء في رواية الترمذي في «الجامع» و«الشمائل المحمدية» من قول أبي هريرة ﷺ: (.. ثم جاء يلتزم رسول الله ﷺ، ويفدّيه بأبيه وأمه).

أجل يضمه إلىٰ صدره ويعانقه، ويجمع إلىٰ ذٰلك قوله: فداك أبي وأمي: فكان بليغاً في الفعل، كما كان بليغاً في القول.

«الكاشف عن حقائق السنن»: ٩/ ٢٨٦٨.

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي»: ١٣/ ٢١٣. وانظر: «مرقاة المفاتيح علىٰ مشكاة المصابيح» للعلامة القاري: ٨/ ٢٠٣.

سبحان الله! ما أعظم ما قادتنا إليه القصة من ذٰلك السمو الدالّ علىٰ ما كان عليه هٰذا الصبي من صدق المحبة للنبي عليه الصلاة، والمؤذن بأن هٰذه الخلة المباركة كانت ظاهرة أخلاقية عند الصحابة الذين أحبوه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أكثر مما يحب أحدهم نفسه التي بين جنبيه، فضلاً عن المال والولد!

وليس عجباً من العجب بعد ذٰلك: أن نشير إلىٰ ما أضاء به مشهد الوصول إلىٰ منزل أبي الهيثم الذي كان غائباً يستعذب لأهله الماء، بدءاً من ترحيب أم الهيثم الذي آذن بكريم خلقها، وبما كان عليه كيان الأسرة المسلمة يومذاك، في ظل الهدي المحمدي من تلاحم ثقافي، وتعاون بين الزوجين علىٰ كل ما فيه البر والتقوىٰ، وتحقيق أخلاق الإسلام.. ووصولاً إلىٰ ترحيب أبي الهيثم البالغ الروعة بالكلمة الطيبة والتزام النبي ﷺ بضمه إلىٰ صدره وعناقه، قائلاً: فداك أبي وأمي..

نعم: أن نشير إلىٰ أن ما أضاء به ذٰلك المشهد: يقفنا علىٰ ما كان من ناصع الرأي، وصائب الفكر عند رسولنا الكريم صلوات الله وسلامه عليه، عندما أشار علىٰ خليفتيه رضوان الله عليهما بالانطلاق، وكان ذٰلك إلىٰ منزل أخيهم الأنصاري، ووقفنا المشهد علىٰ ما وقفنا من ألوان الكرم والوفاء والخلق الحميد.

الأمر الذي يذكر بقول العرب: (وافق الخبَر الخُبْر)، والخُبر ـ بضم الخاء ـ هو العلم بالشيء. فيكون المعنىٰ: وافق الخَبَرَ العلمُ بالشيء، وهو الخُبر.

الإكرام والهداية:

وما الذي حصل بعد ذٰلك؟

يجيبنا المشهد الجديد بأن أبا الهيثم بذل وسعه في الإكرام بكل ما هو فاخر ونفيس من الفاكهة وطيب الطعام المصحوب بالماء العذب، أضف إلىٰ ذٰلك: ما توحي به وقائع القصة من سمو ما تدل عليه قسمات الوجه وأخواتها

من الترحب الدائم غير المنطوق، وحدث ولا حرج عما كان يشعر به أبو الهيثم من أن كل ما يقوم به من الإكرام جزء يسير مما يجب عليه من شكر الله الذي ساق له هٰذه النعمة الفضلىٰ المنوّرة بوجود النبي عليه الصلاة والسلام، ألم يقل من قبل: الحمد لله ما أحد اليوم أكرم أضيافاً مني؟![1].

علىٰ أن ما نشير إليه من الخيرية والسمو الأخلاقي في صنيع أبي الهيثم ﷺ: ينبغي ألا يصرفنا عن استذكار ما للهداية من الحضور الدائم عند النبي ﷺ؛ فهو الهادي إلىٰ الصراط المستقيم والمؤتمن علىٰ التعليم، والتزكية والتربية في مختلف الشؤون والأحوال؛ دقّ الأمر أو جلّ.

ها هو ذا ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ لا يدع أن يكشف بأسلوبه الحكيم عن اجتهاده في أدب من آداب الضيافة فيقول لأبي الهيثم عندما جاء بقنو فيه من البسر والرطب ووضعه بين أيديهم ليأكلوا: «**أفلا تنقيت لنا من رطبه؟**».

ويدافع أبو الهيثم بأدب جم عن اجتهاده فيما صنع، فيقول: (يا رسول الله، إني أردت لكم أن تختاروا ـ أو قال: أن تخيروا ـ من رطبه وبسره) فكأنه رأىٰ إن ترك الاختيار لهم أبلغ في الإكرام.

وفي اصطحاب لركب الهداية النبوية في المشهد: نخطو خطوة أخرىٰ، لنرىٰ أن إمام الهداة صلوات الله وسلامه عليه، لم يدع بعد أن استمتع ـ فداه أبي وأمي ـ هو وصاحباه ﷺ بذٰلك الإكرام الفائق في منزل أبي الهيثم ﷺ، فأكلوا علىٰ شدة جوع مما حمل ذٰلك القنو من البسر والرطب وغيرهما، وشربوا من الماء العذب، وهم في ظل بارد.. لم يدع ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أن يؤدي أمانة التبليغ والهداية: فينبه الجميع علىٰ ما يجب علىٰ المؤمن من أن يكون علىٰ ذكر من فضل الله بالنعمة التي يسبغها عليه.

فهو ـ سبحانه ـ المنعم المتفضل، وعلىٰ المؤمن واجب الشكر له ـ جل شأنه ـ والبعد عن الغفلة التي تنسي العبد مولاه، وتوقعه في حمأة أن تكون

---

(١) ٥/٣٠٦.

النعمة ـ والعياذ بالله ـ سبباً في نسيان حق المنعم الذي لا ربّ غيره ولا خير خيره، وهو الرزاق ذو القوة المتين.

ذٰلكم قوله ﷺ: «**هٰذا ـ والذي نفسي بيده ـ من النعيم الذي تُسألون عنه يوم القيامة؛ ظل بارد، ورطب طيب، وماء بارد**».

قال القاضي عياض: (قال المفسرون: كل شيء من لذة الدنيا من النعيم الذي يسأل عنه، والسؤال عنه: هل يقوم بشكره ومنة الله عليه فيه بنعمته)[(١)].

من هنا عزا الإمام النوي القول بأن المراد بالسؤال عن النعيم: السؤال عن القيام بحق شكره؛ إلىٰ القاضي عياض، ثم قال: (والذي نعتقده أن السؤال هنا سؤال تعداد النعم، وإعلام بالامتنان بها، وإظهار الكرامة بإسباغها، لا سؤال توبيخ وتقريع ومحاسبة)[(٢)].

نبيّ الملاطفة في.. إياك والحلوب:

وفي خطوة أخرىٰ علىٰ طريق المنهج النبوي في اصطحاب الزمن بنور الهداية والتبليغ: نقع علىٰ صورة من الهداية يلامس جانباً من جوانب الأسرة الاقتصادية، ذٰلكم ما نرىٰ في قول الرسول ﷺ لأبي الهيثم عندما أخذ المدية ليذبح لأضيافه: «لا تذبحنَّ ذات درّ»؛ أي: شاة ذات لبن. وفي رواية مسلم: «**إياك والحلوب**» وهي نفسها ذات الدرّ وهو اللبن.

والحكمة في هٰذا النهي من الرسول عليه الصلاة والسلام ـ والله أعلم ـ: أن الشاة ما دامت ذات لبن، فهم ينتفعون بها إذا لم تذبح، مع حصول المقصود ـ وهو حسن الضيافة ـ بغيرها. وفي ذٰلك شفقة علىٰ الأسرة من هٰذا الضرر بفقدان اللبن إذا ذبحت ذات اللبن، وما ألطف ذٰلك هدياً منه عليه الصلاة والسلام.

---

(١) انظر ما تقدم صفحة ٣٦١ و٣٦٨.

(٢) وينظر: «إكمال المعلم بفوائد مسلم» للقاضي عياض: ٦/ ٥١، «المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم» للقرطبي: ٥/ ٥١٠.

لذا قال العلماء في هٰذا الهدي النبوي: هو نهي إرشاد وملاطفة، فلا كراهة في مخالفته؛ فالمقصود الشفقة علىٰ أبي الهيثم، وعلىٰ أهله؛ لأنهم ينتفعون باللبن مع حصول المقصود بغيره[1].

ولا تطول بنا الرحلة حتىٰ نقع علىٰ صورة من صور الهدي المحمدي: تبدو ذات صلة بأخلاقه عليه الصلاة والسلام من ناحيتي مكافأة الإحسان بالإحسان، ونورانية الاهتمام بشؤون المسلمين.

هل لك خادم.. والأخلاق:

فعلىٰ مسمع من الجميع، وبعد الذي كان من أبي الهيثم من بالغ الإكرام والإيناس في منزله المأنوس: خاطبه النبي ﷺ بوداعته المعروفة بقوله ـ وفي هٰذا ما فيه من التعليم للجماعة ـ: «**هل لك خادم؟**».

وكان الرسول ﷺ يسأل عن خادم غائب، وإلا فقد رأىٰ صلوات الله وسلامه عليه أنه لم يكن هنالك خادم يعاون أبا الهيثم في خدمة بيته وأضيافه.

وعندما أجاب أبو الهيثم بالنفي ـ إذ ليس عنده خادم ـ أشعره النبي ﷺ في رغبته في المعاونة علىٰ أن يكون له خادم، مكافأة له علىٰ إحسانه، طالباً منه أن يأتيه لهٰذا الشأن، وامتثالاً للأمر المحمدي: جاء أبو الهيثم النبي ﷺ عندما تيسر أمر الأسيرين.

الشورىٰ.. والقاعدة الذهبية:

والذي يستوقفك من الحضور الدائم للهداية في تصرف النبي ﷺ، أنه عندما حضر إليه أبو الهيثم وعرض ـ عليه الصلاة والسلام ـ أخذ واحد من الرجلين اللذين كانا أسيري حرب، وقال له: «**اختر منهما**»؛ أي: اختر واحداً منهما.. الذي يستوقفك أنه عندما قال له أبو الهيثم: يا رسول الله اختر لي

---

(١) وانظر: «إكمال المعلم»: ٦/ ٥١٠.

(٢) «صحيح مسلم بشرح النووي»: ١٣/ ٢١٤. وانظر تفصيلاً أوفىٰ في «المواهب اللدنية

ـ وكان ذٰلك من كمال عقله وحسن أدبه ـ خرج رسول الله ﷺ بتربيته وتعليمه من الغطار الضيق بينه وبين أبي الهيثم، إلىٰ الإطار الأوسع ـ وهو الجماعة بل الأمة ـ بتقرير قانون عظيم للشورىٰ التي هي من قواعد البناء الإسلامي للأسرة والجماعة والأمة. وذٰلك بقوله صلوات الله وسلامه عليه: «إن المستشار مؤتمن» وفي ذٰلك لون من ألوان البيان النبوي للقرآن.

فقرر ﷺ في بيانه مبدأ الشورىٰ القرآني ـ وهو الذي أوتي جوامع الكلم ـ وحمّل المستشار مسؤولية رعاية المصلحة في تحقيق ما كانت من أجله المشورة لما أنها أمانة، والمستشار مؤتمن ـ وكما قلت ـ كم لهٰذه القاعدة الذهبية التي قررها صلوات الله وسلامه عليه في أمر خاص: من آثار غاية في الأهمية علىٰ كل الأصعدة التي تزدان بالشورىٰ كما أشرت من قبيل. فخصوص السبب لا يمنع عموم اللفظ.

هٰذا: ومن النصَفة بمكان عدم الغفلة عن أن النبي المصطفىٰ صلوات الله وسلامه عليه ـ بعد أن قدم القاعدة الذهبية التي تقدم ذكرها من قريب، وهي القاعدة التي تجعل المستشار مؤتمناً، فتحمّله أمانة الرعاية للمصلحة في الشأن الذي استشير فيه.

نعم عدم الغفلة والاستذكار أنه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ كان أول من عمل بما تقتضيه هٰذه القاعدة من الأمانة في الاختيار، استجابة لطلب أبي الهيثم منه، أن يختار له أحد الرجلين خادماً يعاونه في شؤون المنزل والأضياف.

وصورة هٰذا العمل بما تقتضيه القاعدة المباركة: ما صدر منه عليه الصلاة والسلام من ترجيح أحدهما ليكون عند أبي الهيثم، مع التصريح بسبب وجيه لهٰذا الترجيح وهو كونه يصلي ـ والصلاة تنهىٰ عن الفحشاء والمنكر ـ وأنه أهل لأن يوصىٰ به معروفاً.

ذٰلكم بأنه عليه الصلاة والسلام ـ كما تدل القصة ـ عندما قال له أبو الهيثم: يا رسول الله اختر لي، وقال له النبي ﷺ: **«إن المستشار مؤتمن»** لم يلبث ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أن قال له ـ عملاً بالأمانة في المشورة ـ:

«**خذ هـٰذا فإني رأيته يصلي**»[1] ولم يكتف بهـٰذا بل قال له: «**واستوص به معروفاً**»؛ أي: افعل به معروفاً وصية مني، أو كافئه بمعروف[2].

وإنه لدرس عظيم لأولي الحِجىٰ، فيما يوجبه الإسلام من الشورىٰ، وإتباعِ القول الطيب العملَ الطيب: فعلَ الرسول ﷺ ـ وهو المبين عن الله ما أراد ـ كما أضاءت به قصتنا الغنية بالفضائل والحمد لله.

واستوص به معروفاً.. وأم الهيثم:

وهـٰذا الأمر الواضح من الرسول ﷺ لأبي الهيثم بأن يعامل الرجل بالمعروف وصية منه ﷺ ـ وأمره للوجوب ـ أثار كوامن الخير عند الصحابية النابهة القانتة أم الهيثم عليها الرضوان: ففهمت من خلال إيمانها، وما قذفه الله في قلبها من نور المعرفة: أن زوجها أبا الهيثم لا يبلغ حقَّ ما قال النبي ﷺ في الرجل: ثناء عليه وشهادة خير له: إلا بأن يعتقه، فيصبح في عداد الأحرار، وهـٰذا أقصىٰ ما يمكن أن يقدم له كيما يكون أبو الهيثم عند الوصية النبوية به.

من أجل هـٰذا قالت لأبي الهيثم: (ما أنت ببالغ حق ما قال فيه النبي ﷺ إلا بأن تعتقه)[3]. فما كان منه إلا أن استجاب استجابة فورية لما رأت من عتق الرجل، فقال: (هو عتيق) ويا له من قول عظيم.

أرأيت إلىٰ صنيع أم الهيثم كما دلّ عليه فكرها الصائب المستنير بالإيمان، كم كان عظيماً بما كان له من أثر في القرار الذي اتخذه زوجها، فاجتمع للخير طرفاه من قبل الزوجين، وعتق الرجل في ظل الهدي المحمدي، والاستجابة له في الأسرة المسلمة، وهي اللبنة الأولىٰ في المجتمع المسلم الذي عملت علىٰ

علىٰ الشمائل المحمدية» للباجوري.

(١) هـٰذا تعليل منه عليه الصلاة والسلام لاختياره؛ لأن الله تعالىٰ يقول: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

(٢) وانظر: «الشمائل المحمدية» للترمذي مع «المواهب اللدنية» للباجوري: ص٦٢٧.

(٣) قال العلامة الباجوري: (أي ما أنت ببالغ حق المعروف الذي وصاك به النبي ﷺ إلا بعتقه؛ فلو فعلت ما فعلت ما عدا العتق، لم تبلغ ذٰلك المعروف) «المواهب اللدنية»

بنائه ـ وفق الهدي الرباني ـ يد سيد العالمين الصناع محمد عليه الصلاة والسلام، وهنيئاً ثم هنيئاً لأبي الهيثم وأم الهيثم هٰذه المشاركة ـ طاعة للرسول ﷺ ـ في تحرير مملوك مسلم في أمتنا الماجدة!

وليكن في الحسبان: أن الثناء علىٰ صحابينا الأنصاري وزوجه رضي الله عنهما فيما كان من تحرير عبد مسلم لهما من العتق، بدل أن يكون مملوكاً لأبي الهيثم يعاون في شؤون المنزل وخدمة الأضياف. هٰذا الثناء الذي هما جديران بما هو أكثر منه وأوفر، مابدّ أن يكون بريدنا إلىٰ حقيقة ناصعة واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار: أكرم بها النبي ﷺ أم الهيثم تقديراً لموقفها في شأن التحرير الموميٰ إليه، وجعل تصرفها شطراً لحقيقة في غاية الأهمية، وهي وجود البطانتين لكل من النبي والخليفة.

ذٰلك بأنه ـ صلىٰ الله وسلم وبارك عليه كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون ـ ما كاد يطرق سمعه قول أبي الهيثم استجابة لرأي أم الهيثم ـ: (فهو عتيق) حتىٰ قال عليه الصلاة والسلام: «**إن الله لم يبعث نبياً ولا خليفة إلا وله بطانتان**[1]: **بِطانة تأمره بالمعروف وتنهاه عن المنكر**[2]، **وبِطانة لا تألوه خَبالاً**[3]، **ومن يوق بطانة السوء فقد وُقي**[4]» قلت: وويل للذين يكونون في

مع «الشمائل المحمدية»: ٦٢٧.

(١) بطانة الرجل بكسر الباء: صاحب سره وداخلة أمره الذي يشاوره في أحواله «النهاية»: (بطن).

(٢) يعلم من قوله ﷺ: «**تأمره بالمعروف وتنهاه عن المنكر**» أن بطانة الخير لا تكتفي بالسكوت بل لا بد من الأمر بالمعروف والحث عليه، والنهي عن المنكر والزجر عليه. وقوله: «**وبطانة لا تألوه خبالاً**» فيه تنبيه علىٰ أن بطانة السوء يكفي فيها السكوت علىٰ الشر وعدم النهي عن الفساد. وانظر: «المواهب اللدنية»: ص٦٢٨.

(٣) لا تألوه خبالاً: (تألوه): من الأُلوّ وهو التقصير، والخبال: الشر والفساد: فالمعنىٰ: لا تقصر في إفساد حاله ولا تمنعه منه، أو لا تقصر ولا تترك جهدها فيما يورثه الشر والفساد. قال الله جلّ شأنه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا...﴾ [آل عمران:١١٨] وقال تعالىٰ: ﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ [التوبة:٤٧] وانظر: «النهاية»: (ألىٰ)، «شرح السنة» للبغوي: ١٣/ ١٩١، «المواهب اللدنية»: ص٦٢٨.

=

موقع التأثير وصنع القرار في الأمة، ويتخذون بطانة السوء التي لا تقصر في الخبال إفساداً لهم وللأمة وإيقاع الأمة فيما هو من الشر الوبيل!!

ثم إن هـٰذه الكلمات النبوية: نعمت الشهادة منه عليه الصلاة والسلام لأم الهيثم بأنها بطانة مباركة لزوجها أبي الهيثم وجّهته إلىٰ ما أثمر عتق الرجل وأصبح في عداد الأحرار، والحمد لله.

وليهنِئْك هـٰذا الفضل الكبير يا أم الهيثم علىٰ لسان الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام، حيث آذن قوله الفصل الميمون بتلك البشارة ـ بل بتلك المِدحة العظيمة ـ التي سمت بك أن تكوني ـ بشهادته ﷺ ـ: تلك البطانة التي دل عليها كلامك الصائب طاعة للرسول عليه الصلاة والسلام ونصحاً لزوجك الذي ما إن سمع كلماتك النيرة حتىٰ حقق ما أردت، فقال بشأن الرجل: (هو عتيق) وما أكرمها دلالة علىٰ ما فسح لك في تاريخنا المجيد من منزلة مرموقة جعلتك ـ بعون من الله وفضل ـ في مصافّ أولـٰئك الصادقات القانتات المجاهدات اللاتي عمل سلوكهن المستقيم، وما أوتين من صائب الرأي: عمله في أن تأخذ الأسرة المسلمة مكانها اللائق في بناء المجتمع المسلم، بل والحياة الإسلامية علىٰ وجه العموم وأن تتحقق القدوة الصالحة لأجيال المسلمات في حركة التاريخ.

---

(١) وفي ختم البيان النبوي عن البطانة وأثرها في حياة الأمة جاء قوله عليه الصلاة = والسلام: «**ومن يوق بطانة السوء فقد وقي**» والمعنىٰ: ومن يحفظ من بطانة السوء واتباعها بأن يعصمه الله منها: فقد حفظ من الفساد، أو من جميع الأسواء والمكاره في الدنيا والآخرة. وقد روىٰ البخاري بسنده عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «**ما بعث الله من نبي، ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان: بطانة تأمره بالمعروف، وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه، فالمعصوم من عصم الله تعالىٰ**» (٧١٩٨). قال الحافظ: (.. والمراد به إثبات الأمور كلها لله تعالىٰ: فهو الذي يعصم من شاء منهم؛ فالمعصوم من عصمه الله لا من عصمته نفسه، إذ لا يوجد من تعصمه نفسه حقيقة إلا إن كان الله عصمه) «فتح الباري»: (٧١٩٨) ١٣/ ١٩٠ مع «الجامع الصحيح».
وينظر: «المسند»: (١١٣٤٢)، والنسائي في «الكبرىٰ»: (٧٨٢٥)، وابن حبان:

ومن هنا: كان الاهتمام بأن تأخذ هـٰذه الحقائق وأمثالها ـ مما ازدان به تاريخ المرأة ـ: مكانها اللائق في ثقافة الإناث تربيةً وتعليماً.. في ضوء حقائق الإسلام التي تعطي المرأة دورها الإيمانيّ الفاعل المؤثر في بناء الحياة الإسلامية، علىٰ الوجه المطلوب، دونما غفلة عن كل ما هو نافع علىٰ هـٰذا الصعيد، ما دام متسقاً مع سلامة المعتقد، وما يوجّه إليه العلم بالمعنىٰ الحقيقي، الأمر الذي تتحقق معه القدوة الصالحة لأجيال المسلمات في حركة التاريخ.

هـٰذا: وفي عود علىٰ بدء: لعل مما تقتضيه النصفة، وتدعو إليه الرغبة في التكامل: أن يُضمّ هـٰذا الموقف بالغ الأهمية الصادر عن زوجة الصاحب الأنصاري ﵄: إلىٰ موقفها الترحيبي الميمون، ساعة رأت رسول الله ﷺ في منزل الأسرة؛ إذ قالت علىٰ التوّ ـ كما في رواية مسلم ـ: (مرحباً وأهلاً).

قالت ذٰلك وزوجها غائب يستعذب للأسرة الماء، الأمر الذي جعل لهاتين الكلمتين: المدلول الترحيبي العاطر الذي يحمل المزيد من الإيناس للأضياف الكرام وفي مقدمتهم: رسول الله ﷺ.

ثم إنها ﵄: كانت من وراء ستار ـ بلا ريب ـ مع زوجها، في فرحهما الغامر الذي ظل يصحب العناية الفائقة بإكرام رسول الله ﷺ وخليفتيه ﵄.

وكل أولـٰئك في دلالة لا يعتريها لبس أو غموض علىٰ موقع الأسرة المسلمة، وأنه الموقع الجذري المؤثر سلامة الوجهة علىٰ صورة لا تغادر إنسانية الإنسان في المرأة، ولا الحرية المنضبطة بضوابط الشرع هنا وهناك.. الأمر الذي يتسق مع المنهجية السليمة في الثقافة المزدانة بآفاق العلم والتربية علىٰ هدىً من نور الكتاب الكريم، وبيانه من سنة خاتم المرسلين عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم. وما يجب من استذكار: أن مطلوباً من العقل، استنباط الأحكام من النصوص، والاجتهاد فيما لا نص فيه؛ لأن النصوص تتناهىٰ، والوقائع لا تتناهىٰ.

والحمد لله الذي أكرمنا بهـٰذه القبضة الميمونة من فيض النبوة وأخلاق الرجال والنساء من الصحابة، كما أكرمنا بما سبق من القصص الذي تشركه

هٰذه القصة ـ قصة أبي الهيثم ـ بغزارة العطاء المنوّر بهدي السماء ومكارم الأخلاق، وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ إمام الهداة سيدنا محمد بن عبد الله كلما ذكره الذاكرون وغفل عنه الغافلون.

وإليكم قصة أبي الهيثم كما جاءت مختصرة في «صحيح مسلم»[(١)].

قال الإمام مسلم:

حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ، حَدَّثَنَا خَلَفُ بْنُ خَلِيفَةَ، عَنْ يَزِيدَ بْنِ كَيْسَانَ، عَنْ أَبِي حَازِمٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ أَوْ لَيْلَةٍ، فَإِذَا هُوَ بِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ فَقَالَ: «**مَا أَخْرَجَكُمَا مِنْ بُيُوتِكُمَا**[(٢)] **هٰذِهِ السَّاعَةَ**». قَالَا: الْجُوعُ يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: «**وَأَنَا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لأَخْرَجَنِي الَّذِي أَخْرَجَكُمَا، قُومُوا**». فَقَامُوا مَعَهُ فَأَتَىٰ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ[(٣)] فَإِذَا هُوَ لَيْسَ فِي بَيْتِهِ، فَلَمَّا رَأَتْهُ الْمَرْأَةُ قَالَتْ: مَرْحَباً وَأَهْلاً. فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَيْنَ فُلَانٌ؟**». قَالَتْ: ذَهَبَ يَسْتَعْذِبُ لَنَا مِنَ الْمَاءِ. إِذْ جَاءَ الأَنْصَارِيُّ فَنَظَرَ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَصَاحِبَيْهِ ثُمَّ قَالَ: الحَمْدُ لِلَّهِ مَا أَحَدٌ الْيَوْمَ أَكْرَمَ أَضْيَافاً مِنِّي ـ قَالَ: ـ فَانْطَلَقَ فَجَاءَهُمْ بِعِذْقٍ[(٤)] فِيهِ بُسْرٌ وَتَمْرٌ وَرُطَبٌ فَقَالَ: كُلُوا مِنْ هٰذِه، وَأَخَذَ الْمُدْيَةَ. فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِيَّاكَ وَالْحَلُوبَ**». فَذَبَحَ لَهُمْ، فَأَكَلُوا مِنَ الشَّاةِ وَمِنْ ذٰلك الْعِذْقِ وَشَرِبُوا. فَلَمَّا أَنْ شَبِعُوا وَرَوُوا، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ

(٦١٩٢)، والبيهقي في «السنن»: ١٠/ ١١١، والبغوي في «شرح السنة»: (٢٤٨٣).

(١) (٢٠٣٨) كتاب الأشربة، باب (٢٠): ٣/ ١٦٠٩ ـ ١٦١٠.

(٢) أشرت في الحاشية (١) من ص٣٦٤ السابقة إلىٰ أن هٰذا التعبير جاء صورة عن بلاغة النبي ﷺ في الخطاب وفق معهودات العرب؛ إذ من شأنهم إذا ذكروا الشيئين من اثنين جمعوهما، ولم يعبروا بالمثنىٰ لاستثقال الجمع بين تثنيتين.. وينظر التفصيل هناك.

(٣) هو أبو الهيثم مالك بن التيهان كما هو عند الترمذي في «الجامع» و«الشمائل المحمدية» والبغوي في «شرح السُّنَّة» وغيرهما من الروايات المطوّلة التي أثبتناها من قبل.

(٤) العذق ـ بكسر العين ـ: الغصن من النخل، وهو (الكباسة) و(العرجون) كما هو (القنو) بما فيه من الرطب. وانظر: «النهاية»: (قنا)، «إكمال المعلم بفوائد مسلم»:

لأبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَتُسْأَلُنَّ عَنْ هذا النَّعِيم يَوْمَ الْقِيَامَةِ. أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمُ الْجُوعُ، ثُمَّ لَمْ تَرْجِعُوا حَتَّىٰ أَصَابَكُمْ هذا النَّعِيمُ»[1].



٦/ ٥١٠، «المفهم» للقرطبي: ٥/ ٣٠٦.

(١) وانظر: «إكمال المعلم بفوائد مسلم»: ٦/ ٥٠٩ فما بعد (٢٠٣٨)، «صحيح مسلم بشرح النووي»: ١٣/ ٢١٢ فما بعد (٢٠٣٨)، «المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب

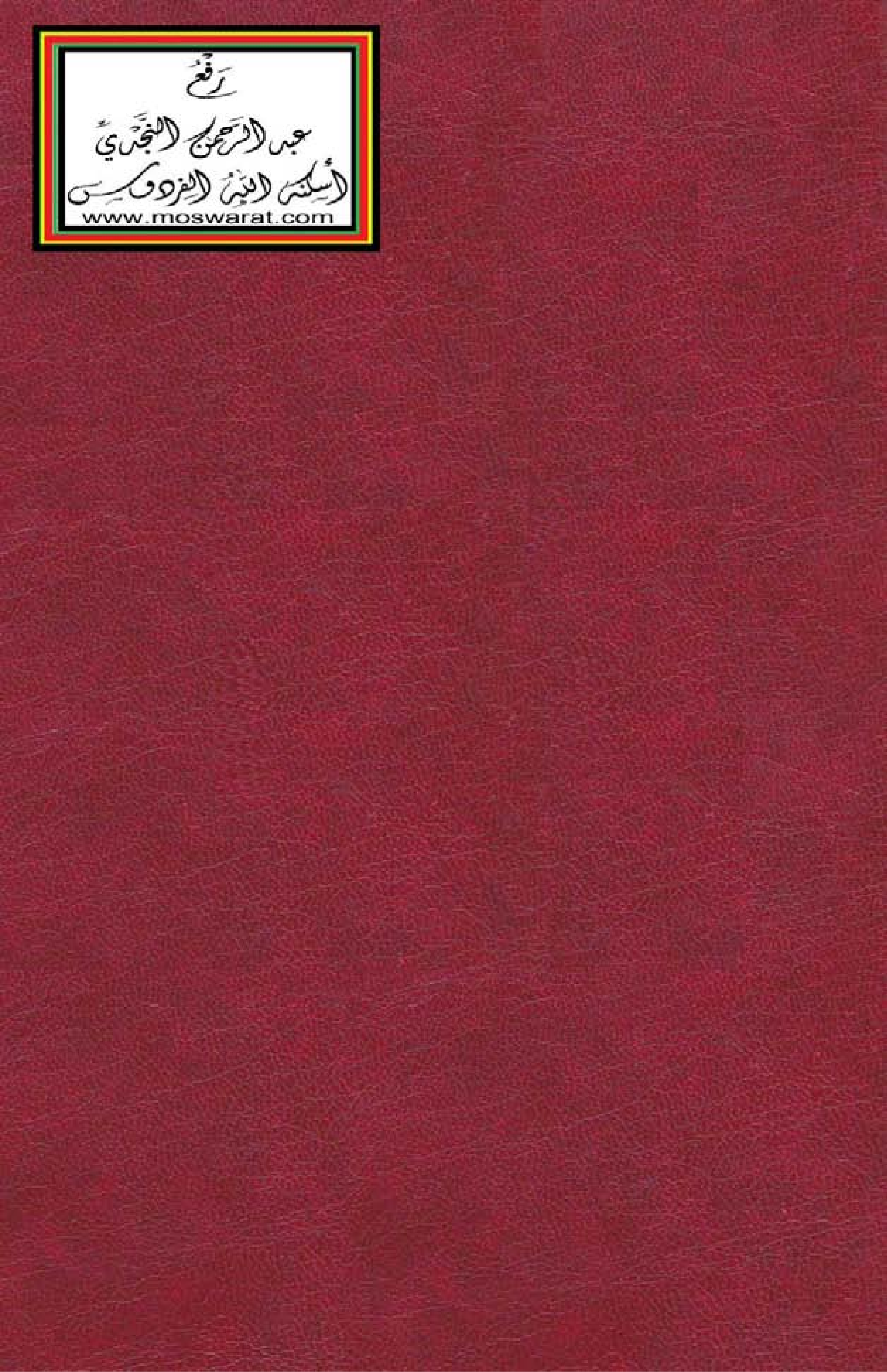


فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com